

Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



الشرق

في سياستهم ، وخصارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم
وصلاتهم بالعرب

للدكتور استدرتم

الجزء الاول

دارالمكشوف

94/9.5
R92
v.1

v.1

12 712 G

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، كانون الاول ١٩٥٥

جميع الحقوق محفوظة

تمهيد

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون. والبيزنطيون عند انفسهم روم ، اي رومان . وعاصمتهم « رومة الجديدة » ، اي القسطنطينية . ولا يزال الروم الارثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني « رومة الجديدة » حتى يومنا هذا .

واللفظ روم في نقوش الصفا امم بلاد واسم شعب . فقد جاء في احد نقوش الصفا ان «عثمن بن طمثن بن عضضة نَقَرَ من « روم » . وجاء في نقش آخر ان « محوّر بن غطفن بن اذنة صَيَّرَ بفتح سنة حَرَبَ الجدي « آل روم » ببصره . » وجاء في القرآن الكريم في سورة الروم : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفليون . »

وأنتفع التواريخ تاريخ الفكر . وألمع فصل في تاريخ الفكر البشري تاريخ الفكر عند اليونان الاقدمين . وفضل فضائل هؤلاء عنايتهم بالانسان وسعيهم لاسعاده سعادة حقيقية . واكبر خدمة قدمها الرومان انهم تبناوا ثقافة اليونان وقالوا بها . وفضل الروم على البشرية انهم حملوا هذه الثقافة وحملوها في عصر الظلمات فحفظوها لنا في نصوصها الاصلية و اضافوا اليها . ولا سبيل لفهم تاريخ العرب فهماً كاملاً الا بالاطلاع على تاريخ الروم .

فما جرى في سوريا والعراق ومصر في السياسة والحرب والحضارة والثقافة
تأثر كثيراً بما كان يجري في القسطنطينية وغيرها من امهات مدن الروم.
والمراجع الاولية لتاريخ الروم متنوعة منها التواريخ التي صنفت في
الازمنة المعاصرة لوقوع الحوادث او بعدها بقليل ، ومنها الرسائل
الدبلوماسية التي تبودلت في تلك العصور بين الروم وغيرهم من الشعوب
والدول ، ومنها القوانين التي اشترعت والنقوش الكتابية التي نُصبت
والنقود التي سكّت ، ومنها كذلك ما صنف خصوصاً للبحث في اخبار
الكنيسة .

وما تبقى من التواريخ محفوظة في مجموعة نيبور - اذا جاز هذا
التعبير ... التي نشرت في تسعة واربعين مجلداً في بون ما بين السنة ١٨٢٨
والسنة ١٨٧٨ . ونصوص هذه التواريخ نفسها محفوظة ايضاً في مجموعة مين
في مئة وواحد وستين مجلداً . وقد نشرت هذه المجموعة في باريز ما بين
السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ . ولا يستغني الباحث عن الرجوع الى مجموعة
توبنر للوقوف على بعض هذه النصوص التاريخية نفسها لانها جاءت في هذه
المجموعة ادق واضبط^٣ . وقد يضطر الباحث الى مراجعة مجموعتي دندورف^٤
ومولتر^٥ او الى نصوص بيوري^٦ ، وقد لا يستغني عن الاستعانة بسير
القديسين فيعود عندئذ الى مجموعة الآباء البولنديين التي بدأت تظهر منذ
السنة ١٦٤٣^٧ .

- | | |
|--|---|
| <i>Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae.</i> | ١ |
| <i>Patrologia Graeca, Ed. Migne ; Indices, Cavallera, 2 Vols., Paris, 1912.</i> | ٢ |
| <i>Teubner, Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Latinarum.</i> | ٣ |
| <i>Dindorf, Historici Graeci Minores, 2 Vols., Leipzig, 1870-1871.</i> | ٤ |
| <i>Muller, Frangmenta Historicorum Graecarum, Vols, IV, V, Paris. 1868-1870.</i> | ٥ |
| <i>Bury, Byzantine Texts, Vols. 1-5, London, 1868</i> | ٦ |
| <i>Acta Sanctorum.</i> | ٧ |

وما تبقى من الرسائل الدبلوماسية التي تبودلت بين حكومة القسطنطينية والحكومات المعاصرة محفوظة في مجموعة ميكلوسينج ومولتر^١ ومجموعة تافل وتوماس^٢. وقد جاءت المجموعة الاولى في مجلدات ستة نشرت في فيينا بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٩٠. وجاءت المجموعة الثانية في ثلاثة مجلدات نشرت في فيينا ايضاً في السنة ١٨٥٦ - ١٨٥٧. وجمع جافي رسائل الباباوات فنشرها في برلين في مجلدين ما بين السنة ١٨٨٥ والسنة ١٨٨٨^٣. وتعاون اساتذة فيينا ومونينخ في ضبط هذه الرسائل واعادة نشرها. فظهر في السنوات ١٩٢٤ - ١٩٣٢ مصنف دولغر في ثلاثة مجلدات^٤. وظهر في السنة ١٩٣٢ الكراس الاول من مجموعة الاب غرومل لبيانات ورسائل البطريركية المسكونية^٥. وافضل ما يرجع اليه في التشريع والقوانين مجموعة مومسن وكروغر وشول في شرائع بوستينانوس - وقد طبعت في برلين في مجلدات ثلاثة ما بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٩٥^٦، ومجموعة زخريا لنغنتال في شرائع الاباطرة المتأخرين. وقد ظهرت هذه المجموعة في سبعة مجلدات في ليزيغ ما بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٨٤^٧.

ولا بد للباحث في تاريخ الكنيسة من الرجوع دائماً الى مجموعة منسي في الجامع. وقد نشرت هذه المجموعة لاول مرة في فلورنزة والبندقية في واحد وثلاثين مجلداً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٥٩ -

- | | |
|---|---|
| <i>Miklosich, F., et Muller, J., Acta et Diplomata Graeca Medii Aevi.</i> | ١ |
| <i>Tafel, G. L. F., et Thomas, G. M., Urkunden zur Alleren Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig.</i> | ٢ |
| <i>Jaffe, P., Regesta Pontificum Romanorum.</i> | ٣ |
| <i>Dolger, Franz., Regesten von Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches von 565-1453.</i> | ٤ |
| <i>Grumel, V., Regestes des Actes du Patriarcat de Constantinople.</i> | ٥ |
| <i>Mommsen, Kruger, Scholl, Corpus Juris Civilis.</i> | ٦ |
| <i>Zachariae de Lingenthal, Jus Graeco Romanum.</i> | ٧ |

١٧٩٨) ، ثم اعيد طبعها ما بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩٢٧ فظهرت في ثلاثة وخمسين مجلداً^١ . هذا ولا يخفى ان مجموعة الآباء اليونان Patrologia Graeca المشار اليها آنفاً تتضمن نصوص اشهر مؤلفات الآباء .

وليس لدينا في نقوش الروم مجموعة كاملة . وافضل ما يرجع اليه مصنف ميله في نقوش جبل آثوس^٢ وكتاب ليففر في نقوش مصر المسيحية^٣ ومجموعة غريغوار في نقوش آسية الصغرى المسيحية^٤ .

واقدم المصنفات العصرية في النقود البيزنطية كتاب سباتيه الافرنسي^٥ الذي ظهر في باريز في مجلدين في السنة ١٨٦٢ . واحداثها عهداً واكملها كتاب روث^٦ في مجموعة النقود البيزنطية في المتحف البريطاني . وقد ظهر هذا ايضاً في مجلدين ولكن في السنة ١٩٠٨ . وليس لدينا في الاختتام البيزنطية سوى مؤلف سلومبرجه^٧ .

والمؤلفات الحديثة التي تبحث في تاريخ الروم كثيرة متنوعة تعد بالمئات . والمقالات التي دجت في نواحي معينة من تاريخ الروم وحضارتهم ونظمهم كثيرة ايضاً . وأولها بعناية الباحث مؤلف كارل كرومباخر الالمانى في تاريخ آداب الروم . فإنه على الرغم من قدم عهد هذا المصنف لا يزال مفيداً جداً في كمية معلوماته ودقتها^٨ ولا يزال تاريخ سقوط

١ Mansi, Joannes Dominicus, Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio.

٢ Millet, G., Inscriptions Chrétiennes de l'Athos, Paris, 1904.

٣ Lefèvre, G., Inscriptions Chrétiennes d'Egypte, le Caire, 1907.

٤ Grégoire, H., Inscriptions Chrétiennes d'Asie Mineure, Paris, 1922.

٥ Sabatier, Description Générale des Monnaies Byzantines.

٦ Wroth, W., Catalogue of Byzantine Coins in the British Museum.

٧ Schlumberger, G., Sigillographie de l'Empire Byzantin, Paris, 1884.

٨ Krumbacher, K., Geschichte der Byzantinischen Litteratur von Justinian bis zum Ende des Ostromischen Reiches, Munshen, 1891, 2 éd., 1897.

الامبراطورية الرومانية لادوارد غيبون مفيداً موقظاً لانه تاريخ كبير
 لمؤرخ عظيم^١. ولنا في كتاب تاريخ الروم حتى نهاية القرن العاشر الذي
 صنفه المؤرخ الفرنسي غوستاف شومبرج قصة مفصلة جذابة ظهرت في
 مجلدات ثلاثة في باريز ما بين السنة ١٨٩٦ والسنة ١٩٠٥. وللاستاذ
 بيوري الانكليزي مصنفان لائقان بالاهتمام اولهما في تاريخ الروم ما بين
 السنتين ٨٠٢ و٨٦٧ وهو افضل ما صنف في تاريخ هذه الحقبة، والثاني في
 تاريخ الروم ما بين السنة ٣٩٥ والسنة ٥٦٥. وقد ظهر في لندن في مجلدين
 في السنة ١٩٢٣. وهو مصنف عادي^٣. على أن افضل المصنفات في تاريخ
 الروم العام اربعة: اولها العالم الشرقي ثم اوروبة الشرقية للعلماء الافرنسيين
 شارل ديل وجورج مارسه ورينه غروسه وغيرهم وقد ظهرت في مجموعة
 غلوتر في السنتين ١٩٤٤ و ١٩٤٥. وثانيها العالم البيزنطي للمؤرخ الافرنسي
 لويس براهيه. وقد جاء هذا في مجلدات ثلاثة في مجموعة تطور الانسانية
 التي يشرف عليها المؤرخ هنري بر^٥. وثالثها كتاب البعثة اوستروغورسكي
 الذي ظهر في مونيخ سنة ١٩٤٠^٦. ولا يخفى ما لهذا العالم من اجحات
 في اقتصاديات الروم واجتماعياتهم. ورابعها واحدها جميعاً من حيث اعادة
 النظر والتنقيح كتاب العلامة الروسي الكسي فزيلييف الذي ظهر اولاً

- Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Ed. J. B. Bury, ١
 7 Vols., London, 1897-1902.
 Schlumberger, G., *l'Epopée Byzantine à la Fin du Dixième Siècle*. ٢
 Bury, J. B., *History of the Eastern Roman Empire from the Fall of ٣*
Irene to the Accession of Basil I, (802-867); Hist. of the Later Roman
Empire from Arcadius to Irene, (395-565.)
 Diehl, Ch., et Marçais, G., *Le Monde Oriental*; Diehl, Ch., *Oeconomos*, ٤
 L., Guiland, R., Grousset, R., *l'Europe Orientale*.
 Bréhier, L., *Le Monde Byzantin*. ٥
 Ostrogorsky, G., *Geschichte des Byzantinischen Staates*. ٦

بالروسية ثم نقل الى الانكليزية والافرنسية . وقد اعيد طبعه بالانكليزية
باشراف مؤلفه الذي يجيد هذه اللغة في السنة ١٩٥٢ . وذلك في مديسن
من اعمال ولاية وسكونسن الاميركية .

وهناك اجاث عديدة هامة في مواضع خصوصية متنوعة اشير اليها في
هامش هذا الكتاب فلتراجع في محلات وقوعها .

وفي الختام لا بد لي ، قضاء لحن الصنيعة ، من اسداء عاطر الشكر
لحضرة الاديب المدقق الاستاذ رثيف خوري الذي بذل بسخاء من وقته
لمطالعة مخطوطة هذا الكتاب كلمة كلمة وحرفاً حرفاً فأبدى ملاحظات
قيّمة في المعنى والمبنى . وكذلك لا بد لي من الاعتراف بفضل حضرة الاديب
الشيخ فؤاد حبيش الذي شجعني على نشر هذا الكتاب .

ولن أنسى عطف مؤرخ بيروت الاكبر العلامة الاب رينه موترد
اليسوعي ، وتشجيع صديقي الاستاذ فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة
البنانية ، ومعونة زملائي فيها الاستاذ بطرس البستاني والامير موريس
شهاب والدكتور بطرس ديب . وقد اقيمت في شخص رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الاميركية الدكتور نقولا زيادة وفي الاستاذين
الدكتورين جبرائيل جبور وانيس فريجة اصدقاء مخلصين مضعين . وهل
أنسى ما عانتة زوجتي وشريكة حياتي من مشقة في تأمين راحتي
وانقطاعي لهذا العمل زهاء سنتين كاملتين !

وكان الفراغ من تأليفه في رأس بيروت في الثالث والعشرين من
تشرين الاول سنة ١٩٥٥ .

اسر رسم

الباب الاول

المقدمة

•

الفصل الاول

تقهقر رومة الداخلي وازمة القرن الثالث

النظام الكولوني وتأخر الزراعة : كان من جراء التوسع العسكري الروماني ان تعاضم كسب قادة الجيش وضباطه وحكام الولايات وكبار الموظفين فعادوا الى اوطانهم متمتعين بجميع ضروب التمتع والترف ، مشبعين بغطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية . ولم يكن في نظر الرومانيين ليليق بشيوخهم وعظماهم ووجوههم ان يتعاطوا التجارة او الصناعة ، فتهاقت الاغنياء والكبراء على اقتناء المزارع يضمون بعضها الى بعض ، فيكوّنون منها مزارع مترامية متسعة ، ويستاقون اليها من ملكت ايمانهم من الارقاء . ولم يقوَ المزارع الصغير على مزاحمة جاره الكبير فضم ارضه الصغيرة الى ارض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الابد . ومع ان هذا النظام الكولوني لم يجعل منه رقيقاً لسيدته فانه فقد حريته ان يذهب حيث يشاء . وتعددت هذه المزارع الضخمة في ايطالية وصقلية واسبانية ،

ولم يبقَ من المزارع الصغيرة القديمة الا نثر يسير .
وكانت حياة الرقيق في هذه المزارع شاقة تعسة . فانه كان يُحشر
ليلاً في الثكنات حشراً ويُساق نهراً الى الحقل سوقاً . وكان يكوى
بماسم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار . فنفر الرقيق من صحبة
سيده وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وامانة . واضطر سيده ان
يكلفه من العمل انواعاً معينة ، تلك التي لا تتطلب الكثير من
الامانة والاخلاص ، فحمله على تربية المواشي ورعايتها . فتضاءلت على
الايام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار بعض الاراضي
وترك لينبت فيه العشب فترعاه تلك المواشي . واعتمدت رومة على قمح
مصر وحبوبها لتغذية ابنائها وابناء المدن الايطالية الاخرى ، وحذرت تصدير
هذه الحبوب الى اي مكان آخر . وسمّ المزارع الكولوني هذا النظام ،
فهجر الارياف وازدحم في المدن ، ولاسيما رومة ، ونافس غيره من الفقراء فيها
على نصيب يناله معهم من احسان الدولة . وكانت رومة قد اخذت تقل
حروبها منذ عهد اوغوستوس قيصر فيتناقص معها عدد الاسرى . وقلت
اليد العاملة . فبارت الارض لهذا السبب ايضاً . وضعف الانتاج الزراعي .
عداء مزمن بين الاغنياء والفقراء : وثار العبيد الارقاء قبل
اوغوستوس اكثر من مرة ، ودامت ثورتهم الثالثة بقيادة اسبارتاكوس
سنتين (٧٣ - ٧١ ق.م) ، وانتقضوا على سادتهم في صقلية وقتلوه
واعلنوا استقلالهم عن رومة . ونفر اصحاب الحقول الاحرار في ايطالية
وغيرها واحرقوا المزارع الكبيرة التي انشأها كبار الملاكين . فكان هذا
كاه مظهراً للضعف في الصدور بين الاغنياء والفقراء . ولم ينتهِ صراع
العبيد والفقراء بانتصار ليكينيوس كراسوس على اسبارتاكوس ، بل

استمرّ متقطعاً ما دامت الامبراطورية الرومانية . ومن هنا قول
ماكروبوس الفيلسوف السياسي الذي عاش في القرن الخامس بعد الميلاد :
« عبيدنا اعداؤنا » . وكان كلما صرع سيد بيد مجهولة اتهم بقتله ارقاؤه
وقاسوا من جراء ذلك شتى الوان العذاب وربما فقدوا الحياة .

ولا يخفى ان رومة ميزت في شرائعها بين فصيلتين من الرقيق :
ارقاء الارياف ، وارقاء المدن . وكان هؤلاء يشملون في عدادهم الخدم
والحشم والاطباء والاساتذة ورجال الفن والقلم وحاشية الاباطرة وكبار
الرجال في السياسة والحرب . ولما كان الجهاز الاداري مربوطاً بشخص
الامبراطور فانه اصبح منذ عهد كلوديوس يعج بهؤلاء الارقاء من رجال
الاباطرة . بيد ان الارقاء لم ينظموا صفوفهم ولم يكن لديهم في وقت
من الاوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه . وجل ما بلغوا اليه
انهم كرهوا اسيادهم ، وثاروا في وجههم ، وتمنوا زوال نعمتهم وذلك
بمركات متفرقة في غالب الاحيان .

تأخر الصناعة والتجارة : وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق
والغرب الى توسع مماثل في افق ابناءها العاملين في حقلتي الصناعة والتجارة .
فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون اموالهم فيها . وقام من
ابناء هذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم
وانتاجهم . فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات ، واخذت آسية
الصغرى مثلاً تصدر ذرتها وخمرها وسمكها المجفف ومنسوجاتها الصوفية
وصباغها الارجواني . وعاد زجاج الساحل اللبناني الى سابق تفوقه ، ومثله
كتان هذا الساحل وحريره ووصوفه المصبوغ . وعادت الجاليات اللبنانية
السورية الى سابق عهدها في الغرب توزع بضاعة البلد الام في ايطالية

وصقلية وغالية ووادي الرين وبريطانية ، وظهرت نشيطة قوية في تراقية ووادي الدانوب الاسفل وجنوبي روسية . ومع الزمن فقدت ايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كانت قد كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وانتاجها الصناعي الذي كانت تنتجه بالكميات الكبيرة قلّ وتدنى فاصبح في مستهل القرن الثالث بعد الميلاد انتاجاً افرادياً قليلاً . وقلّ الدخل عموماً فقل دخل الدولة ، والتجّأ الاباطرة الى غش العملة فاصبحت هذه في عهد مرقوس اوريليوس مغشوشة بمقدار ربع وزنها . وبعد جيلين فقط لم يبقَ في النقود الفضية اكثر من خمسة في المئة من زنتها فضة .

انحطاط الجيش : وكانت الخدمة العسكرية في اوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين اولئك الذين ملكوا ارض رومة وسنوا شرائها . وكان على كل جندي ان يقسم بكل وقار واحترام بين الطاعة لقادته والولاء للامبراطور والامبراطورية . وجاء يوليوس قيصر فمنح حقوق المواطن الروماني بعض وجوه الولايات واعيانها ممن لمس فيهم الولاء والاخلاص لرومة وامبراطوريتها . وقضت ظروف الفتح والتوسع بتكبير الجيش فجندت رومة ابناء الولايات في وحدات « مساعدة » . وفي ايام ادريانوس وخلفائه تساهلت رومة فمنحت كل من لمست فيه استعداداً لتفهمها والامتزاج بابنائها هذا الحق الكبير . ثم جاءت يولية دمنة المحمية وابنها كركلا فاباحا هذا الحق في السنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية . فأصبح الجيش والحالة هذه مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر المتوسط . وأدى التوسع العسكري الكبير الى تغيير آخر في الجيش ، فالحدود الشاسعة الطويلة والاعمال الحربية المتتالية المتتالية قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والتأخر الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية ان تقطع

جنود الحدود اراضي يحرثونها وان تميز لهم ان يتأهلوا وان يقيموا في
اكواخهم قرب الحدود. ففضى الجنود حياتهم باكملها في خدمة
العلم واصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها ، لا جيشاً شعبياً يقوم بخدمة
الدولة .

ومما عجل كثيراً في انحطاط الجيش ان اوغوستوس قيصر لم يعن
باجاد طريقة قانونية لانتخاب الامبراطور تنتقل سلطة الامبراطور بموجبها
من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . فنتج عن هذا الخلل
انه أصبح في طاقة الجند ان يختاروا من يرضون عنه وان يعزلوه وان
يعينوا غيره مكانه كما امسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام .

الامبراطور : وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً
خوّل سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة . وكانت هذه
السلطة او هذه القيادة تنتهي بانتهاء الحرب . وكان مجلس الشيوخ يقيم
في ظروف معينة اكثر من قائد واحد في وقت واحد . ثم جاءت
الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها فوكت رومة القيادة الى
رجل واحد طوال عمره . وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظل هذا
الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته . وبقي هو ممثل الجمهورية^٢ الاوحد .
واستحق لقب اوغوستوس اي قديس لانه كان في نظر الرومانيين رمز
الهة رومة الحي^٣ . ويرى بعض رجال الاختصاص ان سلطة الامبراطور
كانت في البدء سلطة عسكرية لانها لم تطبق قبل عهد سيلتيوس
سوبروس الا في خارج رومة وفي خارج ايطالية . ويرون ايضاً ان سائر

Imperium.

١

Respublica.

٢

Dea Roma.

٣

اللائقاب التي حملها الاباطرة الاولون لم تزدهم سلطة ابداً .
وتقادت المجالس القوميسية ٢ في رومة واصحابها الهرم . فانحصرت
السلطة التشريعية بيد مجلس الشيوخ ٣ وكذلك ادارة الدولة وفرض
الضرائب فيها وجبايتها . ولو دام هذا الحصر لصح القول بان الدولة
الرومانية كانت ارستوقراطية يرأسها ديكتاتور عسكري . ولكن شيئاً
من هذا لم يكن . فالامبراطور كان منذ البدء قد ساطر مجلس الشيوخ
السلطة في الولايات . فترتب عليه منذ بداية الامبراطورية ان يكون
لديه حكام وان يفصل بين ماليته ومالية الدولة . ولما كانت القوة العسكرية
بيده كان من الطبيعي جداً ان يتناول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق
سلطته وان تتدرج الدولة الرومانية في سلم الملكية .

وحاول الامبراطور الروماني اللبثاني سويروس الكسندروس
(٢٢٢ - ٢٣٥ ب . م) الذي نشأ وترعرع في عرقة عكار ان يعيد الى مجلس
الشيوخ حقوقه المسلوبة ، فشاور المجلس في جميع اعماله وطلب اليه انتقاء
كبار الموظفين في رومة وفي الولايات وتقديم الاكفاء لجميع الوظائف
الاخرى . ورقى حكام الولايات الى رتبة عضو في مجلس الشيوخ كي لا
ينظر في امرهم من كان دون هذه الرتبة . وبعبارة وجيزة حاول الا
يفعل شيئاً يعكر صفو العلاقات بينه وبين مجلس الشيوخ .

وعني سويروس الكسندروس بشؤون الجيش فراقب عن كثب حركات
الوحدات وأمن العدل بينهم وأقطعهم الارض عند الحدود وزودهم بالمواشي
والارقاء لحراثتها وزرعها شرط ان يدخلوا ابناءهم في الخدمة بعدهم .

Pontifex Maximus, Princeps Senatus.

١

Camice.

٢

Senatus.

٣

ولكنهم لم يرضوا عن المفاوضات التي اجراها مع القبائل الالمانية عبر الرين في السنة ٢٣٥ واخذوا عليه انقياده لوالدته ففاوضوا مكسيميانوس مدرب الجيش وكانوا قد احبوه لشجاعته وكرمه . وقتلوا الامبراطور ووالدته ونادوا بمكسيميانوس امبراطوراً . فدخلت الامبراطورية الرومانية في ازمة سياسية مخيفة كادت تمزقها تمزيقاً وتهوي بها الى الحضيض . وانكشف ضعفها وتبين ان اوغسطس قيصر ذلك المصلح الكبير لم يوفق الى طريقة قانونية لانتقاء الامبراطور تنتقل بموجبها سلطته من سلف الى خلف دون ما يخلل يقطع الاستمرار . وتبين ايضاً ان الجيش بعد ان انفصل عن الشعب الروماني واصبح خليطاً من كل من هب ودب بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالاشتراك مع مجلس الشيوخ وان هذه السلطة اصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش كما سبق ان اشرنا .

أزمة القرن الثالث : وهب مكسيميانوس (٢٣٥ - ٢٣٨ ب. م.) وكان عملاقاً في جسمه يتابع الحرب فيما وراء الرين . ولكن الجنود في افريقية لم يرضوا عنه فاعلنوا غورديانوس الاول امبراطوراً في السنة ٢٣٧ وكان هذا قد ناهز الثمانين من العمر فأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم معه . وقاومهما والي موريتانية (الجزائر) فقتل غورديانوس الثاني في ميدان القتال وانتحر والده العجوز . وثار جنود مكسيميانوس في وجهه فقتلوه في اثناء حصار اكويلية في ولاية البندقية . وتدخل مجلس الشيوخ فانتخب بوبيانوس وبليينوس فغورديانوس الثالث حفيد الاول نزولاً عند رغبة الشعب ، ولكن الحرس الامبراطوري قتل الاولين وابقى غورديانوس الثالث حفيد غورديانوس الاول وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره (٢٣٨ - ٢٤٤) ثم خرّ صريعاً في السنة ٢٤٤ بيد قائد الحرس . وكان قد اضطر غورديانوس الثالث ان يشرك فيلوبوس العربي معه في الحكم في السنة ٢٤٣ نزولاً عند رغبة جنود الشرق فعقد هذا صلحاً مع الساسانيين

وهرول الى رومة وتسلم ازمة الحكم فيها (٢٤٤ - ٢٤٩ ب . م) . وبما
يروى عنه انه تقبل النصرانية سراً . وفي السنة ٢٤٩ انتقض الجند في
مناطق الدانوب فأرسل فيلوبوس العربي القائد ديقوس ليخمد ثورتهم .
وما ان وصل اليهم حتى نادوا به امبراطوراً (٢٤٩ - ٢٥١) فحارب فيلوبوس
وقته في موقعة فارونة . وقام ديقوس يحارب القوط في البلقان في السنة
٢٥١ فسقط في ميدان القتال في ما وراء الدانوب . فنادى الجند بغالوس
امبراطوراً (٢٥١ - ٢٥٣) واشرك هذا هوستيليانوس بن ديقوس في الحكم
معه ثم قتله . وعم داء الطاعون في اثناء حكمه جميع انحاء الامبراطورية
فزاد في الطين بلة . ثم عهد اميليانوس هذا وهو قاهر القوط الى خلع
الامبراطور في السنة ٢٥٣ فحل محله ولكن الجنود قتلوه بعد اربعة اشهر
من الحكم ونادوا بفاليريانوس امبراطوراً بعده (٢٥٣ - ٢٦٠ ب . م)
فأشرك هذا ابنه غالينوس في الحكم معه وقاما يحاربان قبائل الافرنج في غالية
والالمانى في شمالي ايطالية والقوط عند الدانوب والساسانيين عند الفرات .
وفي اثناء حصار الرها في السنة ٢٦٠ وقع فاليريانوس اسيراً في يد سابور
وتوفي اسيراً . وتابع غالينوس الحكم بعد ابيه (٢٦٠ - ٢٦٨) وجابه ما
كان اشد هولاً : ضغط البرابرة ولاسيا القوط الذين انتقضوا من البحر
الاسود بمراكبهم الحاطقة ، وظهور عدد كبير من المنافسين . فدخلت
الامبراطورية في فترة الطغاة الثلاثين واشهرهم تتريقوس في غالية واسبانية .
ولا يجوز القول ان أذينة العربي كان منهم لانه حافظ طوال عهده على
الولاء القانوني الشكلي لغالينوس . واعتبره هذا شريكاً له في الحكم .
وسقط غالينوس محارباً ضد اوربولوس في السنة ٢٦٨ . ولكن الجنود
نادوا بكلودئوس الثاني (٢٦٨ - ٢٧٠) امبراطوراً فقتل هذا اوربولوس
وقهر الالمانى والقوط ولكنه توفي بالطاعون فخلفه اوريليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥)
اذ نادى به جنوده امبراطوراً . وصالح القوط وتنازل عن حقوق رومة

في ما وراء الدانوب واخضع زينب ، ثم قهر تتريقوس في غالية واتخذ لنفسه لقب معيد الدولة العالمية ولكنّه قتل في حملة قام بها على الساسان فأنتخب مجلس الشيوخ تسيتوس امبراطوراً بايعاز من الجند (٢٧٥) . وتوفي هذا بعد ثلاثة اشهر في اثناء الحملة التي شنّها على قبيلة الالاني في آسيا الصغرى . ولم يفلح اخوه في تسنم الحكم بعده لانكساره امام بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢ ب . م) . وردّ بروبوس هجمات الافرنج والبورغنديين والالاماني والفندال وشغل الجنود بتجفيف المستنقعات وانشاء الترع وبناء الطرق فشاروا عليه وقتلوه . فتولى الامر بعده قائد الحرس كاروس (٢٨٢ - ٢٨٣) ولكن صاعقة اصابته بعد ان احتل طيسفون عاصمة ساسان . فخلفه ابنه نورميانوس (٢٨٤) ولكنه قتل بمؤامرة والد زوجته كارينوس الذي طمع في ملك صهره فلم يفلح لان الجند كانوا قد نادوا بدوقليتيانوس الشهر (٢٨٤ - ٣٠٥)^٢ .

غزوات الشعوب الجومانية : وكان يقطن المانية وسائر اوروبة الشمالية برايرة من الجنس الهندي الاوروبي سقر الشعور زرق العينين طوال القامة لم يرتقوا كثيراً منذ عهد انسان العصر الحجري . وكانت كل قبيلة منهم تقيم في منطقة محدودة لا يتجاوز قطرها ستين كيلو متراً ، ولا يزيد عدد نفوسها عن خمسة وعشرين الفاً او ثلاثين . وكانوا يقيمون في قرى تضم كل واحدة منها مئة عائلة . وكانت المنازل التي يسكنونها اكواخاً حقيرة يسهل نقلها . وكان السكان على وجه الجملة لا يرغبون في

Restitutor Orbis.

١

Maximianus Gordianus, Pubienus Maximus, Calius Balbinus, Philippus ٢

Arabs, Decius, Gallus, Aemilianus, Valerianus, Gallienus, Tetricus, Claudius, Aurelianus, Tacitus, Probus, Carus, Numerianus, Carinus, Diocletianus.

الفلاحة والزراعة، بل كانوا يؤثرون رعاية المواشي وتربيتها. وكانوا يجلبون الكتابة تماماً ولا يتعاطون التجارة الا قليلاً. وكانوا اقوياء البنية ذوي بأس وجلد يميلون الى الحرب والغزو والنهب ويتنقلون من مكان الى آخر يتبعهم نساؤهم واولادهم في مركبات ضخمة. وكانوا يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها عناية فائقة.

وكانت رومة قد جعلت من الرين والدانوب وما بينهما حدوداً فاصلة بينها وبين هذه القبائل وحصنت هذه الحدود واقامت عليها فرقاً تحميها. ولكن هذا كله لم يمنع تسرب جماعات من الجرمان الى داخل حدود الامبراطورية واغوسطوس نفسه كان قد اذن لبعض هؤلاء بالبقاء داخل الحدود. وكان يوليوس قيصر من قبله قد ادخل الجرمان في خدمة الجيش ولاسيما فرق الحياالة. وكان قد ادى التقهقر الاقتصادي وقلة اليد العاملة الى قبول بعض العناصر الجرمانية في المزارع الكبيرة كما ادى ضعف الحكم عموماً الى التساهل مع بعض القبائل الجرمانية تدخل برمتها البلاد ويستخدم رجالها في الجيش جنوداً مرتزقة.

وفي اوائل القرن الثالث بعد الميلاد كانت قبيلة الافرنج لا تزال مرابطة عند ضفاف الرين الاسفل ووراءها الى الشرق قبيلة السنسبون فالسويبي فالنندال وجميعها في شمالي المانية. وكانت قبائل الالماني مرابطة بين الدانوب والرين الاعلى. وكانت قبائل القوط قد نزحت عن البلدان الاسكندنافية منذ نهاية القرن الثاني بعد الميلاد وحلت ضيوفاً ثقيلة على الالاني والسرامطة في جنوب روسية. فأقام القوط الشرقيون بين نهري الدينير والدينستر والقوط الغربيون في مانسميه اليوم رومانية والمجر. وادى ضعف الدولة الرومانية واضطراب احوالها الى تيقظ هذه القبائل واشتداد طمعها. فحاول بعضها قطع الحدود الرومانية فزادوا الامبراطورية بعملهم هذا انهاكاً وتعباً وتقهقراً.

وفي ربيع السنة ٢٦٧ بعد الميلاد احتشد عدد غير من القوط وغيرهم من قبائل الدانوب وجنوبي روسية عند مصب نهر الدنيستر. فأبحر بعضهم على متن بضعة آلاف مركب صغير واتجهوا جنوباً ولحق بهم الباكون برآء. ونزل بعض البحريين منهم في بيثينية وتوغلوا في آسية الصغرى، وتابع الباكون سفرهم البحري فدخلوا البوسفور وحاولوا اقتحام بيزنطة لكنهم لم يفلحوا فاستأنفوا رحلتهم الى بحر ايجيه فغزوا ثيسالونيكية وكسندرية وسائر سواحل اليونان، وبلغ بعضهم الى كريت ورودوس وقبرص. فتصدى لهم بروبوس حاكم مصر عند بامفيلية بما جمع من سفن رومانية وردمهم على اعقابهم. وفعل مثل هذا أذينة العربي في آسية الصغرى. وهب الامبراطور كلوديوس الى محاربتهم في البلقان فسجل انتصاراً كبيراً بالقرب من نيش وقتل منهم خمسين الفاً وطارد الباقين عبر مقدونية فهلك بعضهم بالطاعون ودخل الباكون في خدمة الجيش الروماني. ونال كلوديوس بحق لقب « قاهر القوط » وتعددت هذه الهجرات البربرية وتعاقت طوال هذا القرن.

الافلاطونية الجديدة: وأدى تقهقر رومة الداخلي الى نزعات جديدة في الفكر. فدفعت الفوضى والحروب والابوثة وما تبعها بعض رجال الفكر الى الابتعاد عن هذا العالم الفاني والتأمل في عالم ازلي ملؤه الخير والجمال. فعكف عدد من رجال الفلسفة على فيثاغورس زاهدين ورعين مستوحين قائلين بالسحر والعرافة جاعلين من بعض حلقاتهم انتداءات سحرية. فظهرت فيثاغورية جديدة قال بها فلاسفة في الشرق والغرب معاً. ودعا آخرون الى أفلاطون ووجدوا في كتابه الطيماوس Timaeus قوتاً قامت به انفسهم فانتعشت. فأكدوا قوله بالواحد الاوحد. وقالوا

بالتنائية الافلاطونية ففرقوا بين النفس والجسد . وجعلوا من خيال افلاطون في الحياة بعد الموت عقيدة . وتقبلوا نظريته في الوسطاء بين الله والبشر Daimones . واكدوا ان رائد الانسان انما هو ان يصير مشابهاً لله . فظهرت افلاطونية جديدة كان لها شأن كبير في عالم الفكر حتى اوخر القرن الخامس^١ .

وأول من اشتهر بالافلاطونية الجديدة نومانوس فيلسوف ابامية بين حماة والمعرة . ولا نعلم الشيء الكثير من اخباره . ويجوز القول انه علم في النصف الثاني من القرن الثاني . وان أفلوطين اعتمد عليه فيما يظهر . وكتب نومانوس في « مذاهب افلاطون السرية » فشرح ما جاء عن النفس في فيدروس وفي الجمهورية . واطلع على حكمة اليهود وتعاليم المسيح فأولها . ورأى في افلاطون موسى فدعاه موسى اليوناني واعتبره نبياً . ورأى ان الوجود منقسم الى مملكتين مملكة العناية ومملكة المادة . وان المادة اصل الشرور والمفاسد . وانه ليس يليق ان نعزو صنع العالم الى الاله الاعلى وان الابن هو الصانع الذي نظم الكتلة المادية يتأمل النموذج تارة ويتحول عنه طوراً ليحرك الفلك فيصير حينئذ النفس الكلية^٢ .

واشهر المؤسسين في هذا الحقل افلوطين Plotinus . ولد في مصر في ليقوبوليس في السنة ٢٠٤ بعد الميلاد . وبدأ دروسه الفلسفية في سن متقدمة في الثامنة والعشرين في مدينة الاسكندرية . ولكن ما لقيه في هذه الدروس خيب امه واعترف بذلك الى احد اصدقائه فقدمه هذا فوراً الى امونوس سكاس . فعادت وغبته اليه . وبعد ان قضى احدى عشرة سنة

Nock, A.D., *Paganism in the Roman Empire*, *Cam. Anc. Hist.* ١
XII, 438 ff.

٢ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

Leemans, E.A., *Numenius (Collection of Fragments)* Brussels, 1937.

في معية هذا المعلم علم ان الامبراطور غورديانوس فتح ابواب هيكل يانوس في رومة ليعلن الحرب على ساسان . فصمم الفيلسوف الطالب على الالتحاق بهذه الحملة العسكرية ليسمع عن فلسفة الفرس والهنود . والتحق بجيش غورديانوس ووصل معه الى الفرات . ثم تمرد الجنود واغتالوا الامبراطور عند دورة ، فعاد افلوطين الى انطاكية (٢٤٤) وزار ابامية ليطلع عن كذب على فلسفة نومانوس . ثم قام من انطاكية الى رومة وبدأ يعلم فيها . وتميز بسمو اخلاقه ونفاذ بصيرته فصادف نجاحاً ، واقبل على الاخذ عنه عدد من افراد الاسر الممتازة .

وكان قد قام في الاسكندرية في القرن الاول بعد الميلاد فيلون اليهودي وجمع بين الحكمة اليونانية والديانة الاسرائيلية فاستند الى نظرية افلاطون في الكلمة فجعلها متوسطة بين الاله والعالم ، وقال ان الاله هو سبب الكلمة وان الكلمة هي علة الروح وان الروح تحرك العالم باسره وتشيع فيه حكمة الخالق . وكان افلاطون قد فرق بين الخير الاعلى والعقل والنفس . وكان ارسطو قد جعل الاله عقلاً محضاً . وكان الرواقيون قد قالوا ان الله هو روح العالم . فأخذ فيلون من هؤلاء جميعاً وقال ان الواحد هو مبدأ كل شيء وانه الاقنوم الاول وان العقل هو الاقنوم الثاني ولكنه دون الواحد في الكمال وان الاقنوم الثالث هو النفس . وقال ان الواحد هو الخير الذي يفيض عنه الوجود من غير ان ينقصه هذا الفيض شيئاً والوجود يفيض عنه لجوده كما تفيض الحرارة عن النار والنور عن الشمس . وقال : كما ان كل شيء يصدر عن الواحد فكذلك كل شيء يعود اليه . والنفس ايضاً تعود الى خالقها عن طريق الرياضة

*Bibez, J., Lit. and Philosophy in the Eastern Half of the Empire, 1
Cam. Anc. Hist. XII, 621 ff.*

والتأمل والاستغراق والغيبة عن الوجود^١.

واظهر تلاميذ افلوطين بورفيربوس السوري (٢٢٣ - ٣٠٥) . ولد في البثينة من اعمال حوران وتعلم في صور ثم درس الفلسفة على لونجينوس الحمصي في اثينة . فاعجب لونجينوس بشغفه بالعلم ومواهبه النادرة وكان يدعى مالكا فأطلق عليه لونجينوس اسم « الارجواني » بورفيربوس . وفي السنة ٢٦٣ قام الى رومة فلزم افلوطين فيها واتبع طريقته . واعجب به افلوطين . وكان المعلم يمقت البيان ويستثقل العناية بالجميل والالفاظ . وادرك الحاجة الى اعادة النظر فيما كتب فوكل ذلك الى تلميذه بورفيربوس . فقبل التلميذ المهمة ولكنه لم ينفذ شيئاً منها الا بعد وفاة معلمه والحاح طلاب الفلسفة . فدوّن حياة استاذه وجمع محاضراته في مجلدات ستة عرفت بـ « الاقسام » Ennead التاسوعات وشرّحها^٢ . ووضع « المدخل الى المعقولات » آخذاً عن التاسوعات و « المدخل الى مقولات ارسطو » اي كتاب الياساغوجي . واشتهر بكتابه ضد النصرانية وجعله خمس عشرة رسالة فانقد نسب السيد كما جاء في متى ، وادعى ان الاناجيل الاربعة متناقضة وان بطرس وبولس غير متفقين في رسائلهما ، وهاله عبث المسيحيين بالتراث الثقافي الديني اليوناني^٣ .

وقام في النصف الثاني من القرن الثالث في خلقيس (مجدل عنجر لبنان) ميمليخوس العيطوري يدعو الى الافلاطونية الجديدة ويدافع عنها . وهو تلميذ بورفيربوس اخذ عنه في رومة ودرس الرياضيات على اناتوليوس وعاد

١ من افلاطون الى ابن سينا للدكتور جميل صليبا ص ٣٤ - ٣٥ .

٢ Henri, P., Enseignement de Plotin, Bull. Acad. Belge. Lettres. 1937, 310 ff.

٣ Bidez, J., Vie de Porphyre, Ghent, 1918.

الى بلاده يعلم في ابامية وفي مجدل عنجر . فقال بصدور الموجودات بعضها
عن بعض . ورأى ان افلوطين حين سمى الواحد الاوحد خيراً بالذات فقد
حبسه بصفة فوضع فوقه واحداً غير معين ووضع بعده العالم المعقول فأصبح
لديه حدود ثلاثة . وجعل العالم المعقول ثلاثة حدود ايضاً العقل والصانع
وبينهما القدرة الالهية . وجعل للعالم الاستدلالي ثلاثة حدود اخرى الاب
والقوة والفهم .

الفصل الثاني

ظهور النصرانية وانتشارها

(٣٠ - ٣٩٥ ب. م)

الرسول والتلاميذ والاخوة : توفي السيد في السنة ٣٠ بعد الميلاد . وتابع اتباعه الطقوس الاسرائيلية الشائعة آنئذٍ . فتبعوا في هيكل سليمان . وتجمعوا في اروقة . وكانوا جميعهم يهوداً من الطبقات الوضيعة تجمعوا من اورشليم ومن الجليل ومن سائر انحاء فلسطين . وكان بعضهم من يهود البنونط ومن قبدوقية ومصر وليبيية والقيروان : وكان بينهم بعض اليهود العرب ايضاً . وكانوا يعقدون من آن الى آخر اجتماعات خاصة تغمرهم فيها محبة قوية ويتناولون في اثناءها طعاماً مشتركاً . وكانوا رسلاً وتلاميذ بالنسبة لمعلمهم ، واخوة بالنسبة للمحبة المتبادلة بينهم . ولم يعتبروا انفسهم في هذه المرحلة الاولى مذهباً خاصاً من مذاهب اليهود ولا كنيسة من كنائسهم . والكنيسة في عرف اليهود آنئذٍ جماعة قليلة من اليهود يتبعون مستقلين عن الجماعة الكبرى .

ولا نعلم عدد المسيحيين في هذه الفترة الاولى من تاريخهم بالضبط . فهم مئة وعشرون في الفصل الاول من سفر اعمال الرسل ، وخمس مئة في الفصل الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس ، وثلاثة آلاف بعد عظة بطرس الاولى ، ثم خمسة آلاف في الفصل الرابع من سفر

الاعمال ، وذلك بين السنة ٣٥ و السنة ٣٧ بعد الميلاد . وليس لدينا من الادلة التاريخية الواضحة الراهنة ما يمكننا من وصف نظمهم وصفاً كاملاً . ولكن هنالك ما يدل على تقدم الرسل الاثني عشر بينهم ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء . وهنالك ايضاً ما يدل على نفوذ كلمة بطرس ويوحنا ابن زبدي ويعقوب اخي الرب . وكان يعقوب بموجب رواية القديس يوسيبوس ١ نافذ الكلمة محترماً جداً نظراً لزهده وورعه الشديد ، اكتب الركبتيين من كثرة الركوع ، لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، وليس لديه سوى رداء واحد .

ومارس المسيحيون في هذه الفترة نفسها طقوساً ثلاثة : المعمودية ووضع الايدي والشركة . فكان على مستجد يقبل الدعوة ان يتعمد باسم يسوع المسيح وان يُبارك بوضع الايدي وان يمارس الشركة وكسر الخبز ٢ . وجاء في الفصل الرابع من سفر اعمال الرسل ايضاً انه كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، وانه لم يكن احد يقول ان شيئاً من امواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . وانه لم يكن فيهم احد محتاجاً لان كل الذين كانوا اصحاب حقول او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويضعونها عند ارجل الرسل . فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج .

اليهود : وعلى الرغم من تمسك المسيحيين الاولين بالناموس والانبياء عملاً بقول السيد ان السماء والارض تزولان ولا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس ، فان كرزهم بيسوع مسيحاً اخرجهم في

١ المؤرخ الاول للكنيسة واسقف قيصرية (٢٦٥ - ٣٣٩ م .) .
٢ فقبلوا كلامه واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس وكانوا يواظبون على تعليم الرسل الشركة وكسر الخبز والصلوات . - اعمال الرسل ٢ : ٤١ - ٤٣ .

نظر اليهود على الله والناموس . واشتد نشاطهم وكثر عددهم فشكاهم
الصدّيقون الى المجمع وطلبوا الى رئيس الكهنة ان يوقف الرسل ففعل .
ثم طلبهم الى المجمع وقال لهم : ألم نوصمكم الا تعلموا بهذا الاسم ؟ فاجاب
الرسل : ينبغي ان يطاع الله اكثر من الناس . ان اله آبائنا رفع يسوع
رئيساً ليعطي اسرائيل التوبة ومغفرة الخطايا ! فلما سمع اعضاء المجمع هذا
القول حنقوا وارادوا ان يقتلوه . فقام نملائيل الفريسي واوصى بالاعتدال .
فاكتفى المجمع بجلد الرسل ثم اطلقهم . فخرج الرسل فرحين وعادوا الى
التبشير . وحوالي السنة ٣٦ بعد الميلاد طلب المجمع اسطفانوس للمثول
امامه بتهمة التجديف على موسى وعلى الله . فقال في الدفاع عن نفسه
قوله الماثور : يا قساة الرقاب انتم دائماً تقاومون الروح القدس . ايُّ
الانبياء لم يضطهده آباؤكم ؟ اخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه^١ .
فصرّوا باسنانهم واخرجوه خارج المدينة ورجموه . فكان اول الشهداء .
وظهر في هذه الآونة شاوول الفريسي (بولس فيما بعد) . وكان يدخل
الى البيوت ويجر النساء والرجال من المسيحيين ويدفع بهم الى السجن^٢ .
وخشي اتباع اسطفانوس سوء العاقبة . وكانوا من اليهود اليونانيين .
ففروا الى اوطانهم في شرقي البحر المتوسط . واستقاموا فيها كارزين
مبشرين . وقام فيليبس في هذه الاثناء يبشر في السامرة وفي ساحل فلسطين
في غزة ويافه وقيصرية فلقبي فيها نجاحاً . وكان الرسل ولاسيما بطرس
ويوحنا يرقبون عمل فيليبس فيقومون بزيارات رعائية خارج اورشليم
يتعرفون بها الى المسيحيين الجدد مشددين عزائمهم مثبتين لهم في الايمان .
وسجّل فيليبس بكرزه في السامرة خروجاً على الحطة المتبعة في التبشير

١ اعمال الرسل ٧ : ٥١ - ٥٣ .

٢ الاعمال ٨ : ٣ .

الاولي . فان الرسل كانوا قد حصروا عملهم في اوساط اليهود متبعين في ذلك قول السيد : « الى طريق امم لا تمضوا ، و الى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة . » ولكن العمل كان قد توطد فيما يظهر فبدأ التبشير بين الامم . ورأى بطرس وهو في يافه ان الله يأمره الا يقول عن انسانٍ ما انه دنس او نجس ، فقبل دعوة كرنيليوس قائد المئة الايطالية وقال ان الله لا يقبل الوجوه بل في كل امة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده ٢ . وانتقل الرسل بهذا من دور الى دور وبدأوا يعملون بالآية : « واذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليفة كلها ٣ . »

وفي السنة ٤١ بعد الميلاد تولى عرش اليهود في ظل رومة هيروودوس اغريبه حفيد هيروودوس الكبير . فاراد ان يستميل الشعب اليه ، فتظاهر بالتدين وشرع يضطهد المسيحيين اضطهاداً منظماً . فقتل يعقوب اخا يوحنا بالسيف . واذ رأى ان ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس وزجه في السجن . وكان ما كان من امر خروجه باعجوبة ٤ . وتوجه الى انطاكية .

انطاكية : وكانت انطاكية آنئذٍ ثلاثة مدن الامبراطورية الرومانية ومركز الحكم والسلطة في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الجالية اليهودية فيها كبيرة يربو عددها على خمسين ألفاً . وكانوا يتكلمون اليونانية ، ويعيشون عيشة اليونان ، ويكسبون الرزق بالاتجار . فلما تشتت المسيحيون من جراء الضيق الذي حصل بسبب اسطفانوس اجتاز بعضهم الى الساحل

١ متى ١٠ : ٥ .

٢ الاعمال ١٠ : ٣٤ - ٣٥ .

٣ مرقس ١٦ : ١٥ .

٤ الاعمال ١٢ : ١ - ٢٤ .

البناني وقبرص . وحلّ آخرون في انطاكية . وكان بين هؤلاء قوم قبرصيون وقبروايون . فلما دخلوا انطاكية بشروا اليهود و « اليونانيين » بالرب يسوع . « وكانت يد الرب معهم فأمن عدد كثير ورجعوا الى الرب . » وجاءهم بطرس في السنة ٤٥ واقام بينهم ثمانى سنوات . وبعد ان اطمان لعمله في انطاكية وما جاورها اقام افديوس رئيساً على كنيستهم وذهب في السنة ٥٣ الى رومة . وعرف المسيحيون بهذا الاسم لاول مرة في انطاكية .

بولس : وكان الشاب الفريسي شاوول بولس يتابع التقيش عنمن اعتنق النصرانية من اليهود ليضطهدهم باسم الناموس . فقام في السنة ٣١ بعد الميلاد الى دمشق ليوقف انتشار النصرانية في اوساطها اليهودية . وما ان اقترب منها حتى « ابرق حوله نور من السماء . فسقط على الارض وسمع صوتاً يقول له : شاوول شاوول لماذا تضطهذي ؟ » فكان ما كان من امر تنصره . وكان قد ولد شاوول في طرسوس بين الخامسة والعاشره بعد الميلاد . وكان والده فريسيّاً متعصباً فجعل ابنه يدرس الشريعة والناموس . وأبعده عن المدارس اليونانية . ويرجح رجال الاختصاص ان ما ناله شاوول من الفلسفة اليونانية جاء عن طريق الاحتكاك الشخصي بابنائها لا عن درس وتعليم . ورحل شاوول وهو لا يزال حدثاً الى اورشليم في طلب العلوم الدينية فأخذ عن غملائيل المشار اليه آنفاً . وكان غملائيل من اكبر علماء الدين في ذلك العصر . ويستدل من كتاب « اعمال بولس » الذي يرقى الى القرن الثاني بعد الميلاد ان بولس كان مربوع

١ الاعمال ١١ : ١٩ - ٢١ .

٢ الاعمال ٩ : ٤ .

القائمة مائلاً نحو القصر ، معوج الساقين ، أصلع الرأس ، كثيف الحاجبين ، اقنى
الانف . وجاء في رسالته الثانية الى اهل كورنثوس انه « أعطي شوكة
في الجسد لئلا يرتفع . » ويستدل من رسالته انه كان حاد الطبع ، شجاعاً
جريئاً ، شديد العاطفة ، ثاقب النظر ، واسع الخيال ، مقداماً .

وبدأ بولس عمله التبشيري بين يهود دمشق . فضجوا وطلبوا حبسه .
ولكن اخوانه في النصرانية عاونوه على الفرار . فقضى ثلاث سنوات او
اكثر في البادية يتأمل رسالته الجديدة ويبشر العرب . ثم عاد الى اورشليم
يستغفر الرسل ويبشر في الاوساط اليهودية اليونانية . ولكن هؤلاء حاولوا
قتله ، فأشار عليه الرسل بوجوب الابتعاد والاقامة في طرسوس مسقط
رأسه . وكانت الدعوة قد لقيت نجاحاً في انطاكية كما سبق ان اشرنا .
فذهب كبير المسيحيين فيها برنابا الى طرسوس وجاء بيولس الى انطاكية
فتعاونوا في الخدمة (٤٢ - ٤٥ ب . م) . وكان بين المسيحيين في انطاكية
جماعة من التجار . فجمعوا مقداراً من المال ووضعوه تحت تصرف بولس وبرنابا
لاجل التبشير . فقاما برحلة تبشيرية الى قبرص وآسيا الصغرى (٤٥ - ٤٧
ب . م) ولقيا بعض النجاح . ثم عادا الى انطاكية ، فعلما فيها ان الرسل
لم يرضوا عن اعمالهما التبشيرية لانهما كانا قد قبلا في النصرانية وثنين لم
يحتتنوا . وكانا يريان ان لا بد من التساهل في مثل هذه الامور لئلا
تبقى النصرانية شيعة يهودية منشقة . فنزلا الى اورشليم (٥٠ ب . م) وبجشا
امر الاختتان فايدهما بطرس وعارضهما يعقوب . ثم تم الاتفاق على ان
يتمتع المؤمن غير الختتن عما ذبح للاصنام وعن الدم والخنوق والزنى . « فان
حفظ نفسه منها فنعماً يفعل ويكون معافى » . ٢ . » وعاد بولس وبرنابا

١ : ١٠ و ١٢ : ٧ .

٢ اعمال الرسل ١٥ : ٢٢ - ٣٠ .

الى انطاكية .

وقام بولس بعد هذا برحلتين تبشيريتين الثانية والثالثة . وشملت الثانية (٥٠ - ٥٢ ب.م) غلاطية وفيلبي وثيرسالونيكية واثينة وكورنثوس وافسس وانطاكية . وشملت الثالثة (٥٣ - ٥٨ ب.م) افسس وكورنثوس وبعض جزر الارخبيل اليوناني وصور وعكة وقيصرية فلسطين فالقدس . وكان بولس يبشر اليهود اولاً فالوثنيين فيلقى صعوبات واحدة لم تتغير إما مقاومة عنيفة من بعض الاوساط المتمسكة يهودية كانت او وثنية ، وإما تحريضاً من تجار المواشي المعدة للذبح في الهياكل او من تجار الاصنام . ولكنه كان يتغلب عليها بشجاعته وصبره وإيمانه . وقدر له في هذه الآونة ان يكسب عدداً من الرجال والنساء الاطهار الذين عملوا معه بكل غيرة ونشاط ، فكانوا له شبه اركان حرب يقومون باهم الخدمات . وبين هؤلاء تيموثاوس ومرقس ولوقا الطبيب وليدية وبريسلة .

واثبوت قضية الاختتان مرة ثانية فعاد بولس الى اورشليم في السنة ٥٨ بعد الميلاد . وما ان ظهر في الهيكل حتى ثار ثائر اليهود . فامسكوا به وجروه الى خارج الهيكل وحاولوا قتله . ولكن الجنود تدخلوا وساقوه الى الحبس . واتهمه اليهود بالتشويش والفرقة بين الصفوف . فابقاه الحاكم الروماني في السجن سنتين متتاليتين . وألح بولس بان ترفع قضيته الى القيصر لانه يتمتع بحقوق المواطن الروماني ، فكان له ذلك وارسل الى رومة في السنة ٦١ بعد الميلاد . فاقف في بيت بحراسة الجند وبات ينتظر محاكمته امام نيرون . ويرجح انه قضى شهيداً في السنة ٦٤ مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون . ويعتقد البعض انه لم يلق حتفه قبل السنة ٦٦ . وجاء في التقليد انه اطلق سراحه بادىء ذي بدء ، وانه بشر في اسبانية وآسية قبل ان يقتل في رومة في السنة ٦٦ ، ولكنه قول ضعيف .

يوحنا : وليس بين الرسل الآخرين من نعلم عنه شيئاً بقدر ما نعلم عن يوحنا . فاننا نجده حوالى السنة ٦٧ في افسس محبوباً محترماً . ويبدأ دوميتيانوس اضطهاده فيقاسي يوحنا عذاب الزيت الحامي ويخلص باعجوبة ليُنقل الى جزيرة باتموس محكوماً عليه بالاشغال الشاقة فيكتب فيها رؤيا يوحنا . ثم يطلق سراحه في عهد نرفه فينتقل الى افسس مبشراً بالحنجبة مجدداً ، مؤسساً ، مدوناً انجيله في السنة ٩٠ بعد الميلاد .

مرقس وتوما وغيرهما : وما حفظه لنا التقليد ودوته القديس يوسيميوس في تاريخه ان مرقس الانجيلي اسس كنيسة الاسكندرية ولقي حقه فيها وذلك في السنة ٦٢ او ٦٨ بعد الميلاد . وما يروى ايضاً ان القديس اندراوس أسس كنيسة القسطنطينية . وان القديس توما بشر في فارس والهند وأسس كنيسة الرها . وعلى الرغم من اجتهاد صديقنا المرحوم اغناطيوس رحمانى بطريرك السريان الكاثوليك فانه لا يمكننا القول معه ان كنيسة الرها أسست في عهد السيد المسيح بناء على طلب ملكها العربي أبحر الخامس الذي اتصل بالسيد طالباً الشفاء من مرض المّ به . وما جاء في التقليد ايضاً ان القديس كوارتوس احد التلاميذ السبعين أسس كنيسة بيروت . ولم ترق مباحث أفلاطون كثيراً في عين اليونان ولم تعجبهم حكمة أرسطو بل صبت عقولهم على نوع من الفلسفة يكسبهم هناء المعيشة وراحة البال . فنادى زينون الصوري بالفضيلة غايةً للحياة يستوي لديها الالم واللذة . وعلم ابيقوروس ان الخير الاعظم هو اللذة سواء اكانت عقلية ام جسدية شرط الاتخرج عن دائرة الفضيلة . وشاعت قصة أهميروس ان آلهة اليونان كانت في الاصل ملوكاً بشراً ألهوا بعد وفاتهم وصدق الناس هذه القصة . ففقدت الآلهة القديمة ما كان لها من الاحترام في عيون المتعبدين . ولم يكن محظوراً على احد ان يصرح بما كان يكتمه قلبه نحو الآلهة مهما كان اعتقاده فيها . وكان السواد الاعظم من الشعب اليوناني غير متعلم . وكان لا بد لهم

من آلهة ، فمالوا الى تكريم الآلهة الشرقية . فاجتازت الديانة المسيحية من بلاد الى بلاد في سهولة ويسر . ولم تتعرض الديانة الرومانية القديمة لمسلك الشخص او لسيرته الخاصة ، ولم تعد العباد بالسعادة المستقبلية . وانشق المجتمع الروماني كما سبق ان اشرنا الى طبقتين متباغضتين طبقة المتمولين اصحاب الاراضي الفسيحة وطبقة الارقاء المستعبدين والفقراء المساكين . وكثير عدد هؤلاء وساءت احوالهم وثاروا وتمردوا . فجاهم بولس الحثام الطرسوسي منادياً بتعاليم سيده ، معلناً ابوة الله واخوة البشر ، مردداً تعاليم السيد : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين . » فكان لكلامه اثر بليغ وفعل عظيم في قلوب الرومانيين التّعابى .

الدولة الرومانية والنصرانية : وكانت الدولة الرومانية قد بسطت سلطتها على جميع انحاء حوض البحر المتوسط وربطت اجزاء امبراطوريتها بشبكة واسعة من الطرقات وفرضت شرائعها ولغتها ، فبلغ بذلك عالم البحر المتوسط درجة من التوحيد لم يبلغها من قبل . وبهذا التوحيد سهلت رومة انتشار الدين الجديد . ولكن كبار الرومانيين لمسوا في تعاليم هذا الدين نفسه خطراً يهدد سلامة الدولة . وتفصيل هذا ان اليونانيين والرومانيين لم يفرّقوا بين الوطنية والدين . فالمواطن عندهم كان مواطناً بقدر اشتراكه في التعبد لاله المدينة . وباتساع افق المدينة السياسي اتسع كذلك افق دينها . فلما تمّ لرومة بسط سلطانها في حوض البحر المتوسط اعتبر رجالها إلهتهم رومة إلهة الامبراطورية باسرها . وبهر اوغوستوس رعايا رومة في الشرق بقوته وتديبره وعظمته فأرأوا في شخصه مخلصاً الهياً يمنع الحروب ويوطد السلم . وهو ما تنص به جملة نقوش في نواحي متعددة من آسية الصغرى ترقى الى القرن الاول قبل الميلاد . وفي السنة ٣٩ قبل الميلاد ذهب اليونان في آسية الصغرى الى ابعد من هذا فانشأوا هيكلاً خاصاً لعبادة رومة واوغوستوس . ورأى اوغوستوس في هذا الامر خيراً له

ولرومة . فشجع عليه رعاياه ونقله الى الغرب . فظهر في ليون مثلاً في السنة ١٢ قبل الميلاد مذبح لرومة ولاوغوستوس معاً . وقام مثله في السنة ٥ بعد الميلاد في مدينة كولون . ونشأت في جميع انحاء الامبراطورية اخويات دينية سياسية دعيت الواحدة منها اوغوستاليمية . وكانت تقيم الحلقات لاوغوستوس وتترنم به وترقص . واتخذ هو لنفسه لقب الخبر الاعظم . وما كادت تنتظم امور هذا الدين الامبراطوري الجامع حتى اخذ رسل المسيح وتلاميذه يبشرون باله لا اله الا هو ، تجسّد وولد من مريم العذراء ، وصلب وتألّم ومات من اجل البشر ، وقام وصعد الى السماء ليدين الجميع . ولو حصر الرسل والتلاميذ عملهم في الاوساط اليهودية لما تنبه الرومان وتيقظوا . ولكنهم بشروا « الخليفة كلها » وحملوا رسالة السيد الى امهات المدن ، لا بل الى رومة نفسها . فكان لا بد من الاضطهاد .

الاضطهاد : ويجدر بالقارىء ان يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد اربع حقائق : اولاً ان المؤرخين يشيرون عادة الى عشرة اضطهادات بين السنة ٦٤ بعد الميلاد والسنة ٣١٣ سنة البراءة . وثانياً ان الاضطهاد أُجري بموجب تشريع خاص صدر عن الامبراطور نيرون في السنة ٦٤ وقضى بالألا يكون احد مسيحياً^٢ . وثالثاً ان الاضطهاد لم يكن دائماً عاماً شاملاً . ورابعاً انه لا يمكن تحديد عدد الضحايا ويجوز القول انهم كانوا كثيراً .

وفي عهد نيرون (٥٤ - ٦٨ ب . م) اتهم المسيحيون باحراق رومة سنة ٦٤ فكان ما كان من شتى الوان العذاب . واستشهد الرسولان بطرس

Pontifex Maximus.

« Non Licet esse christianum ».

وبولس . ويرى بعضهم ان بولس قضى حوالى السنة ٦٧ . وفي ايام
دوميتيانوس (٨١ - ٩٦ ب . م) على اثر ثورة اليهود حلّ بالمسيحيين دور
آخر من العذاب . فاستشهد في رومة عدد من الاشراف لاول مرة .
وذاق يوحنا الانجيلي آلام الحرق بالزيت الحامي ونفي الى جزيرة بالتموس .
وأستشهد تيموثاوس في آسيا الصغرى . والتقى القبض على اقارب السيد في
فلسطين ثم اطلق سراحهم . وجاء دور تريفانوس (٩٨ - ١١٧) فلقى
اسقف اورشليم القديس سمعان حتفه مصلوباً (١٠٧) . وقضى اسقف انطاكية
اغناطيوس الشهير في رومة في السنة نفسها . وأعدم كثيرون في بيثينية
ومقدونية . وكتب طيباريوس حاكم فلسطين الى الامبراطور يقول : ان
المسيحيين في انطاكية ازدحموا مستمتين في سبيل الرب . وفي عهد انطونينوس
(١٣٨ - ١٦١) في السنة ١٥٥ استشهد بوليكاربوس اسقف ازير ومرقس
اسقف اورشليم . وقضى في رومة حوالى السنة ١٦٥ القديس يوستينوس
النبلسي الفيلسوف المعلم وذلك في عهد مرقس اوريليوس . واستشهد في
ايام هذا الامبراطور نفسه ايضاً بوبليوس اسقف اثينة وحكم على كثيرين
بالعمل الشاق في المناجم . واهتم سبتيموس سويروس (١٩٣ - ٢١١)
لانتشار النصرانية في مصر فملأ السجون بالنصارى ودفع بعضهم الى الجلادين
في الاسكندرية ، وبيع بعض الى الحيوانات المفترسة في مدرج قرطاج . ولكن
خلفاءه اباطرة السلالة السورية اللبنانية لم يقتفوا اثره في شيء من هذا ، بل
قام احدهم سويروس الكسندروس يحاول انشاء هيكل لعبادة المسيح في
رومة . وجاء فيليبوس العربي (٢٤٤ - ٢٤٩) يلاطف ويهادن . فحمل ذلك
خلفه داسيوس (٢٤٩ - ٢٥١) ان يكره جميع السكان في المدن
والارياق ان يمثلوا امام رجال السلطة في وقت محدد ليقدموا الذبيحة
لشخص الامبراطور . فارتد عن الدين الجديد عدد من الاغنياء والوجهاء
واستشهد في سبيله عدد كبير من المؤمنين . وبين هؤلاء اوريجانيوس

اللاهوتي الفيلسوف الذي سجن في قيصرية فلسطين وعذب فيها ومات من جراحه في صور (٢٥٤)، والكسندروس اسقف اورشليم، وبابيلاس اسقف انطاكية، ونمطوروس اسقف مجدو. ولاحق الامبراطور فاليريانوس (٢٥٣ - ٢٦٠) الزعماء المسيحيين والكهنة فأمر هؤلاء في السنة ٢٥٧ ان يقدموا الذبيحة للالهة الوثنية وحرّم على المسيحيين الاجتماع في المقابر ومحلات العبادة، وأكد انهم ان فعلوا اعدوا اعداماً. فدُهم القديس ترسيسيوس وجماعة من المؤمنين وهم يصلون في سرداب سلاوية، فماتوا خنقاً. واستشهد سيكستوس اسقف رومة وكبريانوس اسقف قرطاجة. واستشهد في فلسطين الاخوة الثلاثة، وفي قبدوقية الطفل كيريلوس، وفي الاسكندرية عدد كبير من المؤمنين.

واعظم الاضطهادات وافظعها ما جاء منها على يد ديوقليتيانوس الامبراطور (٢٨٤ - ٣٠٥ ب. م) ويصعب القول في حقيقة اسبابها. فلم يكن لهذا الامبراطور شيء من شذوذ نيرون او دوميتيانوس، ولا كان ظنوناً ولا قاسياً ولا متديناً او داعياً لدين جديد كأورليانوس. وقد انقضى على حكمه عشر سنوات قبل ان بدأ بالاضطهاد. وليس لدينا من النصوص ما نستطيع معه ان نتوسع في الاجتهاد مطمئين. ولكن هنالك امران لا بد من الاشارة اليهما: اولهما ان ديوقليتيانوس الامبراطور أراد ان يعيد الى الامبراطورية وحدتها ومناعتها، والثاني انه كان يعاني الصعاب في وقف البرابرة عند الحدود وفي كبت عدوه ملك ملوك الساسان. ولعله رأى في انتشار النصرانية عامل تفكك في الداخل وخطراً على سلامة الدولة وخصوصاً لان النصرانية كانت قد دخلت فارس وان المانوية كانت تمت إليها بصلة قوية.

ولم يكن بإمكان ديوقليتيانوس ان يبهد جميع المسيحيين ويقطع دابرهم لانه لو فعل لجعل مناطق ومناطق في الشرق قفراً من السكان. فأثر فيما

يظهر تدمير الكنيسة واخفاء معالمها وتحقير المؤمنين والهبوط بهم الى اسفل الطبقات . وهكذا نراه في الرابع والعشرين من شباط سنة ٣٠٣ يأمر بمنع الاجتماعات المسيحية وبتخريب الكنائس وحرق الكتب وبنكران الدين المسيحي ، موعداً الاشراف المسيحيين والوجوه والاعيان بالخلع والاذلال، مهدداً الوجود بالعبودية المؤبدة . ثم عاد في السنة نفسها فأمر بسجن الكهنة وابعادهم ان هم ابوا ان يشتركوا في الذبيحة الوثنية . وزاد فأمر بوجود نكران الدين الجديد . فكانت مذابح ومذابح لم تنج منها الا الاقاليم الغربية التي كانت آتت في عهدة قسطنس والد قسطنطين الكبير . ويقال ان الفضل في ذلك يعود الى زوجته الاولى هيلانة التي كانت قد تقبلت النصرانية قبل زواجها منه . ويقول القديس يوسليموس المعاصر ان الرؤوس بُرت في العربية (البادية المتاخمة للشام) ، وان السيقان قطعت في قبدوقية ، وان المؤمنين علقوا على الاخشاب بين النهرين واشعلت تحتهم النيران . ومما يقوله ايضاً ان عمال ديوقليتيانوس قطعوا الانوف والاذان والالسن وغرزوا القصب تحت الاظافر ودقوا الحديد في البطون .

والثابت الراهن في عرف البشر أجمعين ان الاضطهاد يقوي النفوس ويشدد العزائم فيشير في المؤمن صاحب العقيدة شعور التحدي ويحمله على التفنن في اساليب الوقاية والدعاية ويزوده بمثل عليا يفاخر بها ويسعى لتحقيقها . وليس ابلغ اثرأ في تقوية الحماسة الدينية وتحويل الغيرة على الدين الى تنازع على المراكز واحداث الشقاق من تكريس الدين سياسياً وجعله ديناً رسمياً .

النظام والتنظيم : وكان السيد كما سبق ان أشرنا قد انتقى الرسل الاثني عشر والحق التلاميذ الاثني والسبعين . وفي السنوات الاولى بعد وفاته تدمر اليونانيون اليهود المسيحيون من العبرانيين المسيحيين اليهود « ان

أراملهم كنَّ يُغفل عنهن في الخدمة اليومية . فدعا الرسل جمهور التلاميذ وقالوا : لا يُرضي ان نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد . فانتخبوا انتم سبعة منكم مشهوداً لهم فنقيمهم على هذه الحاجة . ففعلوا فصلى الرسل ووضعوا عليهم الايادي . وهؤلاء هم الشمامسة^١ . ثم نقرأ في الفصل الحادي عشر والخامس عشر من اعمال الرسل عن كهنة يشرفون على الاعمال الخيرية ويجلسون مع الرسل للتشاور وحلّ بعض المشاكل^٢ . واذا تبعنا بولس في رحلاته التبشيرية نجده ينتقي لكل كنيسة يؤسسها شمامسة لخدمتها ويجلس كهنة لادارتها وقيماً اعلى يمثله فيها كتيموثاوس وطيطس ولوقا وغيرهم . ونجده يبقى على صلة بهذه الكنائس جميعها بوجهها ويحل مشاكلها . وكان طبيعياً جداً ان يخلف الرسول في رئاسة كل كنيسة يؤسسها ممثله الاعلى فيها وان يكون لهذا الخليفة سلطة مستمدة من الرسول المؤسس . والواقع الذي تؤيده النصوص انه منذ منتصف القرن الثاني كانت قد انتظمت كل كنيسة مهمة حول رئيس لها دعوي اسقفاً ، وحول قسيسين وشمامسة وشماسات . ثم تعددت الكنائس فتكثرت في كل ولاية حول كنيسة عاصمتها تكتل المدن في تلك الولاية حول العاصمة . وتهيأت لاسقف كل عاصمة من عواصم الولايات زعامة على غيره من اساقفة ولايته . وفي اغلب الاحيان نجد اساقفة الكنائس التي كانت مبعث الحركة في عهد الرسل يتقدمون على غيرهم من اساقفة الولاية او الولايات المحيطة بهم شأن اساقفة رومة في ايطالية واساقفة قرطاجة في افريقية الشمالية واساقفة الاسكندرية في مصر وليبية والحبشة واساقفة انطاكية في سوريا ولبنان وفلسطين وغيرها واساقفة كورونثوس في اليونان وما جاورها . اما في آسية الصغرى فان كثرة

١ الاعمال ٦ : ١ - ٩ .

٢ ١١ : ٣٠ و ١٥ : ٢ .

الكنائس التي فاخرت بشرف الانتساب الى الرسل قد حالت دون تزعم
كنيسة واحدة على جميع الكنائس .

وكان طبيعياً ايضاً ان يتقدم اسقف رومة على غيره من الاساقفة
لانه كان اسقف عاصمة الامبراطورية وخليفة الرسولين بطرس وبولس .
وهو ما يجمع عليه علماء الكنيسة اجماعاً . ولكن هؤلاء يختلفون في
صلاحيات هذا الاسقف . فالكاثوليك يرونه مطلق الصلاحية
والسلطة خليفة السيد على الارض منذ اوائل تاريخ الكنيسة . ويستدلون
على هذا بالآية : « انت الصخرة » ، وبقوال الآباء الاقدمين كالقديس
اقليمندوس الروماني والقديس اغناطيوس الانطاكي والقديس ايرينيوس
اليوناني وغيرهم . والارثوذكسيون منهم يرون في الصخرة صخرة الايمان
ويرون في اقوال القديسين ما يوجب تقديماً في الكرامة لا في السلطة ،
ويحتجون بورود كلمة Principatum في هذه الاقوال عند الاشارة الى
صلاحيات اسقف رومة . وهذه الكلمة تعني في رأيهم التصدر في المجالس
لا السلطات المطلقة^١ .

وقدس المسيحيون في عهدهم الاول السبت لا الاحد . ولم يصبح الاحد
يوم الرب قبل القرن الثاني . وكانوا يشتركون جميعاً في عشاء واحد مرة
في الاسبوع او اكثر ، فيستمعون لقراءة الاسفار وينتهون بعد العشاء بقبلة
الحبة « الأغبية » . وكان على المؤمن ان يمتنع عن التقييل اذا شعر باللذة .
وكان على المؤمنات ان يسترن شعورهن بغطاء او ان يقصن شعورهن
اذا استثقلن الغطاء . وكانوا اذا اجتمعوا للصلاة استمعوا لقراءة الاسفار
وللعظة الاسبوعية واشتركوا في ممارسة الاسرار وتنبأوا رجالاً ونساءً .

Adv. hear III : (propter potentiorē principalitē)

Epître 65,4 : (principatum)

وكان الكاهن او احد المتقدمين بينهم يفسر هذه النبوءات على ضوء الدين والخلص . وقبيل انتهاء القرن الثاني اتخذت العبادة المسيحية شكلاً منظماً مع ما في ذلك القراءات والصلوات والذبيحة الالهية . وبقي هذا النظام معمولاً به على سبيل العرف حتى صاغه القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) والقديس يوحنا الذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) ، فتلور واخذ شكله الحالي . وثمة خدمة خاصة بيومي الاربعاء والجمعة في اثناء الصوم يعود الفضل في اعدادها الى القديس غريغوريوس الذيالوغوس (٣٤٠ - ٤٠٠) . ونجد المسيحيين الاولين يقولون بالاسرار الثلاثة : المعمودية والتناول والكهنوت ، فالسبعة : المعمودية والمسحة والتناول والتوبة والكهنوت والزيجة والزيت المقدس . وعني المسيحيون الاولون بالموتى لانهم قالوا بقيامة الجسد فمارسوا طقوساً معينة لهذه الغاية وتولى الاكليروس الدفن باشراف منهم .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان المسيحيين الاولين كانوا مثال التقوى والصلاح ، وان الايمان بالمسيح وبقرب عودته ليدين الاحياء والاموات كان اعمق اثراً في نفوس اهل ذلك العصر من الايمان بالآلهة القديمة ، وان الرسل بلغوا النجاح حيث اخفق كبار الفلاسفة . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان الآباء المؤسسين حرّموا الاجهاض وقتل الاطفال . وانهم لموا اللقطاء وعمّدوهم باسم الرب وربوهم على نفقة الكنيسة . وانهم حضوا المؤمنين على العفة والبتولية واسبغوا الزواج لمن خشي العنت فقط . وانهم لم يرضوا عن زواج الارامل ولم يأذنوا بالطلاق الا بين الوثني والنصرانية . ومما يثبت استقامة المسيحيين الاولين وصلاحهم شهادات الوثنيين انفسهم . فبيلينيوس الاصغر وجد نفسه مضطراً ان يقول للامبراطور تريانوس ان المسيحيين عاشوا عيشة مثلية مسالمة . وقال غالينوس العالم انهم توصلوا الى درجة من ضبط النفس وممو الاخلاق اصبحوا بعدها لا يقلون عن الفلاسفة الحقيقيين في شيء . وادى الشعور بينهم بالخطيئة وبقرب انتهاء العالم ومجيء

الديان الى رغبة في الطهارة والى اجتناب كل لذة من لذات الجسد .
فكبحوا شهواتهم بالصوم ورياضة الجسم على العذاب ، وصدفوا عن الموسيقى
والمآكل الشهية والحمامات الساخنة ، وارسلوا الشعور واللىحى .

آثار المسيحيين الاولين : وحدّث السيد ولم يدوّن . وآثر المسيحيون
الاولون السماع على القراءة ، ولا عجب . بيد ان ظروف التبشير قضت
بالتدوين . فالؤمنون تفرقوا منذ السنين الاولى وتباعدوا . واليونانيون
وغيرهم ممن دخل في الدين الجديد لم يكونوا يفهمون الآرامية . فكان لا بد
من التدوين . واقدم مادوّن انجيل متى . والانجيل لفظ يوناني معناه البشرى .
ومتى عشّار يهودي تبع السيد واصبح احد الرسل الاثني عشر . ويستدل
من اقوال بعض الآباء كإيريناوس ولاسما بايياس (١٣٠) ان متى تولى
تبشير اليهود ، فكتب انجيله لهم بالآرامية ، وذلك بينما كان بطرس وبولس
يعملان في رومة (٥٠ - ٥٥) . وفي تضاعيف هذا الانجيل ما يدل على
انه كتب لليهود . فهناك سند طويل يصل نسب السيد بداود الملك ،
وتمّة تفاصيل تجعل من سيرة السيد تكملة لنبوءات التوراة وما الى ذلك .
وقد ضاع الاصل الآرامي وبقيت ترجمته الى اليونانية .

وكان بطرس يجهل اليونانية ولا يعرف سوى الآرامية . فلما قضت
الظروف بذهابه الى رومة وباقامته فيها استدعى اليه يوحنا الذي كان
يدعى مرقس ليترجم له بين الرومانيين وسكان رومة . ومرقس هذا هو في
الارجح ابن مريم التي آوت المسيحيين في بيتها في القدس في السنة ٤٤
بعد الميلاد . وقد يكون هو الذي اشير اليه في الاصحاح الخامس عشر من
انجيل مرقس : « وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشبان .
فترك الازار وهرب منهم عريان » . وكان مرقس من يهود قبرص يتكلم
اليونانية ويقراً ويكتب فالتحق ببرنامجا وبولس . وبعد وفاة الاول أنتقل
الى رومة ليعمل مع هامة الرسل . ودوّن سيرة السيد بطلب من اهل

رومة بين السنة ٥٥ والسنة ٦٠ وذلك كما سمعها من فم بطرس بدون زيادة ولا نقصان . ويقول القديس بابياس ان مرقس كتب جميع ما تذكره ، ولكن ليس بالترتيب الذي اتبعه السيد في اعماله واقواله . فبطرس الرسول تكلم بحسب ما دعت اليه الحاجة ودونما تقيد بتسلسل الاحداث .

وفي السنة ٦٤ بعد الميلاد ساد الاوساط المسيحية الموجهة شعور بالحاجة الى سيرة مرتبة منظمة ، مكتوبة بلغة واضحة مضبوطة ، وباسلوب رائق جذاب ، يستهوي العقول ، وينشط الهمم . وكان بينهم رجل عالم ولد في انطاكية ، ونشأ فيها ، وتعلم الطب وعمل به ، فأشاروا عليه بالامر . فاطلع على ما كتبه متى ومرقس ، وسمع وتحرى . ولعله اتصل بالسيدة نفسها واخذ عنها . وكان قد رافق بولس في رحلاته وفهم منه اشياء واشياء . فجاء انجيله تاريخياً رسمياً ، واثراً ادبياً . هو لوقا الطبيب الذي اشار اليه بولس في رسائله مراراً . وكان قد جاء رومة بصحبة معلمه فرأى هذا ان توجه الكلمة الى الاوساط العالية في رومة وان تحبب اليها . فظهر هذا الانجيل بجلته القشبية بين السنة ٦٤ والسنة ٧٠ بعد الميلاد . ومن هنا في الارجح قول القديس ايريناوس ان انجيل لوقا هو انجيل بولس . ويرى رجال الاختصاص علاقة وثيقة بين هذا الانجيل وبين سفر اعمال الرسل من حيث جوهر الرسالة واللغة والاسلوب ، فينسبون سفر الاعمال ايضاً الى لوقا الطبيب . ولما كانت اخباره تنتهي عند السنة ٦٣ الى ٦٤ فأنهم يرون انه كتب في هذا الوقت نفسه .

ومن آثار هؤلاء المسيحيين الاولين رسائل بولس الرسول الى اهل رومية وكورنثوس وغلاطية وافسس وفيلبي وكولوسي وثيسالونيكية ثم رسائله الى تيموثاوس وتيطس وفيليمون . وجميعها دون ما بين السنة ٥٢ والسنة ٦٦ بعد الميلاد . وفيها الشيء الكثير من شرح رسالة السيد وتفصيل العقيدة . فاما الرسالة الى العبرانيين فقد تكون له وقد لا تكون . ومن

هذه الآثار التي تركها المسيحيون الاولون رسالة يعقوب اخي الرب
واسقف اورشليم وهي تصور شدة ايمانه وسمو اخلاقه . ورسالتا بطرس
الاولى والثانية ، ورسائل يوحنا الرسول الثالث ، ورسالة يهوذا .

ويجمع علماء الكنيسة بفرعيها الرئيسيين الارثوذكسي والكاثوليكي على ان
الانجيل الرابع هو ليوحنا الحبيب ويرون في دقة المعلومات الجغرافية التي
وردت في هذا الانجيل عن القدس وفلسطين كما يرون في شدة العاطفة التي
تضمنها نحو شخص السيد ما يؤيد التقليد الموروث ان كاتب هذا الانجيل
وسفر الرؤيا هو يوحنا الحبيب نفسه . كتب سفر الرؤيا في اثناء اقامته
الجبرية في جزيرة باتموس بين السنة ٩٢ والسنة ٩٦ وكتب الانجيل بعد انتقاله
الى افسس بين السنة ٩٦ والسنة ١٠٤ . وكان يوحنا قد اشرف على نهاية
عمر طويل وسمع انتقادات الفلاسفة ولمس بعض الشذوذ في العقيدة فجاءت
كتابته فلسفية مسيحية دون فيها ذكريات شخصية صدر فيها عن حب
خالص للسيد . وما زالت عباراته المملوءة حبا وعطفاً تهز القارئ حتى
يومنا هذا . « وهو ايضاً الذي اتكأ على صدر السيد وقت العشاء وقال :
يا سيد من هو الذي يسلمك ؟ » وهو ايضاً ذاك الذي قال عنه يسوع مخاطباً
بطرس : « إن كنت اساء انه يبقى حتى اجيء فماذا بك ؟ »

هذا وليس لدينا من آثار هؤلاء المسيحيين الاولين اثر مادي سوى ما حفظته
جدران مدافن رومة من صور الصلبان والحمام وجذوع النخل وغصون الزيتون
والاسماك وجميعها يعود الى القرن الثاني . وليس بينها ما يستوجب الايضاح
سوى السمكة . وهذه كانت تذكر في الاوساط المسيحية الاولى بالآية :
« يسوع المسيح ابن الله المخلص . » وتفسير هذا مرده الى العبارة اليونانية :
Iesus Christos Theou Uios Soter فمجموع الحروف الاولى من هذه الكلمات
اليونانية يشكل اللفظ اليوناني i - ch - th - u - s ومعناه السمكة .

الفصل الثالث

الدولة الساسانية

(٢٢٤ - ٣٠٢ م . ب)

تمهيد : ونظراً لترامي اطراف المملكة السلوقية من الهند الى سواحل
بحر ايجيه صعب ضبط شؤونها . فنهضت ولاياتها النائية واعلنت استقلالها .
فاستقلت الهند اولاً بزعامه تشندراغوبته في السنة ٣١٧ قبل الميلاد اي بعد
الفتح الاسكندري بعشر سنوات فقط . ثم استقلت فارس وما يليها
بزعامه الامير الفرقي السكيثي أرساس الاول في السنة ٢٥٥ قبل الميلاد .
ولا نعلم الشيء الكثير عن هذه الدولة الفرثية اذ تكاد مراجعنا الاولية
تنحصر في ما تبقى من نقود ملوكها . وحدث ما وصل اليه رجال
الاختصاص هو ان هؤلاء الفرث كانوا ايرانيين كسائر العناصر الايرانية
لا يختلفون عنها بشيء الا ببداوتهم وفروسيتهم وشجاعتهم المتناهية في
الحرب . وماشى ملوك الفرث غيرهم من ملوك عصرهم في تقبل المدنية
الهلينية فتكثروا بالالقاب اليونانية واستعملوا اللغة اليونانية في سك نقودهم .
فوصف مثراداتوس الاول وبعض خلفائه انفسهم بالالقاب نفسها التي تلقب بها
زملاؤهم ومعاصروهم في انطاكية والاسكندرية . وهنا تجب الملاحظة ان

Philhellene, epiphane, evergete, dikaios.

الشعب والحكومة تكلموا بالهلوية وكتبوا بها وبالآرامية . وامتدت سلطة
 ملوك الفرت من الفرات حتى الهند ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي .
 واشهر ملوك الفرت أرساس الاول (٢٥٥ - ٢٤٧ ق . م) وارساس
 الثاني والثالث (٢٤٧ - ١٩٦ ق . م) ومثراداتوس الاول (١٧٤ -
 ١٣٦ ق . م) وخسرو او ارساس الخامس والعشرون (١٠٧ - ١٢١ ب . م)
 وآخرهم ارتبان الخامس او ارساس الثلاثون (٢١٥ - ٢٢٦ ب . م) .
قيام الدولة الساسانية : وكان نظام الحكم في الدولة الفرتية اقطاعياً
 في اسمه يرتكز على زعامة بعض الاسر وعلى عبودية الشعب . وكان بين
 هذه الاسر بنو دارياف او أرختشطر الذين حكموا مقاطعة فارس من
 اصطخرأ . وكانوا محافظين مستمسكين بتقاليد فارس القديمة مؤثرين لغتها
 واللغة الآرامية على اليونانية كما يستدل على ذلك من نقودهم . وفي السنة
 ٢١٢ بعد الميلاد قام باهاغ احد اشراف هذه المقاطعة بثورة محلية اوصلته
 الى الحكم فيها . وقام ابنه اردشير في السنة ٢٢٤ بعد الميلاد بثورة كبرى
 وواقع ارتبان الخامس آخر ملوك الفرت في الثامن والعشرين من نيسان من
 تلك السنة نفسها في هورميرداغان فتغلب عليه ودخل طيسفون عاصمة
 ملكه منتصراً . ولم يمض وقت طويل حتى دانت له مقاطعات الفرت
 جميعها : ميديا وسيلستانه وخراسان ومرجيانة وأرية . واعترف بسيادته
 الكوشان في افغانستان والبونجاب . فأسس بذلك الدولة الساسانية نسبة
 الى ساسان احد الاجداد واتخذ لنفسه لقب شاهنشاه وتعريبه ملك الملوك .
 وكان يدعى بالآرامية ملكان ملكه . ولا تزال النقوش القائمة بالقرب من
 اصطخر كنعش رجب ونقش رستم تظهر لنا اردشير المؤسس يتسلم سلطته
 من اكبر الآلهة اهورا مزدة . ولا تزال نقراً على نقوده الباقية هذه

العبارة : « خادم مزدة » .

وهكذا تميزت الدولة الساسانية الجديدة منذ بداية عهدها بتمسكها بالدين القومي وتعاونها مع رجاله . والدين القومي هذا هو دين مزدة او زورواستر (زرادشت) قال بنزاع دائم بين الخير والشر وبوجود فئة من الكائنات الصالحة تقاومها فئة اخرى من الكائنات الشريرة لتفسد عليها عملها . ومثّل الخير في هذا الدين شخص الهي مزدة او اهرومزدة ومعناه رب الحكمة وكان يحيط به ملائكة اعظمهم النور مئراس . ومثّل الشر فيه اهريمان الشيطان . وكان على كل انسان ان يختار احد أمرين اما ان يلا نفسه من الصلاح والنور او ان يقيم في الشر والظلام . واي الامرين اختار فقد كان لا بد له من دينونة في المستقبل . وزورواستر مؤسس هذا الدين عاش حوالى السنة الف قبل الميلاد وطاف يبشر الشعب الايراني بديانته اعواماً عدة . وحافظ على احترام النار الآرية كرمز محسوس للصلاح والنور . وأوصى بالمحافظة على ايقادها بحيث لا تنطفئ .

وانتظمت امور كهنة مزدة في عهد الدولة الساسانية فكان بينهم الكاهن العادي « ألموغان » . وكان على عدد من هؤلاء في كل مقاطعة رئيس دعي « موباذ » . وكان على كل هؤلاء بدورهم رئيس اعلى اطلق عليه لقب « موباذان موباذ » . وكان بين اعمال اردشير الاول مؤسس الدولة ان نقح كتاب الحكمة الالهية « الفيسنة » (الزند) . وجمع ابنه وخلفه شابور الاول جمعاً دينياً نقح الشرائع الدينية واقراها ووجب العمل بها . وكان القول المأثور بين رجال الفرس آنئذ ان الدولة والكنيسة شقيقتان لا تنفصلان ، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة . وأصبح واجباً لازماً على الشاه ان يتسلم تاجه من يد زميله الكبير رئيس كنيسة الدولة الموباذان مباد .

وعظمت شوكة الشاه الساساني ففاقت سلطة زميله الاراساسي . وبقي

النظام الاقطاعي سائداً في البلاد وبقي النفوذ الاعلى في يد سبع عائلات اقطاعية من الاشراف كما كان الامر في عهد الارساسيين . ولكن هذا النفوذ وذاك الاقطاع أصبحا خاضعين خضوعاً تاماً لمشيئة الشاه . وضبطت ادارة الولايات وأصبح حكامها المرابزة خاضعين لتفتيش متصل من قبل الحكومة المركزية . وكان يجب على الشاه الساساني الايراني النزعة ان يحكم بلاده من اصطخر المدينة الايرانية ، ولكن علاقاته السياسية قضت عليه باتخاذ نقطة اقرب الى حدوده الغربية فعاد الى طيسفون العاصمة الارساسية وجعلها مقراً له وقاعدة لحكمه .

وادعى اردشير مؤسس الدولة انه متحدر من هكافيش صدر الاسرة المالكة الاولى وجد قورش الاول ، وزعم ان له حقاً في حكم جميع آسية الغربية ومصر لانها خضعت جميعها لقورش وخلفائه . ولا تزال نقرأ حتى ساعتنا هذه في الكارنامه البهلوية والشاهنامه الفردوسية ان الساسانيين احفاد لداريوس ، فلا غرو اذا رأينا هؤلاء يجاربون رومة وريشة الاسكندر وخلفاءه ليسترجعوا ما اغتصب منهم اغتصاباً .

وعني الساسانيون بالخييل عناية فائقة جاءت في طبيعة الامور لان اواسط آسية موطن الخيل وبلاد الدروع والنصال . وأصبح جيشهم جيش خيالة في قلبه وجناحيه . ولم يدربوا المشاة ولا نظموم ولا سلحوهم باكثر من ترس من الجلد . وكان تكتيكهم في غالب الاحيان يقوم على حشد خيالة القلب حشداً متراصاً بقوة وعلى دفع هذا الحشد في هجوم متراصٍ خاطفٍ غايته غمر مراكز العدو منذ اللحظة الاولى . وكانوا يتحاطون دائماً بحفظ قوة من الفيلة في ساقه الجيش يدفعون بها الى نقاط معينة في الجبهة عند الحاجة . وكان الفارس الساساني يرتدي درعاً من الحديد او البرونز تغطي جسمه بكامله ، ويلبس حصانه مثل هذه الدرع (التجافيف) . اما تركيب هذه الدروع فمن قطع مستطيلة من الفولاذ او البرونز طول الواحدة منها عشرون

سنتيمترًا وعرضها خمسة . ويعلو هذه الدروع عند العنق زيق من الحديد او البرونز يغطي العنق والرأس . ثم تعلو هذه كلها خوذة من الحديد مزينة باوشحة من الحرير الملون . وكان الفارس الساساني يستعين بقنـاة طولها متران وسيف طويل وقوس ونشاب وفأس فولاذية يعلقها في طرف خوذته الى وراء . وتدل بقايا بعض هؤلاء الفرسان في الصاحية عند الفرات ان حمائلهم كانت مرصعة باليشب الصيني . وكان القائد الساساني قبيل بدء القتال يذهب الى اقرب ماء فيسكب فوقه قليلاً مما يحمل من الماء المقدس ثم يرمي النبلة المباركة . وعلى الاثر يصفّ جيشه للقتال ويأمر بالنفخ في الناي الفارسي والمناداة بالعبارة البهلوية « مرد و مرد » ، ومعناها « رجل لرجل » . وكان يتكرر هذا القتال الفردي قبل التحام الجيشين . وكان الجيش يسمى جنداً ، كل جنـد يتألف من عدد من الدرفشات ، والدرفشة من عدد من الفشتات . وكان على رأس كل جنـد ، جنـد سالار .

وقدّر لشابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢) ابن اردشير الاول ان ينتصر على رومة اكثر من مرة . ففي السنة ٢٥٣ بعد الميلاد طرد تيريداتس الثاني ، ملك أرمينية وعميل رومة ، من بلاده ، وأقام محله اميراً خاضعاً لسيادة فارس . ثم كسر فاليريانوس الامبراطور في السنة ٢٦٠ عند الرها وأسرّه . ثم تابع الفتح فدخل انطاكية وطرسوس وقيصرية قبدوقية ، ولكنه لم ينجح من ضربة مؤلمة سددها اليه أمير تدمر العربي أذينة بن حيران . أما فاليريانوس الذي اسره شابور عند الرها ، فقد لقي حتفه اسيراً عند الفرس . وقام من اسر معه من الجنود باعمال عمرانية في فارس اشهرها جسر جنـد شابور . وظهر ماني ودعوته ، وكثر اتباعه ، فشغل شابور وبعض خلفائه عن محاربة رومة . وانهمكت رومة في متاعب اخرى كما اوضحنا فبقي الفرات رديحاً من الزمن وهو الحد الفاصل بين الدولتين .

ماني ودينه الجديد : هو ماني بن بابك ولد في « ماردين من اعمال

بابل « في السنة ٢١٥ بعد الميلاد . وتلقى وحيًا لأول مرة في الثالثة عشرة من عمره ثم في الخامسة والعشرين اي السنة ٢٤٠ بعد الميلاد . وعلم وبشر في طيسفون اولاً وخص شابور باحدى رسائله الاولى . وقال بسبين اصليين : النور والظلام ، وبظروف ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . والنور والظلام عند ماني كائنان مستقلان منفصلان منذ الازل . ولكن الظلام غزا النور في الماضي وأصبح بعض النور ممتزجاً بالظلام وهذه هي حالة عالمنا في الحاضر . ثم يخلص ماني الى القول ان لا بد من تنقية النور من هذا الظلام كي يعود النور والظلام الى الانفصال التام كما بدأ . والله هو سيد عالم النور والسيطان سيد عالم الظلام . وعندما غزا الظلام النور لم يستطع سيد النور ان يستعين بالغرانيق الخمسة : الفهم والعقل والفكر والتفكير والارادة لان هذا الغزو كان مفاجئاً لها فدعرت واضطربت .

فخلق سيد النور ام الحياة التي ولدت الانسان وسلحه بالعناصر الخمسة : النور والريح والنار والماء والهواء ليستعين بها في محاربة الظلام . هذا بعض ما قاله ماني عن الماضي . فاما في الحاضر فان قوى النور بحسب عقيدته قد ازسلت النبيين بوذا وزورواستر ثم يسوع وهو أهم الجميع . والعالم عنده ينتهي في المستقبل بثوران هائل وسقوط عظيم . فيصعد الصالحون في الفضاء الى اعلى ، والاشرار يهبطون الى ظلام دائم . ويرى رجال الاختصاص الذين وفقوا الى درس ما بقي من رسائل ماني في تركستان وفي كتاب الفهرست لابن النديم وفي اوراق البردي في مصر ان المانوية تفرعت عن المسيحية لا الوثنية وخصوصاً لان ماني اعترف بصحة الاناجيل الاربعة ورسائل بولس الرسول ، وقال انه البارقليس المنتظر .

وانتظم المانويون في « كنيسة » واحدة مؤلفة من طبقتين المنتقين المصطفين والمستمعين . وكان على رأسها بادىء ذي بدء رسل اثنا عشر ثم تلاميذ ستون ثم اساقفة وكهنة وشمامسة ورهبان . وكانوا يجتمعون في كل احد

للصلاة والترتيل وقراءة الاسفار . وقد انتشرت تعاليم ماني في بابل اولاً ثم في سورية وفلسطين والعربية ومصر وافريقية الشمالية . وكان بين الذين آمنوا بها القديس اوغوستينوس الشهير فانه واظب على درسها والعمل بها تسع سنوات متواليات . وانتشرت المانوية في فارس واواسط آسيا . وسكت عنها شابور الاول لرحابة صدره واتساع افقه . ولكن كهنة مزدة قاوموا هذه التعاليم مقاومة شديدة فاضطر ماني ان يغادر فارس الى الكشمير فتركستان فالصين .

وتوفي شابور الاول في السنة ٢٧٢ وتوفي ابنه وخلفه هورمزد الاول في السنة ٢٧٣ وتولى العرش بعدهما بهرام الاول فظن المانيون ان سيتاح لهم ان يعود الى وطنه ويعيش بامان وحرية . ولكنه اعتقل وحوكم وصلب وسلخ جلده وحشي قشاً في السنة ٢٧٥ بعد الميلاد .

بهرام الثاني : (٢٧٦ - ٢٩٣ ب . م) وأهم اخباره انه كان شجاعاً نشيطاً فحارب رومة في عهد كاروس الامبراطور ولكنه غلب على امره فتراجع امام الرومان حتى طيسفون . وتوفي كاروس فجأة فتهقر الرومان بدورهم ولكن بهرام لم يستطع استغلال الموقف لاندلاع ثورة في ولاياته الشرقية اشعلها اخوه هورمزد . فصالح الرومان في السنة ٢٨٣ على ان يستولوا على ارمينية وما بين النهرين وهب الى خراسان ينازل اخاه فأخضعه وعين ابنه ولي عهده بهرام والياً محله ومنحه لقب « ساغان شاه » . وكانت قد جرت العادة فيما يظهر ان يلقب ولي العهد ملكاً على آخر ما افتتح من الممالك او على أهم الولايات .

بهرام الثالث ونوسى الاول : (٢٩٣ - ٣٠٢ ب م) وتولى العرش بعد بهرام الثاني ابنه بهرام الثالث ولم يطل ملكه فيما يظهر اكثر من اربعة اشهر . فأف نوسى عمه الاكبر وابن جده شابور الاول اغتصب الملك اغتصاباً . ودخل نوسى في حرب ضد رومة فاحتل ارمينية وتوغل في

سورية الشمالية ولكن ديوقليتيانوس الامبراطور أمدَّ غلاريوس القيصر بالسلاح والرجال فانتصر على نرسى انتصاراً باهراً في ارمينية وأسر حرم الشاه واولاده ثم تابع الزحف حتى استولى على طيسفون العاصمة في السنة ٢٩٦ بعد الميلاد . وارسل نرسى معتمداً من قبله ابهريان يفاوض الرومانيين في انطاكية . وأرسل ديوقليتيانوس السكرتير الامبراطوري سيقوريوس بروبوس^١ يفاوض ويوقع . فتم الاتفاق على الاعتراف بسلطة الشاه في ما بين النهرين وبجماية رومة على ارمينية . وجعلت نصيبين مركزاً للعلاقات التجارية بين الامبراطوريتين .

الباب الثاني أصل الدولة ومنشأها

الفصل الرابع

قسطنطين الكبير والقسطنطينية

قسطنطين الاول الكبير : هو قسطنطين بن قسطنديوس كلوروس Constantius Chlorus من زوجته هيلانة . ولد في نيش من اعمال يوغوسلافية حوالى السنة ٢٨٠ بعد الميلاد . وقد اختلف في اصل والدته . فهي اما اناضولية بلقانية ، في بعض المصادر ، او سورية رهوية ، في البعض الآخر . نشأ قسطنطين في نيقيوميديا في حاشية الامبراطور ديوقليتيانوس والتحق بالجيش في الخامسة عشرة من عمره . وأظهر شجاعة وبأساً وحنكة ودراية فرقي الى رتبة قائد في الثامنة عشرة . وكان ان استقال ديوقليتيانوس وتولى غلاريوس مكانه ففصل قسطنطين عن الجيش وابقاه في معيته لتعلق الجند به واستبسالهم في سبيله ، ولتخوفه مما قد ينتج عن هذه السيطرة على الجند . ويروى ان غلاريوس حاول اهلاك قسطنطين ، فأمره بمصارعة اسد مرة ، وجبار من السرامطة مرة اخرى ، ولكن قسطنطين نجا من المحتين . ثم استدعاه والده قسطنديوس قيصر فالتحق به . وكان قد تولى الحكم في

غالية واسبانية وبريطانية .

وكان قسطنطين طويل القامة ضخيم الجثة ممتلئ البدن سمين الاطراف كبير العينين عابساً مقطباً ثابت العقد ماضي العزيمة . ولكنه كان في الوقت نفسه سهل الانقياد كثير التخلي . وكان واسع الخلق رحب الصدر حلیم الطبع ولكنه يجمع الى ذلك سرعة البادرة وشدة الغضب . وجاء ايضاً انه كان متواضع النفس وشديد الكبرياء في آن معاً .

اخباره الاولى : وأراد ديوقليتيانوس الامبراطور ان يجعل جلوس الامبراطور امرأ مديناً لا علاقة له بالجيش . فجعل للدولة الرومانية امبراطورين وجعل لكل منهما قيصرأ يعاونه في الحكم ويحل محله عند الوفاة او اعتزال الوظيفة . وطبق هذا النظام الجديد . فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم . وحكم هو الشرق متخذاً نيقوميذية قاعدة له ، وحكم مكسيميانوس الغرب وجعل قاعدته ميلان . ثم نصب غلاريوس قيصرأ يحكم ايليرية واليونان ومقدونية واقام قسطنديوس كلوروس ابا قسطنطين قيصرأ حاكماً على غالية واسبانية وبريطانية . فلما استقال الامبراطوران ديوقليتيانوس ومكسيميانوس في السنة ٣٠٥ تولى الحكم بعدهما بموجب النظام الجديد كل من غلاريوس في الشرق وقسطنديوس في الغرب . وعين الامبراطوران الجديدان قيصيرين جديدين سويروس على ايطالية وافريقية ، ومكسيميانوس على سورية ومصر .

ثم توفي قسطنديوس الامبراطور الغربي في السنة ٣٠٦ في يورك من اعمال بريطانية . فعبث ابنه قسطنطين بالنظام الجديد وأعلن نفسه قيصرأ على غالية واسبانية وبريطانية . ولم يرض الحرس في رومة عن غلاريوس فنادوا بمكسنتيوس بن مكسيميانوس امبراطوراً . وعادت شهوة الحكم الى قلب مكسيميانوس الوالد المستقل ، فأعلن نفسه امبراطوراً ايضاً . وأصبح للدولة الرومانية اباطرة ثلاثة وقيصرة ثلاثة . وثار جنود سويروس عليه فقتلوه . فعين

غلاريوس قيصرًا جديدًا محله يدعى ليكينيوس . وقُبض على مكسيميانوس
 في مرسلية في السنة ٣١٠ فقُتِل بامر قسطنطين في السنة ٣١١ وتوفي
 غلاريوس في هذه السنة نفسها من مرض ألمَّ به . ثم زحف قسطنطين على
 ايطالية وقهر مكسنطيوس في تورينو في السنة ٣١٢ فارتد هذا الى رومة .
 فلحق به قسطنطين ودحره مرة ثانية في ساكسة روبرة عند الصخور الحمراء .
 وغرق مكسنطيوس في نهر التيبير . فلم يبق في الميدان سوى قسطنطين
 وليكينيوس . فحكم الاول الغرب وحكم الثاني الشرق . ثم شجر الخلاف
 بينهما في السنة ٣١٤ فاضطر ليكينيوس ان يتنازل عن ايليرية ومقدونية
 وآخية لقسطنطين . واستأنف الامبراطوران القتال في السنة ٣٢٣ فانكسر
 ليكينيوس في ادريانوبل وخليقدونية واستسلم في نيقوميذية . فأمر قسطنطين
 بقتله ، فقتل في السنة ٣٢٤ . وهكذا أصبح قسطنطين حاكم الامبراطورية الفرد .
 موقفه من النصرانية : والشائع الذي دونه المعاصرون^٢ هو ان
 قسطنطين في شفق ليلة من ليالي حربه ضد مكسنطيوس في خريف السنة
 ٣١٢ شاهد فوق قرص الشمس الجائحة الى المغرب صليبا من نور مكتوبا
 عليه « بهذا تغلب^٣ » وان السيد ظهر له في اثناء تلك الليلة حاملا هذه
 الشارة نفسها موصيا اياه باتخاذها راية يهجم بها على العدو . وتنص هذه
 المصادر ايضا على ان قسطنطين استدعى اركانه عند فجر اليوم التالي وقص
 عليهم ما راي وأمر باتخاذ الصليب شعارا . وراية قسطنطين هذه التي
 اصبحت فيما بعد راية دولة الروم كانت تتألف من صليب تنسدل من
 عارضته الافقية قطعة من الحرير المزركش بالذهب المرصع بالحجارة الكريمة

١ *Saxa Rubra* وهي *Primaporta* الحالية .

٢ *Lactantius, De Mortibus Persecutorum; Eusebius, Constantini, I, 38-40.*

٣ هكذا في الاصل اليوناني وفي المراجع اللاتينية : *IN HOC SIGNO VINCES*

٤ *Labarum.*

تحمل صورة قسطنطين وولديه ويعلو الصورة اكليل من ذهب في وسطه
مونوغرام السيد المسيح .

ومما جاء في المصادر المتأخرة ان قسطنطين تقبل سرّ المعمودية بعد
انتصاره على مكسنتيوس في السنة ٣١٢ نفسها . ويرى العالم الافرنسي جول
موريس الاختصاصي في المسكوكات البيزنطية القديمة ان لا بد لقسطنطين
ان يكون قد تعمد آتئذٍ لظهور مونوغرام السيد المسيح على مسكوكاته
ولاهتمامه وعنايته بالنصارى بعد ذلك ولاسباب اخرى لا مجال لذكرها هنا
فلترجع في مظانها . ويرى غير هذا العالم من رجال الاختصاص ايضاً ان
دليله ضعيف وان المراجع الاولية قليلة غامضة وان قسطنطين بقي وثنياً
طوال حياته وانه لم يتقبل النصرانية الا على فراش الموت^٢ .

براءة ميلان: وسواء تقبل قسطنطين المعمودية فور انتصاره على
خصمه في رومة في السنة ٣١٢ ام على فراش موته فانه ما كاد يرتب امور
رومة حتى انتقل الى ميلان في مطلع السنة ٣١٣ ليجتمع بزميله ليكينيوس
وكان هذا قادمًا الى ميلان ليتزوج من قسطنطية Constantia اخت
قسطنطين . وبقي الامبراطوران شهرين كاملين يشتركان في ميلان في افراح
العرس ويتشاوران في امور الدولة .

وكان غلاريوس الامبراطور قد اصدر قبيل وفاته في السنة ٣١١ براءة
صفح فيها عما سلف للمسيحيين من مخالفات لاوامر الدولة واقر حقهم الشرعي
في ممارسة دينهم : « وللمسيحيين ان يستمروا في الوجود وان ينظموا
اجتماعهم شرط الا يخلتوا بالنظام . وعليهم بناءً على تسامحنا وتعطفنا ان
يصلوا الى المهم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم^٣ . » ورأى

Manrice, Jules, Constantin le Grand, 30-36.

Vasiliev, A.A., Byz. Emp., 48.

Lactantius, De Mortibus Persecutorum, 34 : 4-5.

Eusebius, Historia Ecclesiastica, viii, 9-10.

الامبراطوران المجتمعان ان يشددا في تنفيذ هذه البراءة . فكتب كل منها الى عماله بوجوب السهر على التنفيذ . ولدى عودة ليكينيوس الى نيوميذية كتب الى حاكمها في الثالث عشر من حزيران سنة ٣١٢ ان يبيح للمسيحيين ولغيرهم ايضاً العبادة كما يشاؤون وذلك ليصبح كل انسان حراً في امر عبادته^١ . ورد للمسيحيين الابنية والكنائس التي كانت قد صودرت من قبل . وفي خريف السنة ٣١٥ أحيا قسطنطين اوامر اسلافه الاباطرة فحرّم التبشير باليهودية والدعاية لها^٢ . ثم بعد سنة وجد نفسه في ميلان مرة اخرى لينظر هذه المرة في امر الدوناتيين فيحكم عليهم . وفي اول اذار من السنة ٣١٧ تلقاه في سرميوم في إيليرية يعلن ابنه كريستوس وقسطنطين الاصغر قيصرين وذلك في الوقت نفسه الذي اعلن فيه زميله ليكينيوس ابنه ليكينيانوس قيصراً ايضاً . ونراه يتقبل بهذه المناسبة الحرفين اليونانيين «خي» و«ايوته» ، فيأمر بنقشهما على خوذته في النقود الصادرة عنه . وهذان الحرفان هما مونوغرام السيد المسيح باليونانية . وفي السنة ٣٢٦ بعد تغلبه على زميله ليكينيوس نراه يتخذ لنفسه علم اللباروم الشهير المشار اليه آنفاً فيظهر على رأس هذا العلم المونوغرام المسيحي المذكور .

مجمع نيقية : وعلى الرغم من هذا كله استمرت سياسة الدولة الرومانية الدينية هي نفسها التي اقرت في ميلان سنة ٣١٢ سياسة تسامح وتساوي بين جميع الاديان . واستمر الامبراطور قسطنطين حبر الدولة الاعظم يرعى جميع الاديان بالتساوي والتسامح . وهكذا نراه يعلن لجميع الرعايا بعد انتصاره على خصمه ليكينيوس انه وان يكن قد انتصر بمعونة اله المسيحيين فانه

Lactantius, op. cit. 48, 4-8 ; Eusebius, op. cit. X, 5, 6-9.

Cod. Theod., XVI, 18, 1.

لا يُكره احداً ان يذهب مذهبه وان لكل من رعاياه ان يتبع الرأي الذي يراه .

واختلف الاحبار المسيحيون في هذه الآونة واختصموا . واتصل خلافهم بالقساوسة والرهبان والافراد . فاضطر قسطنطين الكبير ان يتدخل في الامر لانه كان حبر الدولة الاعظم ورأسها فمن واجبه ان يحافظ على الامن وحرية العبادة ثم انه كان يعطف على النصرانية ويعترف بفضل اله النصرى كما اشرنا . وكان قد سبق له مثل هذا عند ظهور الدوناتية في افريقية . ولكن الانشقاق الذي ادى الى تدخله الشخصي هذه المرة كان اشد خطراً بما لا يقاس مما حدث في ولاية افريقية . فانه حادث هدد السلم في الولايات الشرقية . وتفصيل الامر ان آريوس Arius احد قساوسة مصر وراعي كنيسة بوكاليس فيها قال بخلق الابن وخلق الروح القدس فانكر بذلك الوهية المسيح واثار عاصفة هوجاء من الانتقاد والاحتجاج شملت العالم المسيحي بكامله . ولسنا نعلم الشيء الكثير عن آريوس هذا . نجعل محل ولادته وتاريخها كما نجعل تفاصيل فلسفته الدينية . وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها الا مقتطفات يسيرة جاءت في بعض الردود عليه ولاسيما ما كتبه القديس اثناسيوس الكبير . ولولا تعلق المؤرخ يوسيبوس به لما حفظت رسائل قسطنطين عنه . وقد يكون لما اورده القديس امبروسوس اهمية خاصة لانه اطلع فيما يظهر على تقارير الاسقف هوسوس الذي انتدب للتحقيق في قضية آريوس قبيل انعقاد المجمع المسكوني الاول .

وهال قسطنطين امر هذا الانشقاق . وكان يجلُّ اسقفاً اسبانياً يدعى هوسوس وهو الذي سبق ذكره . وكان هذا شيخاً جليلاً محترماً . فأستدعاه قسطنطين اليه وانفذه الى الاسكندرية ليتصل بجرها الكسندروس

ويصلح الحال . وكتب الى كل من الكسندروس وآريوس فيها بوجوب التآلف ونبد الحُصام . وألَمع الى وجوب طاعة الرئيس كما اشار الى « ان الاختلاف العقائدي امر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام » . ولكن هوسوس اخفق في الاسكندرية وعاد الى نيقيميذية . وقصد اليها كل من الكسندروس وآريوس . واقترح هوسوس عقد مجمع مسكوني يضم جميع اساقفة النصرانية للبت في قضية آريوس . فقبل الامبراطور اقتراحه ووجه الدعوة الى جميع الاساقفة في الامبراطورية الرومانية جاعلاً تحت تصرفهم وسائل النقل الرسمية . وعيّن نيقيمة مركز الاجتماع بدلاً من نيقيميذية عاصمة الدولة الموقفة لانحياز اسقف نيقيميذية الى آريوس ولعطف قسطنديية عليه .

ولبى الدعوة عدد غير قليل من الاساقفة ، مئتان وخمسون في رواية يوسيبوس ، ومئتان وسبعون في رواية افسيتاثيروس ، وثلاث مئة في رواية اثناسيوس القديس ، وثلاث مئة وثمانية عشر في رواية القديس هيلاريوس . وكان معظم هؤلاء من الولايات الشرقية . ودامت جلسات المجمع سبعة وتسعين يوماً بين العشرين من ايار سنة ٣٢٥ والحامس والعشرين من آب من السنة نفسها . وجلس افسيتاثيروس بطريرك انطاكية الى يمين الامبراطور وكان قد اشتهر بعلمه ورسائله وتقواه ، فافتتح المجمع بكلمة شكرٍ رفعها الى الامبراطور وبيّن فيها فضله على النصارى . وقام قسطنطين فألقى كلمة باللاتينية ترجمت الى اليونانية اشار فيها الى جمال الدين المسيحي مستشهداً ببعض اخبار السيد مؤكداً تعلقه بمشيئة رب السموات . ثم طلب الى المجتمعين ان يعودوا الى الكتب ليوحدوا الصفوف . وخرج من المجمع تاركاً الاساقفة في خلوة للعمل . فتشاوروا برئاسة احدهم ، ولعله الاسقف هوسوس صديق الامبراطور . وظل قسطنطين يتابع اعمالهم عن كتب . وفي الحامس والعشرين من تموز دعاهم الى حفلة في قصره في نيقيميذية

لنماصة انقضاء عشرين سنة على تسلمه الحكم . فاستقبلهم فيها حرس
الامبراطور مقدمين السلاح .

واستمع الاعضاء الى شكوى الكسندروس الاسكندري ثم الى موقف
آريوس من الثالث كما ظهر هذا الموقف في رسائله . فأيد آريوس عشرون
اسقفاً وخالفه الباقون . وأقر الاعضاء دستور ايمان مُعدّل في المجمع الثاني
فاصبح دستور ايمان المسيحيين اجمعين ولا يزال كذلك . وهو يسند الى
الكسندروس واثناسيوس الاسكندريين وهوسيوس الاسباني . ونظر المجمع
في مسائل اخرى كمسألة عيد الفصح والمعمودية . وسنّ عشرين قانوناً اهمها
ما تعلق بنظام الكنيسة . فنصّ القانون الرابع على ان الاسقف الواحد
يجب ان يشترك في اختياره جميع اساقفة الابرشية . فان كان هذا مستصعباً
لضرورة قاهرة او لبعد المسافة فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد اشتراك
الغائبين في التصويت وموافقهم كتابةً . وحينئذ يعملون الشرطونية . اما
تثبيت الاجراءات في كل ابرشية فنوط بالمتروبوليت .

وجاء في القانون الخامس : « لقد رأينا حسناً ان تعقد مجامع في كل
ابرشية مرتين في السنة لكي تُبحث امثال هذه المسائل باجتماع عمومي
من جميع اساقفة الابرشية . » وقضى القانون السادس : « بان تكون السلطة
في مصر وليبية والمدن الخمس لاسقف الاسكندرية لان هذه العادة مرعية
للاسقف الذي في رومة ايضاً . وعلى غرار ذلك فليُحفظ التقدم للكنائس
في انطاكية وفي الابرشيات الاخرى . » وجاء في القانون السابع : « انه
جرت العادة والتسليم ان يكون الاسقف الذي في اِلْيَة (اي اوروشليم)
ذا كرامة . فلتكن له المتبوعة في الكرامة . »

وأيد قسطنطين هذه القرارات وأمر بوجود تنفيذها والخضوع لها
ونفى من الاساقفة كل من امتنع عن الموافقة عليها . ونفى الاب آريوس
ايضاً . ومنح الاكليروس المسيحي والعداري والارامل مبالغ محدودة

كانت تؤخذ من دخل المدن لا من موازنة الدولة . ووهب الكهنة الضمانات نفسها التي كان يتمتع بها الكهنة الوثنيون . واهتم قسطنطين في هذه الآونة نفسها ، ولاسيما السنتين ٣٢٥ و ٣٢٦ ، للضعفاء فمنع تفريق عائلات الارقاء عند اقتسام الاراضي وحرّم مطالبة الكولوني باكثر من طاقتهم كما حرّم مشاهد المصارعة المؤلمة . وأمر بهدم بعض المعابد الوثنية التي اشتهرت بفسقها ، ومنها هيكل عشروت في افقا لبنان . فقد جاء في ترجمة حياة قسطنطين ليوسيبوس المؤرخ ما تعريبه : « لما استوى قسطنطين على منصة الملك رقب من سمو عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحدى به غيضة . وكان المعبد قد اقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزهرة يتوارد اليه البغايا واهل الفجور . فأضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ولم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل اليه ليتحقق صحة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من اخص واجباته ان يقوِّض اركان ذلك الزون النجس . فأمر عماله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامه ويتلفوا ما حمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى افقا فئة من الجند نفذوا اوامر الملك ولم يبقوا ولم يذروا . وكان ذلك في السنة ٣٢٥ . اما سكان افقا فأمروا بان يبارحوا مساكنهم فأستوطنوا بعلبك . »

القديسة هيلانة : وفي مطلع السنة ٣٢٦ قام قسطنطين الى رومة ليحتفل فيها كما احتفل في نيقوميذية بعيده العشرين . وأصدر في الثالث من شباط قانون الزنى واردفه في اول نيسان بقانون الحطف والاعتصاب وبقانون زواج اليتيم . ولعله حرّم السراري على المتزوجين في هذه الآونة

ايضاً . ورأت زوجته فاوسطة ان تستغل محافظة زوجها على الآداب والاخلاق فاتهمت كريسيبوس ابنه من خربتها ، وكان قد بلغ العشرين من العمر ولمع في ميادين القتال ، بمحاولة الاعتداء على عفتها . فأمانته والده مسموماً . ثم أتهمت هي بدورها بالحيانة وكانت لا تزال وثنية تشابه في صورتها الجانبية والدها مكسيميانوس ، وكان قسطنطين يكرهه ، فأمر قسطنطين باماتها هي ايضاً خنقاً بحمام ساخن .

وكانت والدته القديسة هيلانة قد استقرت في رومة وامتعت بلقب اوغوسطة واثرت ثراءً كبيراً . فعزمت في السنة ٣٢٦ على القيام برحلة الى فلسطين للتبرك بزيارة الاماكن المقدسة . وغادرت رومة في اواخر الصيف واتجهت شطر فلسطين بجرأاً . وكان قسطنطين قد فاوض مكاريوس اسقف اوروشليم في اقامة كنيسة لائقة بالسيد في جلجثة في اوروشليم تكون افضل الكنائس . فأستحيت القديسة الاسقف على اتمام هذا العمل . فتم البناء في السنة ٣٣٥ . وكان قد سبق للنصارى ان اقاموا في القرن الثالث بناءً مئمن الاضلاع والزوايا فوق الكهف الذي ولد فيه السيد في بيت لحم ، فأضافت الى هذا المئمن بازليقة فخمة . وفعلت مثل هذا عند كهف الصعود . وعند انتهاء هذا القرن الرابع بدأ النصارى يتناقفون خيراً مؤداه ان القديسة هيلانة ، بعد تفتيش دقيق وعناء شديد ، وجدت ثلاثة صلبان في جلجثة ، وانها أحبت ان تتعرف الى صليب السيد منها فلمست بها جسد مريض شاب وانتقت منها ذاك الذي شفى المريض . ولدى عودتها اذابت بعض مسامير الصليب في معدن خوذة قسطنطين الاول والآخر في لجام حصانه كما انها وزعت عود الصليب على كنائس عدة .

آريوس ثانية : ولم يتمكن المجمع المسكوني من استئصال بذور الشقاق فالآريوسيون كانوا كثيراً تؤيدهم قسطنديية اخت الامبراطور . ويقول المؤرخ صوزومينوس ان قسطنديية اوصت اخاها وهي على فراش

الموت بكاهن آريوسي كان قد أصبح معلم ذمتها وان هذا الكاهن قدم يوسيميوس الآريوسي اسقف قيصرية الى قسطنطين الامبراطور فتمكن الاسقف من اقناع الامبراطور انه لا فرق بين ايمان آريوس وايمان المجمع وان الامبراطور اعاد آريوس من منفاه وارسله في السنة ٣٣٠ الى الاسكندرية^١. وعاد الآريوسيون الى العمل فعدوا مجعاً في انطاكية في السنة ٣٣٠ وقطعوا افسينثيوس بطريك انطاكية وغيره ونفوه بامر قسطنطين . وقام آريوس الى الاسكندرية فمنعه بطريكها اثناسيوس الكبير من الدخول اليها . فاتهم الآريوسيون بالتعاون مع مُطالب بالحكم على مصر وبدفع الضرائب اليه . فأضطر اثناسيوس ان يقصد القسطنطينية للدفاع عن نفسه . فأصغى قسطنطين اليه وعفى عنه وسمح له بالعودة الى الاسكندرية . وفي السنة ٣٣٣ عقد الآريوسيون مجعاً في قيصرية فلسطين ودعوا اثناسيوس اليه فلم يحضر . ثم اعادوا الكرة في السنة ٣٣٥ فعدوا مجعاً في صور فدعوا اثناسيوس فحضر فقطعوه . فأستأنف حبر الاسكندرية قرارهم ، فأمر قسطنطين بانعقاد مجمع في القسطنطينية في السنة ٣٣٦ . وفاز الآريوسيون باغلبية المقاعد فحكّم هذا المجمع على اثناسيوس فنفي الى فرنسة^٢ . وأصر آريوس على العودة الى الاسكندرية ولكن الاسكندريين لم يقبلوا به فأمره الامبراطور ان يخدم الاسرار في القسطنطينية . فأعترض اسقفها الكسندروس فأكرهه على ذلك اكرهاً . ومات آريوس في السنة ٣٣٦ وظلت قضيته قائمة حتى السنة ٣٩٥ كما سيحىء بنا .

القسطنطينية : وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه

Sozomenis, Hist. Eccl. II, 16-17, III, 13.

Gwatkin, Studies on Arianism, 57, 96.

Theodoretus, Hist. Ecc. ;

Socrates Scholasticus, Hist. Ecc.

في الشرق اكثر من الغرب . فالقبائل البربرية التي كانت تهدد حدود الدولة في اوروبة كانت تتأثر كثيراً بحركات القبائل الضاربة في مراعي روسية الجنوبية ، والاسرة الساسانية التي كانت قد اعادت الى فارس نشاطها وطموحها كانت قد بدأت تطمع في ولايات رومة الشرقية . وكانت هذه الولايات الشرقية قد احتفظت بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي الى الحزينة مبالغ عظيمة من المال تفوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية . وكانت ولايات البلقان تقدم افضل الرجال للجيش . ولمس قسطنطين هذا كله فرأى ان لا بد من انشاء عاصمة جديدة في الشرق تسهل الدفاع عن الدانوب والفرات وتضمن الطمأنينة اللازمة لابناء الولايات الشرقية . فاراد في البدء ان يجعل مسقط رأسه نيش عاصمة لملكه . ثم اتجهت نظاره نحو صوفية Sardica وثيرسالونيكية . ورأى بعد ذلك ان طروادة احق بالشرف من هذه جميعها لانها كانت موطن الجبابرة ومسقط رأس الرومانيين الاولين الذين امسوا رومة . وقام اليها بنفسه وخطط العاصمة الجديدة فيها وفي ضواحيها وانشأ الابواب الرئيسية ولكنه تراءى له في حلم ان إلهه يأمره بالتفتيش عن محل آخر فوقع اختياره على بيزنطة^١ .

وكانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها ابناء ميغارة Megara في السنة ٦٥٢ قبل الميلاد للتجارة بحبوب روسية الجنوبية ومعادن حوض البحر الاسود ومصايد البوسفور . وقامت بيزنطة هذه على رأس نائيء في البحر عند اول فجوة داخلية في ساحل البوسفور الاوروبي . وكانت هذه الفجوة على شكل هلال مائي داخل في الارض عشرة كيلومترات ولذا اسمه المتأخر « القرن الذهبي » . واتخذت بيزنطة شكل الرأس الذي عليه

Sozomenis, Hist. Ecc. II, 3.

Piganiol, A., Emp. Chretien, 49.

فأصبحت مثلثاً تحمي المياه جانبيين من جوانبه الثلاثة، ويحمي جانبه الثالث سور قوي لا تتحكم فيه أية مرتفعات مجاورة .

وجاءَ في التقليد ان الامبراطور المؤسس عندما بدأ بتخطيط العاصمة الجديدة أمسك رماً بيده وطاف حول بيزنطة وأطال الطواف ، فقال له رجال الحاشية : متى تقف يا سيد ؟ فأجاب : عندما يقف هذا الذي يسير امامي .

وشاع بين القوم ان قوة سماوية كانت ترشده سواء السبيل . والواقع ان قسطنطين لم يقف الا بعد ان ادخل في تخطيطه كل التلال السبع التي ضمها الرأس بين بحر مرمره والقرن الذهبي . واختار قسطنطين الجزء الجنوبي الشرقي من بيزنطة فانشأ فيه قصره الامبراطوري . وجعل من الساحة المستطيلة التي وقعت الى الشمال الغربي من هذا القصر ساحة عمومية رئيسية دعاها الاوغوستايوم Augustaeum ، اي ساحة اوغوستوس فغطى ارضها بالمرمر واحاطها من جميع جوانبها بالمنشآت العامة . واقام الى غربي ساحة اوغوستوس الملعب الكبير Hippodromus الذي أصبح فيما بعد مسرحاً للسياسة ولجميع ظواهر الحياة العامة في العاصمة . فكانت يشمل فيما شمل الكاثيسمة Kathisma ، اي لوج الامبراطور . وكان العرش العظيم الذي اقيم في وسط هذا اللوج هو المكان الذي يطل منه الامبراطور على شعبه في غالب الاحيان . وازدان هذا الملعب بمسلة فرعونية أحضرت من مصر وبالثعبان النحاسي ذي الرؤوس الثلاثة الذي صنعه بوسانياس لهيكل دلفي بمناسبة الانتصار على الفرس في بلانية (٤٧٩ ق. م) وبالعمود البرونزي المربع . وانشأ قسطنطين بالقرب من هذا الملعب والى شرقيه بناءً صغيراً جعله نقطة الانطلاق لبعده المسافات في جميع انحاء العالم الشرقي ودعاها المليون Milion . وكان هذا المليون يشبه الهياكل ويقوم سقفه على سبعة اعمدة وبداخله

تمثال للامبراطور وتمثال آخر لوالدته هيلانة . وخص قسطنطين المسيحيين
بكنيسة كبيرة اسمها كنيسة الحكمة الالهية Hagia Sophia . ولم تكن
هذه كنيسة الحكمة الالهية الحالية بل كانت بازيلقة احترقت مرتين
فاندثرت . واقام قسطنطين في هذه المنطقة نفسها مجلساً للشيوخ وقصراً
للبطريك .

ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة . وربما كان
ذلك بين السنة ٣٢٨ والسنة ٣٢٩ ولكننا نعلم ان تدشينها جرى في
الحادي عشر من ايار سنة ٣٣٠ وان الاساقفة النصارى باركوا القصر
واقاموا صلاة خصوصية في كنيسة الحكمة .

ودعا قسطنطين عدداً من شيوخ رومة القديمة وعدداً كبيراً من كبار
الاغنياء في بلاد اليونان وآسية للاقامة في العاصمة الجديدة . واغرى آلافاً
من رجال الفن والصناعة والتجارة للغرض نفسه . ووزع القمح والزيت
مجاناً على السكان . وخصص القمح الذي كان «يجبى» من مصر للعاصمة الجديدة .
وجعل قمح قرطاجة لمؤونة العاصمة القديمة . وأصدر أمراً منح بموجبه المدينة
الجديدة لقب «رومة الجديدة» ولكن الشعب اطلق عليها اسم القسطنطينية^١ .
ولا يختلف اثنان في ان نقل العاصمة الى هذا المقر الجديد كان في حد
ذاته عملاً تاريخياً عظيماً لانه اعطى الدولة الرومانية حصناً منيعاً تصمد فيه
فتصد هجمات البرابرة وتحفظ تراثاً مديناً كبيراً ولانه أمدد النصرانية
بعاصمة تنطلق منها الى جميع الجهات ، لاسيما وان رومة كانت لا تزال

Maurice, J., Origines de Constantinople, Paris, 1904 ;

Brehier, L , Constantln et la Fondation de Const., Rev. Hist., 1915, 238;

Emereau, C. , Notes sur les Origines de Const., Rev. Arch. 1925, 1 - 25.

اومان: الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، الفصل الاول ص ٣ - ١٣ .

حصن الديانة القديمة وانها بقيت وثنية الى وقت طويل^١ .
الادارة : ونهج قسطنطين في اصلاح الادارة الطريق نفسه الذي
 سلكه ديوقليتيانوس . ففصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وقوى
 الحكومة المركزية وحصر سلطتها العليا في شخص الامبراطور . ولم يكن
 هذا الاتجاه في الاصلاح ابن ساعته . فسويتونيوس المؤرخ الروماني يقول
 ان كاليكيولا الامبراطور (٣٧ - ٤١ ب . م) كان على استعداد تام لتقبل
 التاج وان الامبراطور هيلوس جيلوس المحصي لبس التاج في ظروف
 خاصة وان اورليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥ ب . م) زين رأسه بالتاج في المواقف
 الرسمية واتخذ لنفسه لقب الاله في نقوشه الرسمية وعلى نقوده^٢ . ويرى رجال
 الاختصاص ان الاباطرة نقلوا رأيهم هذا في الحكم عن البطالسة والسوقيين
 ثم عن الساسانيين في ايام ديوقليتيانوس وقسطنطين .

وليس لدينا من النصوص الاولية ما يخولنا التبسط في وصف الادارة
 كما انشأها ديوقليتيانوس وأقرها قسطنطين . والمرجع الاولي الاساسي في هذا
 الموضوع هو لائحة رسمية^٣ بوظائف البلاط والادارة والجيش وباسماء
 الولايات ظنها المؤرخون السابقون من مخلفات القرن الرابع فاعتمدها في
 أبحاثهم . ولكن النقد الحديث يجعلها من بقايا القرن الخامس لا الرابع .
 وعلى الرغم من هذا يجوز القول ان حكومة الدولة الرومانية في عهد
 قسطنطين الكبير كانت قد اصبحت حكومة مطلقة الصلاحية تستمد سلطتها
 من قوة الجيش المرابط ومن محافظتها على الانظمة الموروثة ومن احترامها
 للقانون . وكان على رأس هذه الحكومة امبراطور متجلبب بعظمة شرقية

Uspensky, Th. Hist. of Byz. Emp. I, 60-62.

Deus et Dominus Aurelianus Augustus; Homo, L. Règne de l'Empereur Aurelien, 191-193.

Notitia Dignitatum.

يعلو رأسه التاج ويردّي جسمه الارجوان . وقد اعتزل قومه وعظم قدره وغشيت جلالته الابصار فخشعت امامها العيون وتصاغرت عندها المهمل لا يقوم بين يديه الا كل متهيب ناكس مطرق . وجمع الامبراطور في شخصه شقّي السلطة المدنية والعسكرية وأصبح مصدر التشريع كما اصبحت اوامره التفسيرات الوحيدة لما يصدر عنه من تشريع . ولما كانت جميع امور الدولة في عرف الرومان تخضع لسيطرة الحكام كان الامبراطور بطبيعة الحال رئيس رجال الدين ايضاً وخبيراً من احبارهم^١ . وجاء على رأس الادارة المدنية مجلس استشاري اعلى^٢ مؤلف من رؤساء دوائر الدولة من رئيس الحُصيان اقرب المقرين الى الامبراطور^٣ ومن قومس الاحسان والانعام^٤ وقومس الاملاك الخاصة^٥ ومن قسطور القصر المقدس^٦ امين القوانين ومن رئيس ديوان الرسائل^٧ . وكان هذا يشرف على الكتبة والبريد والحرس ودور الصناعة والشرطة . وكان بين هؤلاء رجال الامن العام^٨ .

وكان الامبراطور ديوقليتيانوس قد اقصى الشيوخ عن ادارة الولايات وجعلها جميعها تابعة له وضاعف عددها ليقبل موارد حكامها واهميتهم فجعلها مئة وعشرين بدلاً من خمسين . وجعل على رأس كل منها رئيساً^٩ يشرف

<i>Pontifex Maximus.</i>	١
<i>Consistorium Principis.</i>	٢
<i>Praepositus Sacri Cubiculi.</i>	٣
<i>Sacrae Largitiones.</i>	٤
<i>Res Privata.</i>	٥
<i>Quaestor Sacri Palatii.</i>	٦
<i>Magister Officiorum.</i>	٧
<i>Agentes in Rebus.</i>	٨
<i>Praeses.</i>	٩

على ادارتها وينظر في دعاويها القضائية . ثم جمع بينها فجعلها اثنتي عشرة ذيقوسية : بريطانية وغالية واسبانية وافريقية وايليرية في الغرب ، وداقية ومقدونية وتراقية وآسية والبونط والشرق ومصر في الشرق . وجعل على رأس كل ذيقوسية نائباً يشرف على اعمال رؤساء الولايات وينظر في ما يُستأنف اليه من الدعاوى . وجرّد قسطنطين المدبر الروماني القديم البرايفيكتوس^٢ من صلاحياته العسكرية وجعل منه حاكماً مدنياً اعلى . فقسم الامبراطورية الى اربع برايفيكتورات : غالية وايطالية وايليرية والشرق . فشملت برايفيكتورة الشرق ذيقوسيات الشرق ومصر وآسية والبونط وتراقية . وشملت ذيقوسية الشرق ولايات فلسطين الاولى وفينيقية وسورية الاولى وقيليقية وقبرص وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة وفينيقية اللبنانية والفرات وسوريا الثانية والرها وما بين النهرين وقيليقية الثانية واسورية والعربية . ولا تزال اسماء هذه الولايات محفوظة في القاب احبار الكنيسة الارثوذكسية حتى يومنا هذا .

فمتوبوليت بيروت « مقام من الله على بيروت وتوابعها ، متقدم في الكرامة ، متصدر في الرئاسة على كل فينيقية الساحلية . ومثله متوبوليت طرابلس ، ومتوبوليت صور وصيدا . اما متوبوليت حمص فانه متصدر في الرئاسة على كل فينيقية اللبنانية . ومثله متوبوليت بعلبك ومتوبوليت دمشق . ومتوبوليت حماه متصدر في الرئاسة على كل سورية الثانية ، ومتوبوليت حلب على سورية الاولى . ومتوبوليت حوران على كل بلاد العرب الصحيرية^٣ . »

Vicarius.

١

Praefectus.

٢

٣ خدمة القداس الالهي ليوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس الذبالوغوس ، ترجمة جراسيموس متوبوليت بيروت ، ص ٢٤٧ - ٢٥٠ .

وراقب رجال الامن العام الموظفين ورفعوا تقاريرهم الى رئيس ديوان الرسائل ولكن دون جدوى لان معظمهم كان بحاجة هو نفسه للمراقبة . وقضت قوانين الدولة بان يقام في كل مدينة او قرية كبيرة من يفتقد الفقراء في بؤسهم وينظر في امرهم^١ . وكان الاسقف المسيحي افضل من هذا وذلك ، لاسيما وان الامبراطور منحه حق النظر في بعض الامور برضاء الطرفين .

الجيش : واعلى ضباطه سيد الحياطة^٢ ، وسيد المشاة^٣ . وكان هؤلاء الاسياد اربعة في آخر ايام قسطنطين واصبحوا ثمانية فيما بعد . وكان عليهم ان يقودوا الجيوش وينظموا الحرب . وجاء بعد هؤلاء خمسة وثلاثون دوقاً يقودون قوات الحدود . وكان الجيش مؤلفاً من قوات ثلاث : قوة مرابطة على الحدود لا تجمد عنها ، وقوتين متحركتين . وكانت القوة المرابطة على الحدود بوبرية الاصل . تحرث ما أقطعت من ارض وتستغلها . وكان الابن فيها ملزماً ان يأخذ مكان ابيه . اما القوتان المتحركتان فانهما كانتا تحت تصرف الامبراطور ، الواحدة تدعى جماعة الرفقاء^٥ ، والثانية جماعة البلاط^٦ . وكان هنالك نوعان من الفرسان : نوع خفيف ونوع ثقيل . وكان الاول قديماً يعود الفضل في انشائه الى الامبراطور غالينوس الذي أُلحق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان جماعة من الفرسان جُنِّدَ افرادها من حلفاء رومة ، ولذا الاسم فرسان الحلفاء^٧ .

<i>Defensores.</i>	١
<i>Magister Militum Equitum.</i>	٢
<i>Magister Militum Peditum.</i>	٣
<i>Limitanei.</i>	٤
<i>Comitatenses.</i>	٥
<i>Palatini.</i>	٦
<i>Auxilia.</i>	٧

وكان النوع الثاني احدث عهداً من الاول واثقل سلاحاً وقد انشئ على طراز الفرسان الفرس ودعي المدرع^١. وكان معظم افراده من البرابرة من وراء الحدود.

طبقات المجتمع: ومنح الامبراطور كركلا حقوق الرومان المدنية لجميع سكان المدن في جميع انحاء الامبراطورية فأصبح كلهم مواطنين رومانيين منذ السنة ٢١٢ بعد الميلاد. ولكن هذا لم يعن التساوي بين جميع المواطنين. فبقي هنالك شرفاء ووضعا^٢: شيوخ وفرسان وجنود لا تنالهم شدة القانون في العقوبات واكثرية ساحقة خاضعة لكل ما جاء في القانون من قساوة وشدة. وانتظم الشرفاء طبقات طبقات فجاء على رأسهم القناصل ثم البطارقة ثم المدبرون فأبناء الجنود والموظفين وقد عرف هؤلاء باللقب كلاريسي^٣ ثم الموظفون المستجدون في الوظيفة الذين استحقوا لقب «صاحب الافضلية» او لقب «صاحب الكمال او البراعة»^٥. وانتظم سائر افراد الشعب طبقات وانحصروا فيها وأورثوها ابناؤهم من بعدهم. وجاء في طليعة هذه الطبقات طبقة الكورياس^٦ اصحاب الاملاك المقيمين في المدن وامهات القرى الذين تربعوا في دست الحكم فيها جيلاً بعد جيل. واتسق التجار واصحاب المهن والحرف نقابات مقفلة موروثه. ولا يستبعد ان يكون اصحاب الفاقة ممن تناول خبزه يومياً من مخازن الدولة^٧ قد اصبحوا في عهد قسطنطين طبقة موروثه ايضاً ومثله الكولوني

١ *Cataphracti* وهو لفظ يوناني معناه الدرع.

Honestiores, Humiliores.

Clarissimi.

Eminentissimus.

Perfectissimus.

Curiales.

Proletarii.

الذين سبقت الاشارة اليهم في فصل سابق .

الثقافة العامة : وكان قد طال عهد الامبراطورية ودام ثلاثة قرون متتالية وظل الناس في اطرافها يتكلمون لغاتهم الخاصة غير عابئين باللاتينية او اليونانية . فالقديس ايريناوس الذي كان يجيد اللاتينية واليونانية اضطر ان يتعلم الغالية للتفاهم مع سكان المنطقة التي كان يعمل فيها . وتكلم سكان الجزر البريطانية اللغة الكلتية كما تكلم المور في افريقية لهجاتهم البربرية الخاصة . ولم يتكلم الفينيقية فيها سوى الطبقة العليا من السكان وسكان مالطة . وعلى الرغم من انتشار اللاتينية في ايليرية فان سكان هذه المنطقة احتفظوا بلهجتهم الخاصة التي تطورت فيما بعد فأصبحت اللغة الالبانية . وظل الاقباط والاراميون والعرب والارمن محتفظين بلغاتهم الاصلية على الرغم من انتشار اليونانية واللاتينية في اوساطهم .

ومعظم الذين تكلموا اليونانية واللاتينية كانوا لا يزالون في عصر قسطنطين امين لا تهزم الفصحى . ولم يتعلم الفصحى من هاتين اللغتين الا عدد قليل من الناس . وعني هؤلاء عناية خاصة بقواعد اللغة وبعلم المعاني والبيان وبدلوا قصارى جهدهم في حقل الخطابة . وكانت جامعة اثينة لا تزال تعنى بالفلسفة ، وكانت الفلسفة الراجحة الافلاطونية الجديدة القائلة بوحدة الوجود ، اي : ان الله والكون واحد وان الكون المادي منبثق من الله . واول من قال بهذا النوع من التوحيد ووفق بينه وبين فلسفة افلاطون نومانوس الفيلسوف ، وهو فيلسوف سوري ابصر النور في ابامية في القرن الثاني بعد الميلاد وتلقى علومه الفلسفية في الاسكندرية ثم اقام في اثينة مدة وعاد الى ابامية يعلم ويرشد . ويرى رجال الاختصاص اليوم

ان افلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ ب . م) اثما ادعى لنفسه بما كان لغيره^١ .
 واشهر من علم بهذه الفلسفة بعد نومانيوس وافلوطين مالك البثني (٢٣٣ -
 ٣٠١) الذي درّس العلم والفلسفة في صور ثم انتقل منها الى اثينة فأخذ
 عن فيلسوفها لونيغينوس السوري وترجم اسمه مالك الى اليونانية فعرف
 بالفيلسوف بورفيروس اي المتوشح بالارجوان الملكي^٢ . واشتهر بعد
 بورفيروس في حقل الافلاطونية الجديدة بميليكسوس^٣ العيطوري . ولد في
 خلكيس (مجدل عنجر) في سهل البقاع في لبنان وعلم فيها وتوفي في السنة
 ٣٣٠ بعد الميلاد . واشتهر بميليكسوس بعدائه للنصرانية ودفاعه عن الوثنية
 وتطرفه في ذلك .

وآثر ابناء العائلات الرومانية الكبيرة درس القانون على غيره من العلوم .
 وأقبلوا عليه إما للحصول على وظيفة حكومية ، او لهجامة امام المحاكم ،
 او لمجرد الاطلاع والتثقف . وادى اهتمامهم بالقانون الى الاعتناء بعلوم
 اللغة ولاسيما الخطابة والفصاحة ، والى الاطلاع على مبادئ الفلسفة . وعندما
 حلّ القرن الثالث بعد الميلاد كان عصر البحث والتنقيب والاجتهاد في
 القانون قد أشرف على النهاية ، وحلّ محله عصر الجمع والتنسيق . وكانت
 بيروت قد أصبحت مستودعاً هاماً للقوانين الرومانية ومركزاً خطيراً
 لدرس هذه القوانين وتدريسها . وكان قد لمع بين اساتذتها اميلوس
 بابنيانوس المحصي مستشار الامبراطور سبتيميوس سويروس ، ودوميتيوس
 اوليانوس الصوري في القرن الثالث . فقام غريغوريوس البيروتي بجمع

Guthrie, K. , *Numenius of Apamea*, 96.

Porphyrios.

Jamblichus.

Aemilius Papinianus, Domitius Ulpianus.

القوانين في السنة ١٢٩٥ . وجاء بعده هيرموغنيانوس يعمل العمل نفسه
فيكمل مجموعة سلفه في السنة ٢٣٢٤ .

وكان هنالك طبقة من العلماء آثروا الاحاطة على التدقيق والتحقيق
فصنفوا في المواضيع الجامعة العامة . ولعل ابرزهم في عهد قسطنطين كان
يوسيبوس اسقف قيصرية فلسطين الذي توفي في السنة ٣٤٠ بعد الميلاد .
وقد أَلَفَ في الدفاع عن النصرانية ضد تهجمات اليهود الوثنيين . وكتب
في تاريخ الكلدانيين والاشوريين والعبيرانيين والمصريين واليونان والرومان .
واشتهر بمؤلفه تاريخ الكنيسة^٣ (منذ ظهور السيد حتى استظهار قسطنطين
على ليكيانيوس) الذي أصبح فيما بعد من اهم المراجع لتاريخ النصرانية
في القرون الثلاثة الاولى . وقد يكون تاريخ قسطنطين الكبير له ، وقد
لا يكون .

تنصره ووفاته : وفي السنة ٣٣٧ بعد الميلاد أعد قسطنطين العدة
لمحاربة الفرس . ولكن هؤلاء فاوضوه في الصلح قبيل عيد الفصح فاقف
استعداده للحرب . واحتفل قسطنطين بعيد الفصح في الثالث من نيسان .
ونالته الحمى ، فذهب الى مياه معدنية قريبة يستحم فيها . ثم انتقل الى
هيلانوبوليس فأثيرة بالقرب من نيقوميذية . وكان يلزمه في اثناء هذا
كله معلم ذمة اخته قسطندية . وكان هو يود ان يعتمد في مياه الاردن
كما فعل السيد نفسه . ولكن الوقت عاجله فقبل سر المعمودية عن يد
يوسيبوس اسقف نيقوميذية . وخلع الارجوان والقاه جانباً وتردى

Codex Gregorianus.

١

Codex Hermogenianus.

٢

Historia Ecclesiastica.

٣

Vita Constantini.

٣

بالبياض . وتوفي يوم العنصرة في الثاني والعشرين من ايار من السنة نفسها .
ولم يكن احد من اولاده بالقرب منه . وُحِطَّ جسمه ووضع في تابوت
من ذهب ونقل الى القصر في القسطنطينية ليتقبل احترام الوجهاء . وجاء
ابنه قسطنس قيصر من انطاكية ، فعرض جثمانه مكللاً بالتاج ملفوفاً
بالارجوان في ابهى قاعات القصر واجملها . ثم أمر بنقله بموكب فخم الى
كنيسة الرسل حيث صلى الاكليروس عليه طوال الليل ودفن فيها في
ناووس من الرخام السماقي . وألّه الشيوخ قسطنطين حسب العادة الرومانية
وعظّمه الشعب الوثني وعبده امام تمثاله الذي نصب فوق عمود من الرخام
السماقي في الفوروم .

Eutropius, Breviarium Historiae Romanae, X, 8;

Grégoire, Conversion de Const. , Rev. Univ., Bruxelles, 1930-1391, 270;

Eusebius, De Laudibus Constantini, XVI, 3-5.

الفصل الخامس

قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد

(٣٣٧ - ٣٦٣)

قسطنديوس : (٣٣٧ - ٣٦١) وتوفي قسطنطين الكبير عن ذكور ثلاثة جميعهم من زوجته فـاوسطة بنت الامبراطور مكسيميانوس وهم قسطنطين الثاني وقسطنديوس الثاني وقسطنس . وحكم الثلاثة الامبراطورية معاً . فتولى قسطنطين الثاني الغرب : ايطالية وغالية واسبانية وقسماً من افريقية . وتولى قسطنديوس الثاني الشرق باكملة . اما قسطنس فانه حكم ايليرية وقسماً من افريقية . وطمع قسطنطين الثاني في ملك قسطنس فحاربه ولكنه خسر صريعاً في اكويلية سنة ٣٤٠ . ثم تمرد الجند على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠ فأصبح قسطنديوس الثاني المالك وحده . وكان رجلاً عاقراً لا وارث له ، فأستدعى ابن عمه غالوس من منفاه ورفعاه الى رتبة قيصر وأمره على برايفكتورة الشرق وجعل مقره انطاكية . ولكن غالوس هذا كان جافي الطبع فظّ القلب قليل الرحمة فطغى وتجبّر وأرهب الناس ارباباً . فأستدعاه ابن عمه الامبراطور اليه في ايطالية في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأمره بقطع رأسه . وعندئذ طلب ابن عمه الاصغر يوليانوس وجعله قيصرأ على غالية .

شابور ذو الاكتاف^١ : وتوفي هرمز الثاني ابن نرسی في السنة ٣٠٩ بعد الميلاد وأوصى بالملك لشابور ابنه وهو لا يزال جديناً. فدام السلم بين فارس وبين رومة زمناً طويلاً. وشب شابور الثاني وتسلم ازمة الحكم فهاله انتشار النصرانية وعطف قسطنطين عليها خصوصاً لأنها كانت قد انتشرت بين رعاياه في بابل وطيسفون وجند شابور واشور وغيرها ولان تيريداتس الثالث ملك الارمن كان قد تقبلها في السنة ٣٠١. فتطورت الخصومة بين شابور وزميله الروماني وأصبح النزاع بينهما نزاع عقائد بعد ان كان نزاعاً مادياً إستراتيجياً كما سبق ان اشرنا. وهكذا فأنتنا نرى شابور يعقد مجعاً زرادشتياً يضم ائمة الدين الفارسي في السنة نفسها التي عقد فيها قسطنطين الكبير المجمع المسكوني الاول فيقر نصاً رسمياً نهائياً لكتاب الفستا، ونراه ينزل بنصارى بلاده بين السنة ٣٤٠ والسنة ٣٧٩ اضطهادات قاسية واسعة النطاق لانهم دانوا بدين قيصر وشاطروه المحبة والعطف والولاء^٢.

وكادت الحرب تقع قبيل وفاة قسطنطين الكبير في السنة ٣٣٧ كما سبق ان اشرنا. فقطع ذو الاكتاف الحدود في السنة ٣٣٨ وحاصر نصيبين. ثم عاد اليها في السنة ٣٤٦. وفي السنة ٣٤٨ جرت موقعة ليلية في منطقة منجمار. وفي السنة ٣٥٠ طلب ذو الاكتاف تغرانوس السابع ملك ارمينية للمفاوضة فأسره ومضى به الى بلاده، ويقال انه سمل عينيه لانه كان نصرانياً مثل سلفه. وفي السنة نفسها مشى ذو الاكتاف الى نصيبين للمرة الثالثة وشارف اسوارها مستعيناً بالفيلة التي استقدمها من الهند. ولكنه

١ « وقصد اليامة واكثر في اهله القتل وغور مياه العرب وسار الى قرب المدينة وفعل كذلك وكان ينزع اكتاف رؤسائهم ويقتل، فسموه شابور ذا الاكتاف. » - ابن الاثير ج ١، ص ٢٢٩، الطبعة المنيرية.

اخفق مرة اخرى وارقد على اعقابه لدرء خطر الشينيين الذين تدفقوا على فارس من الشمال والشرق . وفي السنة ٣٥٥ جدد ملك أرمينية ارشاك الثالث (٣٥١ - ٣٦٧) التحالف الروماني الارمني وتزوج من اوليمبياس خطيبة قسطنس السابقة . فأقضى ذلك مضجع شابور الثاني ذي الاكتاف واستفزه للحرب وخصوصاً لان عامله في بابل كان قد جرأه بما بالغ له في تصوير المشاكل التي كان يعانها قسطنديوس الامبراطور في الغرب . وعبر شابور دجلة في جيش عظيم في السنة ٣٥٨ فتجاوز نصيين هذه المرة ولم يحاصرها بل زحف على آمد (ديار بكر) فاخذها عنوةً بعد حصار دام شهرين . وكان قسطنديوس لا يزال في سيرميوم في إيليرية يعالج بعض المشاكل الدينية المسيحية ولاسيا علاقة الآب بالابن فقام منها الى القسطنطينية وبقي فيها طوال شتاء السنة ٣٥٩ - ٣٦٠ . وفي ربيع السنة ٣٦٠ نهض من القسطنطينية لمجاهة الخطر الفارسي . ولدى وصوله الى قبدوقية سمع بخيانة ابن عمه يوليانوس فلم يكثر لها لانه كان يجهل مواهب هذا الزميل الجديد . وكان شابور ذو الاكتاف قد استأنف الحرب فاحتل سنجار ثم اتجه منها الى بيت زبدي (جزيرة ابن عمر) على ضفة دجلة الغربية وحاصرها . فحاول قسطنديوس ان يفك هذا الحصار فلم يفلح . وسقطت بيت زبدي في يد الفرس في خريف السنة ٣٦٠ . واقبل فصل الشتاء فتوقفت الاعمال الحربية ولبت قسطنديوس في انطاكية وفيها احتفل بزواجه الثاني بعد وفاة بوسيدية زوجته الاولى .

وكانت حاشية قسطنديوس لا تزال توغر صدره على ابن عمه يوليانوس بينما خطر الفرس في الشرق يتعاظم ، فطلب الامبراطور الى ابن عمه القيصر ان يوافيه باحسن ما عنده من الجند للصمود في وجه الفرس . ويقال ان يوليانوس مال الى تلبية الطلب ولكن جنوده تمردوا احتجاجاً ونادوا به امبراطوراً في باريز في السنة ٣٦٠ . وكتب يوليانوس الى قسطنديوس

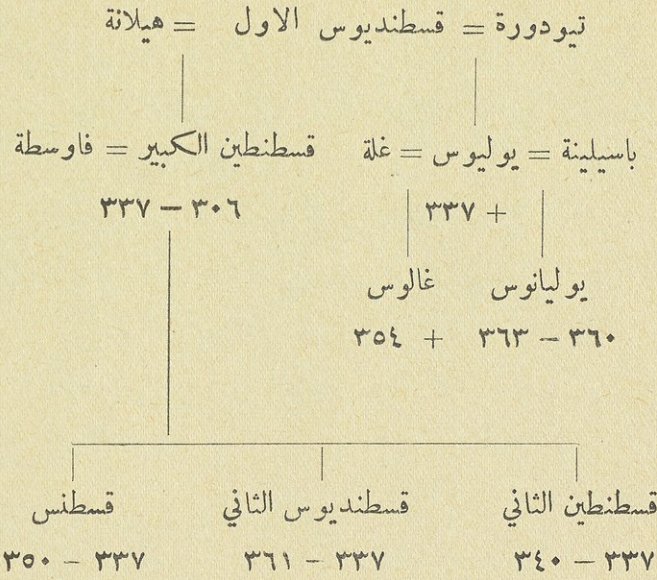
يرجو منه الاعتراف بما تم ولكن قسطنديوس اصرّ عليه ان يتنازل ويثبت الطاعة . فاضطر يوليانوس ان يزحف بجنده على الشرق . وسار قسطنديوس من انطاكية الى القسطنطينية فالغرب لمنازلة خصمه . ولكنه مرض وهو لا يزال في طرسوس ، واشتد الخطر على حياته فاعتمد بيد اسقف انطاكية الآريوسي افزويوس وتوفي على مسيرة يوم من طرسوس في الثالث من تشرين الثاني سنة ٣٦١ . واجمل ما يذكر عنه انه عندما اشرف على التلف اوصى بان يكون يوليانوس نفسه خلفاً له .

الوثنية : وأراد قسطنديوس الثاني ان يقضي على الوثنية فأمر بادىء ذي بدء « بان يوضع حد للخرافات وبان يستأصل مرض تقديم الذبائح . » ثم أمر باقتال الهياكل وحظر تقديم الذبائح للالهة مهدداً من يخالفه بالموت وبمصادرة الاملاك . وكان ان احتفل في السنة ٣٥٧ في رومة بمرور عشرين عاماً على تبوءه العرش فطاف بآثارها ودخل الى مبنى مجلس الشيوخ وفيه مذبح لالهة النصر فأمر بهدمه ، فأدرك الشيوخ وغيرهم من اعيان الوثنية ان دين الاجداد قارب النهاية .

ولكن قسطنديوس كان آريوسياً متطرفاً فأعلنها حرباً على النيقاويين الكاثوليكين الارثوذكسين فاضطهد اثناسيوس الكبير بطريك الاسكندرية ونفى هوسيوس الاسقف الاسباني صديق والده وهو في سن تزيد على المئة كما نفى ليباريوس بابا رومة لانه كان قد امتنع عن قبول مقررات مجمع ميلان (٣٥٥) .

يوليانوس الجاحد : (٣٦١ - ٣٦٣) هو يوليانوس ابن يوليوس ابن قسطنديوس الاول (كلوروس) . وهو اخو غالوس لايه لالامه كما كان والده يوليوس اخا قسطنطين الكبير لايه لالامه . فولادة قسطنطين

هيلانة ووالدة يوليوس تيودورة ووالدة غالوس غلة ووالدة يوليانوس
باسيلينة .



ولد يوليانوس في النصف الثاني من السنة ٣٣١ في ميسية على الدانوب .
وما ان مضت بضعة اشهر حتى توفيت والدته فنقل الى القسطنطينية ونشأ
في قصر لجدته في بر الاناضول لا يبعد كثيراً عن العاصمة . وفي السادسة
من عمره اي في السنة ٣٣٧ شهد مقتل والده وجميع اقربائه ونجا هو
واخوه غالوس باعجوبة فشب مضطرب العصب غير متزن . وتولى امره
في هذه الفترة من حياته يوسيبوس الاكروسي اسقف نيقيوميذية ونسيب
والدته فوكل امر تهذيبه الى نخعي نصراني (مردونيوس) كان شديد
الاعجاب بهوميروس الشاعر اليوناني . وتوفي يوسيبوس في السنة ٣٤١ ، فنفى
قسطنديوس الاميرين الصغيرين الى قصر في قبوقية على مسافة قريبة من
قيصرية . اما غالوس فشب شرساً احمق . واما يوليانوس فانه قضى ست
سنوات يدرس ويطلع مؤلفات اعاره اياها كاهن نصراني . وفي السنة ٣٤٧

امر قسطنديوس بانتقال غالوس الى افسس ويوليانوس الى القسطنطينية .
واقام يوليانوس في عاصمة الدولة سبع سنوات احتك فيها بعالمين شهيرين
احدهما وثني والآخر نصراني ، وتعلم مبادئ اللاتينية . ورحب الجمهور بالامير
الصغير واکرمه فدخلت الريبة نفس عمه وأمر بنقله الى نيقوميدية .
وكان ليبيانوس العالم الانطاكي (اللبناني ؟) قد ترك مدرسة نيقوميدية فلم
يتسن ليوليانوس ان يأخذ شيئاً عنه . ولكنه تابع الدرس في نيقوميدية
وحلق رأسه كمن يريد ان يكون فيلسوفاً مسيحياً . وفي السنة ۳۵۱ رضي
قسطنديوس عن الاميرين فجعل غالوس قيصرأ واعاد الى يوليانوس ارثه فاصبح
غنياً . ورحل يوليانوس في طلب العلم فأتم بورغامون في آسية الصغرى
واتصل فيها باديسيوس Adesius الفيلسوف الافلاطوني الجديد وبتلميذه
خريسانطيوس Chrisantius الفيلسوف الفيثاغوري . وتردد الى افسس فاتصل
بفيلسوفها مكسيموس وكان هذا يمارس ضروب السحر ، فوقع يوليانوس
تحت تأثير شعواته ، ودخل في زمرة اتباعه في كهف هيكلية إلهة الشياطين
عند الافلاطونيين الجدد . وسمع شقيقه غالوس بهذا كله فاضطرب وارسل
اليه من انطاكية معلم ذمته ليرده عن الضلال . وكان ما كان من امر
غالوس واعدامه في السنة ۳۵۴ . ومثل يوليانوس بين ايدي الامبراطور
قسطنديوس في ميلانو ليدافع عن نفسه فيما اتهم به من انه اجتمع بغالوس
في القسطنطينية . فشفت له الامبراطورة يوسيبية وأذن له بالاقامة في
آثينة . فتوجه اليها بشغف شديد والتحق بجامعة ثلاثه اشهر ، وذلك في
صيف السنة ۳۵۵ . وكان بين رفاقه فيها غريغوريوس النازيانزي وصديقه
باسيليوس القديس . ومما قاله فيه غريغوريوس فيما بعد : انه كان تأه
النظر في آثينة احرق السيئه تنتابه رعشات عصبية من آن الى آخر ، وان
اسئلته لم تكن منظمة او مرتبة .

وكان قسطنديوس يخشى تطلع العالمين الى الاستقلال . ولم يكن بإمكانه

ان يشرف بنفسه على امورهم لكثرة اشغاله ولشدة خوفه من شابور ومظامعه . فاستدعى يوليانوس اليه واطلعه على ما كان يخالج فؤاده ودفع به الى شفيعته الامبراطورة . فقالت هذه ليوليانوس : انت مدين لنا بالشيء الكثير وسيكون لك اكثر فاكثر بعون الله اذا كنت اميناً منصفاً . وكان يوليانوس قد التحى لحية الفلاسفة فأمر بها عمه فحلقت وارتدى يوليانوس لباس الامراء . وفي السادس من تشرين الثاني من السنة ٣٥٥ استعرض قسطنديوس الجند وامسك بيده يوليانوس وقال للجند : « انتم الحكم ! لقد طفى البرابرة على غالية واني ارشح يوليانوس قيصرأ ، فهل تقبلون ؟ » فصرخ الجند : « هذه هي مشيئة الله ! » وعندئذ وضع قسطنديوس التاج على رأس يوليانوس ووشحه بالارجوان . وشفع الجند عمله بان دقوا ركبهم بالثروس . ثم تزوج يوليانوس من هيلانة ابنة قسطنديوس وقام الى غالية . وبقي فيها ثلاث سنوات اظهر في اثنائها من الحزم والعدل والल्प ما فتن الناس به واذاع صيته في الغرب والشرق معاً . وكان ما كان من أمر شابور ذي الاكتاف فقضت الظروف العسكرية بوجود الاستعانة بافضل من في الغرب من جنود . على ان جنود يوليانوس آثروا المناداة به امبراطوراً وسايرهم هو على الامر . وفي صيف السنة ٣٦١ مشى الى الشرق على رأس خمسة وعشرين الفاً ، واحتل سرميوم ونيش . ثم علم بوفاة قسطنديوس وبما اوصى به فأسرع الى القسطنطينية ودخلها في الحادي عشر من كانون الاول سنة ٣٦١ .

مياسة يوليانوس الداخلية : وما كاد يوليانوس يجلس على اريكة القسطنطينية حتى أمر بتشكيل مجلس خاص لتطهير الادارة من ادران الحكم السابق . وتألف هذا المجلس من اخصاء الامبراطور العسكريين فحكموا بالاعدام على طائفة من رؤساء الدوائر المدنية وبالنفي على غيرهم . وتناول مثل هذا التطهير القصر الامبراطوري . فطرده الامبراطور الجديد

عدداً كبيراً من الخدم والحشم ولاسيا الحُصيان . و اراد ان يظهر بمظهر جمهوري فعظّم القناصل وجالس الشيوخ كأنه واحد منهم . وعلى الرغم من قلة النقد في الحزينة فإنه أمر بتخفيف ضريبة التاج التي كانت تجبى في مناسبة تبوء العرش .

موقفه من النصرانية والوثنية : وكان يوليانوس يرى في مصنفات علماء اليونان وفلاسفتهم ينبوع الثقافة كلها ، ويرى في فلسفتهم فلسفة عالمية تتعدى حدود اليونان الجغرافية فتشمل العالم بأسره . وكان يرى في مؤلفات فيثاغورس وأفلاطون وميليكسوس مؤونة فكرية كافية يستغني بها كل عالم عن كل قول فلسفي آخر . واستهواه ميليكسوس اللبناني وسيطر على تفكيره فابتعد عن افلاطون ولم يهتد بهديه .

ويستدل من رسائله ولاسيا تلك التي جعل عنوانها « الملك الشمس » انه قال باكون ثلاثة او شمس ثلاث : الشمس الاولى شمس الحقائق الراهنة والمبادئ السامية والعلة الاولى وهي التي سماها شمس النفس . والشمس الثالثة شمس المادة الملموسة وصورة انعكاس الشمس الاولى . وبين الاثنتين ، بين النفس والمادة ، شمس ثانية هي شمس العقل . ولما كانت الشمس الاولى بعيدة المنال وكانت الشمس الثالثة مادية غير صالحة للعبادة فإن يوليانوس عبد شمس العقل وسماها الملك الشمس . واعتقد انه هو سليل الملك الشمس يهتدى بارشاده عن طريق رؤى معينة يتفضل بها عليه الملك الشمس بين حين وآخر . وقال بتناسخ الارواح على طريقة فيثاغورس فاعتقد انه هو الاسكندر في دور آخر .

وتبنى في رسالته « ما يؤخذ عن النصرانية » موقف بورفيريوس الفيلسوف الحوراني اللبناني ، فقال ان الاله يهوه اله التوراة هو إله شعب خاص لا إله الكون بأسره ، وانه هنالك تناقضاً بين التوحيد في التوراة والتثليث في الانجيل وان الانجيل الاربعة متنافرة غير متألقة . وكره النصراني لانهم

كفروا بالالهة كما كره كل وثني لعن آلهة اجداده وجدّف عليها .
ولانعلم بالضبط متى أعلن يوليانوس نفسه وثنياً . وقد يكون ذلك في
السنة ٣٦١ في نيش عندما علم بوفاة قسطنديوس وبوصيته . ففيها ذبح
يوليانوس باسم الالهة ومنها كتب الى بعض اصدقائه . ولكن هذا لم يعن
اضطهاد النصرانية . فأنه عندما دخل القسطنطينية استدعى اليه مكسيموس
الوثني كما استدعى القديس باسيليوس رفيقه في جامعة آثينة .

ومنح يوليانوس الشعب حرية المعتقد وسمح بعودة من نفي مضطهداً .
فاغتنم الفرصة اثناسيوس الكبير وعاد الى الاسكندرية ولكن يوليانوس
ما لبث ان اصدر في السابع عشر من حزيران من السنة ٣٦٢ قانوناً
جديداً للتعليم حصر بموجبه تعيين الاساتذة بيد السلطة المركزية ومنع
المسيحيين من مزاولة هذه المهنة « لانهم حرّموا درس النصوص الفلسفية
القديمة » . فانبرى كل من ابوليناريوس كاهن اللاذقية وابنه اسقفها لنظم
التاريخ المقدس في لغة يونانية قشبية فصحة . فاخرجاً اربعاً وعشرين
قصيدة ضمنها اخبار التوراة منذ البدء حتى عهد شاوول . وحذا حذوها
غيرهما من الآباء . فتيسرت للنصارى نصوص يونانية فصحة استعاضوا بها في
تعليم اولادهم عن النصوص اليونانية الوثنية .

وافرغ يوليانوس مجهوده في تذليل الاكايروس فنزع منهم امتيازاتهم
وابطل ما كان قد أمر به قسطنطين الكبير من معونة لهم . وكان يقول
مستهزئاً ان قصده من ذلك ان يقود المسيحيين الى الكمال بمحملهم على
اتقان الفقر الذي امر به الانجيل . وعرّى الكنائس ونقل تحفها الى هياكل
الاوثان .

في انطاكية : ودبّ النشاط في صفوف قبائل القوط في قطاع

الدانوب . وحسب يوليانوس لذلك حسابه . ولكنه آثر العمل في الشرق في جبهة الفرات لانه كان يعتقد انه هو الاسكندر في دور ثانٍ . فقام الى انطاكية في صيف السنة ٣٦٢ فوصلها في التاسع عشر من تموز يوم انتخاب العذارى على مقتل اذوناي عشيق عشتروت . وكان ليبيانوس الفيلسوف الاديب قد عاد اليها ليعلم فيها اخوانه الانطاكيين ، فاستقبل الامبراطور الجاحد استقبالاً حاراً . ولكن انطاكية كانت قد اصبحت مسيحية . فحال يوليانوس اعراضُ اهلها عن الدين القديم وقلة اكرامهم بها كل دفنة المقدسة . فقال في احدى رسائله الى الانطاكيين : « هوذا الشهر العاشر شهر لوس الذي تبتهجون فيه بعيد ابولون الاله الشمس . وكان من واجبك ان تزوروا دفنة . وكنت انا اتصور موكبكم لهذه المناسبة شباناً بيضاً اطهاراً يحملون الحُور والزيت والبخور ويقدمون الذبائح . ولكني دخلت المقام فلم اجد شيئاً من هذا وظننت اني لا ازال خارج المقام ، فاذا بالكاهن ينبئني ان المدينة لم تقدم قرباناً هذه المرة الا وزّة واحدة جاء بها هو من بيته ! »

وأكرم يوليانوس ليبيانوس الفيلسوف الوثني ورقى عدداً من الوجهاء الى رتبة المشيخة فجعلهم اعضاء سناتوس انطاكية . ووهب للمدينة مساحات كبيرة من اراضي الدولة . ولكن الانطاكيين المسيحيين قابلوه بالهزاء ووجدوا في النقيضين : لحمة الطويلة وقامته القصيرة ، مجالاً واسعاً لان يمارسوا ما طاب لهم من ضروب العبث والسخر^٢ . وعبثاً حاول ليبيانوس ان يوفق بين الامبراطور وبين رعاياه الانطاكيين . ثم اشتد الخلاف وتفاقم

Julianus, Opera, II, 167; Wright, W. C., Works of Emp. Julian II, 487- 489.

Negri, G., Julian II, 430-470.

الشر حين اخرج الامبراطور بقايا شهيد انطاكية القديس بابللاس من قبره في دفنة . فغضب المسيحيون لكرامتهم واحرقوا في الثاني والعشرين من تشرين الاول هيكل ابولون . فاقفل الامبراطور كنيسة انطاكية الكتدرائية وأمر بنهبها وتدنيستها . فكسّر المسيحيون تماثيل الالهة وابى الجند المسيحيون ان يسيروا تحت لواء الامبراطور الجاحد لمحاربة الفرس . وعلم يوليانوس ان يسوع تنبأ بان لا يبقى من الهيكل في اوروشليم حجر على حجر . فلما يكذب الكتب اهتم لاعادة بناء الهيكل فارسل الى اوروشليم احد امنائه إلييوس ليشرّف على العمل . وتقاطر اليهود واجتمع عدد كبير منهم في مكان الهيكل . فحرقوا المكان وحفروا في الارض كباراً وصغاراً رجالاً ونساء . ولما انتهوا من هدم الاساسات القديمة واوشكوا ان يضعوا الاساسات الجديدة حدثت زلزلة هدمت الابنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وملأت الحفر تراباً .

الحرب الفارسية : ولم يسع شاور ذو الاكتاف للحرب هذه المرة بل فاوض في سبيل السلم والوثام وبعث الرسل الى انطاكية . ولكن يوليانوس ابى ان يصغي اليهم واكتفى بالقول « قريباً تروني » . واسترضى اليهود في مملكته طمعاً في ان يعاونه اخوانهم في فارس ، وحالف ملك ارمينية على الرغم من نصرانيتها . ونهض في ربيع السنة ٣٦٣ الى الفرات على رأس جيش مؤلف من خمسة وستين الفاً . وكان يود ان ينصب على عرش فارس هورمزد اخا شاور وكان هذا لا يزال داخل الحدود الرومانية منذ السنة ٣٢٤ . وقطع يوليانوس الفرات على جسر من القوارب . ولدى وصوله الى الخابور افرز ستة عشر الفاً بقيادة بروكوبيوس احد انسابه ليتجه بهم شرقاً عن طريق نصيبين ويتصل بالارمن الزاحفين شطر الجنوب .

واعطى بروكوبيوس في السر ثوباً ارجوانياً وعيّنهُ خلفاً له في حال الوفاة . وزحف هو يجاذي الفرات في طريقه الى بابل . وكان ذو الاكتاف قد اخطأ التقدير فحسب ان الجيش الروماني سينطلق من نصيبين ، فاتجه هو الى دجلة لمقابلة اعدائه . وتابع يوليانوس زحفه جنوباً ثم اتجه شرقاً الى دجلة واحتل سلوقية وواقع خصمه عندها فانتصر عليه انتصاراً باهراً . واستأنف الزحف على طيسفون عاصمة شابور ، فبلغها وشابور لا يزال بعيداً عنها . وكانت طيسفون صعبة المنال فرأى يوليانوس ان يتصل ببروكوبيوس والارمن قبل ضرب الحصار عليها . وفيما هو فاعل ضايقه الفرس في السادس والعشرين من حزيران بهجوم متتابع . وكان هو قد نزع عنه درعه من شدة الحر فاضطر فجأة ان يتقدم الى الصفوف الامامية لرد هجوم على مؤخره جيشه فأصابه سهم في ذراعه عقبه نزيف شديد . وعبثاً حاول اطباؤه وقف النزيف فتوفي في منتصف الليل وهو يحدث صديقيه الفيلسوفين مكسيموس وبريسكوس عن صفات النفس السامية العالية . وقيل ان فارساً مسيحياً من فرسانه رماه بهذا السهم للقضاء عليه .

الفصل السادس

ثيودوسيوس الكبير

(٣٧٩ - ٣٩٥)

خلفاء يوليانوس : وتشاور رؤساء الجند في من يكون خلفاً ليوليانوس ، فأجمعوا على مدبر برايفكتورة الشرق سلوتيوس سكندوس^١ . ولكنه اعتذر عن القبول بداعي المرض والتقدم في السن . فنأدى قسم من الجند بيوفيانوس^٢ امبراطوراً . وكان هذا رئيس الخدم في القصر مسيحياً نيقاويّاً من بانونية بين الشرق والغرب ، فأيّده الجنود المسيحيون ، ورضي عنه رؤساؤهم الشرقيون والغربيون معاً . فوقع صلحاً مع الفرس تنازل فيه عن جميع ما وقع شرقي دجلة ، وعن نصيبين وسنجار ونصف ارمينية . وعاد الى انطاكية فوصل اليها في خريف السنة ٣٦٣ . وكان لا يزال في الثلاثين من عمره ، ضئيل الحظ من الثقافة ، يحب الخمر والنساء . وعلى الرغم من اتصال اثناسيوس الكبير به والحاحه عليه ، فانه لم يخرج في سياسته الدينية عن الحطة التي رسمها قسطنطين الكبير . ولذا نراه يقول لبطريك الاسكندرية اثناسيوس نفسه : « إني اكره الشقاق واحب من

Salutius Secundus .

١

٢ *Jovianus* وقد ورد « يونيانوس » في المقرئزي وغيره .

يعمل في سبيل الوثام^١. « وأصدر براءة اوجب فيها عبادة « الكائن الاعلى » ، وحرّم « الخرافات^٢ ». ثم ما لبث ان وجد ميتاً بجيمته في آسية الصغرى ، بعد ان قضى ليلة بين الكؤوس والاباريق . وذلك في اوائل السنة ٣٦٤ .

واجتمع رؤساء الجند في نيقية وتداولوا في امر الخلافة وكانوا لا يزالون هم الذين رفعوا يوفيانوس الى منصة الحكم . فطلبوا الى سلوتيوس سكندوس ان يكون ابنه خلفاً ليوفيانوس فأبى نظراً لصغر سنه . فأجمعوا على ولتنيانوس^٣ احد قادة الحرس . وكان هذا ايضاً من بانونية بين الشرق والغرب . وما ان أطل على الجند ليخطب فيهم حتى قاطعه عدد منهم بدق التروس طالين امبراطوراً آخر يشاركه في الحكم . فاستمهلهم وشاور الرؤساء ، فقال احد هؤلاء : « ان كنت تحب اسرتك فان لك اخاً ، وان كنت تحب الدولة فانقر الاليتق . » وفي الثامن والعشرين من اذار من السنة ٣٦٤ قدّم اخاه والنس ، اوغوسطساً وشريكاً له في الحكم . وتشاطر الاثنان الملك فحكم والنس الشرق (٣٦٤ - ٣٧٨) . وتولى ولتنيانوس الغرب (٣٦٤ - ٣٧٥) . واتفق الاثنان على امور معينة اهمها حرية المعتقد ، ومنع اعفاء احد من الضرائب ، واقامة جباة من الموظفين بلجعبها ، واقتسام الملك اقتساماً تاماً كاملاً ، بحيث تصبح الامبراطورية دولتين : شرقية وغربية .

وعبر الهون الفولكة في السنة ٣٧٢ بعد الميلاد او قبيلها متدفقين

Socrates, Hist. Ecc., III, 25.

١

Sozomenus, Hist. Ecc., VI, 3.

٢

Valentinianus.

٣

٤ *Valens* وفي تاريخ ابن العميد : ولتنيان ووالنش .

كالسيل الجارف في سهول روسية الجنوبية . فاحتلوا مراعي قبائل الآلاني ثم اراضي القوط الشرقيين حتى نهر الدنيستر . ولم يبق حائلاً بينهم وبين مصب الدانوب سوى القوط الغربيين . وكان قسم كبير منهم قد قبل النصرانية على يد اولفيلاس القيدوتي (٣١٠ - ٣٨١) الذي نقل الانجيل الى لغتهم فهب اثناريكوس^١ ملك هؤلاء القوط الغربيين يستعد للدفاع فانشأ خطأ يصمد وراءه من منبع البروت حتى مصب الدانوب . وعبر الهون الدنيستر وجازوه عند مصبه ففرّ جماعة من القوط الغربيين وخذلوا قومهم واتجهوا غرباً وجاؤوا يفاوضون والنس في الانتقال الى داخل الحدود الرومانية والاقامة في تراقية . وكان على رأس هؤلاء فريتيفرن وألافيف^٢ . واما اثناريكوس فمضى بجماعته واحتل جبال البنات في المجر . وقد رأى والنس الامبراطور في مَنْ انحاز اليه من القوط عنصراً طيباً واداة فعالة لتقوية الجيش ولاسيما فرقة الحياالة . فقبل مطلبهم ان يدخلوا الحدود فعبروا الدانوب خمسين الفاً . وما ان فعلوا والقوا سلاحهم حتى شعروا بالفاقة وقلة المأكل . فاستعادوا سلاحهم بالرشوة وجالوا في البلقان ينالون قوتهم بالقوة . ووقعت اصطدامات عنيفة هنا وهناك . فأضمر الرومان السوء ودعوا الزعيمين القوطيين في مطلع السنة ٣٧٧ الى مأدبة فاخرة في ماركيانوبوليس وحاولوا اغتيالهما . فنجح فريتيفرن بخدعة محكمة واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في كل مكان . ولم يقوَ الجيش الروماني المرابط في البلقان على ضبط الموقف فاستقدم والنس نجدة من الشرق القريب وأمده غراتيانوس ابن اخيه ببعض الكتائب ثم قام هو بنفسه على رأس الجيش الغربي لاعانة عمه . ولكن والنس تسرع فنازل فريتيفرن قبل وصول

Atharnaricus.

Fritigern, Alaviv.

غراتيانوس ، وذلك في الثامن من آب سنة ٣٧٨ وعلى مقربة من أدريانوبوليس . فاكتمت الموقف خيالة القوط . وخرّ والنس في ساحة القتال صريعاً . وقيل انه أُحرق حرقاً . وغشي القوط الريف كله ولكنهم لم يتمكنوا من اخضاع المدن المحصنة لنقص في العتاد .

ثيودوسيوس الكبير : وعظم الامر على غراتيانوس وهاله . فاستدعى اليه ثيودوسيوس اشهر القادة وامهرهم في الحرب . وفاوضه في أمر القوط وطلب اليه ان يتناسى ما كان قد لحق به وبوالده قبله من شرّ وضم . ورفعته الى منصة الحكم ونادى به امبراطوراً على الشرق . وكان ثيودوسيوس حسن القد ، رشيقاً ، اشقر الشعر ، أزرق العينين ، اشرف الانف ، يشبه تريانوس ويدعي الانتساب اليه . وكان ايضاً عالي النفس ، رفيع الالهواء ، يكثر من مطالعة التاريخ الروماني ، ويحس الواجب القومي ايما احساس . فتقبل التاج في سرميوم في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ٣٧٩ . وهبّ للقتال فوقع بالقوط ، فيما يظهر ، ضربات اولية متتالية . ثم رأى ان لا بد من الاستيلاء على نيسالونيكية لتأمين الزاد والعتاد الواردين من مصر والشرق . فاشتق طريقه اليها ووصلها في اوائل حزيران واصتقرّ بها . وكان في اثناء هذا كله يشاطر جنوده المشقة كأنه واحد منهم ، ويعنى بتنشيطهم وتشجيعهم ، ويؤمن راحتهم . فأجبهه واندفعوا في سبيله وازدادوا قوة ومناعة . ورأى الامبراطور ايضاً ان يقوم بحملة عسكرية يصل بها الى الدانوب ، فيهوّل على اعدائه ويفاوضهم في الوقت نفسه ، اذا وافقت الظروف . فوصل الى اسكوب في السادس من تموز ، والى فيقوس اوغوسطة في الثاني من آب . ولكنه عاد الى نيسالونيكية لتمضية فصل الشتاء . وفي شباط السنة ٣٨٠ ، انتابه مرض

عضال أشرف به على الموت . فطلب الاعتماد ليغسل جميع ذنوبه قبل
ملاقة ربه . وتعمد على يد أخوليوس اسقف نيسالونيكية عمادة نيقاوية
ارثوذكسية . ثم تماثل وتعافى . فعاد يعالج مشكلة الجيش . فأمر بتجنيد
الفلاحين والعمال ، وبملاحقة ابناء الجنود المختبئين في مكاتب الدولة ، وبانزال
أشد العقاب بمن يقطع ابهامه للتخلص من خدمة العلم . وأمر كذلك بمن كان
قد دخل في الجيش من القوط ان يُنقل من البلقان الى الشرق ، وباستبدال
هؤلاء بجنود شرقيين يحلون محلهم في البلقان . وقامت فرقة من الجنود
القوط الى الشرق ، فعبرت المضائق ووصلت الى ليدية ، ولكنها استبكت
فيها مع فرقة شرقية كانت قد قامت من مصر لتحل محل الفرقة القوطية
او غيرها في البلقان . وفيما كان ثيودوسيوس يعدّ العدة على هذا النحو
تنافر القوط في البلقان وتنازعوا . واشتد الحُصام بين جماعة اثناريكوس
وجماعة فريتغرن . وتوفي فريتغرن في صيف السنة ٣٨٠ ، فخفف
القتال في جنوبي البلقان . وجاء غراتيانوس امبراطور الغرب في الوقت
نفسه الى سرميوم وفاوض القوط في الشمال وهاذتهم على ان ينتظم ابناؤهم
في خدمة الجيش الروماني في مقابل تقديم الزاد اللازم للعشائر . فهدأت الحال
وقام ثيودوسيوس من نيسالونيكية الى القسطنطينية فدخلها دخول المنتصر
في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٨٠ وجعلها مقره الرسمي . وفي
الحادي عشر من كانون الثاني ٣٨١ أطل عليه في القسطنطينية اثناريكوس
نفسه مقصوص الجناح اسلّ الساعد لما كان قد حل بجماعته من الشقاق
والحُصام . فرحب به ثيودوسيوس وبجّله وعظّم قدره ولكنه توفي في
الحامس والعشرين من الشهر نفسه ، فأمر الامبراطور بدفنه دفناً ملوكياً .
وفي هذه السنة نفسها وصلت طلائع الهون الى الدانوب . فردها القوط ببسالة
ورباطة جأش . وشعر الطرفان : القوط والرومان ، بخطر الهون فباتا اكثر
استعداداً للوصول الى تفاهم دائم بينهما . فأرسل ثيودوسيوس في صيف

السنة ٣٨٢ القائد ساتورنينوس الى القوط في الشمال ليفاوضهم في أمر الصلح. وكان ساتورنينوس من طراز ليبيانيوس وغريغوريوس النازيانزي دمث الاخلاق وديعاً معتدلاً رزيناً، فأقره القوط على مطالبه ووقع الطرفان في الثالث من تشرين الاول معاهدة صلح دائمة. وأهم شروط هذه المعاهدة ان الامبراطور الروماني اذن باقامة دولة قوطية بين الدانوب وجبال البلقان شرط ان تبقى حصون هذه المنطقة رومانية. وتعهد بتقديم معونة مادية في مقابل الخراط القوط في الجيش الروماني. والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان ثيودوسيوس آثر، بعد هذا، العنصر القوطي الالاماني على غيره من العناصر في تعبئة جيشه، فعدا الجيش المانياً مع مرور الزمن بعد ان كان رومانياً صرفاً في ايام الفتوحات.

المجمع المسكوني الثاني: وكان والنس قد اظهر تميزاً شديداً لآريوس والآريوسيين فنفي جميع الاساقفة النيقيين وقهر رهبانهم على اللحاق بالجيش وقتل وأحرق. فلما سقط في ادرينابوليس في السنة ٣٧٨ ورضي ثيودوسيوس ان يتسلم الحكم (٣٧٩) اشتد التنافر بين الآريوسيين وبين النيقيين وعمم جميع الاوساط الشعبية رجالاً ونساء. ومن ألطف ما جاء في المراجع في وصف تدخل «العوام في علم الكلام» قول غريغوريوس اسقف نيسة اليونانية: «والجميع في الشوارع والاسواق وفي الساحات وعند مفترق الطرق يتكلمون فيما لا يفقهون. فإذا سألت احداً من الباعة: ماذا ادفع؟ اجابك: هو مولود او هو غير مولود. واذا انت حاولت ان تعرف ثمن الخبز اجابوك ان الآب اعظم من الابن. وان سألت هل الحمّام جاهز سمعت جواباً ان الابن جاء من العدم.»

ويرى رجال الاختصاص ان ثيودوسيوس عزم منذ ان تسلم أزمة

الحكم على ان يجعل العقيدة الكاثوليكية الارثوذكسية عقيدة الدولة^١.
فأنه منذ السابع عشر من حزيران سنة ٣٧٩ عندما أصدر براءته الاولى
وحدد فيها واجبات كبير الكهنة الوثنيين في انطاكية امتنع عن ان يشير
الى نفسه باللقب الوثني : الحبر الاعظم . ولعل السبب في هذا انه ولد من
ابوين مسيحيين اسبانيين وان حبر رومة دماسوس الكبير استغل نفوذ
الحاشية الاسبانية المسيحية لمل الامبراطور على مراعاة الكنيسة . وعاد
ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من شهر شباط من السنة ٣٨٠ فأصدر
براءة خاصة جعل بها العقيدة النيقاوية عقيدة الدولة . فقال ما معناه : « وعلى
جميع شعوبنا ان تجتمع حول العقيدة التي نقلها بطرس الرسول الى الرومان ،
العقيدة التي يقول بها اسقف رومة دماسوس واسقف الاسكندرية بطرس ،
اي ان يعترفوا بالتالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس . ولذين
يقولون بهذه العقيدة وخدم حق التلقب بالمسيحيين الكاثوليكين^٢ . اما
الآخرون فانهم هراطقة موصومون بالعار لا يحق لهم ان يدعوا الابنية
التي يجتمعون فيها كنائس . وسينتقم الله منهم ونحن ايضا بعده^٣ . » وما
كاد الامبراطور يدخل العاصمة القسطنطينية في الرابع والعشرين من تشرين
الثاني سنة ٣٨٠ حتى اخرج منها اسقفها الآريوسي وأدخل اليها (٢٦
تشرين الثاني سنة ٣٨٠) « بلبل قبدوقية الازرق » غريغوريوس الثاولوغوس
النازيانزي بجميع مظاهر الابهة والاجلال . وغريغوريوس هذا العظيم ولد
بالقرب من نازيانزة في قبدوقية في السنة ٣٣٠ ودرس في الاسكندرية
وقيصرية وآثينة كما مر بنا ، وكان قد اشتهر بعلمه وفلسفته وفصاحته وسيم

Piganiol, A., Emp. Chrétien, 216.

Christiani Catholici.

Cod. XVI, 2, 25.

اسقفا على ساسمة فنازيانزة . واراده ثيودوسيوس اسقفاً على العاصمة . وفي العاشر من كانون الثاني سنة ٣٨١ أُرِدِف ثيودوسيوس براءته هذه الاولى ببراءة ثانية فصل فيها العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كما كان قد أقرها المجمع المسكوني الاول في نيقية . وأبان ان الهرطقة في نظر دولته شملت اقوال فوتيانوس وآريوس وافنوميانوس . وفي الثاني من ايار من السنة نفسها حرم جميع المسيحيين المرتدين الى الوثنية من حق الوصية والوصاية . وفي الثامن منه ضرب المنيكين ضربة قاضية .

وكان ثيودوسيوس قد أعلن رغبته وهو لا يزال في نيسالونيكية في عقد مجمع مسكوني عام للنظر في امور الكنيسة جمعاء ، فنفذ امينته هذه في ربيع السنة ٣٨١ . وأمّ القسطنطينية عدد من اعظم رجال الكنيسة بينهم ملاتيوس بطريرك انطاكية وغريغوريوس النازيانزي بطريرك القسطنطينية فيما بعد وتيموثاوس بطريرك الاسكندرية وكيرلس اسقف اوروشليم وامفيلوشوس اسقف ايقونية وبيلاجيوس اسقف اللاذقية وذيذوروس اسقف طرسوس واكايوس اسقف حلب وكثيرون غيرهم بلغ مجموعهم مئة وخمسين . وكان دماسوس بابا رومة قد ألح بوجوب انعقاد هذا المجمع المسكوني في رومة نفسها . ولكن ثيودوسيوس الامبراطور أبي وأصر على عقده في القسطنطينية . فلم تشتك رومة في اعمال هذا المجمع ولم يكن هنالك من يمثلها ، ولكنها وافقت على جميع قراراته فيما بعد واعتبرته مجمعاً مسكونياً قانونياً . وكان ملاتيوس البطريرك الانطاكي قد اشتهر بجهاده ضد الآريوسية وبعلمه وفضله وتقواه فأجمع الاعضاء عليه رئيساً . فسام غريغوريوس النازيانزي اسقفاً على القسطنطينية وتوفي في اواخر ايار . فانتخب

١ وكانت قد جرت العادة منذ عهد قسطنطين الكبير ان يفرق بين الكشلكة النيقية

ecclesia catholica وبين الهرطقة *Haeretici*.

المجمع غريغوريوس النازيانزي رئيساً . ولكنه كان عصبي المزاج سريع الغضب فاستغفى . وعندئذٍ انتخب المجمع بإشارة من الامباطور نكتاريوس القاضي رئيساً . وهو الذي أصبح فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية بعد غريغوريوس .

ونظر المجمع في بدعة مقدونيوس اسقف القسطنطينية الذي كان يقول بخلق الروح القدس من الله الآب بواسطة الابن . فنبذ المجمع هذا القول وأقرّ مراسيم المجمع النيقاوي ، واطاف الى دستور الايمان النيقاوي بعض ايضاحات وخصوصاً فيما كان يتعلق بامر تجسد ابن الله والوهية الروح القدس . فجاء في اثني عشر باباً كما يلي ، وهو لا يزال دستور المسيحيين حتى يومنا هذا :

- ١ - اؤمن بالله واحداً آب ضابط الكل ، صانع السماء والارض ، كل ما يرى ، وما لا يرى .
- ٢ - ووبرب واحداً يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء .
- ٣ - الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السموات ، وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس .
- ٤ - وُصّب عنا على عهد بيلاطس البنطي ، وتألّم وقبر .
- ٥ - وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب .
- ٦ - وضعد الى السماوات ، وجلس عن يمين الآب .
- ٧ - وايضاً يأتي بمجد ، ليدين الاحياء والاموات ، الذي لا فناء لملكه .

١ وكان النص النيقاوي : « نزل من السماء ، وتجسد ، وصار انساناً ، وتألّم وقام في اليوم الثالث ، وصعد الى السموات ، وسيأتي ليدين الاحياء والاموات . »

- ٨ - وبالروح القدس ، الرب المحيي ، المنبثق من الآب ١ ، الذي هو مع الآب والابن ، مسجود له وممجّد ، الناطق بالانبياء ٢ .
- ٩ - وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية .
- ١٠ - واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .
- ١١ - واترجى قيامة الموتي .
- ١٢ - والحياة في الدهر العتيد . آمين .

وكان المجمع المسكوني الاول قد شرع في تنظيم الكنيسة على غرار نظام الدولة الرومانية . فأعطى اسقف عاصمة الولاية حق التقدم على اساقفة مدنها الاخرى ، وجعله متروبوليتاً عليها كلها . وكانت الولايات الرومانية المئة والعشرون قد انتظمت ذيقوسيات اثني عشرة . فجاء المجمع المسكوني الثاني يعطي متروبوليت عاصمة الذيقوسية حق التقدم على جميع المطارنة فيها . وأصبح بموجب هذا الترتيب بطريرك انطاكية عاصمة ذيقوسية الشرق متقدماً على جميع مطارنة هذه الذيقوسية . ومثله بطريرك الاسكندرية في ذيقوسية مصر ، و متروبوليت قيصرية قبدوقية في ذيقوسية البونط ، و متروبوليت افسس في ذيقوسية آسية ، و متروبوليت هرقلية في ذيقوسية تراقية .

ويرجع بعض رجال الاختصاص ان اساقفة هذه الذيقوسيات كانوا يتمتعون بلقب إكسارخوس او الاسقف الاول ، وانه كان لبعضهم ألقاب خاصة احتفظوا بها . فكان اسقف رومة يدعى اسقف المدينة او حبراً او بابا او بطريركاً . وكان اسقف الاسكندرية يدعى بابا و بطريركاً ولا

Lagier, C., Orient Chrétien, II, 282;

خلاصة تاريخ الكنيسة ، ترجمة الحوري يوسف البستاني ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، الجزء الاول ، ص ٢٢٥ .

٢ وفي النص النيقاوي : « نؤمن بالروح القدس . »

يزال « بابا وبطريك الاسكندرية » كما كان اسقف انطاكية يدعى بطريكاً ايضاً . واللفظ بابا يوناني في الارجح مأخوذ من الكلمة باباس ومعناها الاب . واللفظ بطريك يوناني ايضاً . وهو مركب من كلمة باتريا ومعناها العشيّة ، وكلمة أرسيس ومعناها الرئيس .

ولما كان بروفصل القسطنطينية وحاكمها لا يخضع لنائب الديقوسية التي فيها هذه المدينة ، ولما كانت القسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية الثانية « رومة الجديدة » فإن المجمع رأى ان يعطي اسقفها حق التقدم على جميع الاساقفة بعد اسقف رومة وان يصار الى تسميته في مجمع خاص يشترك فيه جميع اساقفة الديقوسيات الشرقية^١ .

ودعا دماسوس حبر رومة الاساقفة الى مجمع في رومة في السنة ٣٧٢ ولكن ثيودوسيوس طلب اليهم متابعة العمل في القسطنطينية في الوقت نفسه وسمح بان يسافر وفد منهم الى رومة يراقب اعمال مجمعها ولا يشترك فيها . وتدخل غراتيانوس امبراطور الغرب وحض الآباء المجتمعين في القسطنطينية على الاشتراك في مجمع رومة ولكن على غير جدوى . فاضطرب دماسوس ورأى في هذا اهانة له ونذير انشقاق بين الشرق والغرب^٢ .

العلاقات الرومانية الفارسية : وتوفي ذو الاكتاف شاور الثاني في السنة ٣٧٩ وتولى العرش الفارسي بعده اردشير الثاني (٣٧٩ - ٣٨٣) ثم شاور الثالث ابن ذي الاكتاف . فارسل هذا في السنة ٣٨٤ وفداً الى القسطنطينية يفاوض في توطيد السلم وتحسين العلاقات . وشفع ذلك بان

١ المجمع الثاني : القانون الثالث . اطلب ايضاً مقال لوران V. Laurent في المجلة Byzantion في سنتها السابعة ، ص ٥١٢ .

Piganiol, A. , Emp. Chrét. 220.

ارسل الهدايا الحريز والحجارة الكريمة والفيلة. ولكن حدث بعد هذا بقليل ان زحفت جيوش شابور الثالث على ارمينية ففر ملكها أرساك الرابع الى ثيودوسيوس مستجيراً. ولكن ثيودوسيوس كان في امس الحاجة الى السلم نظراً لاضطراب الموقف في الغرب واغتيال غراتيانوس. فقاوض شابور في اقتسام ارمينية بينهما، فتم ذلك في السنة ۳۸۶ بموجب خط فاصل امتد من ديار بكر (آمد) حتى ارضروم (ثيودوسيوبوليس). وهكذا ضم ثيودوسيوس ما قارب من خمس ارمينية الى ملكه. وفي بعض المراجع انه جرى مثل هذا الاقسام في ما بين النهرين ولكنه قول ضعيف.

ضجة في انطاكية وبيروت: وتلطخت ادارة ثيودوسيوس بالرشوة. وكتب ليبيانيوس الفيلسوف الانطاكي الى الامبراطور يقول: «حكماك الذين تبعهم الى الولايات ليسوا سوى قتلة». وتفاقت ازمة مجالس الشيوخ في المدن. وفرّ الشيوخ واختبأوا. واضطر الامبراطور ان يحد من نفوذ بعض الشخصيات الاقليمية. ثم جاءت السنة ۳۸۷ فشرعت الحكومة المركزية تنهياً للاحتفال بمرور عشر سنوات على حكم الامبراطور ۲. فزادت الضرائب المفروضة. لكنها ما كادت تعلن عزمها على الجباية حتى لجأ الانطاكيون الى العنف، فاقتلوا تماثيل الاباطرة وجروها في شوارع المدينة، واحرقوا بعض الابنية. وعلى الرغم من اعادة النظام في اليوم نفسه فان عدداً كبيراً من الاغنياء فروا واستتروا. وخشي الناس سطوة ثيودوسيوس وقسوته وظنوا انه سيخرب المدينة. وتحركت بيروت فأعلنت ولاءها لمكسيموس في الغرب. وحدث حدوها الاسكندرية. وانبرى

Procopius, Aed. III, I, 245-246; Chapot, Frontière de l'Euphr., 347-361. ۱
decennalia. ۲

يوحنا الذهبي الفم تلميذ ليبانيوس وكان لا يزال كاهناً في مسقط رأسه انطاكية يستغل الذعر لمصلحة الايمان فألّف ميامره العشرين وحفظ لنا شيئاً من تفاصيل تلك الحوادث^١. وأمر ثيودوسيوس بتأليف مجلس عدلي للنظر في هذه الحوادث. واتخذ هذا المجلس مركزه في انطاكية وحكم وقسا على الرغم من احتجاج الرهبان والانتقياء. ونزع ثيودوسيوس لقب متروبوليت عن انطاكية وانعم به على اللاذقية. ثم أصدر عفواً عاماً قبيل عيد الفصح من السنة نفسها.

توحيد الامبراطورية : وأحب غراتيانوس الامبراطور القبائل الآلانية التي كانت قد فرّت من سواحل بحر ازوف والتجأت الى داخل حدود الامبراطورية خوفاً من الهون البرابرة ، فألحق ابناء هذه القبائل في الجيش وعطف عليهم عطفاً مستمراً . فأثار بذلك حسد العناصر الاخرى في الجيش . فتمردت الكتائب الرومانية في بريطانيا ونادت في السنة ٣٨٣ بمكسيموس احد النبلاء الاسبان امبراطوراً . وحذت حذوها كتائب الجيش في المانيا . ونزل مكسيموس بجنوده عند مصب الرين . فنهض غراتيانوس اليه وتلقى الجيشان في منطقة باريز . ولكن عساكر الامبراطور خانت سيدها . ففر غراتيانوس في ثلاث مئة فارس . ولحق به فرسان مكسيموس فأدركوه في ليون وقتلوه في الخامس عشر من آب سنة ٣٨٣ . ثم أرسل مكسيموس يستدعي اليه والنتيانوس الثاني اخا غراتيانوس الاصغر ، معترفاً بحقه بالملك مدعياً الحكم بحق الوصاية على الامير القاصر . فاما ثيودوسيوس فحين انتهت هذه الانباء اسرع في السنة ٣٨٤ الى ايطالية لينظر في الامر . وظن الناس انه انما قام ليحارب

Goebel, R., *De Ioannis Chrysostomi et Libanii Orationibus*, Göttingen, 1910.

مكسيموس وليعيد الحق الى نصابه . ولكنه ابرم مع المعتصب صلحاً اعرج ،
فجعل مكسيموس اوغوسطاً ثالثاً مشتركاً عليه ابقاء ايطالية بيد الامبراطور
التاسع ووالدته يوستينة . ولكن مكسيموس نكث بالشرط وزحف
على ايطالية في السنة ٣٨٧ ، ففرّ والنتينانوس الثاني الى الشرق واستقرّ في
ثيسالونيكية . فزحف ثيودوسيوس في صيف السنة ٣٨٨ بجيشه الى حدود ايطالية
وحارب مكسيموس وانتصر عليه . فاستسلم مكسيموس في اكويلية ولكن
ثيودوسيوس أحاله الى الجند فقتلوه . وقام هو الى ميلان واقام فيها
سنتين . وسيرّ والنتينانوس الثاني الى غالية ليدبر امورها . فلما كانت
السنة ٣٩٢ قام والنتينانوس هذا الى فيينة ليصد هجوماً بربرياً قوياً .
فقتل فيها على قول احدي الروايات وانتحر على قول غيرها . فاختر قائد
الساكر خطيباً غالياً اسمه اوجانيوس واعلنه امبراطوراً في ليون . وانتقل
هذا الامبراطور في ربيع السنة ٣٩٣ الى ايطالية فاقام فيها . فألحت غلّة
زوجة ثيودوسيوس الثانية واخت والنتينانوس بوجوب الاقتصاص من
اوجانيوس لانها اتمته بقتل اخيها . فنهض ثيودوسيوس اليه في صيف
السنة ٣٩٤ وانتصر عليه في مداخل ايطالية الشمالية وامر بقتله فقتل في
جواقيلان . وهكذا أصبح ثيودوسيوس هو الحاكم الفرد في الامبراطورية .

الوثنية تشرف على التلف : وفي الوقت الذي كان فيه ثيودوسيوس
يضطهد الهرطقة والخروج على العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كان
يضيق الحناق على الوثنية ليخمد انفسها . فابطل زيارة الهياكل وذبح
الذبائح والعيافة باكباد الحيوانات واحشائها . وأدى هذا بطبيعة الحال الى
اغلاق الكثير من الهياكل والى اقتحام الجماهير بعضها لنهبها وتدميرها . ثم
عاد فمنع في السنة ٣٩١ الذبائح وزيارة الهياكل وتكريم التماثيل ، وفرض
غرامات ثقيلة على الحكام والموظفين الذين يقترفون مثل هذه الذنوب ،
وأمر باخراج مذبح الهة النصر من بهو مجلس الشيوخ في رومة ، وكان

بوليانوس قد اعاده الى هذا البهو بعد اخراجه منه في عهد قسطنطين .
فاضطرب الشيوخ الوثنيون ، ورأوا في ذلك تمثيلاً وتنكيلاً بمجد رومة
وعظمتها . ووافدوا سيماخوس الخطيب الى ميلان ليتمس اعادة النظر في
هذا التدبير وارجاع المذبح الى مكانه . وعلم امبروسيوس اسقف ميلان
بهمة سيماخوس فكتب الى البلاط يرجو المحافظة على حرية المعتقد المسيحي
ويبين انه ليس من هذه الحرية في شيء اكراه الشيوخ المسيحيين على
الاجتماع والتشاور في قرب من مذبح وثني . ووصل سيماخوس الى ميلان
وتكلم باسم الشيوخ الوثنيين فطالب باحترام جميع الاديان وقال : يمكن
الوصول الى الحقيقة الدينية بطرق متعددة . ثم اشار الى يمين الولاة المفروضة
على جميع الاعضاء وأبان انه اذا لم يكن ثمة مذبح في بهو المجلس فعلى
اي شيء يقسم الاعضاء اليمين ؟ ولكن ثيودوسيوس كان شديد التمسك
بالنصرانية فأحال عريضة الشيوخ الى المجلس الامبراطوري الاعلى مع
الايغاز برفضها . وفي السنة ٣٩٢ أصدر الامبراطور امراً خاصاً الى نائبه
في مصر بوجوب تطهير هذا البلد من ادران الوثنية . فأقبل السيرابيوم في
الاسكندرية . واتفق ان اراد ثيوفيلوس اسقف الاسكندرية ان يحول
هيكلًا وثنيًا الى كنيسة مسيحية فنارت نائرة الوثنيين في الاسكندرية
والتجأوا الى السيرابيوم واعتصموا فيه . وحضهم الفيلسوف اوليمبيوس
الوثني على الاستماتة في سبيل دينهم . فأمر ثيودوسيوس بهدم الهيكل
وتدميره . وألح ثيوفيلوس بوجوب تقطيع تمثال سيرابيس بالهؤوس .
وكان الناس يعتقدون ان سيرابيس يقابل مثل هذا العمل بالزلال . لكن
ما ان سقط التمثال وهدمت قاعدته حتى خرج منها جيش من الجراذين !
ثم أضرمت النار في امتهة الهيكل الكبير فاحترق معها عدد غير قليل
من نفائس المخطوطات اليونانية وضاعت بضياها صفحة من تاريخ العلم
والمدنية .

الوفاة : وكان ثيودوسيوس قد أدمن شرب الخمر وما يتبعها من
ملذات ، فأسرف على صحته ، وتوفي في ميلان في السابع عشر من كانون الثاني
سنة ٣٩٥ . وأبَّنه امبروسيوس في الخامس والعشرين من شهر شباط
مؤكداً هلاك مكسيموس واوجانيوس وخلص ثيودوسيوس .

الفصل السابع ظهور الرهبانية وانتشارها

أصلها : وعاش السيد نفسه عيشة فقر وتيهٍ ومسكنة . وعلم باقتراب
النهاية . وأرسل تلاميذه ليكرزوا بملكوت الله . وأوصاهم الا يحملوا
شيئاً للطريق « لا عصا ولا مزوداً ولا خبزاً ولا فضة » والا يكون للواحد
منهم ثوبان^١ . وقام يعقوب بعده لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقتني
سوى رداء واحد . وحضَّ الرسلُ المؤمنين على العفة والبتولية واجازوا
الزواج لمن خشي العنت فقط^٢ .

وجاء الاضطهاد في القرون الثلاثة الاولى ففر عدد من المؤمنين الى
البراري والقفار وعاشوا فيها عيشة البؤس والطهارة والتقوى^٣ . واشتدت
وطأة الحكم وكثرت الضرائب وتناقلت ، فتاه الفلاحون وتركوا القرى
والمزارع محتجين على نظام المجتمع طالبين عيشة جديدة ، حتى اذا اطل
القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس المؤمنون تنفسه الراحة ، لم
يكفد يغير ذلك شيئاً من طريقتهم الاولى اذ اصبحوا يقولون بوجوب

١ لوقا ، ٩ : ٣ .

٢ كوروثوس الاولى ، ٧ : ٨ - ٩ .

Sozom. I, 12, 11.

٣

الانكفاء والابتعاد عن العالم للتأمل والتفكير الجدي بالقيم الروحية
والبشرية .

انطونيوس الكبير : (٣٥٦ - ٢٥٠) واشهر الرهبان الاولين
انطونيوس الفلاح المصري الذي اعتكف على نفسه خمسة عشر عاماً ثم
انزوى في حصن مهجور عشرين عاماً . وذاع صيته في مصر فالتف حوله
عدد من الزهد ، والحوا عليه بوجوب تنظيمهم . فأسس في السنة ٣٠٥ تعاونية
رهبانية اجاز فيها ضروباً من التنسك والواناً متفاوتة من شدة الوحدة
والانفراد . هذا وقد قام على حدود الصحراء في منطقة اسيوط عدد كبير
من النساك الانطونيانين جماعات وافراداً . وفي وادي النطرون في صحراء ليلية
انغزل آخرون جماعات وافراداً ايضاً ينسجون الكتان فيلبسونه ويتعدون
عن كل ما يمت الى اللذات بصلة ، ويتعبدون منفردين في ايام الاسبوع
مجتمعين في ايام السبت والآحاد . واختلف الطريقة الانطونيانية عن غيرها
في انها تركت للناسك الفرد الحرية التامة في انتقاء طريقته في التنسك .

باخوميوس القديس : (٣٤٥ - ٢٩٠) وتقبل النصرانية في هذا
الوقت نفسه في طيبة مصر ناسك من نساك سيرايس . فقاد حبه للتنسك
والنساك ان يؤسس ما بين السنة ٣١٥ والسنة ٣٢٠ اولى الرهبانيات
المسيحية ، وذلك في تبينة بالقرب من دندرة . واختلف اتباعه عن اتباع
انطونيوس في انهم عاشوا مجتمعين تحت سقف واحد وحول مائدة
وكنيسة واحدة . وكان عليهم ان يقرأوا الكتاب ويصلّوا ويعملوا عملاً
مفيداً . وازداد عددهم وكثرت مؤسساتهم وانتشروا في صعيد مصر .
وحدثت مريم اخت باخوميوس حذو اخيها فأنشأت رهبانية للراهبات لم
تختلف في نظمها عن رهبانية الرجال^١

Winlok, H. E., *The Monasteries of the Wadi'n Natrun*, 1932; Lefort, ١
L. Th., *La Règle de St. Pachome*, (Museon, XL, 1927) .

باسيليوس الكبير : (٣٢٩ - ٣٧٩) وشاع امر الترهّب في فلسطين وسورية ولبنان ثم في آسية الصغرى . واشهر من قال به في هذه الاقطار واشدهم تأثيراً واكثرهم اتباعاً باسيليوس الكبير اسقف قيصرية قبدوقية . وكان قد بدأ الترهّب في بلاده فشغف به وزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر في السنة ٣٥٧ . وتفقد شؤون الرهبان والنسك فيها فأعجبه نظام باخوميوس . فلما عاد الى آسية الصغرى وكانت السنة ٣٦٠ عزم على الترهّب فاختار البونط وانشأ فيه ديراً بالقرب من قيصرية الجديدة . فوضع نظام الرهبانية الباسيلية وأصرّ فيها على الطاعة زيادة على الفقر والعفة . واشتهر اتباعه باعمالهم الزراعية وباهتمامهم بتربية اليتامى وتعليم الصبيان . وكان باسيليوس الكبير قد تلقى الفلسفة والكتابة والخطابة على يد ليبيانيوس الفيلسوف الانطاكي وفي الاسكندرية وآثينة . وجمع الى ذلك ذكاء الفؤاد وقوة الحجّة وفصاحة الكلام . وكان قد رافق غريغوريوس الثاولوغوس في سني الدراسة وأحبه ، فنشأت بينهما صداقة قوية تعاونوا فيها على خدمة الكنيسة . ووافق عصره ان كانت الارثوذكسية مضطهدة فانتصر لها قولاً وكتابة والف رسائل عدة لا يزال معظمها معروفاً . ولا يزال حتى يومنا هذا نردد كلماته وافكاره في خدمة القداس في آحاد الصوم الكبير ويومي الخميس والسبت العظيمين وفي بارامون الميلاد وبارامون الظهور الالهي وفي يوم عيدہ الخامس من كانون الثاني . وقد كان لهذا كله اثر كبير في نفوس المؤمنين فكثرت الاقبال على الترهّب وشاعت طريقة باسيليوس في جميع الاقطار الشرقية وفي اليونان والبلقان وروسية^١ .

مار مارون : (؟ - ٤١٠) وآثر المؤمنون في سورية ولبنان وفلسطين
الترهب الفردي على الجماعي فتركوا المدن والقرى وانتثروا في السهول والوديان
وعلى قمم التلال يتأملون ويبتهلون ويعملون . وكان من أشهر هؤلاء في
القرن الرابع مار مارون . ولا نعرف بالضبط سنة ولادته ولا المكان
الذي ولد فيه ولا محل تنسكه . ولكننا نعلم علم اليقين انه عاش وعمل
في سورية الشمالية في النصف الثاني من القرن الرابع . ويرى الاب
لامنس اليسوعي ان مار مارون عاش ومات في القورسيّة . وقورس
عاصمة منطقة القورسيّة كانت تقع على مسيرة يومين من انطاكية وعلى
نحو سبعين كيلومتراً من حلب الى شماليها الغربي . ويميل المطران
بطرس ديب الى القول بان مار مارون تنسك على جبل في منطقة ابامية
(قلعة المضيق) من سورية الثانية .

واقدم ما نعود اليه في تاريخ مار مارون رسالة وجهها اليه يوحنا
الذهبي الفم من منفاه في مدينة كوكيسوس في جبال طوروس في السنة
٤٠٤ او ٤٠٥ . وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل هذا القديس ،
وفيها مودة ومحبة واستفسار عن الصحة والسلامة ورجاء الى مار مارون
ان يصلي من اجل الذهبي الفم . فلا شائبة اذاً تشوب عقيدة مار مارون
وهو بالتالي ارثوذكسي كاثوليكي نيقاوي .

وأنتفع المراجع الاولية ما جاء عن مار مارون في تاريخ التنسك
والناسك لثيودوريطس اسقف قورس (٤٢٣ - ٤٥٨) الذي ولد في انطاكية
قبل وفاة مار مارون بسبع عشرة سنة (٣٩٣) وعرف يعقوب الناسك
اشهر تلاميذ مار مارون^٢ .

Chrysostom, John, Epistolae (Patrologia Graeca, LII, (Paris, 1862); ١
Jeannin, M.A., Oeuvres Complètes de St. Jean Chrysostome, (Paris, 1887).
Theodoret, Historia Ecclesiastica, (Paris, 1911). ٢

ويستدل من كلام ثيودوريطس وغيره ان مار مارون قصد في النصف الثاني من القرن الرابع الى قمة احد المرتفعات في القورسية يرتاد الخلوة والطمأنينة ، فكرس هيكلاً وثلياً كان قد « خصص للبالسة منذ القديم » واستعمله في عبادة الاله الواحد ، وانه كان يقضي ايامه ولياليه تحت قبة السماء متعبداً ، وانه كان يلجأ الى خيمة صغيرة اصطنعها من جلود الماعز ليتقي فيها شرّ العواصف والبرد . ولم يكن مار مارون يكتفي في تقشفه « بالاصوام والصلوات المستطيلة والليالي الساهرة في ذكر الله واطالة الركوع والسجود والتأملات في كلمات الله ومناجاته وحبس الجسد في منطقة محدودة وقهره باللباس الحشن والمسوح الشعريه وتحريم الجلوس احياناً ومنع النوم ليالي بكاملها والانصراف الى وعظ الزوّار وارشادهم » ، بل كان يزيد عليها ما ابتكرته حكمته فيوازن بين النعمة والاعمال . ويؤكد ثيودوريطس ان الله منح مارون موهبة الشفاء وان الناس تقاطرت اليه افواجاً وانه لم يكتف بشفاء امراض الجسد بل كان يشفي بعضاً من البخل وآخرين من الغضب ويعلمهم غيرهم العدل وينهي عن استباحة المحرمات ويوقظ من غفلة التواني .

ومما يجدر ذكره لهذه المناسبة ان مار مارون اجتذب تلامذة عديدين رجالاً ونساءً ، وان هؤلاء التقوا حوله في صوامع قريبة يمتدون بارشاداته في مجاهل حياتهم النسكية . فلما توفاه الله في السنة ٤١٠ نشأت اخوية مارونية تعمل بما علّم به هذا الناسك المجاهد .

١ وافضل ما يرجع اليه من المؤلفات الحديثة في مار مارون بحث الاب لامنس في انتشار الموارنة في لبنان في الجزء الثاني من كتاب تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار (بيروت ، ١٩٠٣) ، ولباب البراهين للطران يوسف دريان (القاهرة ، ١٩١٢) ، والكنيسة المارونية للطران بطرس ديب (باريس ، ١٩٣٢) ، ومحاضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني عن مار مارون في مجلة الندوة ، ج ٢ ، عدد ٥ و ٦ ، حزيران ١٩٤٨ .

الباب الثالث

الملحنة الاولى : تدفق البرابرة وتفرق النصارى

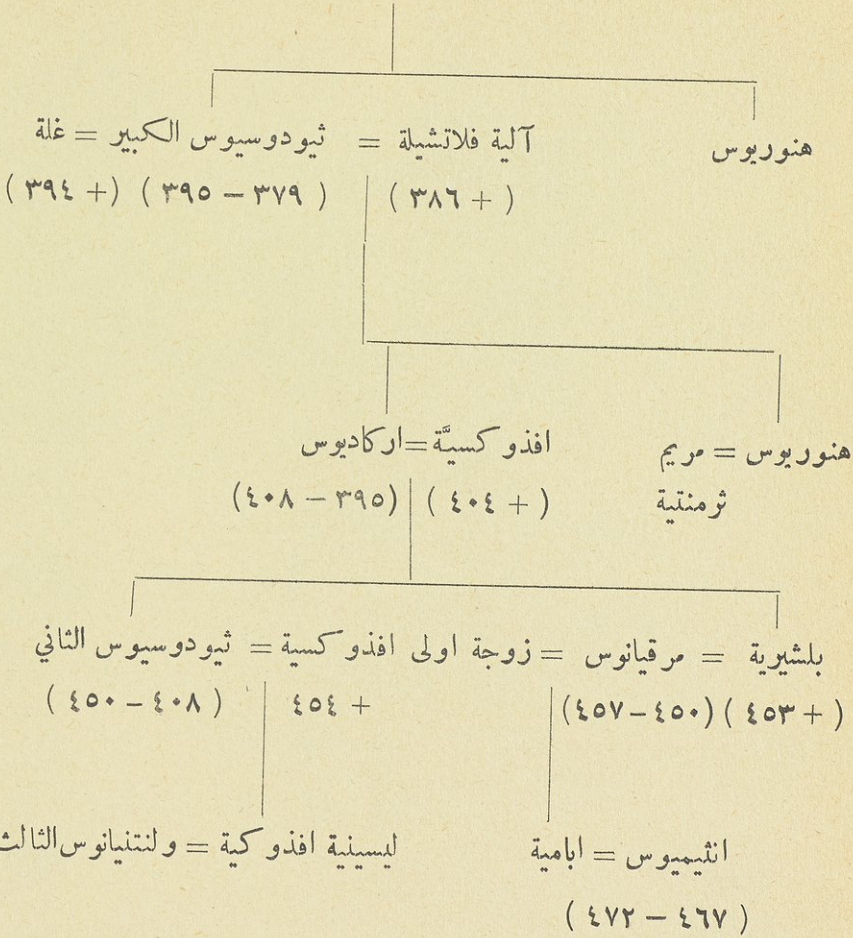
الفصل الخامس

اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني

(٣٩٥ - ٤٥٠)

اسرة ثيودوسيوس الكبير : وكان ثيودوسيوس الكبير قد تزوج من آلية فلاتشيلة الاسبانية قبل ان تبوأ عرش الاباطرة فولدت له اركاديوس وهنوريوس . ثم توفاه الله في السنة ٣٨٦ فاقترن ثيودوسيوس الامبراطور بغلّة بنت ولتنيانوس الاول ورزق منها بنتاً سماها غلّة بلاسيدية . وتزوج اركاديوس من إفذوكسيّة فولدت له ثيودوسيوس الثاني وبلشيرية . اما هنوريوس فانه تزوج من مريم بنت عمّه هنوريوس ومن ثرمنتية ، ولكنه ظلّ عاقراً بلا وارث .

ثيودوسيوس الجد (٣٧٦ +)



أركاديوس : (٣٩٥ - ٤٠٨) وكان أركاديوس غلاماً يافعاً عندما تبوأ العرش، بطيء الحس ضعيف الإرادة . فانقاد أولاً لمدير اموره روفينوس ثم لندمائه وجلسائه . واشهر هؤلاء الحصي إفتروبيوس الذي نال الحظوة بأن قدّم لاركَاديوس افذوكسيّة الفتانة بنت ضابط من ضباط الجيش . وكانت افذوكسيّة هذه شديدة الاعجاب بجمالها وبنفسها متعطرسة منتفخة، فزادت الطين بلة . ولم يكن هنوريوس اوفر حظاً . فإنه تبوأ العرش

في الحادية عشرة وخضع للآرب مدبر آخر هو استيليكون الوندالي . وعلى الرغم من مظاهر الاخاء والمحبة والتعاون بين الدولتين فان كلاً من استيليكون في الغرب وروفينوس وغيره في الشرق عمل على الشقاق والتنافر والضرر . وكان استيليكون يطمع في ضم جميع إيليرية وتوابعها الى امبراطورية الغرب ويعمل من اجل ذلك بكل دهاء . فهب زملاؤه في الشرق يثيرون الشعب على حكومة سيده في افريقية . واشتد الاحتكاك بين الحكومتين حتى ادى الى تضاؤل التبادل التجاري بين الشرق والغرب بل الى انقطاعه حتى السنة ٤٠٨ . ويقول إفنايوس المؤرخ المعاصر : « ان كلاً من الامبراطورين خضع لمن حوله من الرجال وان هؤلاء اشعلوها حرباً دائمة مكتومة مستترة ، وانهم لم يترفعوا عن اللجوء الى جميع انواع المداينة والمخادعة . »

ألاريكوس ملك القوط : ولدى وفاة ثيودوسيوس الكبير اعتبر القوط الغربيون انفسهم في حل من روابط المعاهدة التي كانوا قد وقعوها معه في السنة ٣٨٢ . وظهر بينهم رجل نشيط طموح هو ألاريكوس بلطة فبايعوه ملكاً عليهم . وادعى ألاريكوس انه لم ينل من حكومة رومة الجديدة ما استحقه من رتبة وتقدير . فنهض بجموعه الى مقدونية وتراقية وهدد العاصمة نفسها . ثم اتجه شطر اليونان ، فعبّر مضيق ثرموبولي ودخل بلاد اليونان الوسطى ثم جزيرة المورة ، ونهب وأحرق وسبى . وكان معظم جيش اركاديوس لا يزال في ايطالية . فكتب اركاديوس الى استيليكون مدبر امور اخيه ان يبعث اليه الجيش وان يعاون في تأديب القوط واعادتهم الى مناطقهم على ضفة الدانوب . وقام استيليكون على رأس قوة

Eunap., Fragm., 62. 63.

Alaric Balta.

الى الشرق ووصل الى ثسالية وارسل جيش اركاديوس بقيادة غايناس القوطي الى القسطنطينية . ولم يبادر الى طرد أأاريكوس من بلاد اليونان قبل التخلص من روفينوس مدبر اركاديوس وخصمه اللدود . ونفذت المؤامرة بينه وبين غايناس وقتل روفينوس في تشرين الثاني من السنة ٣٩٦ . وجاء استيليكون ثانية الى اليونان في ربيع السنة ٣٩٧ ، وكان بإمكانه ان يطبق بقواته على أأاريكوس ولكنه لم يفعل . فاغتاظ اركاديوس وتقبل رأي وزيره إفترومبيوس الحصي فصالح القوط ليمكن من معاقبة استيليكون والانتقام منه . فرفع أأاريكوس الى رتبة قائد في الجيش وأقطع القوط الغربيين اراضي جديدة . واختار لهم الجزء الشمالي من ايليرية ليتجهوا بغزواتهم سطر ايطالية بلاد استيليكون .

قوط القسطنطينية : واتجه القوط رجالاً أأاريكوس سطر ايطالية ولم يعودوا الى ازعاج أركاديوس . ولكن مشكلة قوطية اخرى بقيت تنتظر الحل . فان ثيودوسيوس الكبير كان قد أدخل الى صفوف الجيش عدداً كبيراً من هؤلاء القوط ولاسيما في سلاح الحياالة . وكان بعضهم قد خدم الجيش باخلاص وأبلى البلاء الحسن في ميادين القتال ، فرقي من رتبة الى رتبة . وكان بين هؤلاء في هذه الفترة التي نحن بصدها غايناس القوطي احد كبار القادة في جيش الامبراطور . وكان غايناس هذا يهتم بشؤون القوط ابناء جنسه ويصغي الى شكاويهم . فالتف حوله عدد لا يستهان به من الجند والمدنيين ، فاذا هو في اوائل عهد اركاديوس احد زعماء السياسة في العاصمة . ولم يكن عدد القوط المدنيين في العاصمة قليلاً . فسيناسيوس المؤرخ المعاصر يقول انه لم يكن بيت من بيوت العاصمة يخلو من خادم قوطي وان البستانيين والسقائين والعتالين كانوا قد

اصبحوا جميعاً من القوط^١ .

وكان يتلو غايناس في القوة والنفوذ والاهمية الحصي^٢ إفتروبيوس فإنه جمع حواليه كل مغامر ومداهن من اصحاب المصالح الكبرى الذين تجروا بكل شيء وتملقوا كل صاحب نفوذ اشباعاً لمطامعهم . واصبحت سياسة العاصمة في ايام اركاديوس الاولى تطاحنأ مستمراً بين غايناس القوطي وافتروبيوس الحصي للحصول على النفوذ او الوصول الى السلطة او الاحتفاظ بها .

ويستدل من بعض المصادر ان كثيراً من الشيوخ والوزراء ورجال الاكليروس لم يرضوا عن هذا ولا عن ذلك . فتضامنوا في سبيل المحافظة على رومانية الدولة والحيلولة دون وصول الالمان البرابرة الى الحكم . ولم يروا في افتروبيوس ذلك الوطني المخلص . فالتفوا حول المدبر اوريليانوس^٣ . واجمل ما بقي من آثار هذه اليقظة الوطنية الرومانية رسالة وضعها الاسقف سيناسيوس القيروني ووجهها الى الامبراطور وأسماها « قوة الامبراطور » . وكان سيناسيوس قد زار القسطنطينية في السنة ٣٩٩ ولبث فيها ثلاث سنوات فجاءت رسالته خير معين على فهم اوريليانوس وموقفه هو وجماعته من سياسة ذلك العصر . وتلخص هذه الرسالة بوجوب مراقبة الالمان البرابرة والاستعداد لمجاہتهم لانهم سيستغلون اتفه الاعذار لتقلد الاحكام . ولذا يجب على الامبراطور ان يزيح الاجانب عن المناصب الهامة وان ينزع عنهم عضوية مجلس الشيوخ . وعليه ايضاً ان يطهر الجيش وان يزيد عدد الوطنيين فيه ثم يفرض امره على هؤلاء البرابرة^٣ .

Synesius, Patrologia Graeca, LXVI, col. 1092 - 1097.

Bury, Later Rom. Emp. I, 127 - 129.

Fitzgerald, A., Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, (1930) I, 134- 139 ; notes, 206 - 209,

ثورة القوط في فريجية : وكان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير قد أسكن جماعات من القوط الشرقيين مقاطعات معينة في فريجية في آسية الصغرى . فلما اشتد الاحتكاك بين غايناس وبين افتروبيوس اوعز القائد القوطي الى هؤلاء بالتعرض للسكان الآمنين واحداث الشعب . ففعلوا . فأنفذ الامبراطور غايناس نفسه لاختاد هذه الحركة . وما ان وصل غايناس الى مناطق الاضطراب حتى تفاهم مع قائد القوط الشرقيين ووجهه بالتضامن معه خطاباً الى الامبراطور يطلب فيه اخراج افتروبيوس من وظيفته وتسليمه اليه . فاضطرب اركاديوس وخشي سوء العاقبة فأبعد افتروبيوس عن العاصمة (٣٩٩) . ولكن الزعيمين القوطيين لم يكتفيا بهذا بل اصرأ على اعادة افتروبيوس الى العاصمة ومحاكمته واعدامه . وبعد ان تمّ لهما هذا طلبا الى الامبراطور ان يكرّس احدى كنائس العاصمة للصلاة بحسب المذهب الآريوسي . فاحتج يوحنا الذهبي الفم اسقف العاصمة احتجاجاً قوياً ، فتراجع غايناس عن هذا الطلب لعلمه ان الجماهير في العاصمة وخارجها تؤيد الذهبي الفم .

سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط : وخشي الوطنيون الرومانيون مطامع غايناس وراعهم الامر فتأهبوا وتهايأوا ، وعاهدوا قوطياً آخر اسمه فرافيتة وعقدوا معه عقداً لما لمسوا فيه من الاخلاص والمحبة للامبراطور والولاء للامبراطورية . ولدى خروج غايناس من العاصمة في اوائل السنة ٤٠٠ هجم الوطنيون على من تبقى من عساكره في داخل المدينة وقتلوه . فثارت ثورة غايناس وجمع جموعه ونهب تراقية وهمّ بالعبور منها الى آسية الصغرى . ولكن فرافيتة انتصر عليه وصدّه عن اجتياز المضائق . ففر غايناس عبر الدانوب . فوقع اسيراً بيد ملك من ملوك الهون أمر بقتله . فقُتل في كانون الاول من السنة ٤٠٠ ، وكافأ اركاديوس فرافيتة فجعله قنصلاً . وانتهت مشاكل القوط بسقوط غايناس . واعتبر اركاديوس

انتصاره على غايئاس عملاً عظيماً فنقشه على العامود التذكاري الذي اقامه في فورم القسطنطينية . وتغنى الشعراء بهذا النصر واعتبروه عظيماً . وخلد سينا سيوس عمل اوريليانوس وجماعته برواية رمزية دارت حوادثها على صراع بين اوسيريس (اوريليانوس) وتيفون المحرّض على الشرا .

يوحنا الذهبي الفم : (٣٤٥ - ٤٠٨) وأنجبت الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها يوحنا الذهبي الفم . ولد في انطاكية من ابوين شرفين في السنة ٣٤٥ او ٣٤٧ . وتلقى علومه على ليانيوس الفيلسوف . وأبدى مواهب فريدة . فرأى فيه الفيلسوف المعلم خير خلف له . وعطف عليه ، وعني به عناية فائقة . ولكن والدته اثوزة سطت عليه « فسرقته » ، على حد تعبير ليانيوس ، وعمدته مسيحياً ، كما فعلت والدات غريغوريوس الثاولوغوس واوغوستينوس وثيودوريطس . وتسلمّ النعمة على يد ملاتيوس البطريك الانطاكي رئيس المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٧٠ . فأثر الانفراد واستأنس بالوحشة وانتبذ مكاناً قصياً في برية انطاكية ليحسن التأمل في الخالق وخلقه ويجيد التفكير في القيم الروحية والبشرية . وما فتى معتزلاً منزوياً حتى انتابه مرض اكرهه على العودة الى انطاكية . فعاد اليها في السنة ٣٨٠ . وفي السنة ٣٨١ سامه البطريك الانطاكي ملاتيوس شماساً . ثم رقي الى رتبة كاهن في السنة ٣٨٦ . واشتهر الكاهن يوحنا بالتقوى ، والتضحية ، والخدمة ، وبالخطابة والنصاحة . فلمّا توفي نكتاريوس بطريك القسطنطينية ، وقع عليه اختيار حاجب القصر ، افثرويوس الحصي . فطلبه اليه وأخرجه خلسة من انطاكية ، خوف ان يتدخل الجمهور الانطاكي ويعترض . وعلى الرغم من تدخل ثيوفيلوس البطريك

١ راجع ترجمة رسائله واشعاره الى الانكليزية ، وقد اشير اليها آنفاً . والاشارة هنا هي الى *Osiris* والى *Typhon* .

الاسكندري وسعيه بالفساد ، فان يوحنا الذهبي الفم سيم استقفا على
العاصمة ، ورفي الكرسي البطريركي في السنة ٣٩٨ .
وبدأ يوحنا الذهبي الفم عمله البطريركي باهتمام بالغ بشؤون الفقراء
والمساكين . فأنتق على المعوزين والجياح والمرضى ما كان بعض اسلافه
يبدخون به بذخاً . فأحبه البؤساء وتعلقوا به ، وآثروا الاصغاء الى عظاته
البليغة على الذهاب الى دور التسلية ، وميادين الالعب ، لما كان عليه
من طلاقة اللسان ، وسرعة الخاطر ، وحضور الذهن . اذا تكلم تحدّر
كالسيل ، وكلما افاض ملك أعنة القلوب . وهذه عظاته لا تزال محفوظة
حتى يومنا هذا ، وفيها من الرقة ، والطلاوة ، والتفنن في التشبيه ،
والاستعارة ، ما يسبغ على مواضعها العادية سحراً وجاذبية لا حد لها .
وكان البطريرك الجديد مثالياً يأخذ نفسه وغيره بتطبيق هذه المثالية
اخذاً صارماً . فحمل الرهبان على العمل المثمر . وحقق في بعض التهم
التي وجهت الى بعض الاساقفة ، فعزل ثلاثة عشر منهم . وكان متخرجاً
يستنكر البذخ واللهو ، فدّد برجـال البلاط ونسائهم . ولم تنج حتى
الامباطورة اذوكسيّة من هذا التنديد . وكان ثيوفيلوس بطريرك
الاسكندرية قد بدأ يضطهد من قال برأي أوريجانيوس . ففر من وجهه
الأخوة الاربعة الطوال ولجأوا الى الذهبي الفم (٤٠١) . فقبلهم متلطفاً
ولكنه اعتبرهم محكوماً عليهم . واذا ببعض الرهبان ، وغايتهم اثاره الشعب
على الذهبي الفم ، يستشفعون الامباطورة لدى زوجها ان يأمر ثيوفيلوس
بالحضور الى القسطنطينية . فقدمها ثيوفيلوس على رأس عدد من اساقفة
مصر . وهكذا تجمع في القسطنطينية رهط من حسّاد الذهبي الفم ومن
نقموا عليه لتشيده عليهم في المحاسبة . فعقد ثيوفيلوس مجمعاً ضد يوحنا
بالقرب من خلقدونية (٤٠٣) عرف بمجمع البلوطة . واتهم يوحنا الذهبي
الفم باقوال اوريجانيوس وبخيانة المملكة . وطلب هذا المجمع يوحنا الذهبي

الفم اربع مرات للحضور فلم يحضر فقطعه ، وحكم ثيودوسيوس عليه بالنفي . ولكن الشعب لم يسلم بنفيه فتدخل الجيش . فهدأ يوحنا الشعب ونصح لهم بالخضوع وخرج منفيًا . وكان ان حدثت في اليوم التالي زلزلة عظيمة فاضطرب ضمير افذوكسية وداخلها الشك فطالبت زوجها بان يعاد القديس حالاً الى كرسيه . فدخل القسطنطينية في موكب شعبي عظيم . فنجح ثيوفيلوس وعاد الى الاسكندرية . وما كاد البطريرك القسطنطيني يستقر في كرسيه حتى اثاره التبجيل الذي احيط به شخص الامبراطورة لمناسبة اقامة تمثال لها في جوار كنيسة الحكمة فندد بها مرة اخرى تنديداً شديداً . وقيل لها انه استهل عظته بالقول : « لقد عادت هيرودية الى حنقها ، الى رقصها ، وها هي تطلب رأس يوحنا . » فاغتاظت افذوكسية واستدعت ثيوفيلوس . ولفق هذا ما لفق فقطع الجميع يوحنا مرة ثانية . فنفي الى نيقية (٤٠٤) ثم الى كوكيسوس في ثنايا جبال طوروس لعله يقع طعمة في ايدي الاسوريين الثائرين . ولكنه بلغها سالماً واقام فيها ثلاث سنوات يكتب ويؤلف . وبقي فيها على اتصال برعيته فكان يعزيهم بقوله « ان الذي لا يظلم نفسه لا يستطيع احد ان يضر به » . وناصره بابا رومة اينوشنسيوس . ولكن البلاط قرر ابعاده الى صحراء بتيوس في حدود البحر الأسود . فرحل اليها . ولدى وصوله الى قومانة في بلاد البونط توفي فيها في السنة ٤٠٨ ونقل جثمانه الى القسطنطينية في السنة ١٤٣٨ .

وأشهر ما كتبه يوحنا الذهبي الفم ، في اثناء تنسكه ، في السنوات العشر الاولى من حياته الفكرية ، رسالته في الكهنوت . وأحلى ما جاء من آثار يراعه ، في عهد رئاسته ، ميامره القسطنطينية ، وتعليقه على

١ وافضل ما صنف في يوحنا الذهبي الفم كتاب الاب خريسوستموس بوتر البنديكتيني الذي ظهر في مونشن في السنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ :

Baur, Chrysostomus, Der Heilige Johannes Chrysostomus und seine Zeit.
Jeannin, M., Oeuvres : راجع ايضاً ترجمته وترجمة مؤلفاته الى الافرنسية في كتاب
Complètes de Saint Jean Chrysostome.

رسائل بولس الرسول الى أهل كورونثوس ، والى الرومانيين . وكتب في منفاه رسائل عديدة اشرفنا اليها سابقاً . ولا نزال نتمتع بصلواته في خدمة القديس الالهى في معظم ايام السنة .

« لا ينوحنّ احد عن فقر ، لان المملكة العائمة قد ظهرت . لا يندبنّ احد على آثام ، لان الصفح قد بدا من القبر . لا يخافنّ احد من الموت ، لان موت الخلّص قد حرّرنّا . ابن شوكتك يا موت ؟ ابن ظفرك يا جحيم ؟ قام المسيح ، وانت غلبت . قام المسيح ، والملائكة يفرحون . قام المسيح ، واستقرت الحياة . قام المسيح ، وليس ميت في القبر ، لان المسيح بقيامته من الاموات قد صار مقدمة الراقدين . »

ثيودوسيوس الثاني : (٤٠٨ - ٤٥٠) وكان من حسن حظ الامبراطورية الشرقية ان توفيت اذوكسية الامبراطورة في السنة ٤٠٤ ، على اثر اجهاض شديد ، وان تولى النفوذ في الدولة المدبّر انثيموس الحكيم . وزاد في حسن الحظ ان توفي استيليكون في الغرب في السنة ٤٠٨ ، وتبعه أركاديوس في السنة نفسها . فانفسح في المجال لانثيموس ان يعمل بحكمته وان يبتقى مسيطراً على شؤون الدولة اربعة عشر عاماً .

وكان ثيودوسيوس عند وفاة ابيه لا يزال في السابعة من عمره . فتهذب بعلوم عصره ، ونشأ محباً للعلم ، ديناً ، تقياً . وكان يجيد الخط والصيد . ومن ثم كان له هذا اللقب الذي نقرأ احياناً : ثيودوسيوس الخطاط ٠٢ . وأحبت شقيقته بلشيرية ان يكون لها امرأة أخ مطيعة ، سهلة الانقياد . فانتمت له آتينة ابنة استاذ آثيني وثني ، كانت قد أمت

١ من عظة له يوم عيد الفصح .

Brehier, L., *Les Empereurs Byzantins dans leur Vie Privée*, Rev. Hist. ٢
(1940), 203 -204.

القسطنطينية للمطالبة بحقها في إرث والدها . فقدمتها بلشيرية لاختيها فأعجبته . فنصرت باسم افذوكية ، وتم عقد قرانها ، فاصبحت الامبراطورة في السنة ٤٢١ .

صداقة فارس : وكان ثيودوسيوس الكبير قد رأى بثاقب نظره ان مشكلة القوط وغيرها من مشاكل جبهته الشمالية الغربية تتطلب سلباً دائماً في الشرق . فاعتدل في مطالبه في ارمينية ، وبين الفرات والدجلة ، وانبثقت صداقة بين الدولتين دامت عهداً طويلاً . ومما « يروى » ، من هذا القبيل ، ان أركاديوس لما حضرته الوفاة قتل على ولده الطفل ثيودوسيوس الثاني من دسائس البلاط فأوصى بان تكون الوصاية على ابنه ليزدجرد الاول ملك الفرس . ويروى ايضاً ان يزدجرد الاول أنفذ الى القسطنطينية ، بعد وفاة أركاديوس ، احد اخصائه لحماية الملك الطفل . والواقع ان يزدجرد الاول (٣٩٩ - ٤٢٠) اخلص في صداقته وترفع عن مضايقة النصارى في بلاده وسمح لهم في السنة ٤٠٩ ان يرموا كنائسهم وان يتعبدوا احراراً وسمح في السنة ٤١٠ بان ينعقد ، في عاصمته طيسفون ، مجمع مسيحي انتخب اسحق اسقف طيسفون (سلوقية) رئيساً على الكنيسة الفارسية ، ومنحه لقب كاثوليكوس . وصلى المجتمعون من اجل معادة يزدجرد ونصره وتأييده^٢ . ولكن حكومة فارس عادت ، بضغط من كهنة زرادشت وطبقة النبلاء ، الى اضطهاد المسيحيين في السنة ٤٢١ . فانقطعت العلاقات

١ . *Bury, Later Rom. Emp. II, 2.* وفي فازيليف ، ص ٩٦ (ترجمة انكليزية) : ان بعض الثقة يشكون في اصالة المرجع الاولي الذي يروي هذا الخبر (*Vita Porphyrii*) ، ولكنه هو يرى ان ليس في هذه الرواية ما لا يقبله العقل ، وبالتالي لا يجوز رفضها . وهو قول ضعيف ، من حيث قواعد المصطلح ، اذ الاصل في التأريخ الاتهام لا براءة الذمة .

Chabot, J. B. Notice Mss. Bibl. Nationale, 1902. 258.

السياسية بين الدولتين ، ولجأ الرومان الى العنف ، فدحر أردبوروس جيوش ملك الملوك . فسارع بهرام الخامس في السنة ٤٢٢ الى عقد صلح « يدوم مئة سنة » . وتعهد بهرام برفع الاذى عن المسيحيين ، وبأن يطلق لهم حرية المعتقد والعبادة . فقابله ثيودوسيوس بمثل هذا فيما يتعلق بالزرادشتية في ارضه^١ . وتعاهد الطرفان ايضاً الا يحض احدٌ منهما العرب في ارضه على غزو العرب في ارض جاره . والاشارة هنا الى المناذرة والغساسنة . « وكان المنذر ابن النعمان قد غزا الشام مراراً ، واكثر المصائب في اهلها ، وسبى وغنم . وكان قد جعل معه ملك فارس كتيبتيين يقال لاحدهما دوس وهي لتنوخ ، وللآخرى الشهباء وهي لفارس . فكان يغزو بهما الشام ، ومن لم يطعه من العرب^٢ . »

وكانت فارس قد دخلت في دور كثرت فيه مطامع النبلاء والكهنة ، وتشعبت واشتدت فيه هجمات الهون البيض على حدودها الشرقية الشمالية ، وكانت بيزنطة قد اعتدلت في مطالبها ، كما سبق ان اشرنا . فدام السلم بين الدولتين ردهاً طويلاً من الزمن .

تحوط واحتياط في الداخل : وكان من نتائج هذه اليقظة الوطنية الرومانية ، التي سبقت الاشارة اليها ، ان انصرف انثيميوس المدبر الوصي الى العناية باستحكامات المدن وقلاعها . فرمم عدداً وافراً منها في شمالي البلقان الغربي ، وعلى ضفة الدانوب . وكانت القسطنطينية قد اتسعت الى خارج الاسوار التي انشأها قسطنطين الكبير . فأقام انثيميوس سوراً جديداً في السنة ٤١٣ يدفع عن الاحياء الجديدة شر البرابرة وغيرهم . ثم تصدع هذا السور الجديد بزوال قوي ، فرمم قسطنطين المدبر ، وأنشأ

Christensen, A., *l'Iran sous les Sassanides*, 280 - 281.

١ الكامل لابن الاثير ، الطبعة المنيرية ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

حواله سوراً ثالثاً عزّزه بمخندق واسع عميق . وجاء عهد قورس المدبر فأنشأ تحصينات جديدة من جهة البحر . وأصبحت القسطنطينية في عهد ثيودوسيوس الثاني تنعم بثلاثة اسوار منيعة ، ثبتت في وجه كل عدو حتى سقوط المدينة في السنة ١٤٥٣ . فصانت مدينة زاهرة في عصور اضطراب وفوضى^١ . وألغت الحكومة المركزية ، في هذا العهد نفسه ، ما كان قد تأخر من الاموال الاميرية . فانتعش الفلاح ، والصانع ، والتاجر الصغير ، وقويت معنوياته ، وزاد رضاه . وأعيد النظر في كيفية استيراد الحبوب من مصر الى العاصمة وتموينها التموين الكافي .

وفي السنة ٤٢٥ ، أصدر ثيودوسيوس الثاني براءة بتأسيس معهد علمي مسيحي عالٍ يضاهاي باساتذته وطلابه معهد آثينة الوثني الذي كان لا يزال يدرس الفلسفة الوثنية . وانشأ الامبراطور في هذا المعهد الجديد واحداً و ثلاثين كرسيّاً للتعليم : عشرة منها للغة اللاتينية ، وعشرة للغراماطيق اليوناني ، وخمسة للفصاحة والحطابة اليونانية ، وثلاثة للحطابة والفصاحة اللاتينية ، وكرسيّاً واحداً للفلسفة ، واثنين للحقوق . وتقاطر الطلاب الى هذا المعهد من كل صوب ، ولاسيما ارمينية . وخصص الامبراطور صرح الكابيتول لهذه الغاية . وأنفق على الاساتذة من اموال الخزينة ، وحرّم عليهم اعطاء دروسٍ خصوصية^٢ . ويلاحظ لهذه المناسبة ان اليونانية نالت حظاً اوفر من اللاتينية .

وفي السنة ٤٢٩ التفت المدبر انطيوخوس الى القانون والقضاء ، فرأى ان ما صدر من القوانين ، منذ عهد قسطنطين الكبير ، أصبح متفرقاً

Chronicon Paschale, I, 588; Meyer - Plath, B., und Schneider, A. M. ١
Die Landmauer von Konstantinopel. Berlin, 1943.

Codex Theodosianus, XIV, 9, 3; Fuchs, F., *Die Hoheren Schulen von ٢
Konstantinopel im Mittelalter*, Berlin, 1926.

مبعثراً ، يصعب الوصول اليه والاطلاع عليه ، للفصل في دعاوى . فاقترح تعيين لجنة من كبار القضاة والاساتذة والمحامين لجمع هذه القوانين وتبويبها . ووافق الامبراطور ثيودوسيوس الثاني فأمر بتعيين هذه اللجنة وتابعت اللجنة اعمالها ثماني سنوات متتالية ، فأنتجت مجموعة ثيودوسيوس الشهيرة^١ . وظهرت هذه المجموعة في الشرق في السنة ٤٣٨ ، وفي الغرب في السنة التالية . وقسمت الى ستة عشر كتاباً ، بعضها في الادارة المدنية ، وبعضها في الشؤون العسكرية ، وبعضها في الدين ، وبعضها في الحقوق . وقسم كل كتاب الى عدد من الابواب (العناوين^٢) . وما صدر من الابواب ، بعد ظهور هذه المجموعة ، اشير اليه بالعبارة : « القوانين المستجدة^٣ » . ومجموعة ثيودوسيوس تعتبر من اهم المراجع الاولية لتاريخ القرنين : الرابع والخامس^٤ .

الهون : وكان قد عظم شأن الهون واتسع سلطانهم ، فدوخوا جنوبي روسية ورومانيا والمجر وغاليسية . وكانوا منذ السنة ٣٩٥ قد بدأوا يتحشون بالامبراطورية الشرقية . ففي هذه السنة عبروا القوقاس ، وتدفقوا الى سهول الجزيرة وسورية . فاسترضاهم ثيودوسيوس بان يبدل لهم ، في السنة ٤٣٠ ، عطاءً سنوياً بلغ قدره ثلاث مئة وخمسين ديناراً ذهبياً . ثم توفي روى مليكهم في السنة ٤٣٤ ، فخلفه في الحكم ابنا اخيه بليدة وأتيلا . وكان أتيلا كثير المراغب ، واسع الاطماع ، فطلب الى حكومة ثيودوسيوس مضاعفة المال السنوي ، ومنحه رتبة قائده ، وغير ذلك من

Codex Theodosianus.

tituli.

leges novellae.

Seeck, O., Die Quellen des Codex Theodosianus, Stuttgart, 1919.

magister militum.

١
٢
٣
٤
٥

المطالب . فما ان ترددت حكومة ثيودوسيوس في القبول ، حتى عبر أتتلا
الدانوب بمجموعه في السنة ٤٤١ ، واحتل قسماً كبيراً من شمالي البلقان .
فاضطر ثيودوسيوس ان يجيب سؤل أتتلا ، وان يعقد معه صلحاً في السنة
٤٤٣ ، فيدفع اربعة آلاف دينار متأخر ، والفين ومئة دينار مالا سنوياً .
وبقيت تحرك أتتلا مطامعه ، فقتل اخاه بليدة واستأثر بالسلطة . ثم لم يطل
الوقت ، حتى غشيت جموعه البلقان ، ووصلت طلائعهم الى ثرموبولي ،
وهددوا القسطنطينية . وعادت حكومة ثيودوسيوس الى المفاوضات . فأرسلت
لهذه الغاية وفداً من كبار الرجال ، بينهم المؤرخ بريسكوس . ونجح
الوفد فانسحب أتتلا عبر الدانوب في السنة ٤٤٩ . وقد تم الاتفاق بينه
وبين حكومة القسطنطينية على مال يؤدي له كل سنة . واتجهت انظار
أتتلا سطر الغرب .

انشقاق في الكنيسة : ولما أصبحت النصرانية دين الدولة عظم شأن
الاساقفة والبطاركة واشتد التزاحم على الكراسي في الكنيسة فكان يظفر
بها في بعض الاحيان من لم تكتمل فيه جميع المؤهلات الروحية .
واشدت المناظرة بين البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة فأدت في بعض
الاحيان الى التنافر والتخادم . وظهرت الرهبانية وازداد عدد الرهبان
وتدخلوا في هذه المناظرات والمشادات فأدخلوا فيها حماسة عمياء وكيداً
عظيماً . وتقلص ظل الوثنية وانتشر ظل النصرانية فاشتربت الغوغاء في
هذه المخاصمات وتدخل فيها جمهور السفلة بهياجهم وضجيجهم وخرافاتهم
وخرز عباتهم .

بطريرك القسطنطينية وبطريرك الاسكندرية : وكان ثيوفيلوس

بطريك الاسكندرية (٣٨٥ - ٤١٢) رجلاً مثقفاً وعالمًا رياضياً سخّر مقدراته في الرياضيات لوضع جداول مضبوطة تنبئ بالازمنة التي يقع فيها عيد الفصح ، فاكسب بذلك شهرة واحتراماً في زمن اشتد فيه الورع والتقوى . وكان ثيوفيلوس اديباً كبيراً بلغ من شغفه بالادب ورهافة ذوقه فيه مبلغاً كان يستطيع معه ان يستمرىء حلاوة قطعة ادبية يكون هو نفسه قد حرّم مطالعتها . وكان ايضاً سياسياً محنكاً بالغ القدرة في تسوية اعوص المشاكل واعقدها . ولكنه كان طبعاً مفتوناً بالمال والمجد يدب اليها بكل ما أوتي من دهاء وحنكة ومكر . وشعر ثيوفيلوس بالطاقة الكامنة في رهبانيات مصر وكان قد ازداد عدد افرادها حتى بلغ الالوف ، فتقرّب اليهم وتوخى السيطرة عليهم بان عمد الى التظاهر بما ليس فيه ، فقال قول اكثريتهم بالتشبيه اي ان الله شكلاً بشرياً ، وراح يقاوم قول اوريجانيوس بشدة وحماسة . وكان هذا من المنزهة علم بان الله لا جسم له فهو لا يرى ولا يمكن ادراكه . وبلغ من امر ثيوفيلوس ان لجأ الى العنف فهاجم بالقوة المسلحة ديراً كان رهبانه ما يرحوا متمسكين بتعاليم اوريجانيوس . ففرّ اربعة من زعماء هؤلاء ، عرفوا فيما بعد بالاخوة الطوال ، الى القسطنطينية والتجأوا الى بطريكها يوحنا الذهبي الفم .

وكان ثيوفيلوس لا يقر الجمع المسكوني الثاني (٣٨١) على تقديم بطريك القسطنطينية في الكرامة على سائر البطاركة بعد بطريك رومة . فأضمر السؤ ليوحنا الذهبي الفم ودعا الى جمع في خلقيدونية كما سلف لنا القول واستغل جرأة الذهبي الفم ومواقفه العنيفة من بعض رجال البلاط ونسائهم لاسيا افذوكسيّة الامبراطورة فتوصل بذلك الى انزال بطريك القسطنطينية عن عرشه ودفعه الى المنفى .

الجمع المسكوني الثالث في إفسس : (٤٣١) ورتي كرسيّ القسطنطينية في السنة ٤٢٨ البطريك نسطوريوس . وكانت الكنيسة قد

علّمت منذ البدء ان المسيح اله كامل وانسان كامل . فلما انكر آريوس عليها الاعتقاد بان للكلمة المتأنس طبيعة لاهوتية ايضاً عقدت المجمع المسكوني الاول وأقرت كمال لاهوت المخلص وحكمت بفضلال آريوس وبطلان تعاليمه . ثم ظهر أبوليناريوس اسقف اللاذقية الذي اشتهر بدفاعه عن النصرانية في ايام يوليانوس الجاحد وبتمسكه بتعاليم المجمع المسكوني الاول فعلم ان اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الانسان وبالتالي ان المسيح كان الكلمة في جسم انسان وانه لم يكن بإمكانه ان يحتبب الضعف البشري ولا ان يكون معرضاً للتجربة . فقررت الكنيسة في مجمعها المسكوني الثاني كمال « ناسوت » المخلص . وكان من الطبيعي جداً ان تهتم انطاكية للامر خصوصاً لان ابوليناريوس كان احد اساقفتها . فأصر رؤساؤها على كمال طبيعة المسيح البشرية . واشتهر بين هؤلاء ديودوروس الطرسوسي وثيودوروس الموبسوتي .

وكان نسطوروس سوري الموطن انطاكي المذهب فأصر مع اساتذته على كمال طبيعة المسيح البشرية . فما ان تبوأ الكرسي البطريركي في القسطنطينية حتى بدأ يعلم ضد اتحاد الطبيعتين اتحاداً طبيعياً وجوهرياً ونهى عن تسمية العذراء بوالدة الاله « ثيوتوكوس » ويستبدالها بالتسمية « والدة المسيح » مدعيّاً انها لم تلد الهاً بل انساناً آلة للاهوت وانها « قابلة » الاله لا والدة الاله . وما ان ذهب هذا المذهب حتى هاج الشعب في القسطنطينية وتظاهر ضده في الشوارع وفي الكنائس . فقابل نسطوروس هذا التظاهر بالشدة . وعقد مجمعاً محلياً في السنة ٤٢٩ وحرّم كل من اعتقد غير تعاليمه .

وذاعت آراء نسطوريوس وبلغت الى الاسكندرية فحاربها جبرها
البطريك كيرلس (٣٧٦ - ٤٤٤) في بيانه الفصحي الذي اذاعه سنة ٤٢٩
وأيد فيه الاعتقاد بالطبعين . ثم كتب الى زميله القسطنطيني موضعاً له
ان تسمية البتول بوالدة الاله لا يعني ان مبدأ اللاهوت هو منها بل ان
المولود منها هو اله كامل وانسان كامل . وكان نسطوريوس معجباً بنفسه
فقابل كيرلس بالانتفاخ والتحقير . فكتب كيرلس بهذا الصدد الى جبر
رومة وبطريك انطاكية والى عدد من رؤساء الكهنة في الشرق . فعقد
جبر رومة جمعاً محلياً في السنة ٤٣٠ واعتبر تعليم نسطوريوس غير قويم ،
وكتب اليه وهدده بقطع العلاقات . وكتب يوحنا بطريك انطاكية الى
نسطوريوس ان يبرأ بما اعتراه من وهم بشأن تسمية العذراء بوالدة الاله ،
وذكره ان هذه التسمية وردت لكثيرين من مشاهير المعلمين والآباء .
وكتب اكاكيوس رئيس اساقفة حلب وكان شيخاً اناف على المئة سنة
الى كيرلس يرجو منه ان « يجتهد في اطفاء نار الحُصومة ضناً براحة
الكنيسة » .

وجاهر بعض رهبان القسطنطينية بمعارضة بطريكهم فطردهم البطريك
واضطهدهم . فكتبوا الى ثيودوسيوس الثاني يطلبون عقد مجمع مسكوني .
وطلب نسطوريوس نفسه عقد مجمع مسكوني . فقبل الامبراطور ودعا
الى مجمع مسكوني في افسس في السنة ٤٣١ بعد العنصرة . ولبى الدعوة متناً
اسقف بينهم كيرلس بطريك الاسكندرية ونسطوريوس بطريك القسطنطينية
ويوبيناليوس اسقف اوروشليم . وتخلف يوحنا بطريك انطاكية ومثلو بابا
رومة . والتأم المجمع برئاسة كيرلس بطريك الاسكندرية . ولكن
نسطوريوس اضرب عن الاشتراك فحكم المجمع عليه بالقطع . ثم تليت
الرسائل التي كان قد وجهها الى نسطوريوس كل من كيرلس بطريك
الاسكندرية وكليستينوس بابا رومة كما تلي قرار مجمع رومة فصدقها

المجمع . وبعد خمسة ايام وصل بطريرك انطاكية ومعه اثنان وثلاثون اسقفاً . فانبأه المجمع بقطع نسطوريوس . فتكدر واعتبر عمل المجمع تسرعاً ونسب الى كيولس الاستبداد . ثم عقد مجعاً مؤلفاً من نحو اربعين اسقفاً وحكم فيه بالقطع على كيولس وعلى سائر الاساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بلا فحص ولا روية . ثم حضر نواب بابا رومة الاسقفان اركاذيوس وبروياكتوس والقس فيلبس . فاجتمع مجمع كيولس مرة ثانية وتليت فيه رسائل البابا وأمضى فيها نوابه الاعمال السابقة . ودُعي بطريرك انطاكية الى الاجتماع . فلم يحضر . فحكم المجمع بالقطع عليه وعلى ثلاثة وثلاثين اسقفاً معه . فتحرك الامبراطور لما رأى من هذه البلبلة فطلب وفداً عن كل فئة . فلما حضر الوفدان وسمع دعوى كل منهما أمر باعادة كل من كيولس واسقف افسس الى منصبه ، ونصّب على كرسي القسطنطينية احد اعضاء وفد كيولس واسمه مكسيميانوس . وأمر برجوع الاساقفة الى اوطانهم .

وثبت المجمع الثالث دستور الايمان الذي كان تذيته قد سبق في المجمعين الاول والثاني ، وحرر اسقفية قبرص من الخضوع لبطريرك انطاكية ، فأصبحت كنيسة مستقلة منذ ذلك الحين .

ثم دعا البطريرك مكسيميانوس كلاً من بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكية الى نيوميديا وحدهما . فحضرا وتسالما بعد مدة . ونفي نسطوريوس الى مصر فاغتاله احد رهبانها في السنة ٤٥١ .

المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية : (٤٥١) وكما تطرّف نسطوريوس معارضاً تعاليم ابوليناريوس فقال بكمال طبيعة الناسوت اي بكمال طبيعة المسيح البشرية فان اوطيخة Eutyches احد الآباء في القسطنطينية قال بكمال طبيعة اللاهوت معارضاً مذهب آريوس . فعلم ان المسيح المخلص طبيعة واحدة وان جسده بمحض كونه جسد اله ليس مساوياً لجسدنا في

الجوهر لان الطبيعة البشرية اندثرت باتحادها مع الطبيعة الالهية . فانبرى
ثيودوروس اسقف قورش يحمل على اوطيخة . وانبرى ديوسقوروس
بطريك الاسكندرية يحمل على ثيودوروس ويبيج رهبان القسطنطينية ،
وكتب الى ثيودوسيوس الثاني ان الكنيسة في الشرق قد اصبحت كلها
نسطورية . فجمع فلايانوس بطريك القسطنطينية مجعاً محلياً ودعا اليه
اوطيخة فلم يمثل . وكان يحركه الحصي خريسافيوس الذي كان قد حقد على
البطريك فلايانوس لان خريسافيوس طلب منه مالاً فارسل البطريك اليه
آنية الكنيسة . وعقد الجمع جلسة سابعة ودعا اوطيخة ، فحضر هذه المرة
ومعه خريسافيوس الحصي وبعض الرهبان وزمرة من الحرس الامبراطوري .
فسئل اوطيخة : هل تعترف بان المسيح مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت
ومساوٍ لاهه في جوهر الناسوت ؟ فأجاب : ان المسيح من طبيعتين قبل
الاتحاد وانه طبيعة واحدة بعد الاتحاد . فحكم الجمع المحلي عليه وقطعه
من كل رتبة كهنوتية ومن الشركة ومن رئاسة ديره . وكتب اوطيخة
للبابا في رومة يتظلم . فكتب البابا لاوون الكبير الى بطريك القسطنطينية
يستوضحه عما جرى . فأرسل فلايانوس بطريك القسطنطينية نص اعمال
الجمع الذي حكم على اوطيخة . فعقد البابا مجعاً في رومة وفحص الاوراق
التي ارسلها اليه فلايانوس البطريك فوافق عليها واعلن ذلك للامبراطور .
ثم كتب خريسافيوس الحصي الى ديوسقوروس بطريك الاسكندرية يستنهضه
لمساعدة اوطيخة . فعقد ديوسقوروس مجعاً محلياً وحلّ اوطيخة من القطع ،
وطلب الى الامبراطور عقد مجمع مسكوني . ففعل الامبراطور والتأم مجمع
مسكوني في إفسس في السنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقوروس بطريك الاسكندرية .
فتليت رسالة الامبراطور . ثم طلب وفد رومة ان تتلى رسالة البابا الى
البطريك فلايانوس . فرفض ديوسقوروس . واشتد الجدل . ففر بعض
الاساقفة ومنهم نواب البابا . واستولى الرعب على الباقين فامضوا على بياض ،

ولذا سمي هذا المجمع فيما بعد المجمع اللصوصي .

ووقع الخلاف بين ثيودوسيوس الثاني وزوجته اذوكية فعادت شقيقته بلشيرية الى القصر ، وطُرد خريسافيوس الحضي من القصر ثم أُعدم . وكان البطريرك فلايانوس قد نفي وتوفي في منفاه فحصل عنه الرضى ونقلت جثته الى القسطنطينية بكل اكرام . وسقط ثيودوسيوس عن جواده وتوفي في السنة ٤٥٠ وخلفه مرقيانوس . وكتب بابا رومة وبطريركها لاوون الكبير الى مرقيانوس بوجوب عقد مجمع مسكوني جديد . فوافق مرقيانوس وامر بذلك فاجتمع الاساقفة في مدينة نيقية في السنة ٤٥١ . ومرض بعضهم واضطر للمعالجة . ولم يستطع مرقيانوس نفسه ان يبارح العاصمة ، فأمر بنقل المجمع الى خلقيدونية في جوار من القسطنطينية .

وعقد المجمع جلسته الاولى في الثامن من تشرين الاول سنة ٤٥١ في كنيسة القديسة إيمية في خلقيدونية . وقد اشترك في اعماله ٦٣٠ اسقفاً بينهم نواب رومة اسقفان وقسان والبطريرك القسطنطيني اناطوليوس والبطريرك الاسكندري ديوسقوروس والبطريرك الانطاكي مكسيموس واسقف اورشليم يوبيناليوس . ووضع الانجيل في منتصف حلقة المجمع . وتصدّر وجاء الدولة واعيانها . وفي هذه الجلسة الاولى اقرّ المجمع ان كل ما قد جرى في افسس انما كان جبراً وظلماً وان ديوسقوروس ومن ذهب مذهبه مستحق القطع . وفي الجلسة الثانية نليت رسالة كيرلس البطريرك الاسكندري الى نسطوريوس ورسالة البابا الى فلايانوس بطريرك القسطنطينية . وفي الجلسة الثالثة قرأ رئيس وفد رومة الاسقف باسكاسينوس Paschasinus نص الحرم الذي كان قد أصدره البابا ضد ديوسقوروس . فوافق عليه المجمع . وفي الجلستين الرابعة والخامسة دار البحث حول العقيدة . وبعد جدال طويل وافق المجمع على النص التالي : « انا نعلّم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين . ونعترف بابن واحد هو هو

نفسه ربنا يسوع المسيح . وهو نفسه كامل بحسب الناسوت . اله حقيقي وانسان حقيقي . وهو نفسه من نفس واحدة وجسد مساوٍ لآب في جوهر اللاهوت . وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت ، مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت . وهو نفسه في آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لاجلنا ولجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال . من غير ان ينفي فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل ان خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً واقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزئاً الى شخصين بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الانبياء منذ البدء وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء . »

وفي هذا المجمع نفسه رفع اسقف صور المتروبوليت فوتيوس شكوى على اسقف بيروت المتروبوليت افسطاثيوس الذي كان من انصار ديوسقوروس . مفاد هذه الشكوى انه بعد ما اقدم ثيودوسيوس على ترقية افسطاثيوس من اسقف خاضع لمتروبوليت صور الى رتبة متروبوليت مستقل قد وهب بطريرك القسطنطينية اناطوليوس لافسطاثيوس هذا اسقفيات بيباوس (جبيل) وبوتريس (البترون) وطرابلس واورثوسياس وعمار واندرادوس وجميعها اسقفيات خاضعة لمتروبوليت صور . فلام المجمع البطريرك القسطنطيني على هذا التعدي . وحكم باعادة تلك الاسقفيات الى متروبوليت صور .

وفي الجلسة السادسة حضر مرقيانوس وخطب محرضاً على السلام واستقامة الرأي . ثم تلي التحديد فأمضاه الآباء وصدقه الامبراطور . وفي الجلسة السابعة سلخت فلسطين الأولى والثانية والثالثة عن انطاكية وضمت الى

اوروشليم . وتصالح البطريركان الانطاكي والاوروشيمني واعيدت فينيقية
وبلاد العرب الى البطريركية الانطاكية . وعرف اسقف اوروشليم بطريركاً
لاول مرة . وفي الجلسة الخامسة عشرة سنّ المجمع ثلاثين قانوناً وقررت
رتب الأسقفيات الرئيسة ومن يقدم ويؤخر من البطارقة . واثبت في
قوانين المجمع ان تكون لاسقف القسطنطينية « رومة الجديدة » المنزلة نفسها
التي لاسقف رومة القديمة . ولكن نواب البابا اعترضوا على هذا القرار
واظهروا عدم الرضى .

الباب الرابع تطور النظم وتمشيق الفكر والفن والدولة

الفصل التاسع

اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس

(٤٥٠ - ٥١٨)

موقيانوس : (٤٥٠ - ٤٥٧) وتوفي ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من تموز سنة ٤٥٠ ولم يترك ولداً ذكراً . فانهى بوفاته حكم الاسرة الثيودوسية . وأوصى قبل وفاته بان يخلفه مرقيانوس احد قادة جيشه . وتزوجت بلشيرية اخت ثيودوسيوس من مرقيانوس هذا ولكن زواجاً سميماً ، فقد استوطنت ان تبقى عذراء وان تقتصر زيجتها على المشاركة في ادارة الامبراطورية . وهكذا اصبح الامبراطور الجديد صهر الاسرة المالكة ، وكان رجلاً حازماً عادلاً يتمتع بتأييد الجيش ، فوفقت فيه رومة الجديدة الى حاكم مناسب .

وأعلن مرقيانوس انتهاء الظلم والفوضى باعدام خريسافيوس الحصي . ثم منع بيع المناصب وتنازل عن الاموال المتأخرة للدولة وحوّل المبالغ التي

كانت تنفق على الالعب السنوية الى ترميم الاقنية وجر المياه . واسعفه الحظ بان توفي زينون زعيم الاسوريين . وكان هؤلاء قد عاثوا في البلاد فساداً منذ السنة ٤٤١ فسكنوا بموت زعيمهم واستتب الامن في آسية الصغرى . وضرب مرقيانوس مناذرة الحيرة احلاف الساسانيين ضربة قاضية ، فنعمت سورية بالراحة والطمأنينة . وسار هذه السيرة في مصر فوقف هجمات اهل النوبة ودفع شرهم . وفي فلسطين وسورية ولبنان اعتنق عدد من الرهبان بدعة ديوسقوروس وهاجوا وماجوا احتجاجاً على مقررات مجمع خلقيدونية فعمد مرقيانوس الى اخضاعهم بالقوة المسلحة . وكذلك وافقه الحظ بان توفي اثيلا زعيم الهون فتمكن مرقيانوس من استبقاء المال الذي كان يدفع سنوياً لهؤلاء .

لاوون الاول : (٤٥٧ - ٤٧٤) وتوفيت بلشيرية في السنة ٤٥٣ وتبعها مرقيانوس في السنة ٤٥٧ ولم يكن لهما وارث . فاتجهت الانظار الى قائد الجيش الاعلى أسبار . على انه لم يكن باستطاعته ان يتبوأ العرش لانه كان آلانياً آريوسياً . فوقع الاختيار على وكيل خرجه لاوون فتربع على عرش القسطنطينية . وكان لاوون ادارياً قديراً وسياسياً محنكاً ، فاصطنع منافساً ينافس أسبار هو زينون الاسوري وذلك بان انشأ حرساً امبراطورياً من الاسوريين الجبلين الاشداء . واتى بزعيمهم وازوجه من بنته ارياذنة (٤٦٧) . وبطش زينون ورجاله البسلاء بأسبار وحرسه (٤٧١) . فنجت بذلك رومة الجديدة من حكم البرابرة .

ونشب خلاف بين لاوون وبين فيروز ملك الفرس حول مصير دويلة مسيحية على شاطئ البحر الاسود بين الامبراطورية الرومانية وبين القوقاس هي امارة « لازقة » خلقيس القديمة . ولكنه خلاف لم يؤد الى حرب او قتال . وكان أهم منه تدفق القوط الشرقيين على إيليرية واحتلالهم ديراترو .

فعاد لاوون يدفع الاعانة المالية السنوية الى القوط وهدأت الحال (٤٥٩) وجعل ملك القوط ابنه ثيودوريك رهينة في القسطنطينية . غير ان هؤلاء القوط الشرقيين ما عتموا ان استأنفوا الغزو في السنة ٤٦٧ متعاونين هذه المرة مع الهون . ثم اسرع الشقاق الى صفوفهم فأعلنوها فيما بينهم حرباً شعواء ادت الى اضعاف الطرفين .

زينون : (٤٧٤ - ٤٩١) وتوفي لاوون الاول في السنة ٤٧٤ فتولى العرش بعده حفيده لاوون الثاني ابن بنته ارياذنة . وكان لا يزال في السادسة من عمره . فأشرك الولد والده زينون الاسوري في الحكم ، وتوفي بعد بضعة اشهر . فعظم امر الاسوريين في الدولة وتسموا اعلى الوظائف واكبرها . وما برحوا كذلك حتى انتهاء عهد زينون .

وفي ايطالية كانت السلطة كلها قد اصبحت محصورة بالقواد العسكريين البرابرة ، فكانوا ينصبون الاباطرة ويعزلونهم حسب اهوائهم . ومن غرائب الاتفاق ان آخر الاباطرة في الغرب دعي رومولوس اوغوستولوس . وهكذا وافق اسمه اسم المؤسس الخرافي لرومة نفسها . وقد خلعه العسكر البرابرة في السنة ٤٧٦ ونصبوا مكانه احدهم ادوواكر . ثم ابلغ القادة البرابرة زينون في القسطنطينية انهم يعترفون بسيادته . فصدر امره الى ادوواكر ان يتولى زمام الحكم وان يتمتع ب لقب « نبيلى » .

ولكن ادوواكر استقل بالحكم ولم يكتوث لسيدة الشرعي في القسطنطينية . ورأى زينون ان ليس بوسعه ان يكرهه على الطاعة . وخاف مغبة امره . فالتفت زينون سطر القوط الشرقيين في شمالي البلقان الغربي . وكان هؤلاء يستوجبون اهتمامه كلياً . فعمل زينون على توجيههم سطر ايطالية ووفق الى ما اراد . فكان ان زحف ثيودوريكوس ملك القوط الشرقيين الى ايطالية قبيل وفاة زينون واستولى على رايننة ثم بعد وفاة زينون (٤٩٣) خلع ادوواكر وجلس مكانه ملكاً على

بملكة قوطية شرقية ذات حول وطول . وامتدت سلطته على ايطاليا وصقلية وجزء من غالية واسبانية .

الايونتيكون : (٤٨٢) ولم يخضع الجميع لمقررات المجمع المسكوني

الرابع فظل السواد الاعظم من النصارى في مصر وسورية وفلسطين يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يثمر حزم مرقيانوس ولاوون الاول .

وشعر زعماء الكنيسة بخطورة الموقف . وأراد اكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧٢ - ٤٨٨) وبطرس بطريرك الاسكندرية (٤٧٧ - ٤٩٠) ان ينقذا

الموقف وان يعيدا الى الكنيسة وحدتها المفقودة . فاقترحا على زينون ان يصار الى التواخي بانتهاج سبيل وسط . فأصدر زينون في السنة ٤٨٢

الايونتيكون « كتاب الاتحاد » فشجب تعاليم نستوربوس واوطيخة معاً وقرّ رأي كيرلس الاسكندري واجتنب الكلام في الطبيعة الواحدة

والطبيعتين . وهكذا رفض رفضاً لبقاً ما كان اقرّه المجمع الحلقيديوني الاخير . ولكن الايونتيكون بدلاً من ان يؤلف القلوب ويوحد

الصفوف سعّر نار الشقاق والتفرقة لانه لم يرض الارثوذكسين ولا اصحاب الطبيعة الواحدة . وانشق في مصر عن البطريرك بطرس قسم من

جماعته فألفوا طائفة سموها الآكيغلي اي العادمة الرأس . وكتب الارثوذكسيون الى اكاكيوس بطريرك القسطنطينية يلومونه على مماثاته

بطرس الاسكندري . فلم يكثرث البطريرك بل أجبر الكثيرين منهم على القول بكتاب الاتحاد . فكتبوا الى بابا رومة فيلكس الثالث (٤٨٣) .

ولكن هذا بدل ان يرامل اكاكيوس مستوضحاً حسب العادة القديمة عقد مجعاً محلياً وحرّم بطرس واكاكيوس . فلما علم اكاكيوس بهذا محا

اسم البابا من ذبتيخا الاساقفة . وهكذا نشب شقاق استمر اكثر من خمس وثلاثين سنة (٤٨٤ - ٥١٩) . وتوفي اكاكيوس في السنة ٤٩١

فخلفه في كرسي القسطنطينية افرأيطاس^١ (٤٨٨ - ٤٨٩) وكان مداهناً متلاعباً . ولكن سرعان ما انتقضت مدته . فخلفه اوفيموس^٢ العاقل (٤٨٩ - ٤٩٥) فظهر استقامة رأيه في ما بعث به من رسائل التحية الاخوية لمناسبة تبوئه السدة البطريركية . واوشك ان يعود الاتحاد بين الشرق والغرب لو لم يطالب البابا بمحو اسم اكاكيوس من الذبيحة .
واما في انطاكية فان راهباً من رهبان القسطنطينية بطرس القصار^٣ ألف حزباً ضد البطريرك مرتيريوس (٤٥٩ - ٤٦٩) واحداث قلاقل . فاستقال مرتيريوس . وحلّ القصار محله بطريكاً وأيد اوطيخنة واحداث زيادة في التسبيح وعلّم هكذا : قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت ، « الذي صلب من اجلنا » ، ارحمنا . ومن السنة (٤٨١ - ٤٨٥) تولى كلنديون الكرسي البطريركي في انطاكية وجمع جمعاً محلياً رجع فيه الى تأييد قرارات خلقيدونية .

وهكذا دخلت الكنيسة في دور من الفوضى كثرت فيه سيامة الاساقفة زوجاً زوجاً ارثوذكسين ومونوفيسيين في وقت واحد . ومدت الايدي الى الكراسي لجلع هذا وتنصيب ذلك . وكان من اهم اسباب هذه الفوضى سعي الاباطرة لاسترضاء المونوفيسيين في مصر وسورية لكثرة عددهم ولضعف هبة السلطة المركزية اذ اخرجتها مشاغل اخرى . وظلت الحال على هذا المتوال حتى ظهرت كنيسة مونوفيسية مستقلة في مصر ، وكنيسة مثلها في سورية ، واخرى في ارمينية .

انستاسيوس الاول : (٤٩١ - ٥١٨) وكان زينون قد سعى سعياً

Fravitas.

١

Euphemios.

٢

Pierre le Foulon.

٣

حشياً لاجلاس اخيه لونجينوس على العرش بعده . ولكن زوجته ارياذنة الامبراطورة لم ترَ في لونجينوس الكفاءة اللازمة فانتقت انسطاسيوس الورع ورفعته الى منصة الحكم وكان انسطاسيوس في الحادية والستين من العمر ، قد قضى شطراً وافراً من حياته في القصر معاوناً في التشريفات ، وله شهرة في الورع والتقوى ودمائة الخلق . وعلى الرغم من ميله الى القول بالطبيعة الواحدة فان الشعب قابل ارتقاءه بالهتاف : « ليكن عهدك في الحكم كعهد مرقيانوس وكسيرتك في حياتك الشخصية . » واشتراط البطريك اوفيميوس العاقل الا يجيد الامبراطور عن العقيدة الارثوذكسية وان يكتب قبل التتويج تعهداً بذلك . ففعل وتقبل تاجه من يد البطريك .

وتبين له فوراً ، بعد جلوسه على العرش ، ان الشعب لم يكن راضياً عن سلوك الاسوريين رجال زينون في العاصمة ، وان هؤلاء كانوا ينسجون مؤامرة عليه . فغزلهم عن مراكزهم العالية وصادر املاكهم ، واقصاهم في خارج العاصمة . فثار ثائرتهم في بلادهم في غربي آسية الصغرى . واضطر انسطاسيوس ان يلجأ الى القوة فحاربهم ست سنوات متواصلة الى ان اخضعهم . ثم نقلهم الى تراقية (٤٩٨) .

وكانت قد ظهرت طلائع القبائل البلغارية تتبعها قبائل الصقالبة . وبعض هؤلاء كان قد دخل في خدمة الدولة ، فلم يكن بد من الاصطدام واستعمال القوة . واندفع الصقالبة فبلغوا الى ثسالية في السنة ٥١٧ . فرأى انسطاسيوس ان يوسع النطاق العسكري حول العاصمة . فأنشأ سوراً جديداً امتد من بحر مرمرية حتى البحر الاسود مسافة ثمانية وسبعين كيلومتراً . فسمي السور الطويل كما سمي سور انسطاسيوس .

ولم يرضَ انسطاسيوس عن ثيودوريكوس . ولم يعترف بحكمه على

ايطالية قبل السنة ٤٩٧ . وفي السنة ٥٠٥ تدخل ثيودوريكوس في شؤون
البلقان وعاون فريقاً من البرابرة على فريق . فارسل انسطاسيوس في
السنة ٥٠٨ اسطولاً الى مياه ايطاليا للمشاغبة والتخريب . ورأى ان
كلوفيس ملك الافرنج هو عدو ثيودوريكوس فانعم عليه بلقب قنصل .
فوجد ثيودوريكوس ان ليس من الحكمة ان يمضي في تحدي الامبراطور
فأظهر ليناً وتم بينهما اتفاق ولكن على مضمض وقلب عكر .

الحرب الفارسية : (٥٠٢ - ٥٠٦) وكان قد اعتلى عرش ساسان
قباذ الاول ابن فيروز . وأحب ان يوطد سلطته في بلاده . فراقه مذهب
المزادكة من اتباع ماني ، ولاسيا مطالبتهم بالعدل الاجتماعي وبالمساواة بين
القوي والضعيف ، والغني والفقير . فرأى قباذ ان في ذلك وسيلة للتخلص
من تصلب الزعماء وتصلفهم . ولكن هؤلاء تيقظوا للامر فتألبوا عليه
وعاونهم في ذلك رجال الدين القومي القويم دين زرادشت . ثم تغلبوا عليه
وابعدوه عن الحكم وجاؤوا باخيه بيلاش . واستطاع قباذ ان يفر من
السجن ويلوذ بالهون البيض في شمالي ايران والى شرقها ، وكانت بينه
وبينهم مودة . ووعدهم بزيادة الاتاوة التي كانت تدفعها اليهم حكومة
فارس اذا هم امدوه فلبوه ، فتمكن بعد سنتين (٤٩٩) من ان يستعيد
زمام الحكم .

وطلب قباذ الاول الى زميله انسطاسيوس الاول ان يُمدّه بقرض
مالي يدفع به ما ضمنه للهون . ولكن انسطاسيوس كان بطبيعته مقتصداً ،
ورأى الا يدفع شيئاً الى قباذ كي لا تتمكن اواصر التعاون بينه وبين
الهون . فغضب قباذ ولجأ الى الحرب مستعيناً بالهون ، وبالنعمان الثاني ملك
الخيبة وقومه العرب^١ . وخان قومس ارمينية الرومية سيده فاستولى قباذ على

١ وهو في الارجح النعمان ابن الاسود . قضى مدة حكمه خارج الخيبة يحارب الروم
في سورية والجزيرة . وتوفي في السنة ٥٠٤ في اثناء حصار الرها .

ارضروم (ثيودوسيوبوليس) دون مقاومة (٥٠٢). ثم حاصر آمد (ديار بكر) فدافع اهلها عنها دفاعاً مجيداً. ولكن ذهول فئة من الرهبان، كانوا قد وُظفوا على حراسة قطاع معين من الاسوار فناموا نوم السكارى، مكّن قباذ من الاستيلاء على آمد والفتك باهلها (٥٠٣).

ثم فوجيء قباذ بموجة جديدة من الهون تدفقت عبر القوقاس وبانضمام زعيم ارمني وامير عربي الى قووات انسطاسيوس فاستطاعت قوات الروم ان تعبر حدود فارس (٥٠٤) وان تتوغل في اراضيها، فطلب قباذ السلم في السنة ٥٠٦. وحصّن انسطاسيوس دارا واقامها قلعة في وجه نصيين الفارسية، كما زاد في تحصينات البيرة والصاحية على حدود الفرات^١.

المالية: واشتهر انسطاسيوس بشقته ورافته، فأدخل اصلاحاً مالياً لا يزال غامضاً، لان احداً من المؤرخين المدققين لم يعن به بعد. وانما يستدل من بعض النصوص الاولية ان انسطاسيوس ألغى في السنة ٤٩٨ ضريبة كانت تجبي ذهباً وفضة من جميع اصحاب الحرف والمهن ومن الخدمة والشحاذين والنساء العموميات، وهي ضريبة الخريساغريون^٢، كما انه ألغى في السنة نفسها مسؤولية الكورياس (النقابات) عن مجموع الضرائب المفروضة على بلدهم وانشأ نظاماً للجباية المباشرة. واستعاض عن النقود البرونزية الصغيرة باربعة انواع اكبر منها سهلت التعامل التجاري واعانت على الانعاش الاقتصادي. وانشأ انسطاسيوس ضريبة على الاراضي^٣

Christensen, A., *L'Iran sous les Sassanides*, 335, 347-353.

Chrysargyrion.

Chrysoteleia.

١

٢

٣

لدفع مرتبات الجند في اوقاتها'.
 الطبيعة الواحدة : وكان انسطاسيوس كلما زاد سناً ازداد تعلقاً
 بالطبيعة الواحدة . فأدى تشبهه بها الى اضطرابات متتالية في العاصمة وفي
 الاسكندرية وانطاكية . وحاول ان يسترجع التعهد الذي كان قد كتبه
 قبيل تنويجه وسلمه الى البطريك اوفيميوس فلم يستطع . فجمع مجعاً
 محلياً سنة ٤٩٦ ، وقطع البطريك ونفاه . فتولى البطريكية بعده مقدونيوس
 الثاني . وكان هذا نقي السيرة مستقيم العقيدة محبوباً ، فعني عناية خاصة
 بمصالحة بعض رهبان القسطنطينية الذين تباعدوا عن الكنيسة منذ ظهور
 الاينوتيكون فلم يستطع . ففقد مجعاً محلياً ثبت فيه قرارات المجمع
 المسكوني الرابع . ونوى ان يكتب بذلك الى كنيسة رومة . فمنعه
 الامبراطور وحاول اقناعه بوجود شجب قرارات المجمع المسكوني
 الرابع . فلم يجب البطريك طلبه . فلجأ انسطاسيوس الى المشاغبة وشجع
 البعض على الدخول الى الكنيسة في اوقات الصلاة لاضافة العبارة
 « المصلوب من اجلنا » في التسبيح الثلاثي وذلك فيما المرتلون يرتلون . وفي
 السنة ٥١١ نفى البطريك مقدونيوس واوعز بتنصيب تيموثاوس الاول
 (٥١١ - ٥١٨) . وكان هذا رجلاً متقلباً فحرم قرارات المجمع الرابع
 وعقد اتفاقاً مع يوحنا النيقاوي بطريك الاسكندرية وسوريوس بطريك
 انطاكية وكانا من اعداء المجمع الرابع . واضطر متروبوليت سلانيك ان
 يوافق تيموثاوس خوفاً من الامبراطور فتظاهر الشعب ضد الامبراطور
 والبطريك معاً . وعقد اربعون اسقفاً من البلقان وبلاد اليونان مجعاً

١ وافضل ما يرجع اليه في هذا الموضوع عموماً ما يلي :

Wright, W., *The Chronicle of Joshua the Stylite*, Brooks, E. W., *The Eastern Provinces from Arcadius to Anastasius*, Stein, E., *Studien zur Geschichte des Byzantinischen Reiches*.

وقطعوا علاقاتهم مع تيموثاوس ودخلوا في شركة البابا بطريك رومة .
ثورة فيتاليانوس : (٥١٢ - ٥١٨) وتتابع ضغط الامبراطور على
الارثوذكسيين فثار فيتاليانوس قائد فرقة بلغارية في الجيش واحتل وارنة
على البحر الاسود ثم تقدم نحو العاصمة مطالباً بالغاء التسييح المونوفيسيبي
وباعادة البطاركة الارثوذكسيين من منقاهم وهاجم العاصمة براً وبحراً .
فصُدَّ ولكنه لم يُغلب . فعاد بوجهه الى بورغاس وبقي فيها ثائراً غاضباً
حتى وفاة الامبراطور في التاسع من تموز سنة ٥١٨ .

الفصل العاشر

تمشق الفكر والفن والدولة

الدولة تتطور فتتحول الى دولة شرقية : وانتهى أمر الامبراطورية الغربية بسقوط رومة في السنة ٤٧٦ . واستقر البرابرة في غالية واسبانية وافريقية وايطالية وفي جزء من ايليرية . فأصبح ما بقي من الدولة الرومانية شرقياً صرفاً . واشتمل على شبه جزيرة البلقان ما عدا اطرافها الشمالية وعلى آسية الصغرى حتى جبال ارمينية وعلى سورية حتى الفرات وعلى مصر والقيروان . وقلّ اهتمام الاباطرة بالغرب وشؤونه فنودي بمرقيانوس امبراطوراً في السنة ٤٥٠ دون استشارة الامبراطور الغربي في راينة . وجرى مثل هذا في السنة ٤٥٧ عندما تبوأ لاوون الاول عرش القسطنطينية . ولم تعبا حكومة القسطنطينية بما حل برومة من كوارث . فلم يحاول مرقيانوس بذل اي مساعدة عندما دخل الوندال الى رومة في السنة ٤٥٥ . واختط لاوون الاول لنفسه سياسة سلم ومسالمة في علاقاته مع البرابرة في الغرب . وزاده تمسكاً بهذه السياسة فشله في حملته على افريقية في السنة ٤٦٨ . ولم تكن محاولة التوحيد بين الشرق والغرب ، تلك المحاولة التي قام بها زينون في السنة ٤٨٨ ، سوى حلم طارىء لا قيمة له .

وتطور في هذه الآونة نفسها نظام الحكم في الداخل فأصبح شرقياً

اكثر من ذي قبل . فتسلم مرقيانوس في السنة ٤٥٠ تاجه من يد بطريك القسطنطينية لأول مرة في تاريخ الدولة . وحذا حذوه لاوون الاول في السنة ٤٥٧ . فاتخذ التنويج صفة دينية . وأصبح الحق في الحكم إلهياً شرقياً . واستعاضت العامة عن اللقب امبراطور باللقب فسيلفس . وبدأت اللغة اليونانية تنتشر في الدوائر الرسمية . وظهر الفيلسوف وبلاطه وعماله بمظاهر الابهة والجلال الشرقيين ، إن في الملابس ، او في الاثاث ، او في العربات . يؤيد ذلك ما رواه صاحب سيرة بورفيوريوس اسقف غزة . ذكر عن هذا الاسقف انه عندما دخل الى القصر واسترك في حفلة عماد الطفل ثيودوسيوس الثاني في السنة ٤٠١ خال انه في الجنة لا على الارض . واسترعى هذا التزييد الشرقي في البذخ والترف انظار يوجنا الذهبي الفم وسيناسيوس فحملا عليه بشدة .

وتمشقت الكنيسة ايضاً وأصبح الشرق هو الحيز الذي تدور فيه حوادثها الكبرى ، وتنطلق منه حركاتها الفكرية . فاعظم المشاكل التي اعترضت تاريخ الكنيسة قد حدثت في الشرق ، وكذلك مجامعها المسكونية كلها انعقدت في الشرق . وهذا ما خول بطريك القسطنطينية ، وهو يناظر زميله بابا رومة ، بعد خضوع الغرب لملوك من الآريوسيين البرابرة ، ان يقول : « لم يبق سوى امبراطورية مسيحية واحدة هي امبراطورية الشرق . ولم يبق سوى كنيسة مسيحية واحدة هي كنيسة الشرق ٢ . »

الفكر والفن والثقافة : وكانت حضارة الامبراطورية الرومانية قد تأثرت منذ زمان بعيد بنفوذ المدنية اليونانية الهلينية . ولكن هذه الحضارة في القرنين الرابع والخامس ألتقت مقاليدها الى الشرق واتخذته اماماً تأتم

Vie de Porphyre de Gaza (éd. Grégoire), 47-48; Bury, Later Rom. Emp. ١, 142-147; Puech, Saint Jean Chrysostome et les moeurs de son Temps, (Paris), 1891.
Duchesne, Hist. Anc. de L'Eglise, III, Ch. XIII.

به في الفكر والثقافة . ومع ان اللغة اللاتينية بقيت اللغة الرسمية في الشرق .
فان اللغة اليونانية أصبحت دون ريب هي اللغة السائدة .
وأصبح النتاج الفكري والفني في الشرق آسيوياً افريقياً اكثر منه
اوروبياً . ويذهب الاستاذ كرومباخر الاختصاصي الالمني الى ان مبلغ النتاج
الفكري الذي كانت تنتجه الولايات الاوروبية في الدولة الرومانية الشرقية لم
يكن يتجاوز العشرة في المئة من مجموع النتاج . وكانت اهم مراكز هذا
النتاج الاسكندرية وانطاكية وبيروت وقصرية فلسطين وقبوقية والرها .
الاسكندرية : ولا يخفى ان اساتذة المتحف الاسكندري العظيم
كانوا قد حُرموا التخصصات اللازمة لاعمالهم منذ اوائل عهد كركلا (٢١١)
وان هذا الامبراطور الغاشم كان قد طرد من الاسكندرية العلماء الغرباء
عنها . ولا يخفى ايضاً ان جنود زينب الزباء عندما دخلوا الى الاسكندرية
ظافرين (٢٧٠) نهبوا واحرقوا المباني العمومية التي كانت تحيط بقبر
الاسكندر . واتسع هذا التخريب حتى لم ينجُ منه المتحف العظيم . ومع
ان هذه المؤسسة بقيت تعمل بعد القرن الثالث فان نتاجها بات نزرأ
ضعيفاً . فلم يشتهر من اساتذتها شهرة واسعة سوى إباتية الفيلسوفة
(٣٧٠ - ٤١٥) بنت ثيون الرياضي . وكانت جميلة الخلق والخلق ترتدي
زي الفلاسفة وتلقي الدروس في الافلاطونية الجديدة في بعض مدارس
الاسكندرية ، وفي باحاتها العمومية . وعرف من تلامذتها سيناسيوس
القيروني واورستئوس الحاكم وهو الذي كان سبباً في هلاكها . فقد
زجر اورستئوس الجماهير المسيحية عندما صخبت على اليهود في السنة ٤١٥
وقبض على احد الرهبان المتهمين وشدد عليه في التعذيب فتوفي بين يديه .
فثار عليه سخط الجماهير . ولما كانت إباتية معلمة وصديقة لاورستئوس فقد

هاجمها الجمهور اذ صادفها خارجة من بيتها وانها لعلها حتى ماتت تحت الضرب^١.

وأدى الصراع بين الوثنية والنصرانية الى الاجتهاد في التاريخ والمنطق والفلسفة . وكان من الطبيعي جداً ان يحدث الجدال في امهات المدن ولاسيما الاسكندرية ، وان تعنى الكنيسة فيها بهذه العلوم العالية في سبيل الدفاع عن الايمان . ولا نعلم بالضبط متى نشأت مدرستها اللاهوتية الفلسفية التي عرفت بالاسم اليوناني الـذيداسقاليون . والذيداسقالية عند اليونان طريقة الشعراء في تدريب الممثلين . ويقول يوسيبوس المؤرخ : « اشتهرت كنيسة الاسكندرية منذ عهد قديم بمدرسة للعلوم المقدسة ، كان يتولى امرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى . وكان اطولهم باعاً بنطينس النابغة في ادب الحكمة^٢ . » وخلف بنطينس هذا في رئاسة ذيداسقاليون الاسكندرية في السنة ٢٠٠ تلميذة اقليمس الاسكندري^٣ (١٤٥ - ٢٢٠) . ولد وثنياً ايضاً في آثينة وتميز في الفلسفة وطاف بلاداً كثيرة حتى « ألقى عصاه في الاسكندرية » . وكان يجتمع حول منبره طبقات الناس من علماء واغنياء وغيرهم . وكان هو يحرّض الوثنيين على هجر خرافاتهم ، ساخراً من آلهتهم ، ويعلم المهتدين مبادئ الرسالة المسيحية . وفضل ما اشتهر به في تاريخ الفكر

١ وقد خلد الروائي الانكليزي تشارلس كنزلي قصة اباتية بيراعه الساحر ونقل روايته الى العربية العالم البناني الدكتور خليل سعادة .

٢ عن الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة للعلامة البطريرك اغناطيوس فرام برصوم ، ج ١ ، ص ٢٢٧ . وبنطينس هو Pantaenus الشهير . كان وثنياً من اتباع زينون الفيلسوف قنصر واجتهد في تفسير الاسفار المقدسة . وبشر بالايان في اليمن ويقال في الهند ايضاً . وهو الذي يقال عنه انه وجد في اليمن او في الهند نسخة من انجيل متى بالآرامية .

Titus Flavius Clemens.

قوله : « ان الفلسفة تقود الى الكمال من يلبي دعوة المسيح » ، وقوله : « ان الفلسفة في نظري ليست الرواقية ، ولا الافلاطونية ، ولا الابيقورية ، ولا الارسطوطاليسية ، وانما هي كل ما تعلمه هذه المذاهب للوصول الى العدل والحقيقة .^١ » وكان هدفه الاساسي فيما يظهر ان يبرهن للملأ ان العقيدة المسيحية لم تكن لتقل شأنًا عن اي فلسفة زمنية . وهكذا يكون اقليمس الاسكندري اول من حاول ان يعطي العقيدة المسيحية المرتبة اللائقة بها ، ويكون ايضاً في مقدمة الآباء الذين حاولوا التوفيق بين النصرانية والفلسفة . وأشهر مؤلفاته كتاب ارشاد اليونانيين ، وكتاب المعلم ، وكتاب الاسترومات او « الوشاء » كما اقترح غبطة البطريك اغناطيوس افرام ، وهو مجموعة آداب وتأملات وتفسير وتأويل لبعض ما جاء في التوراة^٢ . ولما اغلقت مدرسة الاسكندرية ، لما حلَّ بالنصارى من الاضطهاد في السنة ٢٠٢ ، لجأ اقليمس الى قبدوقية وأقام عند تلميذه الكسندروس اسقف قيصرية . ثم انتقل الى انطاكية في السنة ٢١١ . وكانت وفاته في السنة ٢١٥ او ٢٢٠ .

على ان اشهر من علّم في ذيداسقاليون الاسكندرية اوريجانيوس العظيم . ولد في مصر في بيت مسيحي في السنة ١٨٥ او ١٨٦ ، وتلقى مبادئ علومه عن ابيه ليونيداس وأخذ عن اقليمس ايضاً . وأستشهد والده في السنة ٢٠٢ وصودرت أمواله واوريجانيوس لا يزال في السابعة عشرة . فشملته سيدة مسيحية بعطفها . فتابع دروسه في الفلسفة والدين . وأنجز علومه الفلسفية وهو في الخامسة والعشرين في مدرسة امونيوس صقاس^٣

Patrologia Graeca. VIII, 717 - 720.

١ الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

Ammonius Saccas.

الافلاطوني الجديد . ودرس العبرية ليستعين بها على فهم التوراة . ودرس في الديداسقاليون وأدخل اليه العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية . وعلم الشبان والشابات معاً . ودفعاً للريبة وزيادة في التعبد والتشف عمل بمنطوق الآية الثانية عشرة من الفصل التاسع عشر من انجيل متى . ولم يؤثر عمله هذا في تعلق طلابه به واحترامهم له . وفي السنة ٢١٢ ذهب الى رومة لزيارة الكنيسة « العريقة في القدم » . وفي السنة ٢١٥ لجأ الى فلسطين من شدة الاضطهاد الذي أنزله كركلا بالمسيحيين في مصر . وأقام في قيصرية . فوكل اليه اسقفها واسقف اوروشليم شرح الاسفار المقدسة . ثم عاد الى الاسكندرية واستأنف التدريس حتى السنة ٢٣٠ . وفي اثناء هذه الحقبة عاد فمرّ بقتيصرية فلسطين فاحتفى به اسقفا قيصرية واوروشليم وساماه قسماً . فاغتاظ اسقف الاسكندرية واسقطه من وظيفة التعليم وحرمه . ولكن ذلك لم ينل من سمعته . وبقيت الكنيسة تحترمه لسيرته النقية وعلومه الجمة . فخرج من الاسكندرية الى فلسطين وأقام في قيصرية وأسس فيها مدرستها اللاهوتية . وفي السنة ٢٤٠ زار آثينة . وزار في السنة ٢٤٤ بلاد العرب . وتوفي في السجن في صور ضحية اضطهاد الامبراطور داقبوس .

ويقول ابيفانيوس القبرصي ان اوريجانيوس ألف ستة آلاف كتاب . وأثبت يوسيبوس المؤرخ الفين منها او ما يناهز هذا العدد . ومن مؤلفاته المكسبة ، اي ذو الاعمدة الستة . وهو مؤلف كبير اشتمل على ست ترجمات للتوراة في ستة اعمدة . وخص الزامير بثاني ترجمات في اعمدة ثمانية ، فعرف مؤلفه هذا بالأوكتابلة^٢ . وشرح اسفار التوراة والانجيل

Hexapla.

١

Octapla.

٢

برسائل عديدة ، فعمد الى الاستعانة بالمعاني الرمزية والتأويل . ورد على قلسوس الفيلسوف الوثني مدافعاً عن النصرانية^١ . وكتب في المبادئ^٢ في اللاهوت وفي القيامة وفي الصلاة وفي التحريض على الاستشهاد وما الى ذلك . ويرى الاستاذ بركت ان ما ذهب اليه اوريجانيوس من تأويل في كتاب المبادئ لم يثر ضجة كبيرة عند ظهوره وان قطع اوريجانيوس فيما بعد انما نشأ عن عوامل شخصية اهمها الحسد^٣ . وبما أحتج به عليه فيما بعد قوله بخلق النفوس خلقاً سابقاً على الاجساد وقوله بان العذاب في الآخرة منتهى الى نهاية وبان العفو سيشمل حتى الشياطين ، ثم قوله بالتناسخ وتقمص النفوس وبالتطهير بالنار في الآخرة وبالتفاوت بين الاقاييم الثلاثة ، عدا ارتيابه في حقيقة جسد المسيح ودمه^٤ . ومكانة اوريجانيوس في تاريخ الفكر تستند الى انه سبق غيره من الآباء في تأسيس علم اللاهوت علماً قائماً بذاته . وجل ما فعله غيره من الآباء الذين سبقوه كاقليمس ويوستينوس هو انهم حاولوا ان ينقلوا المبادئ المسيحية الى الاوساط العلمية بثوب فلسفي يوناني . اما اوريجانيوس فانه سخر الفلسفة اليونانية ولاسيما الافلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفي نصراني على دعائم من الاسفار المقدسة^٥ .

وبما ان معظم كتب اوريجانيوس مفقودة فليس من اليسور بحث

Contra Celsum. ١

De Principiis. ٢

Burkitt, C. F., Christian Church in the East (Cambridge Anc. Hist. ٣

Vol. XII, Ch. XIV), p. 484.

٤ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

٥ ويجدر بكل راغب ان يقرأ الفصل السابع بكامله من كتاب دانيال روبس : « كنيسة الرسل

والشهداء » .

آرائه لمن شاء ذلك . ويزيد في الطين بلة ما تعرضت له مصنفاته من تحريف وما نسب اليه من اذليل لم يكن هو صاحبها . « وصفوة القول ان هذا العلامة أحب الحقيقة المسيحية حباً صادقاً ووقف عليها حياته وقريحته وقواه باسرها . فصحة دينه ورسوخ تقواه تعدلان سمو علمه بالرغم عما هفا فيه من السقطات التعليمية . »

وخلف اوريجانيوس في رئاسة مدرسة الاسكندرية هيرقليوس ثم ديونيسيوس البطريك (١٩٠ - ٢٦٥) . ولد ديونيسيوس في مصر من اسرة وثنية . وتنصر ، وقرأ على اوريجانيوس ، وعلت منزلته فسيم بطريكاً على الاسكندرية وتوابعها في السنة ٢٤٨ . وله مؤلفات منها كتاب في الطبيعة نقض فيه نظرية آتومستيك في خلق العالم ، وكتاب في المحن والاضطهادات ، وآخر في المواعيد الالهية نقض فيه الاعتقاد بالملك الف سنة وغير ذلك . وليس لنا ان نذكر هنا جميع من لمع من رجال هذه المدرسة في القرن الثالث ، ولكن لا بد من القول انها قد عظم شأنها منذ ايام اوريجانيوس وأصبح رئيسها هو الثاني بعد البطريك في كنيسة الاسكندرية . وقد رقي أغلب رؤساء هذه المدرسة السدة البطريكية .

فاما في القرن الرابع فكان اشهر رجالها القديس اثناسيوس البطريك الاسكندري . ولد وثنيّاً حوالي السنة ٢٩٥ في الاسكندرية . وقرأ ودرس في مدرستها . وسامه البطريك الاسكندري الكسندروس شماساً في السنة ٣١٨ واستصعبه الى مجمع نيقية المسكوني الاول سنة ٣٢٥ فأظهر من الذكاء والعلم والمعرفة ما جذب اليه القلوب . وخلف معلمه في بطريكية الاسكندرية في السنة ٣٢٨ ففاضل في سبيل « المساوي في الجوهر » نضالاً طويلاً ونفي خمس مرات . ولم يكن ذلك الكاتب الاديب

١ العلامة البطريك اغناطيوس فرام برصوم في : الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

الكامل ولا ذلك الفيلسوف الدقيق العميق . ولكنه كان محامياً واضح التفكير قوي الحججة واسع الاطلاع . كتب في تجسد الكلمة وفي لاهوت الابن وفي الاربوسية . واشهر مؤلفاته واكثرها انتشاراً واقواها اثرأ كتابه في سيرة الاب انطونيوس مؤسس الرهبانية في مصر . فقد ظل هذا الكتاب مدة طويلة افعال الكتب في تحبيب الترهب في الشرق والغرب معاً . وتوفي البطريرك آثناسيوس في السابع عشر نيسان سنة ٣٧٣ .
وولّى اثناسيوسُ ذيندسيمَ الاعمى رئاسة المدرسة حوالي السنة ٣٥٠ وما زال ذيندسيمُ رئيساً عليها حتى وفاته في السنة ٣٩٨ . وكان اوريجانياً معتدلاً . على ان تأليفه لم يبق منها سوى كتابيه في الروح القدس والثالث الاقدس .

ومن اشهر تلاميذ مدرسة الاسكندرية في هذه الحقبة الاخيرة من القرن الرابع سيناسيوس القيروني . ولد وثيقاً ودرس في الاسكندرية على اباتية الفيلسوفة وغيرها فتقبل الافلاطونية الجديدة ومارس اسرارها المصرية . ثم استبدل افلاطون بالمسيح وتزوج من مسيحية . وفي اواخر حياته سيم اسقفاً على بتوليمايوس . وكان شديد الاهتمام بالسياسة كما تدل على ذلك رحلته الى القسطنطينية (٣٩٩ - ٤٠٢) وقد سبقت الاشارة اليها . ولم يكن سيناسيوس مؤرخاً . ولكن رسائله المئة والست والخمسين تشمل على معلومات تاريخية هامة وتظهر درجة تقدمه في الفلسفة وعلوم اللسان . واصبحت هذه الرسائل فيما بعد نموذجاً مثالياً يقتدي به كل اديب خطيب . اما ترانيمه فأنها مزيج غريب من الفلسفة والنصرانية^١ .

وتضعفت مدرسة الاسكندرية بعد وفاة ذيندسيم الاعمى . ونقلها

Fitzgerald, A., Letters of Synesius of Cyrene, London, 1926; Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, Oxford, 1930. ١

رودون الى سيدة في بامفيلية . ثم انقرضت حوالي السنة ٤١٠ . وجاء ذلك موافقاً لما حدث في مصر من عدول الاكثوية الى القول بالطبيعة الواحدة ، ما ادى الى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الام بعد المجمع الرابع (٤٥١) انفصلاً صرفها الى الاهتمام بالقبطية والابتعاد عن اليونانية لغة الفكر والبحث .

انطاكية : وأخطب خطباء هذا العصر وأفصحهم انطاكيان احدهما وثني ليبانيوس والآخر مسيحي يوحنا الذهبي الفم . وقد يكون ليبانيوس لبنانياً وقد لا يكون . ولد في انطاكية في السنة ٣١٤ بعد الميلاد وتوفي فيها في السنة ٣٩٣ . وتعلم في انطاكية ثم في آثينة . وعلم في نيقية ونيقوميذية والقسطنطينية . وعاد الى بلده في الاربعين من عمره . وما فتىء فيها يعلم ويخطب ويكتب حتى قضى نحبه بعد اربعين عاماً . ولا يزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظاً حتى يومنا هذا . وفيها صور رائعة لحياة ذلك العصر . وكان ليبانيوس يعتمز باليونانية ويزدري اللاتينية فلا يتنازل لتعلمها . واحتقر النصرانية واعتبرها عدوة الحضارة وحزن لموت يوليانوس الجاحد فقال قوله المأثور : « اني ذاهب الى الحقول لآتحدث الى الحجارة » . ولما شرع في هدم الهياكل الوثنية قال : « ان هدم الهيكل كقلع العين فالهياكل روح المناطق وأغرق المباني فيها » . واما يوحنا الذهبي الفم فقد سبق لنا عنه الحديث . ولعل افضل ما يعبر عن اثره في النفوس ومنزلته في التاريخ ما قاله نيقوفوروس كاليستوس في القرن الرابع عشر : « لقد قرأت اكثر من الف عظة له تتدفق حلاوة . ولقد احببته منذ حدائتي

Monnier, E., *Hist. de Libanius*, Paris, 1866; Sievers, *Das Leben des Libanius*, Berlin, 1868; Seock, O., *Die Briefe des Libanius etc.* Leipzig, 1906; Pack, R. A., *Studies in Libanius*, Michigan, 1935.

واصغيت الى صوته كأنه صوت الله . واني مدين له بجميع ما عرفه
وبنفسى ايضاً . »

واشتهرت انطاكية ايضاً بأميانوس مرسلوس (٣٣٠ - ٤٠١) . ولد
في انطاكية من ابوين يونانيين عريقين في الشرف . والتحق بالجيش وتولى
القيادة العامة . ولمع في غالية وفي ما بين النهرين . ثم تقاعد فعني بالتأريخ
فكتب تكملة لتاريخ تاسيتوس وذلك بعبارة لاتينية متينة فصيحة^٢ .
ولم يكن يرى فضلاً في النصرانية ولكنه كان اقل تعصباً من ليبيانوس .
واحب انطاكية وسورية ولبنان وفاخر بها : « انطاكية لا مثيل لها ،
وفينقية عند قدم لبنان فتانة جميلة^٣ » .

وكان طبيعياً جداً ان تهتم الاوساط النصرانية في انطاكية في القرون
الاولى اهتمام الاسكندرية للدفاع عن النصرانية وان تنشأ فيها مدرسة من
طراز ذيداسقاليون الاسكندرية . فنحن نقرأ انه في السنة ٢٦٩ اتخذ
مجمع انطاكية المحلي قراراً بقطع بولس السيمساطي اسقف انطاكية وصدى
زينب التدمرية . ونقرأ ان الذي تولى امر تنفيذ اذليل هذا الاسقف كان الاب
ملكيون « رئيس مدرسة العلوم اليونانية » في انطاكية . ثم نقرأ انه في
السنة ٢٩٠ اتفق القساوسة لوقيانوس ودوروثاوس وجماعة من الاساقفة
والقسوس على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها .

وكان لوقيانوس (٢٣٥ - ٣١٢) سيمساطي الاصل درس على الاسقف
بولس السيمساطي الذي علم ان الآب والابن والروح القدس ليسوا سوى
اقنوم واحد وان المسيح لم يكن ابن الله على الحقيقة وانما كان انساناً

Patrologia Graeca, CXLVI, 933.

١

Res Gestae.

٢

٣ الفصل الثامن من الكتاب الرابع عشر .

حلّ فيه اللاهوت . وتشربّ لوقيانوس شيئاً من تعاليم معلمه فأصابه حكم
المجمع الذي قطع استاذة . وبقي مبعداً عن الكنيسة حتى نكل عن بعض
ما قاله فردّه البطريرك كيرلس (٢٧٧ - ٢٩٩) الى درجته في الكهنوت .
وعني لوقيانوس بتحري نص التوراة السبعينية ونص الانجيل . فضبط
لهذين السفين الترجمة التي عمّ استعمالها الكنائس الشرقية . وتوفي لوقيانوس
وزميله دوروثاوس شهيدين في نيقوميذية (ازميد) في السنة ٣١٢ .
واشهر الآباء الانطاكيين في تاريخ الفكر الديني العقائدي ديودوروس
الطرسوسي (+ ٣٩٤) ويوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧) وثيرودوروس المبسوتي
(+ ٤٢٩) وثيرودوريطس القورشي (+ ٤٥٧) . ولد ديودوروس في انطاكية
في بيت عريق في الشرف والنفوذ . ودرس في آثينة ثم في انطاكية .
وقام باعباء الخدمة في انطاكية في اثناء المحنة التي ادت الى نفي سيده
البطريرك ملاتيوس الشهير (٣٦٠ - ٣٧٨) . وسيم اسقفاً على طرسوس
في السنة ٣٧٨ . وبوصفه اسقفاً اشترك في اعمال المجمع المسكوني الثاني
في القسطنطينية سنة ٣٨١ . وكتب في الفلسفة واللاهوت وفي تفسير
الاسفار . واما ثيودوروس المبسوتي او الانطاكي ، فانه ابصر النور في
انطاكية في السنة ٣٥٠ او ما يقاربها في بيت وفرّ ويسار ونفوذٍ واقتدار .
ودرس على ليبيانوس . ثم اجتذبه يوحنا الذهبي الفم الى الدين المسيحي .
فتقبل النعمة وتنسك وجاور ديودوروس الطرسوسي وكان هذا لا يزال في
انطاكية . ولم يقدر على متابعة الزهد فعاد الى انطاكية ليتزوج . فوجه
اليه يوحنا الذهبي الفم رسالته Ad Theodorum Lapsum فعاد الى الرهبانية
والزهد . وما فتى يدرس العلوم الدينية على ديودوروس حتى السنة ٣٧٨
سنة سيامة استاذة اسقفاً على طرسوس . فأما ثيودوروس فإنه سيم كاهناً
في السنة ٣٨٣ ورحل بعدها الى طرسوس والتحق بمعلمه . وما زال فيها
حتى سيم اسقفاً على مبسوتي في جوار طرسوس . وتوفي في السنة ٤٢٨ .

وهو اكبر من صنف في اللاهوت من رجال انطاكية . ولم يبقَ من تأليفه الاّ نزر يسير نظراً لموقف المجمع المسكوني الخامس من تعاليمه . وهو استاذ نسطوريوس . ويروى ان نسطوريوس زاره في مبسوستي وهو في طريقة الى القسطنطينية ليتبوا كرسيها البطريركي فرحب به ثيودوروس واوصاه بالاعتدال^١ . اما ثيودوريطس القورشي فإنه انطاكي ايضاً . ولد في انطاكية سنة ٣٩٣ . وبشّر بولادته مقدونيوس الناسك معلناً استعداد المولود الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح . فنشأ ثيودوريطس راهباً . واخذ كثيراً عن يوحنا الذهبي الفم وعن ثيودوروس المبسوستي . ورافق في عهد التلمذة نسطوريوس ويوحنا الانطاكي . وقد سيم اسقفاً على قورش في السنة ٤٢٣ . وكانت وفاته في السنة ٤٥٧ . وكتب كثيراً . وانفع ما صنف تكملة تاريخ يوسيبوس^٢ .

وكانت مبادئ مدرسة انطاكية توجب في كل موضوع بساطة في المنهج وكماً في الايضاح وادراكاً في تعليم الايمان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدسة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد ارسطو اكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية .

« ولهذا السبب كانت تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت و الناسوت في شخص المسيح الواحد . ومع انها كانت تعتقد بان المسيح واحد وليس اثنين فإنها كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزج بين الطبيعتين . وكانت تعتبر اتحادهما اضافياً بمعنى السكنى والارتباط حفظاً لكمال الطبيعة

Amann, E., *Théodore de Mopsueste*, (Dict. de Théologie Catholique); ١

Sweete, H. B., *Theodor von Mopsuestia*, (Dict. of Christian Biography).

Hist. Ecclesiastica; Bardy, G., *Theodoret, Evêque de Cyr*, (Dict. de ٢

Theol. Cath.)

البشرية التي زعم ابوليناريوس انها كانت ناقصة وشهد بذلك يوحنا الانجيلي بقوله ان الكلمة «سكن فيها» ، ويقول بولس الرسول ان الكلمة «ظهر بها» . وكانت تنكر على الناسوت خواص اللاهوت كالحضور في كل مكان والقدرة على كل شيء ، وعلى اللاهوت اهواء الناسوت وآلامه كالولادة والتألم والموت . ولهذا السبب كان معلومها يتجنبون كل تعبير يؤدي الى مثل ذلك المعنى كتسمية العذراء بالودة الاله . ومع اعتقادهم بكمال الطبيعة الالهية كانوا يعتقدون بوجود كمال الطبيعة البشرية ايضاً ، لان لوقا الانجيلي يقول في الاصحاح الثاني ان يسوع « كان يتقدم بالحكمة والقامة » وهذا لا يقال الا في طبيعة بشرية . وكانوا يعلمون « بوجود السجود للناسوت بمعنى انه إناء للكلمة فيقولون اننا نسجد للارجوان من اجل المتردي به ، وللهيكل من اجل الساكن فيه ، ولصورة العبد من اجل صورة الله ، وللحمل من اجل رئيس الكهنة ، وللمتخذ من اجل الذي اتخذه ، وللمكوّن في بطن البتول من اجل خالق الكل . » على انهم ما كانوا يعلمون باقنومين بل باقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين بلا انفراج ولا اختلاط ولا تشويش . ولهذا الاسباب كانوا يقدمون للمخلص سجوداً واحداً من الجهة الواحدة ، ويرفضون من الجهة الاخرى الاعتراف بالاتحاد الطبيعي او الجوهرى حذراً من حصر اللاهوت او من تأليه الناسوت .

« فينتج مما تقدم ان معلمي انطاكية والاسكندرية كانوا يعلمون التعليم المستقيم على مناهج مختلفة مع محاذرة استعمال عبارات مستقيمة او مع استعمال عبارات اشد من المستقيمة تحصيئاً للتعليم التويم بحسب اقتضاء مراكزهم . فكان المصريون يشدّون العبارات المتعلقة بايضاح كمال طبيعة اللاهوت حذراً من بدعة آريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال اللاهوت . وكان الانطاكيون يطلبون ايضاح كمال طبيعة الناسوت حذراً من بدعة ابوليناريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال طبيعة

الناسوت . ولكنه قام في المدرستين اناس تطرفوا في التعليم فسقطوا في الضلال . فقام في مدرسة انطاكية من تطرف في التعليم بالطبيعتين الى التعليم بشخصين او اقنومين حتى انكر الاتحاد الحقيقي . وهذا هو نستوربوس واتباعه . وقام في الاسكندرية من تطرف من التعليم باتحاد الطبيعتين الى التعليم باختلاطهما طبيعة واحدة ، ولم يعد يميز بين اللاهوت والناسوت . وهذا هو افثيشيس او اوطيخة وانصاره^١ .

قيصرية فلسطين : واشتاز اوريجانيوس ونفر من ديمتريوس بطريك الاسكندرية . فخرج منها في السنة ٢٣٢ وأمّ قيصرية فلسطين المدينة التي رحبت به من قبل وأصغت اليه وسامته كاهناً مسيحياً . فأقام فيها وأسس مدرسة جديدة . وقرأ عليه فيها غريغوريوس العجائبي واخوه اثنادوروس ويوسيليوس المؤرخ وغيرهم . وفيها جمع مكتبته الشهيرة وصنف الهكسبلة في شرح الاسفار المقدسة . ومنها خرج لزيارة آثينة سنة ٢٤٠ وبلاد العرب سنة ٢٤٤ . وفيها اذاقه داقوس الامبراطور مر الاضطهاد (٢٥٠) فخرج منها رغم انفه وسبق الى صور حيث سجن وتوفي في السنة ٢٥٤ او ٢٥٥ .

وبعد اوريجانيوس امّ قيصرية بمفيلوس البيروتي . وكان هذا قد وزّع امواله على الفقراء والمساكين ورحل الى الاسكندرية فدرس فيها على خلف اوريجانيوس ثم استوطن قيصرية فلسطين وانشأ فيها مدرسة لتدريس العلوم الدينية . وجمع ما كان قد تبعثر من كتب اوريجانيوس ونسخ ما لم يتمكن من ابتياعه منها بخط يده . وكان يستنسخ الكتب الالهية مستنداً الى ما اورثه اياه اوريجانيوس فينثوها في البلاد نثراً . وكان

١ الكلام لرئيس اساقفة بيروت جراسيموس في كتابه : تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٠١ -٢٠٣ ، بيروت ، ١٩٣١ .

يوسيبوس تلميذه يعاونه في عمله هذا على ما تشهد به بعض النسخ .
ومن اشتهرت بهم قيصرية فلسطين يوسيبوس المؤرخ . ولد يوسيبوس
في قيصرية او في مكان قريب منها في حدود السنة ٢٦٥ . وقرأ العلم
على بمفيلوس البيروتي وعلى دوروثاوس الانطاكي . واتخذ بمفيلوس خديناً
له وتسمى باسمه وتقلد الكهنوت من يد سلفه الاسقف اغابوس . وسيم
اسقفاً على قيصرية في حدود السنة ٣١٣ . ووعى علوم زمانه فبرع بحسب
مقياس ذلك العصر في تاريخ الاسفار المقدسة وفي تاريخ الوثنية وتاريخ
الشرق القديم وفي الجغرافية والفلسفة والفلك وحساب التويم . فشرح
اشعيا والمزامير وغيرها . وحسب لعيد الفصح مع ما في ذلك من عقد
ومشاكل . وعرف جغرافية فلسطين وتاريخها معرفة جيدة فتمكن من
ارشاد الحجاج الذين بدأوا منذ عهده يزورون الأماكن المقدسة .
وكان خطيباً حسن اللفظ انيق الالهيّة فصيحاً بليغاً . ومن مواقفه الخطابية
الماثورة خطبته في مجمع نيقية . وذاع صيته فحظي عند قسطنطين بمكانة سنيّة
وأعد لهذا الامبراطور خمسين نسخة من الكتاب المقدس بناء على طلبه .
« وكان يوسيبوس من المنتصرين لاوريجانوس . وقد وافق آريوس
في اسلوبه دون نظرياته . ومما يستدعي الاسف انه بعد ما وقع اعمال
المجمع النيقاوي واطأ خصوم هذا المجمع على مقاومة اصوله فشارك
الآريوسيين في مجامعهم وعدّه بعضهم من انصاف الآريوسية مع انك لا
تجد في تاريخه البيعي وكتابه الظهور الالهي الاّ اجهاراً صريحاً للاهوت
السيد المسيح . »

وتعددت مصنفات يوسيبوس لانه ظل يكتب حتى الثمانين . ومصنفاته

١ واللفظ لغبطة البطريرك اغناطيوس برصوم في كتابه : الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٤٥٩

تشكل محاولة جبارة لاحلال النصرانية المنزلة اللائقة بها ولورد على من استخف بها وطعن فيها امثال بورفيرىوس الفيلسوف . فالنصرانية في نظر يوسيبوس قدّر لها منذ الازل ان توث الأرض وما نشأ عليها من حضارة . وما تمّ السلم الروماني في عهد اوغسطس الاّ ليمهدّ السبيل للرسل في عملهم التبشيري . وبورفيرىوس لم يضع ضد النصرانية تصانيفه الـ Historia والـ Philosophos الاّ ليفسح في المجال ليوسيبوس ان يعد مؤلفه الكبير Historia Ecclesiastica وكذلك خرونيقون بورفيرىوس افسح المجال ايضاً لخرونيقون اوسع واكبر لتمجيد النصرانية .

وقد بدأ يوسيبوس خرونيقونه بسيرة ابراهيم ولم يتجاوزها الى الخليفة كما فعل يوليوس افريقانوس . وخص القسم الاول منه باهم الحوادث في تاريخ الشعوب بالغاً في ذلك الى سنة ٣٢٥ . ثم جعل من القسم الثاني جداول متوازية تشتمل على أهم الحوادث مرتبة حسب سني وقوعها . وما قصده من وراء ذلك الا ان يورد حوادث معينة وقعت في اماكن مختلفة في وقت واحد ثم يستعملها لتأييد نظريته في ان هذه الحوادث انما تلازمت في الزمن واختلفت في المكان لتتم بها غاية الخالق . وأهم ما حدث من هذا القبيل في نظره وقوع احصاء كويرينيوس في عين الوقت الذي ولد فيه المسيح . ومما اثلج صدر يوسيبوس ان موسى سبق هوميروس وان حوادث التوراة جاءت اساساً سابقاً لغيرها من حوادث العالم القديم . ولا يزال خرونيقون يوسيبوس مرجعاً حتى يومنا هذا لتعيين تواريخ قسم كبير من حوادث الرومان واليونان .

ووضع يوسيبوس الـ Praeparatio ليظهر اباطيل الوثنية واضرارها وليبين تفوق التوحيد العبري عليها . ثم صنف الـ Demonstratio Evangelica ليوردّ التهمة التي وجهها اليهود الى النصارى في قولهم ان هؤلاء انما تهودوا ليخرجوا على اليهودية . فهو يرى في الـ Demonstratio ان شرائع موسى

انما انزلت لتكون حلقة وصل بين عهد البطارقة الاولين وعهد المسيح . ولم يكن التثليث في نظره وما يتبعه من خلاص سوى تنمة طبيعية لعقيدة اليهود ونبوات الانبياء مع ايضاح كامل لبعض ما جاء غامضاً ناقصاً في الفلسفة الافلاطونية .

وبعد ان طهر يوسيبوس عقول قرائه من ادران الوثنية وابان قدم عهد النصرانية ومكانتها في تاريخ العالم وسمو منزلتها في منهاج الخالق ، وضع تاريخاً خاصاً للكنيسة Historia Ecclesiastica منذ ظهور السيد لبين امانتها لتعاليمه وانها واسطة خلاص الانفس من الخطيئة . وما عذاب اليهود في نظره وتشردهم بعد ظهور السيد سوى برهان ساطع على تحلي الخالق عنهم . ولم تجب مساعي الاباطرة مضطهدي النصرانية في نظر هذا المؤرخ الا بقوة الايمان وعظمته . وما انتصار قسطنطين على مكسنطيوس اولاً وعلى ليكينيوس ثانياً سوى اتمام ساطع باهر لوعود الله عز وجل^١ .

وفي هذا القرن اشتهر عدد من المؤرخين غير يوسيبوس فكان سقراط القسطنطيني الذي اكمل عمل يوسيبوس بـ Historia Ecclesiastica اخرى اوصل فيها تاريخ الكنيسة الى السنة ٤٣٩ . وكان ايضاً صوزومانوس الغزي فالف كتاباً مماثلاً وقف فيه عند السنة ٤٣٩ . وثيودوريطس القورشي الذي سبقت اليه الاشارة والى تاريخه . وهو يعنى بالمدة بين السنة ٣٢٥ والسنة ٤٢٩ .

بيروت : وكانت بيروت قد اصبحت منذ اوائل القرن الثالث مركزاً لتعميم القوانين ونشرها . وكانت تجارتها واسعة ودخلها كبيراً فاستهوت دعاويها القائمة امام محاكمها اكبر المحامين واشهر الاساتذة . وبالطبع

*Patrologia Graeca, CXLVI ; Laquer, R, Eusebius als Historiker seinre ١
Zeit ; Baynes, N. H., Eusebius and the Christian Empire, (Ann. de
l'Inst. de Phil. et D'Hist. Orient. II, 1934.)*

استمتع ذلك نشوء مدرسة الحقوق وازدهارها فيها ونبوغ طائفة من اساتذة القانون اشتهر منهم على تعاقب العصور اوليانوس الصوري (١٧٠ - ٢٢٨) وبابنيانوس (+ ٢١٢) ثم غايوس ومرقيانوس وتريفونيوس في القرن الثالث ودومنيونوس في القرن الرابع وهو الذي راسله ليبيانوس فأوصاه ببعض طلاب انطاكية . ولمع في القرن الخامس اذ كسيوس وابنه لاونطيوس (+ ٥٣٠) الذي تولى برايفاكورة الشرق في عهد انسطاسيوس . ويمبليخوس وكيرلس صاحب كتاب « التعريفات » وباتريقيوس الاستاذ الكبير . واستحق هولاء لقب « اساتذة العالم » وشهروا بيروت حتى رفعها الامبراطوران ثيودوسيوس الثاني وفالنتينانوس الثالث الى شرف الحواضر « متروبوليس » فأصبح اسقفها متروبوليتاً ولا يزال . وتوات عليها الالقب فأصبحت « ام العلوم » و « موطن العلماء » و « ظئر الشرائع » . وكان لاساتذة يعينون في اول الامر بموافقة مجلس شيوخ المدينة . ثم اشترط ايوليانوس الجاحد (٣٦٢) ان يكون التعيين بموجب صك يوقعه القائد المحلي ويوافق عليه مجلس شيوخ المدينة . ثم فرض ثيودوسيوس ان يعرض عليه قرار القائد والشيوخ قبل التنفيذ . وكانت السلطة منذ السنة ٤٢٥ تقوم بجميع نفقات الاساتذة . وتقاطر الطلاب الى هذه المدرسة من كل صوب . فحفل معهدا ببناء غزوة وعسقلان وانطاكية والرها وسميساط وغيرها من مدن الشام وفلسطين . وأمها غيرهم من مصر واسبانية وايطالية والبلقان وبر الاناضول . وكان لا بد لهؤلاء الطلاب من دروس تمهيدية في اليونانية واللاتينية وفي الخطابة والفضاحة يتهيأون بها لدرس القانون . فكانوا يحصلونها إما في مدنهم او في بيروت نفسها بطرق خاصة . وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب ، فلا يجيزهم الا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين . ولم يستثن من هذا الا الطلاب العرب الذين كانوا يصلون متأخرين في ثقافتهم . وكان الطلاب في اول عهد الكلية من الطبقة الوسطى

في المجتمع لانصراف ابناء العائلات الكبيرة الى درس اللغة والخطابة . ثم تحول هؤلاء ايضاً الى درس الحقوق . فأبدي ليباريوس اسفه لان العدد الغفير من ابناء الاعيان في انطاكية اصبحوا يهجرون الخطابة . وبقيت اللاتينية لغة التعليم حتى اواخر القرن الرابع ، ثم حلت محلها اللغة اليونانية . وكان الاستاذ يفتح درسه بتلاوة بعض النصوص ثم يفسرها معلقاً عليها ثم يفسح في المجال للسؤال والجواب . وكانت مدة التدريس اربع سنوات ثم اضيف اليها سنة خامسة للتخصص .

واشتهر في اواخر القرن الخامس واولئ القرن السادس شماس بيروت رومانوس المرتل وهو اول ناظم للقنادق . وأشهر ما نظم ورتل القنادق : « اليوم تلد العذراء الفائق الجوهر . فتقدم الارض المغارة للذي لا يُدنى منه . والملائكة يمجّدونه مع الرعاة . والمجوس يسرون اليه مع النجم . فانه ولد من اجلنا صبيّ جديد . هو الاله الذي قبل الدهور . » وقد أجاد لفظاً ومعنى واستعارة وتشبيهاً فأصبح « بيندار » الروم على ممر العصور ، وموضع اعجاب رجال الاختصاص في عصرنا هذا .

قبدوقية : ولمع في سماء آسية الصغرى في قبدوقية في القرن الرابع اقمار ثلاثة اكسبوا قبدوقية شهرة واسعة وعظمة ليس بعدها عظمة . والاشارة هنا الى غريغوريوس الثاولوغوس وباسيليوس الكبير واخيه غريغوريوس النيساوي .

ولد غريغوريوس الثاولوغوس (اللاهوتي) في قرية اريانزوس بالقرب من نزينزوس في السنة ٣٢٨ وكان ابوه قد تنصر بتأثير زوجته نونّة ثم سقّف على نزينزوس او نازيانزة . وقد ترعرع غريغوريوس على المبادئ

١ راجع محاضرة الاستاذ فؤاد البستاني ، عن التعليم في لبنان ، في مجلة الندوة ، السنة الرابعة ، ص ١٦٣ - ١٦٨ ، ثم كتاب الاستاذ كولينه في تاريخ مدرسة بيروت :
Collinet, P., Hist. Ecole de Droit de Bryrouth, Paris, 1925 .

الصالحة . وتلقى مبادئ علومه في قيصرية قبدوقية ثم في قيصرية فلسطين
فالإسكندرية فأثينة . وفي آثينة انعقدت اواصر الصداقة بينه وبين
باسيليوس الكبير . وتلقى المعمودية حوالى السنة ٣٦٠ . ثم أعرض عن
الدنيا ومال الى النسك ، فترهب مع باسيليوس الكبير في البونط . وعاد
الى بلده فشرطنه والده كاهناً لكنيسة نازيانزة في السنة ٣٦٢ . فأقام في
خدمتها حتى السنة ٣٧١ او ٣٧٢ فسامه باسيليوس الكبير اسقفاً على
ساسية اوزاسية . ولكنه لازم خدمة والده حتى وفاته في السنة ٣٧٤ .
وفي اوائل السنة ٣٧٩ استقدمه ارثوذكس القسطنطينية لمساعدتهم ضد
الآريوسية . فسار اليهم وجمعهم في دار رجل من اصدقائه جعلها كنيسة
صغيرة واسماها انسطاسية . « وفيها ألقى خطبه الرنانة في الثالث الاقدس
ومنها تدفقت سيول الفصاحة على اسماع المؤمنين . » فما عددهم على حساب
الآريوسيين . وفي السنة ٣٨٠ أقر الامبراطور ثيودوسيوس الاول رئاسته
على القسطنطينية ، وأيد ذلك الجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٨١ فرعاها
حتى السنة ٣٨٢ . وكان حساساً جداً فلم يوافق جو القسطنطينية مزاجه
فقال قوله المأثور : « ردوني الى الانفراد ! ردوني الى الله ! » فكان
له ذلك ، وعاد راجعاً الى نازيانزة حيث قضى فيها باقى عمره ، وتوفي في
السنة ٣٩١ . وأشهر مصنفاته خطبه في العقائد والاعيان والقديسين ، وتأبينه
واشعاره اللاهوتية ، وقصيدته الطويلة في تاريخ حياته . واهتدى في دقائق
اللاهوت الى عبارات لطيفة موفقة . وتجلت في خطبه ومواعظه مقدرة
فائقة في التعبير والاقتناع ، فلقب بالثاولوغوس (اللاهوتي) ، واحياناً
بالثاولوغوس الثالثي ، لانه تكلم كثيراً في الثالث وفي وحدانية جوهره
وطبيعته ٢ .

١ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .

٢ Fleury, E., *Saint Grégoire de Naziance et Son Temps*, (Paris, 1930) .

واما باسيليوس الكبير فقد سبق عنه الحديث . ويجدر بنا هنا ان نضيف ان جدته لايه القديسة مقرينة تتلمذت لغريغوريوس العجايبى ، وان جده لامه حاز شرف الشهادة ، وان اخته الكبرى مقرينة ترهبت ، وان والدته اميلية قضت اعوامها الاخيرة في العبادة ، وان اخويه بطرس وغريغوريوس كانا في مصاف الاساقفة . وأشهر الاثني غريغوريوس . ويعرف بالنيسي . وقد فاق اخاه باسيليوس الكبير وصديق اخيه غريغوريوس الثاولوغوس في الدقة والتعمق . ولد في قيصرية قبدوقية حوالى السنة ٣٣٥ ، وتآدب فيها وعلم الخطابة مدة من الزمن . ثم أثر الثاولوغوس في نفسه فتسك . ثم سامه اخوه باسيليوس اسقفاً على نيسة سنة ٣٧١ . وعزله الآريوسيون سنة ٣٧٦ ، ولكنه عاد اليها بعد سنتين . واشترك في اعمال الجمع المسكوني الثاني ، فأحرز احتراماً عظيماً لتفوقه في جودة التفكير ووضوح التعبير . وصنف كثيراً . وأشهر مؤلفاته رده على انوميوس وابوليناريوس . وكانت وفاته في السنة ٣٩٤ في الارجح .

وتضلع جميع هؤلاء الاحبار الثلاثة من العلوم الكلاسيكية . واجتهدوا اجتهاداً صالحاً في اللاهوت . وتوافقوا فشكوا ما عرف فيما بعد بالمذهب الاسكندري الجديد . استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل في العقيدة ولكنهم لم يتطرفوا في التأويل تطرف اساطين الاسكندرية ولم يتخلوا عن تقاليد الكنيسة الموروثة . و اضافوا الى تصانيفهم الكثيرة في العقيدة مجموعات من الخطب والرسائل تشكل في حد ذاتها مواد اولية هامة لتفهم الفكر والثقافة في هذه الفترة موضوع هذا الفصل . ولم يتم بعدهم في قبدوقية من حافظ على هذه المكانة العالية التي اوصلها اليها في تاريخ الفكر هؤلاء الافاضل الامائل .

واختلف الآباء فيما بعد في التفاضل بين باسيليوس الكبير وغريغوريوس
الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم. ثم اتفقوا نحو السنة ١١٠٠ فأقروا عيداً
تذكاريّاً للثلاثة معاً عرف بعيد الاقمار الثلاثة. ورتب يوحنا اسقف
افخاطية خدمة كنائسية خاصة لهذا العيد.

« هلموا نلتئم جميعاً ونكرم الثلاثة الكواكب العظيمة للاهوت
المثلث الشموس التي انارت المسكونة باشعة العقائد الالهية وأنهار الحكمة
الجارية بالعسل التي روت الخليقة كلها بسواقي معرفة الله باسيليوس العظيم
وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الشهير الذهبي اللسان وتمدحهم بالاناشيد
يا عاشقي مواعظهم فإنهم يتشفعون الى الثالث فينا دائماً. » (٣٠) كانوا
الثاني).

الرها : وروى برحذبشبا العربي اسقف حلوان في النصف الثاني من
القرن السادس اخذاً عن التقليد الشائع ان أدّى البشير انشأ مدرسة في
الرها لتدريس العلوم الدينية^١. وهي رواية ضعيفة نظراً لطريقة نقلها ولبعد
برحذبشبا عن عصر الرسل. واول من ورد ذكره من طلاب الرها
لوقيانس ثم يوسيبوس الرهاوي اسقف حمص (+ ٣٥٩). ولما احتل
الفرس نصيبين سنة ٣٦٣ في عهد يوفيانوس الامبراطور جلا عنها افرام
الكبير واساتذة مدرستها وبعض الاشراف وساروا الى آمد فالرها.
وارتاح افرام الى السكنى في الرها فأقام فيها وزملاءه وانضموا الى
مدرستها فأطلق عليها اسم مدرسة الفرس نسبة الى طلابها والاساتذة
النازحين اليها. والقديس افرام السرياني هو نفسه الذي قال عنه الذهبي
الفم: « افرام كنارة الروح القدس ومخزن الفضائل معزي الخزانى ومرشد
الشبان وهادي الضالين كان على الهراطقة كسيف ذي حدين. » واشهر ما

صنف ميامره الشعرية في الاسرار والبتولية والتوبة والايمان والكهنوت والرهبانية . وقد نقل جانب وافر من هذه الميامر الى اليونانية وناظمها لا يزال في قيد الحياة . اما وفاته فكانت في السنة ١٣٧٩ .

الفن البيزنطي : وتمشقت الدولة بفنها ايضاً . وعلماء القرن العشرين ينتقون ما ذهب اليه زملاؤهم في القرن التاسع عشر من ان الفن الروماني كان قد طغى على الفن الهليني في الشرق في القرنين الاولين بعد المسيح . ويثبت أينالوف في كتابه الاصول الهلينية للفن البيزنطي^٢ ، واشتراجيكوفسكي في كتابه « الشرق او رومة^٣ » ان الشرق لا الغرب هو الذي لعب الدور الرئيسي في انشاء الفن البيزنطي وان هذا الشرق شمل ، بالاضافة الى آسية الصغرى وسورية ومصر ، بلاد فارس واواسط آسية . ويذهب اشتراجيكوفسكي الى ابعد من هذا فيجعل منزلة ايران في التأثير على الفن البيزنطي كمنزلة بلاد اليونان الام في التأثير على الفن الكلاسيكي^٤ . ويرى بعض رجال الاختصاص تطرفاً مالموساً في نظريات اشتراجيكوفسكي ولكنهم لا ينكرون عليه ان الشرق لا الغرب قد لعب الدور الرئيسي في تكوين خصائص الفن البيزنطي^٥ . والواقع الذي لا المفر منه هو ان روائع الفن البيزنطي جاءت ثمرة لامتزاج وتفاعل موفق بين عوامل ثلاثة : الدين المسيحي والحضارة الهلينية واوضاع الشرق . واشهر الآيات الفنية التي تعود الى هذه الحقبة من تاريخ الروم كنائس قدس وبيت لحم والناصره وجميعها اقيمت في عهد قسطنطين الكبير . ومن

١ اللؤلؤ المنشور ، للطريك اغناطيوس افرام برصوم ، ص ١٩٦ - ٢٠٢ .

٢ Ainalov, D. V. *Hellenistic Origin of Byzantine Art.*, (Petrograd, 1917.)

٣ Strzygowski, J., *Orient or Rome.*

٤ Strzygowski, J., *Origen of Christian Church Art.*

٥ Diehl, G., *Manuel d'art Byzantin*, I, 16 - 21 .

أشهر ما انشئ في آخر القرن الخامس دير مار سمعان العمودي - قلعة سمعان - بين حلب وانطاكية^١. وتعود آثار قصر المشقى في شرقي الاردن الى هذه الحقبة نفسها ايضاً. وقد اثبت العالم الاثري كاوفمان الالماني ان آثار كنيسة القديس ميناس في مصر تعود الى عهد الامبراطور ارقاذيوس^٢. وفي القسطنطينية أقام قسطنطين الكبير كنيسة الرسل وكنيسة القديسة ايرينة ، كما شيّد كنيسة الحكمة التي أعاد بناءها يوستينيانوس كما سنرى . ولا تزال اسوار ثيودوسيوس ماثلة لليوم بما فيها الباب الذهبي الرائع Porta Aurea الذي كان يلجه الابطرة في المواكب الرسمية .

١ راجع دليل في كتابه المشار اليه انفا ، ولاسيا المخططات والصور ، المجلد الاول ، ص ٣٦ - ٣٧ و ٤٥ - ٤٧ .

Kaufmann, C. M., Die Menasstadt, (Leipzig, 1910.)

الباب الخامس كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادى عشر

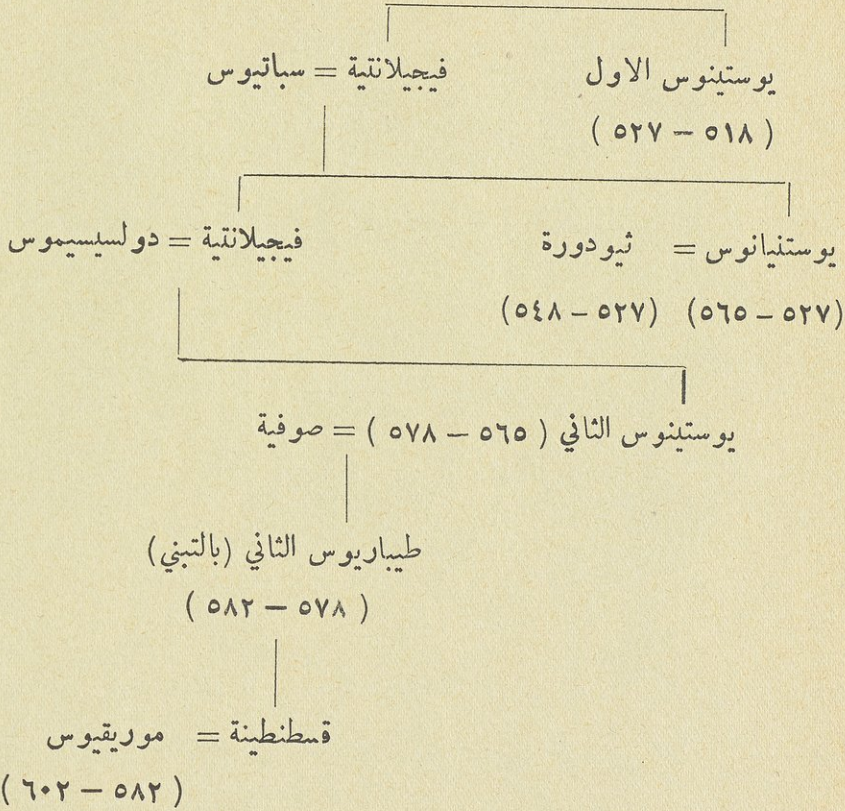
يوستينوس ويوستينيانوس

(٥١٨ - ٥٦٨)

اصل هذه الاسورة : وقد كان السائد حتى اواخر القرن الماضى ان هذه الاسرة تحدرت من أصل صقلي . والذي حمل على هذا الاعتقاد ما ورد من اسماء صقلية دُعي بها يوستينيانوس وانسابؤه ، في ترجمة لهذا الامبراطور نسبت الى معلمه ثيوفيلوس . ولكن المؤرخ الانكليزي جايمس برايس اثبت في اواخر القرن الماضى ان هذه الترجمة هي من نتاج القرن السابع عشر وانها بالتالى لا تستحق عناية المؤرخ واعتماده . والذي يراه رجال الاختصاص اليوم ان يوستينوس ويوستينيانوس تحدرا من أصل ايليري او ألباني ، وان يوستينيانوس ولد في احدى قرى مقدونية العليا في جوار

Bryce, J., *Life of Justinian by Theophilus*, Eng. Hist. Rev. II, 1887, 657 - 684 .

اسكوب على حدود البانية . اما يريشيك فيرى انها من أصل روماني^١ .
 وبما لا شك فيه انها تكلموا اللغة اللاتينية .



يوستينوس الاول : (٥١٨ - ٥٢٧) وتوفي انطاسيوس في التاسع
 من تموز سنة ٥١٨ بدون عقيب . فتولى العرش بعده يوستينوس أحد
 قادة الحرس الامبراطوري^٢ بتدبير لا يزال غامضاً . وكان يوستينوس
 هذا وضع الاصل ، مغمور الذكر ، جاء العاصمة مغامراً يمشي على القدمين
 من مقدونية . الا انه كان جندياً باسلاً فألحق بالحرس الامبراطوري .

Jirecek, G., *Geschichte der Serben*, I, 36.
comes excubitorum.

وظلَّ يتقدم حتى أصبح قومن احدي فرق الحرس . على انه في الواقع لم يكن شيئاً غير جندي باسل . وقد رأى فيه المؤرخون المعاصرون له امياً لا يقرأ ولا يكتب ، متطفلاً على السياسة واهلها ، جاهلاً علم اللاهوت . ويقولون انه لولا مساندة ابن اخته يوستينانوس له لناءً بحمله وضاع في متاهات الادارة والسياسة . وكان يوستينوس قد استقدم يوستينانوس اليه في حديثه ، وعني بتثقيفه وتهذيبه ، فأصاب يوستينانوس شطراً وافرأً من العلم في مدارس العاصمة . فلما تبوأ خاله عرش القسطنطينية كان يوستينانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلى بالنضج والاتزان .

وكان الاثنان كاثوليكين ارثوذكسين يقولان بقرارات المجامع المسكونية الاربعة فأنهيا ما كان قد وقع من شقاق بين القسطنطينية ورومة من جراء اينوتيكون (٤٨٢) زينون ، وأقصيا اصحاب الطبيعة الواحدة عن المراكز الهامة ، وربما أنزلا ببعضهم شيئاً من العذاب . وكان هؤلاء كثيراً في ارمينية وسورية ولبنان وفلسطين ومصر . فنفرت هذه الاقطار من سياسة الاسرة الجديدة . وشعر يوستينانوس بهذا النفور ، وخشي سوء العاقبة في حقل السياستين الداخلية والخارجية في الشرق . فكتب رسالته الشهيرة الى البابا هورميرزاس في السنة ٥٢٠ مقترحاً استعمال اللطف مع اصحاب الطبيعة الواحدة « كي يتم الشفاء بدون تقحج جروح جديدة . »

يوستينوس وكالب : وكانت قد تسربت النصرانية الى بلاد اليمن بعد انتشار اليهودية فيها . وكان آخر ملوك حمير ذو نواس يهودياً فيما يظهر . واشتدت المنافسة بين النصراني العرب واليهود العرب ، وانقلبت عداً مريراً . وكان ذو نواس يرى في النصرانية ما يذكره بالاحباش واحتلالهم . فأوقع بالنصارى في السنة ٥٢٣ مذبحاً بنجران

الشهيرة . ثم جمع من نجا منهم وخيّرهم بين القتل واليهودية . فاختاروا القتل .
 فخذّ لهم اخدود النار ذات الوقودا . وجاء في الطبري^٢ ان دوس ذا
 ثعلبان أفلت ولجأ الى امبراطور الروم يستنصره على ذي نواس ، وان
 يوستينوس قال له : « نأت بلادك عنا فلا تقدر ان نتناولها بالجنود ولكني
 ساكتب الى نجاشي الحبشة وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك . » وبما يروى
 ايضاً ان النجاشي انتصر على ذي نواس مرتين متواليتين في السنة ٥٢٣ وفي
 السنة ٥٢٥ . وهنا ربّ معترض يقول : كيف اضهد يوستينوس اصحاب
 الطبيعه الواحدة في بلاده ثم تعاون مع النجاشي كالب الذي كان يقول
 هو ايضاً بالطبيعة الواحدة ؟ والجواب ان صاحب القسطنطينية كان يعتبر
 نفسه حامياً ذمار النصرانية في كل المسكونة .

وتحدث الاحباش طويلاً بهذا التعاون بين يوستينوس وكالب وتناقلوا
 الخبر جيلاً بعد جيل ودونوه في القرن الرابع عشر في تاريخهم القومي
 الكبير : « كبرى نجشت » ، ومعناه فخر الملوك . فقالوا ان اسرتهم المالكة
 تحدرت من سليمان وبلقيس وان دولتهم أشرف من دولة الروم وانه كان
 ليوستينوس ولكالب ان يلتقيا في اوروشليم ليقسما الارض باجمعها^٣ .

يوستينانوس وثيودورة : وتحفظ لنا فيفساء^٤ سان فيتالي في رابينة
 قسبات وجه يوستينانوس كما رسمها رسام في السنة ٥٤٧ . ويقول معاصروه
 انه كان يميل الى البساطة في العيش ، والتودد في معاملة الناس ، وانه
 كان يواصل العمل ليل نهار حتى لقبه احد رجال بلاطه بـ « الامبراطور
 الساهر » اذ كان يحرص ان يعلم كل شيء ، وان يدقق في كل شيء ، وان

١ سورة البروج ، الآية الرابعة .

٢ ج ١ ، ص ٩٢٧ - ٩٢٨ .

٣ Vasiliev, A. A., Justin I and Abyssinia, (Byzantinische Zeitschrift, XXXII, ٣

1933, 67-77.)

يقرّ كل شيء . والواقع ان يوستينانوس كان شديد الاعجاب بمواهبه ومؤهلاته لا يسمح لاحد من رجاله ان يعارضه في أمر ، ولا يثق باحد منهم ، حتى ولا بقائده الامين بليساريوس العظيم . وعلى الرغم من تظاهره بالعزم والحزم والثبات فانه كان في قرارة نفسه متردداً شديد التأثر بأراء الحاشية ولاسيا زوجته ثيودورة^١.

ويقول بروكوبيوس المؤرخ في كتابه عن اسرار هذه الحقبة ان ثيودورة هذه تلطخت منذ حداثتها بفساد المحيط حولها . فانها نشأت ابنة لمرض الدببة في مسارح القسطنطينية وسببت على شيء من الاباحية . وما طال الامر حتى احتقرها سكان العاصمة ، فكانوا اذا التقوها في شوارع المدينة ابتعدوا عنها خوفاً من ملامستها والتلوث بها^٢. ويقول شارل ديل الافرنسي ان ثيودورة شغلت العاصمة فأهنتها لا بل فتنها ثم جرّت الخزي عليها^٣. ولكن يجب الا يغيب عن البال ان بروكوبيوس انما كتب ما كتب ليحطم به يوستينانوس وزوجته . وهو والحالة هذه راوٍ مغرض لا تقبل شهادته بدون تبصر وروية وجرح وتعديل . ويجب الا ننسى ان ثيودورة ترصنت بعد طيشها وذهبت الى افريقية فبقيت فيها بضع سنوات عادت بعدها الى القسطنطينية متعقلاً متزناً مهتمةً بالقضايا العامة ولاسيا الدينية منها ، منهمكةً بغزل الصوف في ساعات الفراغ ، وان يوستينانوس لم يعرفها قبل دخولها في هذا الدور من حياتها . وأعجب يوستينانوس بجمالها فنقلها الى القصر وجعل منها بطريرقةً ثم تزوج منها . وشعرت ثيودورة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها ، فتعاونت وزوجها في سبيل العرش والدولة ، وأخرجته في كثير من الاحيان من مأزق حرجة كما سيمر بنا .

Diehl, Ch., Justinian, Cambridge Med. Hist. II, 2.

Historia Arcana, 9, 25.

Byzantine Portraits, 54 ; Théodora.

سياسة يوستينيانوس الداخلية : وجوبه يوستينيانوس في اول عهده
بثورة داخلية كادت تدك عرشه دكاً . وهي التي عرفت بثورة النصر
« نيكاً » باليونانية . ولا بأس في تفصيل نبأ هذه الثورة من التوقف والرجوع
قليلاً الى الوراء ، ذلك انه كان يقوم في قلب العاصمة ملعب فسيح
لسباق الخيل يدعى الـ Hippodrome . وارتاحت نفوس سكان العاصمة الى
سباق الخيل في الهيبودروم ونشطوا لمراقبة هذه السباقات وتحمسوا لها .
وكان على سائقي عربات السباق ان يتزوّوا بواحد من اربعة الوان إما
الاخضر او الازرق او الابيض او الاحمر . فانقسم النظارة من سكان
العاصمة الى احزاب رياضية اربعة : الخضر والزرق والبييض والحمر .
وأنتظمت هذه الاحزاب ، وتكتل افرادها وتكاتفوا ، فانشأوا لكل
منها صندوقاً خاصاً لتشجيع السائقين وشراء الجياد السبّاقة والعناية بها .
ولا نعلم بالضبط كيف وقع الاختيار على هذه الالوان التي تسمت بها
هذه الاحزاب ، ولكننا نعلم انها قديمة جداً وان رومة الجديدة ورثتها
عن رومة القديمة . ويرى بعض رجال الاختصاص انها ربما اشارت في
الاصل الى العناصر الاربعة : الارض والماء والهواء والنار ، الارض
الخضراء ، والماء الازرق ، والهواء الابيض ، والنار الحمراء . ثم نتج عن هذا
التضامن في حقل الرياضة تضامن في السياسة والاجتماع . وانضم البييض
الى الخضر والحمر الى الزرق فأصبح في العاصمة حزبان سياسيان اجتماعيان ،
حزب الخضر وحزب الزرق . وأيد الزرق الارثوذكسية فأيد الخضر
القول بالطبيعة الواحدة . وكان قد سبق في عهد انسطاسيوس ان حلّ
بالزرق اضطهاد شديد لان هذا الامبراطور كان يميل الى القول بالطبيعة

الواحدة فهرع الزرق الى الهيبودروم ونادوا بسقوط انسطاسيوس . وكاد يتم ذلك لولا اتران الامبراطور واستعطافه الرأي العام . فلما رقي يوستينوس ويوستينانوس العرش دبَّ الى عروق الزرق النشاط ولكن ثيودورة عطفت على الحُضر ، فانقسم البلاط نفسه الى ازرق واخضر . ويجوز القول ايضاً ان الزرق كانوا في الغالب من طبقات الشعب العليا ، وان الحُضر جاؤوا من الطبقات السفلى بحيث أصبح الصراع بينهما في بعض الاحيان صراعاً طبقياً^٢ .

وقد تعددت اسباب ثورة النصر التي نشبت في السنة ٥٣٢ ، فبعضها كان دينياً عقائدياً نشأ عن اضطهاد من قال بالطبيعة الواحدة . وبعضها كان مرده الى تنافس الاسر على العرش وحرمان اقارب انسطاسيوس من الملك . وبعض هذه الاسباب كان عمومياً وهو الاقوى . وتفصيل الامر ان يوستينانوس اعتمد في اول عهده على تريبونيانوس في القضاء وعلى يوحنا القبدوقي في الادارة . وطغى الاثنان وتجاوزا الحد في ابتزاز المال وفي القسوة . فهبَّ الزرق والحُضر معاً وهرعوا جميعاً الى الهيبودروم ثم انطلقوا منه يخربون ويحرقون . وسادت كلمة النصر على افواههم « نيكاً » فسميت بها حركتهم هذه . وفاوضهم يوستينانوس فلم يرضوا ونادوا باحد انساب انسطاسيوس امبراطوراً . فخشي يوستينانوس العاقبة وجمع اخصاءه وشاورهم في الفرار من العاصمة . وكادوا يجمعون على ذلك ولكن ثيودورة انتصبت بينهم وقالت كلمتها التاريخية : « يستحيل على امرىء يجيء هذا العالم ألا يموت ولكن من يمارس السلطة لا يطيق النفي . وان تشأ ايها الامبراطور ان تنقذ نفسك فلن تجد صعوبة والبحر

Uspensky, Th., Hist. of Byz. Emp., I, 506.

١

Manojlovic, M., le Peuple de Constantinople, (Byzantion, 1936), 617-716.

٢

قريب ، والمراكب مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريث قليلاً وسل نفسك : ألن تقدم بعد فرارك ووصولك الى ملجأ امين فتود لو كنت آثرت الموت على الامان ؟ أما انا فأرى ان الارجوان لا بأس به كفنأً . » فانتعش يوستينانوس وأمر بليساريوس ان يخضع الثاثرين بالقوة بعد ان مضت على ثورتهم ستة ايام . فأحاط بهم بليساريوس بجنوده ولزّمهم حتى أكرههم على اللجوء الى الهيبودروم . ثم فتك بهم فتكاً فقتل ثلاثين او اربعين الفاً بينهم انساب انسطاسيوس وثبتت هيبة السلطة^٢ .

وكان قد ظهر في آسية الصغرى ومصر وغيرها من اجزاء الامبراطورية عدد من أصحاب العقارات الكبيرة الذين استغلوا الظروف السياسية والادارية ففرضوا ملكيتهم فرضاً ، واغتصبوا املاك الدولة ، وعشوا بالسلطة المركزية فاحاطوا انفسهم بالحراس ، وجروا وراءهم الجمالهير ، وسدوا افواه الولاة بالذهب^٣ . وأشهر من اشتهر من هؤلاء في مصر اسرة الابيون . فكان الواحد منهم يملك القرية بعد القرية ، ويفرض ضرائبه الخاصة ويجيبها على يد جباته ويعيش عيشة الملوك^٤ . واتسعت كذلك املاك الاديرة والكنائس وتمتع اصحابها بسلطة واسعة .

ورأت الحكومة في هذا كله تحدياً لا مبرر له فقاومته مقاومة طويلة الامد ، تذرعت في اثنائها بشتى الوسائل ، كأن تتدخل في حق الارث احياناً ، او ان تكره احياناً اخرى بعض الكبار على وقف املاكهم على الامبراطور ، او ان تصادر بعض الاملاك بداعي عدم الدليل على الملكية ، او ان تتمهم ديراً من الاديار بالزندقة فتحوّل ارزاقه الى الدولة . ولكن برغم

De bello persico, I, 24,35-37 ; éd. Haury, I, 130 ; éd. Dewing, I, 230-233. ١

Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 156-157. ٢

Novelle, 30, (44), 5, éd. Zacharia von Lingenthal, I, 268. ٣

Bell, H., *Byz. Servile State in Eg.*, *Journal of Eg. Arch.* IV, 101-102. ٤

هذا كله لم يتمكن يوستينانوس من القضاء على هذه الطبقة .
ولس يوستينانوس عيوب الادارة ومواطن الخلل فيها كبيع الوظائف
وتبديد الاموال والسرقة والبلص . وعلم حق العلم ان هذه النقائص
تؤدي حتماً الى الفقر والحراب والى اثاره الفتن والمشاكل . ورغب كل
الرغبة في ازالة الضرر واصلاح الحال . وشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه .
وكان يقول بالحكم المطلق . فرأى ان افضل الوسائل لمداواة الحال هي
السعي لتقوية الحكومة المركزية وانتداب رجال اكفاء للقيام بمهام الحكم .
وعني بادىء ذي بدء بمالية الدولة فذكر بنفقات الحرب وطلب الى
الرعايا ان يؤدوا ما وجب دفعه باخلاص وعلى الوجه الاكمل . وأمر
الموظفين ان يعاملوا الرعايا بعطف ابوي وان يرفعوا عنهم الظلم ويمتنعوا
من الرشوة ويعدلوا^١ . ثم عاد فذكر الموظفين بوجوب السعي لتنفيذة
الحزينة^٢ . واجتهد يوستينانوس اجتهاداً حثيثاً في سبيل الاصلاح على اساس
هاتين القاعدتين : امانة الموظف واخلاص المكلف . ولكنه رأى بعد وقت
ان ذلك لم يكف لتغذية الحزينة فلجأ الى انقاص النفقات بانقاص الجيش
وابتياح رضى الخصم على الحدود . ولم يفتن الى ان مثل هذه الخطة
يؤدي الى الاضطراب في الداخل وضعف الهيبة في الخارج فضلاً عن نقص
الموارد وازدياد النفقات .

وما زاد في الطين بلة انتشار الاوبئة في عهده وحلول الزلازل .
واشهر الاوبئة طاعون السنة ٥٤٣ . فأنه ظهر في مصر وانتقل الى سورية
ولبنان فالقسطنطينية فبر الاناضول فما بين النهرين ففارس ثم عبر البحر
الى صقلية وايطالية . ودام انتشاره في العاصمة اربعة اشهر . وتزايد فتكه

Novella, 8, (16), 8, 10 ; éd. von Lingenthal, I, 102, 104.

١

Novella, 28, (31), 5 ; von Lingenthal, I, 197.

٢

فهجرت السكان المدن والقرى ووقف الحرث والزرع وعمّ الجوع فاضطربت الدولة بأسرها^١.

وتعددت الزلازل. وأشهرها زلزال السنة ٥٥١ وفيها اهتز الساحل اللبناني من ارواد حتى صور وعمّ الحراب. واصاب بيروت السهم الاوفر، وقيل ان البحر فيها ارتد ميلاً ثم عاد بطغيان هائل فأغرق سفناً عديدة والوف الناس. ويقول اغاثيوس المؤرخ « ان بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ودكت ابنتها الشاحخة البديعة فتقوضت ولم يبقَ منها الا ردم وخراب. وهلك تحت انقاضها جم غفير من الاهلين والاجانب. واختطف الموت نخبة الشبان الاشراف الذين كانوا قد قدموا بيروت لدرس الحقوق الرومانية في مدرستها الشهيرة التي كانت فخراً لها وتاجاً على مفرقها تباهي بها اخواتها من المدن العظمى^٢. »

واتخذ يوستينيانوس الفيلسوف ما بين السنة ٥٢٥ والسنة ٥٣٦ طائفة من الاجراءات لتعزيز السلطة المحلية مع تثبيت نفوذ السلطة المركزية. وكان قسطنطين الكبير، كما سبق ان اشرنا، قد جزأ الولايات الكبيرة الى ولايتين او اكثر وفصل السلطة الادارية في الولايات عن السلطة العسكرية ليأمن شر التمرد والعصيان. ولكن يوستينيانوس اراد ان يبسط الامور ليسهل عمل الادارة فقلل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد في رواتبهم

Zinsser, H., Rats, Lice, and History, 144-149.

Patrologia Graeca, éd. Migne, 88: 1359.

وعلى اثر هذه الزلزلة انتقل الاساتذة الى صيدا ريثما يتجدد بناء بيروت ثم عادوا اليها بعد سنين قليلة. ولكن ناراً شبت بها في السنة ٥٦٠ فالتهمت معاهدها وعدداً كبيراً من دور السكن فيها.

ووضع السلطين العسكرية والادارية في يد واحدة^١. وأنعم باللقب «يوستينياني» على الحكام فزادهم فخراً ووقاراً.

وعني يوستينيانوس عناية خاصة بادارة العاصمة فعين عدداً من الحكام «برايتوريوس الشعب» في السنة ٥٣٥ للنظر في السرقات والاعتيالات وحوادث الزنى. وفي السنة ٥٣٩ انشأ وظيفة الكوايسيتور *Kuaesitor* لمراقبة الذين كانوا يفدون على العاصمة من ابناء الولايات بلا موجب فيعقدون احياناً مشاكها بتصرفهم. ونزولاً عند رغبة ثيودورة اعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المقامرين والمجذفين وعلى «اولئك السفلة الذين لم ينتظروا سدول الليل ليستروا بها معاصيهم». واهتمت ثيودورة لامر الزانيات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن اسمته دير التوبة. ومنع يوستينيانوس سباق الخيل في المهيودروم وأمر بمراقبة الاحزاب الرياضية السياسية مراقبة شديدة^٢.

وحضّ يوستينيانوس الحكام والزمهم ان يحافظوا على الطرقات والجسور واقنية المياه والاسوار وامدّهم بالمال. فنشطوا لتحقيق هذا الواجب وانشأوا طرقات جديدة وشيدوا لها الجسور وحفروا الآبار والاحواض على جوانبها ليؤمنوا المياه للتوافل وانباء السيل. وجروا المياه الى المدن وبنوا الحمامات. وعملاً برغبة يوستينيانوس قامت مدن جديدة في بعض الانحاء تحمل لقب يوستينيانية اعترافاً بفضل الامبراطور. وبذل يوستينيانوس بدلاً سخياً لاغاثة انطاكية بعد الكارثة التي حلت بها

١ ألقى وظيفة النواب *Vicarii* ورفع حكام بعض الولايات ومنها سورية وارمينية الى رتبة برايتوريوس *praetorius*.

Diehl. Ch., Justinian's Govt. in the East, Cambridge Med. Hist., II, 39. ٢

في السنة ٥٤٠ . فجدد الاقنية والمجارير وانشأ الحمامات ودور اللهب والساحات العامة . ولم يقصر في البذل عندما حلت الكارثة في السنة ٥٥١ ببيروت وغيرها من مدن لبنان وسورية . وفي السنة ٥٣٢ بدأ بتشييد كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية باشراف اسيدور الملطي وانثيموس الترتسي . واستمر العمل فيها خمس سنوات حتى تم بناؤها في السنة ٥٣٧ . فجاءت آية من بدائع الآيات أتخف بها يوستينانوس عالم الفن . وهي ما زالت قائمة راسخة موطدة بارزة جريئة واضحة نقية . وانشأ في السنة ٥٣٨ القصر المقدس بمدخله الفخم وقاعة عرشه العظيمة Consistorium التي بهرت العيون بالوان معادنها الثمينة ودقائق فنها الخالص . وعنت ثيودورة بكنيسة الرسل وبعدد كبير من المستشفيات للمرضى والانزال للمسافرين . ولا تزال احواض بره بتان سراي « القصر الغائر » وبيك برديك « الف عمود وعمود » تنطق بالعمل الجبار والجهود المتواصلة التي بذلها يوستينانوس لتوفير المياه على العاصمة .

يوستينانوس والاقتصاد : وأراد يوستينانوس ان يجر تجار الامبراطورية ورجال الصناعة فيها من تحكّم الفرس في مقدراتهم . فانه لم يكن بإمكان الروم في القرن السادس ان يبتاعوا مباشرة من الصين والمهند بعض المواد اللازمة للبخ والتعظيم والتعظيم ، كالحرير والحجارة الكريمة والاطياب والافاويه . ذلك ان هذه المواد كان محتوماً لها ان تمر عبر فارس اذ كان الفرس يبتاعونها في اسواق بخارى وعند تخوم الصين وفي جزيرة سيلان ثم ينقلونها الى حدود الروم عند الفرات ولا يرضون بيعها الا باغلى الاسعار او لا يسمحون بتصديرها الا بكميات محددة . فسعى يوستينانوس للوصول الى بخارى عن طريق البحر الاسود فليقطة فبحر قزوين متحاشياً الدخول في حدود فارس . وكذلك سعى لتشجيع الروس الجنوبيين على الاتصال بتخوم الصين للغاية نفسها . ثم دفع تجار بيروت

وصيدا والاسكندرية الى استيراد هذه البضائع عن طريق البحر الاحمر ومرافئ حمير الجنوبية . وجعل من مرفأ آيلة بالقرب من العقبة ومرفاً قازم بالقرب من السويس قاعدتين تجاريتين ، كما انشأ على جزيرة تيران في خليج العقبة جمر كماً امبراطورياً لهذه الغاية نفسها . وكانت مراكب الاحباش وعرب الجنوب تجوب بحر العرب والمحيط الهندي حتى سيلان . فاتصل يوستينيانوس في السنة ٥٣٠ او ٥٣١ بالنجاشي «ملك ملوك» الاحباش وحسّن له نقل سلع الهند والصين من سيلان الى مرافئ البحر الاحمر . فاقنعت النجاشي بالامر وحضّ عليه تجّاره . ولكن الفرس كانوا في مرافئ الهند اوسع نفوذاً من الاحباش فقاوموا تجار الاحباش مقاومة شديدة . وفي السنة ٥٣٢ جاء السلم بين الفرس والروم فعادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعاد الروم الى الاستيراد عن طريق فارس . غير ان العلاقات عادت فتأزمت في السنة ٥٤٠ كما سنرى فليجاً يوستينيانوس الى تحديد سعر الحرير واكره التجار على قبول تعرفه حكومية . فشل بذلك نشاط التاجر الفرد وحقّق بالتجار اللبنانيين خسارة فادحة كادت تقضي على صناعاتهم . ثم افلت سرّ تربية دود الحرير من الصين ، نقله قسيسان مسيحيان بين السنة ٥٥٢ والسنة ٥٥٤ الى الروم . فتلقاه اللبنانيون بالتهليل واقبلوا على تربية دود الحرير في لبنان . وفعل مثلهم يونان المورة وبعض الجزر . فأصبح لدى الروم انتاج محلي من الحرير استعاضوا به مما كان قد حقّق بهم من خسارة وباتوا بمأمن من تحكّم الفرس في مقدراتهم . واستطاعوا هم بدورهم ان يحافظوا على سرّ تربية دود الحرير زمناً طويلاً . واتسع نطاق عمل اللبنانيين بنوع خاص فراجت بضائعهم الحريرية في جميع اسواق البحر المتوسط وفي فرنسا والمانيا وبريطانية . ونشطوا في تصديرها الى

الشرق الاقصى فكثرت طلابها في الصين نفسها . وعظمت تجارة القسطنطينية فتقاطرت اليها المراكب من كل حدب وصوب من مرافئ المتوسط والبحر الاسود لتحمل اليها المواد الخام على انواعها وتنقل منها انتاجها الصناعي . واصبحت بفضل هذه التجارة واهتمامها بالفضة المركز الاعظم للتحويل المالية وللصرافة ايضاً . والاسكندرية بفضل موقعها وعظم مرفأها ظلت تنعم بدخل موفور . وكان اهم ما تتجر به حبوب مصر ومعادن افريقية ونفائس الشرق الاقصى . وقامت فيها جالية لبنانية هامة تستغل سوقها العظيمة .

وُسِّرَ يوستينانوس بازدهار التجارة وهناً نفسه انه استطاع بسعيه وحسن تدييره ان يقدم «زهرة اخرى» الى الدولة التي احب والتي وكل الله اليه امرها . وليس في كلامه هذا ما لا يتفق والحقيقة فأعمال الحفر والتنقيب في السبعين السنة الاخيرة قد دلت على هذا الازدهار دلالة واضحة .

يوستينانوس والقضاء : وأحب يوستينانوس النظام . ورغب رغبة اكيدة صادقة في تأمين «العباد الذين وكل الله امورهم اليه» وفي نشر لواء العدل بينهم . وثاقت نفسه الى المجد الروماني السابق . واراد ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية سابق وحدتها . وعلم العلم اليقين ان هذا يتطلب اموالاً لا حصر لها . فرأى بنظره الاداري الثاقب ان افضل الوسائل لجمع المال من الرعايا هو حمايتهم من ظلم الحكام وتصلفهم . وهكذا عني منذ بداية عهده بجمع القوانين المتراكمة وتنسيقها وتعديلها وفوض امرها الى مدبره الكبير تريبونيانوس . فدعا تريبونيانوس هذا لجنة من كبار

رجال القانون في الامبراطورية وذلك في ١٣ شباط سنة ٥٢٨ ووكّل اليهم العمل . وكان اهم هؤلاء بطبيعة الحال اساتذة مدرسة بيروت الشهيرة : اناطوليوس ابن لاونطيوس وتلا لاوس واسطفانوس ويوليانيوس ودوروثاوس واذوكسيوس . وتمّ الجمع والتنسيق والحذف وما الى ذلك على يد هذه اللجنة . فظهرت مجموعة القوانين الـ Code في السابع من نيسان سنة ٥٢٩ . وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ٥٣٠ عنيت لجنة ثانية باستخلاص قوانين الاحوال الشخصية Pandectae وكان ألمع اعضاء هذه اللجنة واكثرهم نشاطاً الاستاذ البيروتي اذوكسيوس . فتمّ العمل في ١٥ كانون الاول سنة ٥٣٣ وظهر الديجستة Digesta الى حيز الوجود . ووضعت هذه اللجنة كتاب الانظمة Institutes لتسهيل درس الحقوق فظهر في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها ٥٣٣ . وفي السنة ٥٣٤ ظهرت مجموعة القوانين بجملة جديدة وهي المجموعة التي لا يزال يتداولها رجال القانون حتى يومنا هذا . فأما مجموعة السنة ٥٢٩ فلم يبقَ منها اي اثر .

يوستينيانوس والكنيسة : وكان يوستينيانوس يرى ان واجبه يقضي بالمحافظة على حرمة الكنيسة والدفاع عنها ضد المعتدين . وكان يقول ان انتظام الكنيسة هو دعامة الملك . وكان يرى في نفسه رئيساً للدولة والكنيسة في آن واحد فيتدخل في المناظرات والمشاحنات اللاهوتية ويبيدي رأيه فيها ويقطع الاساقفة ويعين غيرهم في مناصبهم ويدعو الى الجامع ويدير اعمالها ويوافق على قراراتها او يعدلها او يلغيا . ومن هنا هذه الفصول

١ وام اخبار هذه المؤلفات ورد في مقدماتها فلتراجع في محلاتها . راجع ايضاً :
Roby, H. J., Roman Law, Cam. Med. Hist., II, 53-108; Vasiliev, A. A., Byz. Empire, 142-147; Justinian's Digest, Studi Bizantini e Neoellenici, 1939, 711-734.

في مجموعة قوانينه الكبرى وفي قوانينه المستجدة في نظام الاكليروس وفي ادارة الاديرة والاقواف وغير ذلك مما كان يلحق بشؤون الكنيسة . وكان يوستينانوس في مقابل هذا ابدأ مستعداً للدفاع عن الكنيسة ورفع الضيم والاذى عنها تأييداً لها بالمال والنفوذ كما تقضي على الهرطقة في صفوفها . وكان ايضاً يبذل بسخاء لتشييد الكنائس والاديرة والمقامات في طول الامبراطورية وعرضها .

وكان يوستينانوس ارثوذكسي العقيدة كما سبق ان اشرنا فأصدر في السنة ٥٢٧ وفي السنة ٥٢٨ قوانين صارمة ضد الهرطقة . فأبعد الهرطقة عن الوظائف والمهن الحرة ومنع اجتماعهم واغلق كنائسهم . ثم حرمهم حقوقهم المدنية قائلاً : يكفي هؤلاء ان يؤذن لهم بالعيش . واضطهد الوثنيين وحملهم على التنصر جماعات جماعات . ورأى ضرورياً ان يقضي على عقائدهم وفلسفاتهم فأمر في السنة ٥٢٩ باقفال جامعة آثينة . ودمر هياكل ايسيس وعمون في مصر . ولم يكن اقل شدة في موقفه من اليهود . فنشبت ثورة السامرة في السنة ٥٢٩ وجرت عليهم ضيقاً وخوفاً فوق ما كانوا يكابدون . ولم ينبج من الاضطهاد سوى اصحاب الطبيعة الواحدة لانهم كانوا اقوى الهرطقة واكثرهم عدداً . فرهبانهم في مصر كانوا يؤلفون جيشاً متراصاً مستعداً لتنفيذ اوامر بطريركهم واعيانهم . وكانوا في سورية وفلسطين ولبنان والرها وارمينية لا يزالون يتربعون في اعلى المراكز ويتمتعون بعطف وتأيد في قلب العاصمة نفسها .

وكان يوستينانوس شديد الايمان بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . فما ان تبوأ خاله عرش الامبراطورية حتى عمد الى ازالة الانشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومة . على انه لبث يواجه مشكلة اخرى . ذلك ان ولاياته الشرقية كانت تشتمل على عدد كبير من القائلين بالطبيعة الواحدة . فوجد نفسه بين شرين : شر الابتعاد عن رومة وعن الكنيسة

الارثوذكسية ، وشرّ انفصال الولايات الشرقية عنه او شرّ القلاقل فيها واستعداد اهلها لمناواته في كل فرصة تنتهز . فأحب بلاء الاخلاص ان يضع حلاً وسطاً يرضي به اصحاب الطبيعة الواحدة ولا يجيد به عن ارثوذكسيته . وهكذا نراه في السنة ٥٢٩ يلغي قرار النفي عن بعض الرهبان من اصحاب الطبيعة الواحدة . ونراه يستقدم الى القسطنطينية سويروس بطريك انطاكية المتطوع عن وظيفته ليتداول معه في طريقة الوصول الى حلٍ وسط . ونراه كذلك يطلق لاصحاب الطبيعة الواحدة حرية الوعظ والارشاد . ولما توفي ابيفانيوس بطريك القسطنطينية في السنة ٥٣٥ اقنعت ثيودورة زوجها الامبراطور باقامة انثيميوس متروبوليت طرابزون وصديق سويروس بطريكاً في العاصمة . وكان انثيميوس يقول بالطبيعة الواحدة سرّاً . ولكن ما لبث ان قدم العاصمة البابا اغابيتوس في السنة ٥٣٦ فعلم بما في الزوايا من خبايا . فدعا اساقفة القسطنطينية ومقدمي الكهنة فيها الى مجمع محلي برئاسته قطع فيه انثيميوس ومن شاركه رأيه . ثم انتخب الاكليروس والامبراطور والشعب ميناس بطريكاً على القسطنطينية . وفي هذه الآونة وصل الى العاصمة رهبان من فلسطين وسورية ولبنان ليشتكوا سويروس وغيره من اصحاب الطبيعة الواحدة . ورفعوا بذلك لوائح الى يوستينيانوس والبابا . على ان البابا اغابيتوس سرعان ما توفي في القسطنطينية . ومع ذلك فقد انعقد مجمع برئاسة البطريرك ميناس وعضوية اساقفة القسطنطينية والاساقفة الذين كانوا صحبة البابا اغابيتوس ووكلاء البطاركة الشرقيين المقيمين في العاصمة وشجبوا الهرطقة شجباً .

وبعد وفاة البابا اغابيتوس انبرى في رومة ايبيزيا كون اسمه سيلباريوس ، وطمع في منصب الباباوية فرشا الملك ثاوداتوس . فأكره ثاوداتوس المجمع على قبول سيلباريوس مهدداً كل معارض بالقتل . وكتبت ثيودورة الى هذا

البابا ان يساعد انثيميوس على ميناس فرفض . فاتفقت ثيودورة مع فيجيليوس Vigilius وكيل البابا في القسطنطينية ووعده بالكرسي البابوي وزودته بتحاير الى بليساريوس القائد شرط ان يطعن فيجيليوس بالمجمع الرابع ويساعد سويروس وانثيميوس على ميناس . فقبل ذلك وسافر الى رومة . فخلع بليساريوس المنية والاموفوريون عن البابا سيلباريوس وألبسه ثوب الرهبة ونفاه . واقام فيجيليوس محله بابا على رومة . فثبت فيجيليوس المعتقد بالطبيعة الواحدة وفند قرارات مجمع خلقيدونية ورسالة لاوون الكبير وحرم كل من يقول ان في المسيح المخلص طبيعتين وكل من يقول انه صلب من حيث هو انسان ولا يعترف ان ابن الله هو نفسه الذي صلب . ثم ندم فيجيليوس على ما قال وفعل . فأخذت ثيودورة ترتقب فرصة تستدرجه فيها الى القسطنطينية لتنتقم منه . فتم لها ذلك في السنة ٥٤٧ بمناسبة البحث في الفصول الثلاثة^١ .

الفصول الثلاثة : وكان لا يزال اوريجانيوس الاسكندري ومؤلفاته موضوع جدل وتزاع بين علماء الكنيسة واساقفتها ، فريق منهم يحترمه لعلمه واجتهاده وطهارته وفريق آخر يكرهه لان بعض آرائه كانت قد اصبحت حجة لمن قال بالطبيعة الواحدة . وبرغم ان احد المجامع كان قد اصدر حكماً على اوريجانيوس ومؤلفاته ، فان عدداً كبيراً كان لا يزال يحترمه فيدعي ان الهراطقة عبثوا بمؤلفاته ليستندوا عليها . ولكن في السنة ٥٣٩ أصدر افرام بطربوك انطاكية حكماً جديداً بتحريم اوريجانيوس ومؤلفاته . فطلب بعض رهبان فلسطين الى بطرس بطربوك اوروشليم قطع البطربوك افرام . فلم يعرفهم سمعاً . الا انه ارسل وفداً الى القسطنطينية يبين واقع

Diehl, Ch., *Justinian's Govt. in The East*, Cam. Med. Hist., II, 45-46. ١

جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٣ .

الحال ويرجو اتخاذ موقف واضح من اوريجانيوس ومؤلفاته . فكان من بطريك القسطنطينية ميناس ان عقد مجعاً محلياً بموافقة الامبراطور حكم فيه على اوريجانيوس وتعاليمه . واتفق ان كان في البلاط ثيودوروس اسكيباس اسقف قيصرية . وكان هذا يحترم اوريجانيوس وتعاليمه ويقول بالطبيعة الواحدة ويتقرب الى ثيودورة . ومثله كان دوميتيانوس كاتم اسرار الامبراطور . فتقدم الثلاثة ثيودورة وثيودوروس ودوميتيانوس من يوستينيانوس واقنعوه بان انضمام اصحاب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة سهل جداً متى حرمت الفصول الثلاثة . وهذه الفصول هي مؤلفات ثيودوروس الموبسوتي ورسائل ثيودوريطس ضد كيرلس والرسالة المنسوبة الى الاسقف ايبا . ورأى هؤلاء في ذلك كالمه وسيلة لتجريح قرارات الجمع المسكوني الرابع ولارضاء اتباع اوريجانيوس بالحكم على من كتب ضده ولاغضاب الارثوذكسين . فوافق يوستينيانوس وأصدر في السنة ٤٤٥ تحريماً للفصول الثلاثة وطلب الى الاساقفة ان يوافقوه عليه ، وهدد المعارضين بالعزل . فلم يخضع اساقفة الغرب لامر الامبراطور وجاراهم في ذلك البابا فيجيليوس . وكتب اسقف قرطاجة الى الامبراطور انه لا يجوز ايقاع الجرم بشخص بعد موته . فاستدعى يوستينيانوس البابا فيجيليوس الى القسطنطينية . فحضر اليها وانتهى بالنزول عند ارادة الامبراطور فأنشأ رسالته المعروفة بالجوديكتوم Judicatum وفيها شجب الفصول الثلاثة . ولكن اساقفته انتقضوا عليه وعينوا له وقتاً للندامة . فلبث فيجيليوس في القسطنطينية ورجع عن قوله في الجوديكتوم . ثم أصدر يوستينيانوس امراً ثانياً بشجب الفصول الثلاثة وطلب الموافقة عليه مرة اخرى . فأبى البابا فيجيليوس ودخل كنيسة واحتمى بها وربط نفسه بعمود المائدة . فسجبه

الجنود بالقوة فانسحب العمود معه وسقطت المائدة^١. وبما يجدر ذكره ان
الاصل في تسمية الفصول الثلاثة بهذا الاسم هو ان الامر الذي أصدره
الامبراطور بالشجب حوى فقرات ثلاثاً تتعلق بمؤلفات ثيودوروس
وثيودوريطس وإيبا. ثم تنوسي ذلك فأصبحت الفصول الثلاثة تدل على
اشخاص ثيودوروس وثيودوريطس وإيبا انفسهم.

المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية : ولكي يضع القسيفس
حداً لهذا النزاع الجديد دعا الى مجمع مسكوني ينعقد في السنة ٥٥٣ في
القسطنطينية. وقد اشترك في اعمال هذا المجمع مئة وخمسة وستون اسقفًا،
بينهم افثيشيوس بطريك القسطنطينية وابوليناريوس بطريك الاسكندرية
وذمنوس بطريك انطاكية ونائبان عن بطريك اوروشليم. وكان البابا
فيجيليوس لا يزال في القسطنطينية مع عدد من اساقفة الغرب. فدعي
للإشتراك في المجمع وتروّس الجلسات ولكنه امتنع. فترأس المجمع بطريك
القسطنطينية وأقر جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة ثم دقق في
الفصول الثلاثة فحكم برفضها ورفض كل من يدافع عنها *ad defensionem eorum*^٢.
وفي جلسته الثامنة والاخيرة وجه المجمع لوماً شديداً لبابا رومة لانه
امتنع عن الاشتراك في جلساته. واعتبر يوستينيانوس قرارات هذا المجمع
ملزمة واكره الاساقفة على قبولها ونفى من عارضها. وفي طليعة هؤلاء
البابا فيجيليوس فقد أكره على الاقامة في احدى جزر مرمراس. ثم وافق
فيجيليوس على قرار المجمع فأذن له بالعودة الى رومة. ولكنه توفي في
سرقوسة قبل ان يصل. وأصر اساقفة الغرب على موقفهم المؤيد للفصول

١ في موقف الاساقفة الغربيين راجع :

Fulgentii Ferrandi Epistola, VI,7; Patrologia Latina LXVII, 926.

Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, IX, 376.

الثلاثة وامتنعوا عن الخضوع لقرار المجمع الخامس . وظلوا متمسكين بذلك حتى عهد البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) . فانه اعلن في احدى رسائله ان ليس في قرارات المجمع الخامس مما يتعلق بالفصول الثلاثة اي تغيير في الدين أو خروج عنه^١ .

ولكن رغم هذا كله اصر اصحاب الطبيعة الواحدة على متابعة الانفصال . غير ان يوستينيانوس لم يكن يتغير عليهم حتى يعود الى التقرب منهم والعطف عليهم الى ان ادركته المنية في السنة ٥٦٨ . واذا كان يوستينيانوس قد اخفق آخر الامر في تحقيق وحدة الكنيسة فمن الواجب ان يُعترف له باهتمامه البالغ لنشر النصرانية وراء حدود الامبراطورية . فقد نصر قبائل الهرولي على الدانوب وقبائل القوقاس وافريقية الشمالية والنيل الاوسط^٢ . سياسة يوستينيانوس الخارجية : وأحب يوستينيانوس منذ بدء عهده ان يعيد الى الدولة الرومانية مجدها الغابر وان يحقق فعلاً ما كان له من سيادة اسمية على ايطالية وافريقية واسبانية وفرنسة ولو أدى به ذلك الى الحرب والفتح . ولكن لم يتسن له شيء من ذلك قبل منتصف السنة ٥٣٣ لاشتغاله بجارته الكبيرة فارس الساسانية .

الحرب الفارسية الاولى : (٥٢٧ - ٥٣٢) وناهز قباز الثمانين وأحب ان يضمن الملك من بعده لابنه الاصغر كسرى انو شروان ، ففاوض يوستينوس في ذلك وطلب اليه ان يتبني كسرى وان يدافع عن حقه في الملك . ونظر يوستينوس في الامر وشاور فيه رجاله ثم أجاب قباز انه مستعد للقيام بتلك المهمة شرط ان يكون التبني على الطريقة العشائرية

Epistolae Gregorii Magni, II, 36.

Maspero, Patriarches d'Alexandrie, 135.

وفي هذا المؤلف بحث جميل في مشكلة الطبيعة الواحدة في عهد يوستينيانوس .

الامانية . ولا نعلم بالضبط شروط هذا النوع من التبني . ولكن يلوح لنا انه كان أيسر مما اراده قباذ . وكان الوفد الفارسي في الوقت نفسه يفاوض للوصول الى تفاهم بين الدولتين حول قضية لازيقة « لازستان » . فلما عاد الوفد الى عاصمة فارس وأطلع قباذ على اقتراح زميله يوستينوس حقد قباذ وأضمر السوء . وكان يفتش عن ظرف يستعين به للظهور بمظهر المدافع عن الدين الفارسي القديم ، فأمر جرجان ملك إيبيرية في القوقاس ان يتمتع هو وشعبه المسيحي عن دفن الموتى وان يتبعوا في ذلك الطريقة الفارسية القديمة فيعرضوا الجثث لطيور السماء . ولكن جرجان ابي واستنصر يوستينوس فنصره . وهكذا دخلت الدولتان دولة الروم ودولة الفرس في حالة حرب منذ السنة ٥٢٧ .

وصمد بليساريوس قائد الروم في وجه الفرس عند دارا في السنة ٥٣٠ . وفي السنة ٥٣١ اقبل المنذر اللخمي من الحيرة وأغار على خلقيس (قنسرين) ثم سار الى انطاكية وعاث في ضواحيها وغنم مالا وافراً واسر كثيرين وعاد الى الفرات . ثم عاود الكرة والفرس من ورائه واغار على اليهود . فهب بليساريوس لصدده وانتصر عليه وعلى اسياده عند الفرات في كلينيكوم Callinicum فردهم بذلك عن غزو سورية الشمالية . وتوفي قباذ في السنة ٥٣٢ . فعرض خلفه كسرى أنو شروان صلحاً دائماً قبله يوستينانوس دونما تردد بالنظر لما كان يفكر فيه من انصراف الى العمل في الغرب لاعادة وحدة الامبراطورية . وقبل ان يتجه نحو الغرب انشأ حلفين شرقيين : حلفاً مع امراء القوقاس في الشمال والآخر مع نجاشي الحبشة في الجنوب ليأمن بهما شر حرب ثانية مع الفرس ٢ .

Christensen, A., *l'Iran sous les Sassanides*, 355, 356-357. ١

Diehl, Ch., *Justinien et la Civ. Byz.*, 381-385, 394-398. ٢

وعني يوستينيانوس في هذه الآونة نفسها بتوطيد علاقاته مع القبائل العربية الضاربة في بادية الشام ليوازن بنفوذها نفوذ شقيقاتها في بادية العراق وهنَّ عمال كسرى . وكان بنو غسان قد وفدوا الى سهول حوران من اليمن او ما يليها في فترة من الفترات التي تصدع فيها سد مأرب ، وحلوا بين عشائر قضاة وسليح . ثم سيطروا عليها وجمعوها في كيان سياسي . فاستعان بهم الروم في القرن الخامس لمراقبة غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجوب اطراف الجزيرة المتاخمة لبادية الشام واستعملوهم لصد هذه القبائل اذا هي حاولت الانصباب على اراضي الامبراطورية . ووجد الروم في الغساسنة ايضاً خير معوان لهم على عرب الحيرة انصار فارس . وبلغ الغساسنة الاوج في اوائل القرن السادس فانضوى تحت لوائهم جميع شيوخ العشائر العربية من لبنان شمالاً حتى الحجاز جنوباً . ورأى يوستينيانوس ان يزيدهم هبة فرفع اميرهم الحارث بن جبلة الى رتبة فيلارخوس وبطريق ، وبذلك جعله يوازن في اللقب امراء الحيرة عمال فارس .

الحرب في افريقية وايطالية : (٥٣٣ - ٥٤٠) وثار غلمار على هيلدرنجوس الوندالي في شمالي افريقية . وكان غلمار آريوسياً . فاستغل يوستينيانوس المناسبة وتدخل باسم الدين التويم ، كما كان قد استغل اقدام ثيوداتيوس على خنق ابنة عمه وريثة ثيودورنجوس في ايطالية . وفي حزيران من السنة ٥٣٣ اقلع بليساريوس القائد على رأس قوة مؤلفة من خمسة عشر الف رجل ومن اثنتين وتسعين ذرومونة الى جوار قرطاجة فوصلها في ايلول من السنة نفسها وتغلب في غير مشقة على غلمار

Diehl, Ch., op. cit., 387-396 ; Burg, J. B., Later Rom. Emp., II, 91-92. ١

راجع ايضاً كتاب الامويين والبنظيين للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٨-١٢ .

ودخل قرطاجة منتصراً فصادف فيها استقبالاً حاراً . وعين يوستنيانوس احد القادة ، سليمان ، حاكماً على افريقية الشمالية وأُشار على بليساريوس بالانتقال حالاً الى صقلية فايطالية . ولكن سليمان لاقى مقاومة شديدة من البربر الذين لم يسبق لهم ان خضعوا للوندال . فاضطر بليساريوس ان يعود الى قرطاجة لينتصر على هؤلاء . ولم تهدأ الاحوال في افريقية الشمالية قبل السنة ٥٣٩ . وجعل يوستنيانوس من افريقية برايفتورة جديدة وانشأ في وجه البربر ليموساً جديداً .

وتمّ الاستيلاء على ايطالية بالسياسة والحرب معاً . فبعد ان استمال يوستنيانوس بعض العشائر القوطية انفذ الى ايطالية حملتين احدهما عن طريق ايليرية بقيادة مندوس والآخرى الى صقلية فايطالية بقيادة بليساريوس نفسه . وأجلى بليساريوس القوط عن صقلية في يسر وسهولة ، ثم اجتاز مضيق مسينة في ربيع السنة ٥٣٦ فحاصر نابولي عشرين يوماً واخذها عنوة . وفرّ منها ثيوداتيوس والتجأ الى رومة فاعثاله احد رجاله . ثم انتخب القوط ملكاً عليهم جندياً نكرة لم يقوَ على صد بليساريوس عن رومة . ودخل الروم رومة في العاشر من كانون الاول سنة ٥٣٦ فأحاط بهم القوط وحصروهم فيها سنة كاملة ثم ارتدوا عنها . فخرج بليساريوس الى شمالي ايطالية وتابع فيها الحرب . ولكن مناظرة نرسه الحصي له عوقت سير الحرب اشهراً . ولم يدخل بليساريوس رابينة قبل ايار السنة ٥٤٠ . وأعاد الامبراطور برايفتورة ايطالية واتخذ لنفسه لقب قاهر القوط Gothicus .

الحرب الفارسية الثانية : (٥٤٠ - ٥٦٢) وأفضت هذه الانتصارات مضجع كسرى انوشروان وجاءه رسل القوط يحثونه على القتال . فجهز جيشاً كثيفاً وأغار فجأة على سورية واحتل ثغورها على الفرات وأباح

لعساكره النهب والسبي ففعلوا . ثم تقدم نحو منبج Hierapolis فاسترى
اهلها الامان بالفى دينار فضة . ونهض كسرى الى انطاكية . وكان
جرمانوس احد انسباء يوستينيانوس قد رابط فيها بثلاث مئة جندي واقام
ينتظر وصول بقية الجيش الامبراطوري . وكان منذ ان دخلها قد باشر
تحصينها وترميم اسوارها وقلاعها . وكان موقع انطاكية عند العاصي ،
بما يحيط بها من صخور وحواجز طبيعية اخرى فضلاً عن الحصون الصناعية ،
معقلاً منيعاً . ولم يكن في جهاز الدفاع عنها الا ثغرة واحدة
عرفها جرمانوس واراد تلافياها ، غير ان الضباط الذين كانوا حوله اشتد
بهم الخوف لدى وصول كسرى فهربوا الى قيليقية . وهبّ الاهلون بلجج
المال يشترتون به الامان من العدو ، ولكن وفداً امبراطورياً وصل الى
المدينة وقال : لا يلىق بالحاضرة الثانية في الامبراطورية ان تشتري اماناً
من غزاتها . فعزمت المدينة على المقاومة . فضرب كسرى عليها الحصار ، ولم
يلبث ان اهتدى الى الثغرة في السور فدخل منها . فدافع الانطاكيون ما
وسعهم الامر ثم فروا الى دفنة يحمون بها . فسيطر كسرى على انطاكية
واباحها للنهب والحريق . ثم انحدر الى سلوقية وذبح عند شاطئها ضحية
لشمس . ومنها سار الى ابامية فدخلها وسلب كنيستها ونهب الدور
والمباني . وكان الوفد الامبراطوري قد فاوضه بالكف عن القتال لقاء
قدر من المال يدفع اليه في كل سنة . فقبل كسرى وارتد عبر الفرات
بالوف الاسرى الى عاصمته طيسفون . وبني لاولئك الاسرى مدينة خاصة
سمها انطاكية كسرى .

وفي السنة ٥٤١ هجم كسرى على لازيقة (لازستان) وإيبيرية في
القوقاس . وفي السنة ٥٤٢ دخل قوموجينية وأخرّب وأحرق ومسي .

وظهر في السنة التالية على حدود ارمينية البيزنطية ، ثم عاد في السنة ٥٤٤ الى حدود الفرات وحاصر اورفة حصاراً شديداً . وكان قادة الروم مشغولين عنه بمشغل داخلية شخصية . فغضبت ثيودورة على بليساوريوس وخذلته . الا ان يوستينانوس انفذ في السنة ٥٤٣ ثلاثين الفاً الى ارمينية الفارسية . غير ان حملته ردت ومنيت بالفشل . وما لبث الطرفان المتحاربان ان شعرا بصعوبة القتال في القوقاس نظراً لطبيعة البلاد الجبلية ووعورة مسالكها وكثرة احراجها . فتهدانا في السنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين ثم جعلها معاهدة دائمة في السنة ٥٦١ . وقضت شروط هذه المعاهدة ان يفصل السلم بين الطرفين خمسين سنة على ان تجلو قوات الفرس عن اللازستان ويدفع يوستينانوس الى كسرى ثلاثين الف اوري في السنة ويمتنع عن التبشير بالنصرانية في الاراضي الفارسية ، وفي مقابل ذلك يحترم كسرى حقوق النصارى من رعاياه فيرفع عنهم الاضطهاداً .

توتيلة : وعاد القوط الى المقاومة في ايطالية وبايعوا توتيلة احد زعمائهم . ووافق ذلك ان دب الشقاق الى صفوف زعماء الروم في ايطالية . فانطلقت توتيلة بوجاله من الشمال بالغا الى اقصى الجنوب . واحتل في السنة ٥٤٣ نابولي . فهرع بليساوريوس لقتاله ولكنه لم يتمكن من صده لقلعة العُدَد والعدَد . وهكذا دخل توتيلة رومة في السابع عشر من كانون الاول سنة ٥٤٦ . ثم انشأ اسطولاً وغزا صقلية فاستولى عليها في السنة ٥٤٩ - ٥٥٠ . فثارت ثورة يوستينانوس فجهز قوة كبيرة وأمر عليها نرسيس ودفع بها الى ايطالية عن طريق الشمال . فتمكن نرسيس في السنة ٥٥٢ من القضاء على توتيلة في موقعة بوسطة في اومبرية^٢ Busta Gallarum .

Guterbock, Byzanz und Persien, 57.

Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 261-269.

الدانوب : والمشاكل التي عاناها يوستينيانوس في الغرب والشرق معاً
قضت عليه بسحب جنوده من الضفة الدانوب واستعمالهم في جبهات اخرى
واضطرته الى الاستعاضة عنهم بسلسلة كبيرة من الحصون والقلاع . فأنشأ
ورمم وحصن اكثر من اربع مئة مدينة في البلقان . ثم تذرع بسياسة
« فرق تسد » فحالف اللومباردين ضد الغبيد Gepides في المجر وصادق
الهون الاوتيغور Outigours في شرقي ازوف ضد الهون الكوتريغور
Koutrigours بين الدون والدنيستر واستعان بالافار Avars ضد
عشائر الدانوب . ولكن هذا كله لم يمنع البرابرة من التسرب خلل حصون
البلقان نظراً لصغر الحاميات . فكان في السنة ٥٣٩ - ٥٤٠ ان انتشر
مئات من الصقالبة والبلغار والهون في قرى عديدة من الادرياتيكا
حتى القسطنطينية ينهبون ويحرقون ويذبحون . وفي السنة ٥٥٨
تحرك سبعة آلاف كوتريغور من الدانوب فاتجهوا جنوباً وعبروا سور
انسطاسيوس والقوا الرعب في اوساط القسطنطينية نفسها . وظل ذلك دأبهم
حتى جمع بليساريوس بضع مئات من الابطال المجرين من سكان
العاصمة وانقض بهم على العدو فولوا الابدان .

الفوات وسائر الحدود الشرقية : ولم يحصر يوستينيانوس اعماله
التحصينية في منطقة البلقان . فأنه انشأ في افريقية كما سبق أن اشرنا
ليموساً جديداً . وانفق اموالاً طائلة للغاية نفسها في آسية الصغرى وسورية
وشرق الاردن .

وكانت حدود الامبراطورية في الشرق تنبسط من البحر الاسود حتى
البحر الاحمر فتؤلف خطاً طوله الفا كيلومتر . ولم يسبق لرومة في الشرق
ان شيدت في عصر من عصورها ليموساً متصلاً على نحو ما فعلت
في الشمال بين الرين والدانوب او في الجنوب في افريقيا الشمالية . ذلك
بأن جبال آسية الصغرى الشرقية وبادية الشام شكلت حاجزاً طبيعياً

موافقاً يمكن الانتفاع به في الحرب والدفاع . ومن هنا اكتفت رومة في هذه المناطق بإنشاء قلاع موزعة في مواقع معينة تحمي بها الطرق الرئيسية والجسور والممرات الطبيعية وما الى ذلك ، فأصبح حدها الشرقي « منطقة مراقبة » على حد تعبير ليون هومو اكثر منه ليموساً او اطاراً مانعاً . وكانت هذه المنطقة ذات الحصون تبدأ عند طرابزون فتتجه جنوباً حتى مجرى الفرات الاعلى فمصب الخابور فحدود البادية حتى العقبة . وكان خط الدفاع الممتد نحواً من ثمانائة كيلومتر بين قرقيسية Circesium عند مصب الخابور وبين العقبة يتألف من طريق معبدة موازية للحدود محمية الجانبين ولا سيما عند مفارق الطرق بعدد كبير من الابراج . وكانت تدمر ودمشق والبتراء تدخل بقلاعها وحصونها والطرق الموصلة اليها في هذا الخط من الدفاع . وتدل اعمال التنقيب التي أُجريت في شرق الاردن بعد الحرب العالمية الاولى ان الطريق العسكري الروماني الذي كان يمر بشرق الاردن كان يصل بصرى بباديا والبتراء فالعقبة ، وان رومة قد اقامت على جانبي هذا الطريق ابراجاً محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثين كيلومتراً ، وانها انشأت قلاعاً لحماية موارد المياه الى شرقي هذا الطريق في القسطل واللجون وغيرهما^٢ .

وجاء يوستنيانوس يؤمّن « سلباً وطمانينة » لشعبه و « يزيل كل ما كان يشجع البرابرة على الغزو والنهب » فاهتم بحصون ارضروم وكيثاريزون ومرتيروبوليس وآمد وقسطنطينية ودارا . وكانت دارا هذه تقع بين نصيبين وماردين وتدعى « حصن الامبراطورية الرومانية » . واطهر يوستنيانوس اهتماماً ماثلاً بخطط من الحصون جاء وراء هذه الحصون الامامية :

Home, L., *Emp. Romain*, 203 .

١

Abel, F. M. , *Hist. de la Palestine*, II, 55-57 .

٢

ستالة وكولونية ونيكوبوليس وسبسطية وملاطية Miletene ثم اورفة وحران
 وكنينكوم ثم سورية على الفرات وهيرابوليس (منبج) وزقمة فانطاكية .
 يوستينانوس في دوره الاخير : وليس يختلف اثنان فيما نعلم ان
 مشاريع يوستينانوس العظيمة لم تتناسب وطاقته المالية . فالعظمة والبذخ
 واسترضاء زعماء البرابرة وحروب الفتح والانشاء والتعمير في طول البلاد
 وعرضها كلها تتطلب انفاقاً كبيراً لم يكن آتئذٍ بوسع الدولة . وكان
 انستاسيوس قد خلف وفراً قدره ٣٢٠,٠٠٠ ليرة ذهباً او ما تعادل
 قيمته اربعة عشر مليوناً من الليرات الاسترلينية . فأنفقه يوستينانوس في
 بضع سنوات وبات يشكو قلة النقد . وقلة نقده أطالت حروبه وزعزعت
 معنويات جيشه ووقوفت اصلاحه الاداري او عرقلته ثم أدت الى زيادة
 الضرائب واثقال كاهل الاهلين بها .

وفي السنة ٥٤٨ توفيت ثيودورة بداء السرطان ففقد يوستينانوس بوفاتها
 مستشارة نشيطة امينة . فانكشفت نقائصه واهمها التردد والهوس باللاهوت
 فأهمل واجباته الادارية وكرّس معظم ليلاليه للجدل الديني . فصح فيه
 قول كوريبوس « انه بات لا يبالي شيئاً وان روحه كانت كالتي انتقلت
 الى السماء . »

وتضاءل جيشه فتناقص من ٦٤٥,٠٠٠ مقاتل الى ١٥٠,٠٠٠ وختل
 حصونه من الرجال حتى قال اغاثيوس : انها اصبحت خالية خاوية لا
 يُسمع فيها نباح كلب واحد . وباتت العاصمة نفسها مهددة بالخطر لان
 سور انستاسيوس كان قد تثلم في الف موضع وموضع ولأن الحرس
 الامبراطوري كان قد قلّ وضعف ولان الفسيلفس كان لجأً الى البلص
 والمصادرة للحصول على المال المطلوب . وعاد الحضر والزرق الى المناظرة

والمشاحنة والمحاصمة ونزلوا بذلك كله الى شوارع العاصمة فهاجوا وماجوا
مراراً ما بين السنة ٥٥٣ و ٥٦٤ . وادى تردد يوستينيانوس في تعيين ولي
عهده الى التخاصم والتآمر ولاسيما بين انسيائه .

ولكن ليس من العدل في شيء ان نحكم على عهد يوستينيانوس كله
حكماً مبنياً على ما آلت اليه الامور في آخر سنواته . فالواقع الذي
لا مندوحة عن الاعتراف به ان اهداف الرجل كانت نبيلة ، وان سعيه
لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من الاتساع والمجد كان عظيماً في
حد ذاته لايقاً بالامبراطور ، وان محاولته لتوحيد الكلمة في الكنيسة كانت
في مصلحة الدولة والكنيسة معاً ، وان انشآته العسكرية على حدود الدولة
كانت في مصلحة الشعب ، وان اهتمامه بالادارة والقضاء والتشريع انما نجم
عن رغبة اكيدة في ضمان الامن ونشر لواء العدل . ولئن كان ثمن هذا
كله باهظاً فالعمل في حد ذاته كان كبيراً . وهل اكبر من مجموعة
القوانين وكنيسة الحكمة الالهية !

الفصل الثاني عشر

خلفاء يوستينيانوس

(٥٦٥ - ٦٠٢)

يوستينوس الثاني : (٥٦٥ - ٥٧٨) ولم يخلف يوستينيانوس عقباً ، ولم يشرك احداً معه في الارجوان . ولكنه كان يثق بابن اخته يوستينوس ويستشيريه في امور الدولة . ولمس اعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستينوس فعولوا على انتخابه فور وفاة الامبراطور الشيخ . وقد أدرك يوستينانوس الثالثة والثمانين ومرض مرضه الاخير ولم يفه بكلمة واحدة تنبىء عن يريده خلفاً له في الحكم . وكاد يلفظ انفاسه في ليلة من ليالي الحريف ، فجلس يوستينوس وزوجته صوفية في احدى نوافذ قصرهما التي تطل على البوسفور وباتا ينتظران . وعند الفجر أبلغهما الرسول وفاة الامبراطور ورجاء مجلس الشيوخ ان يتوليا العرش . وقضت التقاليد بان يرفض يوستينوس الرجاء ففعل . ثم قبل وذهب تواً الى القصر (١٤ تشرين الثاني سنة ٥٦٥) وخرج منه متردياً الارجوان الملكي ، متزيناً بالجواهر التي اقتنصها بليساريوس من القوط ، فرفعه الجند حسب التقليد على الترس معلنين بذلك موافقتهم على ارتقائه العرش . ثم أيده الكنيسة الارثوذكسية فباركه البطريرك ووضع التاج على رأسه . وكان لا يزال جثمان يوستينانوس مسجى في قصره مخطأً ، فنقل الى كنيسة الرسل بجزارة

مهية مشى فيها المصلون من رجال الاكليروس والعداري رافعين الشموع .
وهناك دفن الجثمان في قبرٍ مذهب . وما ان تم الدفن حتى أُزيح ستار
الحنن وارتفعت الاصوات مهللة بارتقاء الفسيفس الجديد .
وكان يوستينوس الثاني نشيطاً مجتهداً شجاعاً جريئاً . فانه منذ ان
تبوأ العرش أظهر من العزم والأنفة في علاقاته مع البرابرة ما يليق بمقامه
الجليل . فامتنع عن ان يؤدي لهم المنح السنوية ، وكانت قد بلغت في اواخر
عهد خاله يوستينانوس ثلاث مئة الف ليرة ذهباً ، وأعاد العناية بالجيش
واهتم بالمالية وحاول محاولة صادقة في ازالة الهمم والعناء عن جميع الرعايا .
وأعلن انه « سيحيي الليل بطوله للمحافظة على مصالح الدولة ولإصلاح كل
ما ينبغي اصلاحه ، كما أعلن ان همه الوحيد هو ان يقدم للولايات افضل
الشرائع كي يضمن لاهلها الامن والعدل . » ولكن الحوادث تتالت قوية
عنيفة فجاءت بما لم يشتهه وكعته كعماً . وكان يوستينوس ، على مزاياه ،
شائخاً متفطرساً تعوزه الحيلة فلم يتسن له الوصول الى رغائبه . وفي
اواخر السنة ٥٧٣ أُصيب في عقله اصابة ظاهرة ، فتصدت زوجته صوفية
للقيام باعباء الحكم مستعينة بقومس الحرس طيباريوس الامين . ثم ان
يوستينوس تبنى طيباريوس . وفي السابع من كانون الاول سنة ٥٧٤
اعلنه قيصرأ . فصرّف طيباريوس الامور باسم سيده اربع سنوات متتاليات
الى ان قضى يوستينوس فانفرد بالحكم .

طيباريوس الثاني : (٥٧٨ - ٥٨٢) ورغب طيباريوس رغبة اكيدة
في تخفيف الضرائب فتعلق الشعب به واحبه كثيراً . وكان يوم وفاته
يوم حزن وحداد في جميع انحاء الامبراطورية ، فرثاه كثيرون ، وقال

Stein, Studien zur Gesch. des Byzant. Reiches, 3-4; Lingenthal, Z., Jus
Graeco - Romanum, III, 3. Nov. 149.

فيه يوحنا النيقاوي : « ان البشرية ، فيما يظهر ، لا تستحق اميراً طيباً كهذا الامير . » ولكن طيباريوس لم يبلغ الى هذه المرتبة من تقدير الشعب له وتعلقه به الا على حساب مالية الدولة . ففي وقت قصير جداً بدد ما كان قد جمعه سلفه بحكمته وتقديره . وحسبنا شاهداً ما قد جاء في احد المراجع انه لما تبوأ العرش وأراد توزيع الدوناتيوم التقليدية أعطى كل شخص خمس صلدات ، فبلغ مجموع ما أنفق لهذه الغاية واحداً وعشرين الف ليرة ذهبية^١.

موريقيوس : (٥٨٢ - ٦٠٢) وأشهر خلفاء يوستينيانوس وأذكاهم واقدرهم موريقيوس اليوناني^٢. ولد في ارابيوسوس في آسية الصغرى في السنة ٥٣٩ وفيها تلقى علومه ثم تركها شاباً وأمّ القسطنطينية فالتحق بالادارة المدنية وأصبح في وقت ما كاتب عدل . ثم دخل في خدمة الجيش وترقى حتى أصبح في السنة ٥٧٣ قائد الحرس الامبراطوري وقائد المتطوعة من البرابرة^٣. واشتهر بشجاعته وورزانه وتبصره ، فاحترمه الشعب وأكرمه . وكان حازماً عادلاً ، لا يتبذل في مخالطة ضباطه وجنوده ، فوقعت في قلوبهم هيبة فأكبروه وأجلّوه^٤. وأحبه طيباريوس ووثق به وأعاره سمعه ، فزوجه من ابنته قسطنطينة في السنة ٥٨٢ ورفعته الى رتبة قيصر . ثم بعد ايام توفي طيباريوس فعلا موريقيوس اريكة الملك .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان موريقيوس كان خبيراً في شؤون الدولة واسع الباع في تناولها ومعالجتها قوي الاهتمام بها ، ولا سيما العسكرية والادارية

Stein, op. cit., 57-58; Jean de Nikiou, éd. Zotenberg, 522. ١

٢ ويرى بعض انه كان ارمنياً ولكنه قول ضعيف . اطلب :

Goubert, P., Byzance avant l'Islam, (Paris, 1951), 36-41.

Goubert, P., op. cit., 42-48. ٣

Stein, op. cit., 70-71. ٤

والمالية منها . فحارب التبذير واوجب الاقتصاد وتلقى بصدور رحب سهام الانتقاد المرّة التي وجهت اليه من جراء هذا الاصلاح .

سياسة خلفاء يوستينيانوس : وما يسترعي النظر في هذا الموضوع ان اثنين من خلفاء يوستينيانوس الثلاثة كانا عسكريين ، وان الخلفاء الثلاثة جميعاً كانوا اقل طموحاً من يوستينيانوس واكثر وضوحاً في سياستهم وتحديداً لعلاقاتهم الخارجية .

فلا بدع ، في مثل هذه الحالة ، ان يرفض يوستينوس دفع شيء لقبائل الهون او للعرب ، بما كان يدفعه سلفه استرضاءً . ويقول يوحنا الابيفاني ان يوستينوس صمم منذ اللحظة الاولى ان لا يترك الدولة خاضعة للفرس وانه تربص ريثما تسنح له الفرص حتى يقضي على سلم السنة ٥٦١ . وكان طيباريوس يقول ان السلم الذي يشرى لا يدوم ، وانه لا بد من ان تقدم الحرب ضد الفرس على سائر مصالح الدولة . وكان موريتيوس ايضاً يقول بهذا كله وقد زاد عناية فائقة بالجيش . ولعل ابرز ما فعله من هذا القبيل هو اثاره العناصر الوطنية على العناصر البربرية في التعبئة . ومن الدلائل الواضحة على هذا الاهتمام بالجيش واعادة النظر في تنظيمه رسالته في فنون الحرب Strategikon تعود الى اواخر القرن السادس . وبعض الباحثين يرى انها من وضع موريتيوس نفسه^٢ .

ولم يهمل خلفاء يوستينيانوس الغرب وواجبهم تلقاءه . ففي عهدهم كانت حملة بادواربيوس على ايطالية في السنة ٥٧٤ - ٥٧٥ ، وانتصارات جناديوس في افريقية في السنة ٥٧٨ . وفي عهدهم (عهد طيباريوس خاصة) جرى

Corippus, Just., III, 151; Fragmenta Historicorum Graecorum, IV, 274. ١
Aussareses, l'Armée byzantine à la fin du VIe Siècle, (1909); Stein, op. ٢
cit., 123-127.

بذر اموال كثيرة في الاوساط اللومباردية العالية في السنتين ٥٧٧ و ٥٧٩ .
وتم ايضاً استدراج الافرنج الى غزو ايطالية لمصلحة الامبراطورية . وان
ننسى فلا ننسى ظهور نظام الاكسرخوسية في ايطالية وافريقية لتقوية
الدفاع عن هاتين الولايتين .

الحرب الفارسية : (٥٧٢ - ٥٩١) وكانت قد قضت معاهدة السنة
٥٦١ على الروم بدفع مال جزية للفرس عن سبع سنوات تسبقاً . وقد
دفع هذا المال في حينه . فلم يكن من موجب ، اذاً ، لبدء الحرب قبل
السنة ٥٦٩ . على ان هذا لم يمك يوستينوس الثاني عن الاستعداد للحرب
في حقلي السياسة والتنظيم . وهكذا نراه في السنة ٥٦٨ يستقبل وفداً
مفاوضاً من اواسط آسية بما وراء فارس ، فيكرمه ويصفي اليه ، ويثبت
بواسطته علاقات ودية مع اعداء فارس في الشرق . وكان هذا الوفد
المفاوض ، من قبل الخاقان إستامي خاقان الاتراك الذين سبق لهم ان قضاوا
على الهون البيض في ما وراء فارس ، قد أمّ القسطنطينية في السنة ٥٦٨
ليحالف الروم ضد الفرس ، ويعرض استعداد الاتراك للقيام بنقل الحرير
الصيني من حدود الصين الى مياه البحر الاسود مباشرة ، دون المرور
بفارس .

وفي السنة ٥٧٠ نرى يوستينوس يتدخل في امور ارمينية الفارسية وفي
مشاكل ايبيرية فيرد عليه كسرى في السنة ٥٧١ بتدخل مماثل في حمير في
جنوبي الجزيرة العربية محرّضاً ابناء هذه المنطقة على التحرر من نير
النجاشي صديق يوستينوس وحليفه . وفي السنة ٥٧٢ ثار الارمن على
الفرس وقتلوا المرزبان . والتجأ زعماء الثورة الى القسطنطينية فقبولوا فيها
بمحاوطة وحرارة . وجاء وفد فارسي يطالب بالجزية المالية وكانت قد
استحقت مجدداً ، فرفض يوستينوس دفعها وأكد لاعضاء الوفد انه لن
يرضى ابداً عن اضهاد الارمن ابناء ملته المسيحيين . فوجه اليه كسرى انذاراً

بوجوب الدفع فقابله يوستينوس باعلان الحرب .

وحالف النصر الفرس في بادئ الامر . ذلك ان الروم هجموا بمعظم قواتهم على ارمينية الفارسية تاركين حدودهم في سورية وليس عليها الأ قوة صغيرة من الجيش يدعمها حلفاؤهم الغساسنة ومن شد ازهم من القبائل العربية المتاخمة . على ان هذه القبائل خانت والتوت فعبه الفرس الفرات واكتسحوا الموقف وحاصروا دارا « حصن الامبراطورية الحصين » فسقطت في ايديهم . وأدى خبر سقوطها الى انهيار عقل الامبراطور . ففاوضت زوجته صوفية لهدنة في مطلع السنة ٥٧٤ تدوم عاماً ودفعت في هذا السبيل غرامة حربية كبيرة . وعند انتهاء الهدنة في السنة ٥٧٥ قام كسرى بجيش عظيم وعدد كبير من الفيلة الى ارمينية فحاصر ثيودوسيوبوليس (ارض روم) وهاجم اماسية ثم دخل قبدوقية وأحرق سبسطية (سيواس) . غير انه ما لبث ان فوجيء بقوة كبيرة من الروم بقيادة يوستينيانوس ابن جرمانيوس اكرهته على التراجع بعد موقعة كبيرة دارت رحاها في ضواحي ملاطية وهلك فيها كثيرون من الفرس . ففاوض كسرى في الصلح ثم عاد فعدل عن المفاوضات بعد انتصارين صغيرين . فعاد الروم الى الحرب بقيادة موريقوس في السنة ٥٧٨ وقاموا بهجوم خاطف باتجاه ارزنين بين بتلس وبين الدجلة وبلغوا الى الدجلة . وتوفي كسرى في السنة ٥٧٩ فعاد الطرفان الى المفاوضات . ولكن هزم الرابع ابن كسرى اساء استقبال الوفد الرومي فاستؤنف القتال . وزحف موريقوس في السنة ٥٨٠ يحاول قطع الفرات عند قرقيسية قاصداً طيسفون عاصمة الفرس . الا أنه ارتدّ على اعقابه بسبب مناورة ناجحة قام بها الفرس في ما بين النهرين وبسبب معاكسات لقيها من المنذر الغساني كما سيحيى في حينه . على ان موريقوس عاد في السنة ٥٨٢ فانتصر انتصاراً كبيراً عند قسطنطينة تبعته انتصارات . وفي السنة ٥٨٦ استطاع قائد الروم فيليبتيوس ان يضرب الفرس ضربة

قاسية في سولاخان في ارمينية^١ .

ورغب الاتراك في استغلال هذا الظرف وواجبوا زيادة باهظة في الاتاوة السنوية التي كان يدفعها الفرس لهم . فغضب هرمز واخذ الامم ورفض ان يدفع الزيادة المفروضة . فقام خاقان الاتراك من دلخ عاصمته بعشائره وجموعه وقصد فارس غازياً . فأنفذ هرمز بهرام بوشين^٢ بجيش كبير لصددهم سنة ٥٨٨ . فكسروهم وقتل الخاقان في المعركة . ثم اسر ابن الخاقان في معركة ثانية ودخل دلخ عاصمة الاتراك واستولى على ما وجدته فيها من الذهب وكان كثيراً . ولم تأت السنة ٥٨٩ حتى كان بهرام قد عاد الى فارس ظافراً غنائماً . فأكرمه الشاهنشاه وأمره على كل جيوشه ومنحه لقب بهلوان وعلا قدره بين الفرس وتعلقوا به . فأنفذه هرمز الى منطقة سوانية الخاضعة للروم في القوقاس . فدخلها فذهب وسبى . وارسل الغنائم الى هرمز في طيسفون . وتحرك الروم للدفاع في شتاء السنة ٥٨٩ فتوجه رومانوس بجيش مجرب الى سوانية فكسر بهرام وشتت شمل رجاله . ولم يكتفِ هرمز بما أرسله اليه بهرام من غنائم فسخط عليه . فأدى ذلك الى ثورة داخلية اسقطت هرمز عن عرشه وأحلت بهرام محله وذلك في السنة ٣٥٩٠ .

١ Goubert, P., op. cit., 68-117 ; Stein, op. cil., 40-97 ; Bury, Hist. of Later Rom. Emp., II, 95-113.

٢ « بهرام خشنش ويعرف بجويين . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

٣ « ثم خاف بهرام ومن معه هرمز فخلعوه وساروا نحو المدائن واظهروا ان ابنه ابرويز اصلح للملك منه . وساعدتم على ذلك بعض من كان بحضرة هرمز . وكان غرض بهرام ان يستوحش هرمز من ابنه ابرويز ويستوحش ابنه منه . وكان يحدث نفسه بالاستقلال بالملك . فلما علم ابرويز ذلك خاف اياه فهرب الى اذربيجان . فاجتمع عليه عدة من المرازبة والاصبيذين . ووثب العطاء بالمدائن ، وفيهم بندويه وبيسطام خلا ابرويز ، فخلعوا هرمز وصلوا عينيته . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وفرّ ابرويز بعياله وثلاثين من اخصائه الى قرقيسية عند مصب الخابور في الفرات . فكتب محافظها بذلك الى الامبراطور وكتب اليه ابرويز ايضاً لاجئاً مستغيثاً . ووعده بان يعيد دارا ومرتيروبوليس (ميافارقين) وقسماً من ارمينية اليه وان يبقى في سلم دائم معه والا يطالبه بمال البتة . فدعا موريقوس اليه اعضاء مجلس الشيوخ وشاورهم في الامر . فاجابوا بعدم القبول وابانوا ان الفرس لا دين لهم ولا قانون ، يعدون في الضيق وينكثون عند الفرّج ، وانهم الحقوا ضرراً كبيراً بالروم فليقتلوا وليمحق بعضهم بعضاً وليدعوا الروم هادئين مطمئنين^١ . ولكن موريقوس رأى مع ذلك ان الشرف والشهامة والمصلحة تقضي بتقديم المساعدة المطلوبة الى ابرويز فوعده بها وتابع الحرب ضد بهرام . وقام ابرويز الى اذربيجان فوافاه اليها بندويه وغيره من المقدمين والاساورة في جيش كبير من اصهبان وفارس وخراسان . ونهض الروم بقيادة نرسيس لمعونة ابرويز . والتقى الجيشان بعدوهما في سهول تبريز^٢ في خريف السنة ٥٩١ . فدارت الدائرة على بهرام وفرّ لاجئاً الى بلاد الاتراك .

وبرّ ابرويز بوعده فأعاد دارا ومرتيروبوليس الى الروم وتنازل عن قسم هام من ارمينية الفارسية ولم يطالب بعد ذلك بالاتاة السنوية . فوصلت حدود الروم الى بحيرة وان ومداخل تفليس . ووقع ابرويز وصديقه موريقوس سلماً دائماً .

خلفاء يوستينيانوس والعرب : وأراد يوستينيانوس ان يستعين بالعرب الضاربين في جوار حدوده على العرب عند حدود خصمه الفارمي فيجعل من الحارث ابن جبلة الغساني في السنة ٥٣١ فيلرخوساً وأمده

Sebeos, Hist. d'Heraclius, éd. Macler, 15.

*Diehl, Ch., Monde Oriental, 130 ;*راجع Ganzaca

بالمال له ولشيوخ العرب في بادية الشام . ثم رقاه في مراتب الدولة فجعله بطريقاً من البطارقة هو واحفاده من بعده . وقال الحارث وربعه بالنصرانية وبالطبيعة الواحدة فنال من عطف ثيودورة الشيء الكثير وأصبح حامياً لزمارة اصحاب الطبيعة الواحدة في جميع الاقطار الشامية . وبين هؤلاء كان يعقوب البرادعي الشهير مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية . ودامت سيادة هذا البطريق مدة طويلة حتى وفاته في السنة ٥٦٩ . وقد احتل فيما بعد مركزاً سامياً في مخيلة العرب . فهو الحارث الذي يشيد بذكره الشاعر عمرو ابن كلثوم وهو ايضاً الحارث الذي قهر المنذر ملك الحيرة . وجاء بعد الحارث الغساني ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨٢) . فهب لمحاربة عرب الحيرة وقد كانوا اغاروا على سورية بعد وفاة والده الحارث . فقاتلهم وانتصر عليهم عند عين أباغ . فأكثر شعراء العرب من ذكر هذا النصر وتغنوا بجرأة الحارث لإبعاده في الغزو الى عين أباغ . واهتم المنذر ابن الحارث لمشاكل النصرانية آنئذٍ فعقد مجتمعاً محلياً تحت رعايته للنظر في بعض البدع المحلية . ولم يرض يوستينوس عن المنذر فقطع عنه المال السنوي واوز بقتله . فشق المنذر عصا الطاعة ثلاث سنوات متتالية . فانتهز عرب الحيرة هذا الظرف واغاروا على سورية الشمالية « وعاثوا فيها ما شاؤوا » . ثم اجتمع المنذر بالبطريق يوستينانوس في الرصافة وتفاهما فعادت المياه الى مجاريها^٣ .

وتوفي يوستينوس في السادس من تشرين الاول سنة ٥٧٨ . فتولى العرش بعده طيباريوس . وأحب هذا ان يسعى لتوحيد الكنيسة ، فرأى

١ ابن قتيبة ، ٤ : ٣ ، الحماسة ، ٤٠٢ .

٢ نولدكه : امراء غسان ، ص ٢٥ .

٣ يوحنا الافسي ، ٦ : ٤ ، ص ٣٥١ .

ان يوحد كلمة اصحاب الطبيعة الواحدة اولاً ليسهل عليه التوفيق بينهم وبين الكنيسة الارثوذكسية الام . فاستدعى المنذر الغساني الى القسطنطينية . فأتمها هذا البطريق مع ولديه ووصل اليها في الثامن من شباط سنة ٥٨٠ . فاستقبله الامبراطور بكل احترام وتبجيل . وانعم عليه بلقب ملك الشرقين^١ . وسمح له بان يستبدل الاكيل البطريرقي بتاج ملكي^٢ . ثم طلب اليه ان يوفق بين صفوف اصحاب الطبيعة الواحدة . ووقف الامبراطور الاضطهاد الذي كان قد حلّ بهؤلاء منذ عشر سنوات او اكثر تسهيلاً لعمل الملك الجديد ، اي المنذر . وعاد المنذر الى سورية وعقد مجعماً برعايته في الثامن من اذار سنة ٥٨٠ ، واتصل بغيريفوريوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي وفاوضه في المهمة الموكولة اليه . وأصبح المنذر الغساني ملكاً محلياً وحكماً في اعوص مشاكل ذلك العصر واشدّها تعقيداً .

ولم يرضَ البطريرك افتيخيوس عن هذا التسامح والتساهل مع اصحاب الطبيعة الواحدة . وشاركه في رأيه هذا عدد من كبار رجال الجيش والسياسة وبينهم موريتيوس القائد . وفي السنة ٥٨٠ اراد هذا القائد ان يفاجيء الفرس بهجوم خاطف عن طريق الفرات متعاوناً مع المنذر وقبائله . فلما وصل الى الفرات وجد الجسر الكبير مهدوماً . فتراجع خائباً وعزا خيبته الى خيانة المنذر وتواطؤه مع الفرس وشكاه الى الامبراطور . وبرغم ان المنذر عاد فاغار وحده على اراضي عدوه امير الخيرة واعمل في عاصمته النار وقفل من غزوته بغنائم عظيمة^٣ ، فأن موريتيوس تشبث برأيه وأصرّ

Aramundarus Saracenorum Rex.

Michel le Syrien, X, 344.

١ راجع نولده : امراء غسان ، ص ٢٦ .

٢ وقد ذكر هذه الحادثة الشاعر الحبري المعاصر عدي ابن زيد ، الاغاني ٢ : ٢٧ ،

الطبري ، ١ : ١٠٢١ ، ياقوت ٣ : ٦١٢ .

عليه . وسافر بنفسه الى القسطنطينية ليثبت رأيه امام الامبراطور^١ . ويرى الاب غوييو اليسوعي ان موريقوس كان محقاً في شكواه وان هنالك ما يدعو الى الشك في امانة المنذر والى الظن بانه كان يتوخى الاستقلال بدافع الطموح الشخصي والسعي لرفع الضيم عن اخوانه اصحاب الطبيعة الواحدة^٢ .

وأصدر طيباريوس أمره في ربيع السنة ٥٨١ بالقبض على المنذر . فأرسل ماغنوس Magnus حاكم سورية الى المنذر يدعوه الى حوارين بين تدمر ودمشق للاشتراك في حفلة تدشين الكنيسة التي اقامها فيها . فلبى المنذر الدعوة . فما كاد يبلغ حوارين حتى القي عليه الحاكم القبض وارسله مخفوراً الى القسطنطينية . ولم يقتصر طيباريوس على نفي المنذر وانما عمد ايضاً الى قطع الاعانة السنوية عنه . فقام ابناء المنذر الاربعة وشقوا عصا الطاعة واوغلوا في البادية واخذوا يشنون منها الغارات على اراضي الدولة . ودخلوا بصرى واضطروا حاميتها ان تتخلى لهم عن الذخائر والاموال التي صادرتها منهم وبينها تاج المنذر . فجرد طيباريوس حملة ضدهم وانفذ معها اخاً آخر للمنذر ليخلفه في وظيفته ولكنه توفي بعد عشرة ايام . اما القائد البيزنطي فإنه تمكن بالمكر والحداع من القاء القبض على النعمان اكبر ابناء المنذر . وتوفي طيباريوس في السنة ٥٨٢ فتولى العرش بعده موريقوس عدو المنذر فأمر بابعاد الملك العربي ومن معه الى صقلية^٣ . وطالت الحرب الفارسية وحمي وطيسها وشعر موريقوس بالحاجة الى من يوحد

Jean d'Epiphane, III, 40, 129 et VI, 16, 231.

١

Goubert, P., op. cit. 252-254; Devresse, Mgr., Patriarcat d'Antioche, 276, ٢ 281, n. 3.

٣ نولدكه : امراء غسان ، ص ٣٠ - ٣٤ .

كلمة القبائل العربية في سورية ويقودها الى الحرب ضد الفرس . فاستحضر
النعمان في السنة ٥٨٤ ووعده بارجاع والده من المنفى ثم طلب اليه ان
يجارب الفرس معه وان يعتنق الارثوذكسية . فأجابه النعمان ان جميع
قبائل طي يعاقبة وانهم يذبحونه ذبحاً ان هو تقبل قرار «المجامع» . فغضب
موريقيوس وأمر بسجنه ثم أُلحقه بالده^١ .

ويرى نولدكه في رسالته امراء غسان ان احوال العرب في سورية
اضطربت بعد اعتقال المنذر وابنه النعمان وان عرى وحدتهم تفككت
فاختارت كل قبيلة منهم اميراً لها ، فتطاحت وتنازعت فيما بينها وان هذه
المنازعات لم تنحصر بالبادية وانما تعدتها الى البلدان العامرة وان القبائل اخذت
تسطو بلا خوف ولا وجل على اموال الفلاحين المتحضرين فتتهب مواشيهم
وتحصد دون ان تزرع . ويزيد نولدكه ان هذا كله حمل الروم على التفكير في
تنصيب عامل لهم رئيسي جديد يقوم مقام المنذر وانهم رأوا ان يكون
هذا العامل من آل جفنة ايضاً لما كان هؤلاء في الماضي من الهيبة في
القلوب^٢ .

وقضت ظروف العداء بين الغساسنة وعرب الحيرة ان يشتد كره
عرب الحيرة لكل من قال بالطبيعة الواحدة وان يتقربوا من الكنيسة
الارثوذكسية الأم . وانتهت الحرب بين فارس والروم في مصلحة
الروم ، فطلب النعمان ملك الحيرة ان يتلقى المعمودية على يد كاهن
ارثوذكسي في الرصافة وقبلها معه رجاله . وكان خالص النية فيما فعل ،
فلما عاد الى الحيرة رمى بتمثال الزهرة الذهبي في النار ، وجمع ذهبه بعد
انصهاره ووزعه على الفقراء . ولعل الكاهن الارثوذكسي الذي عمّد النعمان

Jean d'Epiphane, III, 56, 135.

١
٢ امراء غسان ، ص ٣٤ - ٤١ ، و ٥٧ - ٦٦ .

ورجاله هو البطريرك الانطاكي غريغوريوس نفسه . فانه هو الذي كرّس تقدمات ابرويز وزوجته المسيحية سيرين على اسم القديس سرجيوس في الرصافة (سيرجيوبوليس) . وانطلق البطريرك من الرصافة الى البادية يرد « الضالين في القرى والاديرة الى الدين المستقيم » ، وعاد الى احضان الكنيسة الام بعد هذا النصر كثيرون في سورية والعربية وارمينية وبلاد الكرج ممن سبق لهم ان قالوا بالطبيعة الواحدة . وتعددت البنايات والانشاءات الدينية الارثوذكسية في الاردن والبثنية وهوران في مادبا ومعين وجرش والجولان والجزيرة بين بصرى ودرعة وفي الطيبة وغاريا الغربية وفي قَسَم وفي حياة بالقرب من الشهباء^٢ .

الآفار والصقالبة : (٥٥٠ - ٦٠٢) ولم ينتظر الآفار والصقالبة نهاية الحرب الفارسية ليقوموا بغاراتهم في البلقان . ولكن خلفاء يوستينيانوس آثروا قبل التصدي لهم ان يفرغوا من المشكلة الفارسية . وذلك لاسباب اهمها ان المناطق موضوع النزاع بينهم وبين فارس كانت آهلة بشعوب قوية شديدة يمكن الاعتماد عليها لتغذية الجيش بالرجال . ثم ان التغلب على فارس كان ضرورياً لاضعاف معنويات من قال بالطبيعة الواحدة من سكان ارمينية وسورية ولارجاعهم الى احضان الكنيسة الام وتوحيد الكلمة في داخل الامبراطورية . وهكذا نرى يوستينوس الثاني يبتاع سكوت الآفار في السنة ٥٧١ ونرى طياريوس طلباً للغاية نفسها يدفع في السنة ٥٧٤-٥٧٥ قدراً كبيراً من المال ثمانين الف صلدة ذهبية . وفي السنة ٥٨٠ هبّ عدد كبير من الصقالبة قدّره ميناندر من مؤرخي ذلك العصر بمئة الف رجل

Evagre, Hist. Ecc., éd. Bidez, VI, 22, 238 ; Charles, H., le Christianisme des Arabes Nomades sur le Limes et dans le Désert aux Alentours de l'Héjire, (Paris, 1936.)

Goubert, P., op. cit., 265, 266-268.

فعبروا الدانوب وغمروا البلقان غمراً مخربين محرقين ناهبين^١. ويرى اهل الاختصاص ان هذه الموجة الكبرى كانت اشد اثراً من اي موجة اخرى في تطور تاريخ الروم لأنها ابقت في البلقان عدداً كبيراً من الصقالبة فضقلبته منذ ذلك الحين^٢.

وحلت المشكلة الفارسية في السنة ٥٩١ حلاً نهائياً. وعاد جيش الروم منتصراً قوياً. فتغير الموقف في البلقان تغييراً اساسياً. وشن موريقيوس على الآفار والصقالبة حرباً متواصلة عنيفة. ورغب في ان يتسلم القيادة بنفسه. وكاد يفعل لولا تدخل الحاشية. فعهد بالامر الى بريستقوس القائد. وكتب النجاح لبريستقوس فأبعد البرابرة حتى ضفة الدانوب. ثم عبره وحاربهم في ذاقية. وعاد خاقان الآفار فدفع بمئة الف اخرى من الصقالبة عبر الدانوب. فتدفعوا جنوباً حتى ثيسالونيكية والتسطنطينية. ولم تنج الاولى منهما الاً باعجوبة^٣. وهرع موريقيوس للدفاع عن العاصمة بنفسه. فجمع المتطوعة من سكانها والحق بهم الحرس الامبراطوري ودفع بهم جميعاً الى السور الطويل. وقُدِّر لبريستقوس ان ينتصر في بلغراد في السنة ٥٩٨ وفي طولي في السنة ٥٩٩. فتهدان الطرفان سنة ٦٠٠ جاعلين الدانوب حدّاً فاصلاً بينهما. ثم نشبت الحرب مجدداً في السنة ٦٠١ ورجحت كفة بريستقوس فعبر الدانوب غازياً وما برح حتى وصل الى نهر الثيس. وعوّل الامبراطور على ابقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء. ولكنه فوجيء بان تمرّد بعضهم عليه في السنة ٦٠٢.

Menandre, 404-406.

Vasiliev, A. A., *Les Slaves en Grèce, Viz. Vrem.*, V, 1898.

Acta S. Dimitrii, 107-121.

Theophylactus, VII, 289-298.

ثورة السنة ٦٠٢ : تمرد الجند في خريف هذه السنة وعبروا الدانوب
بامرة فوقاس احد ضباطهم واتجهوا نحو القسطنطينية . وكانت العاصمة خالية
من الجند . فحشد موريقيوس متطوعة من سكان العاصمة ودفع بهم الى
سور ثيودوسيوس . وليته لم يفعل لان قسماً كبيراً من السكان كان قد
سئم كبرياء الامبراطور واسالييه الارستقراطية . وشعر موريقيوس بهذا
وخشي بمالأة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس للجند فأمر بالقاء القبض
على جرمانوس . ولكن جرمانوس التجأ الى كنيسة الحكمة الالهية
فاضطر الامبراطور ان ينتهك حرمة هذا المعبد ليقبض فيه على خصمه .
وأيد الشعب جرمانوس واخلى المتطوعة مراكزهم على السور وانحازوا الى
الجاهير المتظاهرة . ففرّ الامبراطور بعائلته عبر البوسفور الى نيقوميذية .
وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٦٠٢ نادى الشيوخ والشعب
بفوقاس امبراطوراً . ودخل فوقاس في اليوم التالي « مطراً الذهب على
الشعب امطاراً . » ثم وجه الى نيقوميذية بمن ذبح موريقيوس وعائلته
ذبحاً^١ .

ويرى لفتشكو الاستاذ في جامعة ليننغراد^٢ ان ثورة السنة ٦٠٢
كانت في حد ذاتها نزاعاً طبقياً بين الفلاحين والصناع والجند من جهة ،
وبين الذين عززتهم حكومة موريقيوس من اصحاب الاملاك الكبيرة والاموال
الوافرة من جهة اخرى . ويرى الاستاذ نفسه في هذه الثورة التي عمّت
آسية الصغرى وسورية ولبنان ومصر ثورة اجتماعية دينية بين النصراري
واليهود وبين من كان من النصراري يقول بالطبيعة الواحدة ومن كان

*Theophylactus, VIII, 7-15; Kraitschex, Der Sturz des Kaiser Mauricius, ١
1896.*

Levtchenko, M. V., Byzance, 116-121.

يستمسك بقرارات المجامع المسكونية وبين الحضرة والزرقي . وهو يرى أيضاً ان فوقاس لم يتبن مطالب هذه الطبقات الوضيعة وانما سعى لتوطيد عرشه فقط .

فوقاس : (٦٠٢ - ٦١٠) وعلم ابرويز ملك الفرس بما حل بموريقيوس وبامبراطورية الروم وكان موريقيوس نفسه قد كتب اليه يستنجد به . وسمع ابرويز ايضاً بالثورة التي اعلنها نوسيس القائد على فوقاس في اورفة في السنة ٦٠٣ ، فرأى ان يستغل فرصة مناسبة فزحف بنفسه الى اورفة وحاصرها . ثم تغلب على الروم بين اورفة ونصيبين في السنة ٦٠٤ . وفي السنة ٦٠٥ سقطت دارا بيده فاتجه ابرويز نحو سورية وارمينية وانتشرت جيوشه في السنة ٦٠٧ في سورية وفلسطين تنهب وتحرق وتدمر . وفي السنة ٦٠٨ توغل الفرس في آسية الصغرى وبلغوا في السنة التالية الى خلقيدونية حيال القسطنطينية .

وكان فوقاس منهكاً في توطيد دعائم عرشه فقضى في السنة ٦٠٧ على قسطنطينية ارملة موريقيوس وعلى بناتها وعلى جرمانوس . وحاول استمالة كبار الضباط فجعل بريسقوس قائد الحرس وزوجه من ابنته ولكنه عاد فظن به سوءاً واتهمه بالمؤامرة عليه . ولم يعط فوقاس الحضرة شيئاً فقاموا عليه واهانوه علانية في الهيبودروم . ثم نشبت ثورة في انطاكية تلهتها مؤامرة في القسطنطينية . وهكذا دواليك حتى عمت الفوضى واصبحت الدولة في امس الحاجة الى شخصية كبيرة تتولّى إنقاذها .

الفصل الثالث عشر الفكر والفن في القرن السادس

التاريخ والمؤرخون : وكما كان الأمر في القرون السابقة ، كذلك كانت كتابة تاريخ في القرن السادس هي السجلّ الرئيسي للفكر البيزنطي ومجلى تطوره . وبرز المؤرخين في هذه الحقبة واكثرهم غناءً بروكوبيوس القيصري . درس الحقوق والحمامة ثم أصبح مستشار بليساريوس القائد وكاتم اسراره ، وقد صحبه في حروبه ضد الوندال والقوط والفرس واطلع على مخبراته وخفايا اموره فجمع لمؤلفاته ما لم يتسن لغيره ادراكه . وبرغم تفعره في اليونانية واخذه باساليب هيروودوتوس وثوقيديدس فإنه ظل سلسلاً في انشائه نشيط الخيال ضليعاً شديداً يقظاً . ومؤلفاته ثلاثة : الحروب والملح والابنية^١ . ويقع كتابه في الحروب في ثمانية اجزاء وصف فيها حروب يوستينيانوس في افريقية وإيطالية والشرق . وأفرد كتابه الملح لقصص وروايات اظهر بها خفايا الحياة السياسية في العاصمة ولاسيما القصر المقدس وحياة عاهليه يوستينيانوس وثيودورة . وضمن كتابه الابنية

De bellis, Historia arcana, De aedificiis, (Bibliotheca Scriptorum Graecarum, Vols. I-III), Eng. Trans. Dewing, 7 Vols., London and New-york, 1914-1940.

اخبار يوستينانوس في حقل البناء ، فذكر فيه جميع الابنية التي امر
بتشييدها^١.

وقد عاصر يوستينانوس وبروكوبيوس مؤرخ آخر هو بطرس البطريق.
كان محامياً لامعاً وسياسياً مفاوضاً فمثل الروم مراراً لدى الفرس والقوط
الشرقيين . وكتب في تاريخ الامبراطورية منذ عهد اوغسطس . ووضع
سفرأً خاصاً في التشريفات . وقد ضاع الشطر الاكبر من هذين المؤلفين
ولم يبقَ منهما سوى شذرات منثورة .

وقام بعد بروكوبيوس اغاثيوس المحامي فأرخ لعهد يوستينانوس منذ
السنة ٥٥٢ حتى السنة ٥٥٨ . وجاء ميناندر في ايام موريقيوس فأرخ
للسنوات ٥٥٨ - ٥٨٢ . ولكن ضاع هذا المؤلف ولم يسلم منه سوى
بعض تنف مفيدة جداً من جهة المعلومات الجغرافية والمعرفة بالعناصر
البشرية الطارئة على الامبراطورية . وظهر ثيوفيلاقوس السيموقاطي القبطي
فسجّل تاريخ الحوادث في عهد موريقيوس (٥٨٢ - ٦٠٢) وكان كاتباً
لاسرار هرقل الفيلسوف . وبرغم خياله المشتط وصوره الرمزية وحكمه
المقتضبة واساطيره وخرافاتاه فانه لا يزال المرجع الرئيسي لتاريخ
موريقيوس ان في حروبه الفارسية او في البلقان^٢ . وفي اواخر القرن
سادس كان المؤرخ ثيوفانس وقد ذكره البطريرك فوتيوس في مؤلفاته
ونقل عنه نبذةً منها نبذة في ادخال دود الحرير الى حوض البحر المتوسط .
واما تاريخ الكنيسة في القرنين الخامس والسادس فأفضل من عاجله من
المؤرخين ايفاغريوس السوري . وتتضمن كتبه الستة تاريخ الكنيسة منذ

*Dahn, F., Procopius von Caesarea, Berlin, 1865; Haury, Zur Beurteilung
des Geschichtsschreibers Procopius von Caesarea, 1897.*

Krumbacher, K., Gesch. der byz. Litt., 249.

مجمع إفسس في السنة ٤٣١ حتى السنة ١٥٩٣ .

الجغرافية والجغرافيون : وما يلفت النظر في تاريخ الفكر في القرن السادس كتاب قوزمة البحري^٢ «الكوسموغرافية المسيحية» ، وضعه في منتصف هذا القرن . ولد الرحالة قوزمة البحري في مصر ، وتعاطى التجارة في حدائقه . ثم أعرض عنها لكساد سوقها . فغادر مصر متنقلاً في سيناء ، والحبشة ، وحوض البحر الاحمر ، والشاطيء الجنوبي من الجزيرة العربية ، وسيلان . ثم انقلب الى مصر زاهداً فتنسك وترهب . وقد كتب كتابه هذا لبيّن للمسيحيين ان الارض صندوق مربع مستطيل بشكل تابوت العهد ، وان شكل الكون هو شكل مظلة اسرائيل ، وان قول بطليموس الجغرافي بكروية الارض قول مردود . واهم من هذا وذاك هو ان قوزمة دون في مصنفه هذا ما شاهده في اثناء تجواله ، وما سمعه . وفرّق بوضوح تام بين سماعه وعيانه ، بحيث صار مؤلفه مرجعاً هاماً لتاريخ هذا العصر^٣ .

ومن كتب في الجغرافية في القرن السادس هيروكليس اللغوي . فانه وصف الامبراطورية وصفاً سياسياً جغرافياً على حالتها قبيل السنة ٥٣٥ متناولاً ولاياتها الاربع والستين ، ومدنها التسع مئة والاثنتي عشرة^٤ .

التاريخ بالحواليات : وأشهر من دون الحوادث في القرن السادس مرتبةً بحسب تاريخ وقوعها ، يوحنا ملالاس الانطاكي . فإنه وضع خرونيقوناً لتاريخ العالم منذ اقدم الازمنة حتى نهاية عهد يوستنيانوس .

Fragmenta Historicorum Graecorum, Patrologia Graeca. ١

٢ بحري بحر الهند *Cosmas Indicopleustes*.

٣ *Cosmas Indicopleustes, Topographia Christiana, XI, éd. Migne.*

٤ *Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 417.*

وبرغم انه لم يفرّق بين الغث والسمين ، والاساطير والوقائع الراهنة ، فان كتابه مفيد في بعض ما يروي ، عدا انه استعمل فيه اليونانية الدارجة في عصره ، مستعيناً ، بين آن وآخر ، ببعض الاصطلاحات اللاتينية الشائعة في زمنه^١.

وبين هؤلاء ايضاً يوحنا الافسي . ولد في آكل من ولاية آمد في السنة ٥٠٧ ، ونشأ ناسكاً في دير ارعازبتا . وأجاد السريانية واليونانية ، ورحل في طلب العلم الى انطاكية والاسكندرية والقسطنطينية . وفي السنة ٥٤٢ اختاره يوستينيانوس لتبشير الوثنيين في بعض نواحي آسية الصغرى . وحوالى السنة ٥٥٨ رسمه يعقوب البرادعي مطراناً على من قال بالطبيعة الواحدة في افسس . فأقام على رعاية هؤلاء تسعاً وعشرين سنة . وفي السنة ٥٦٦ ، بعد وفاة ثيودوسيوس الاسكندري ، أصبح يوحنا الافسي رئيساً لجميع من قال بالطبيعة الواحدة في القسطنطينية وسائر بلاد الروم . وفي السنة ٥٧١ اضطهد يوستينوس الثاني من لم يقل قول الكنيسة الام ، فشمّل هذا الاضطهاد يوحنا المترجم له ، فسجن ثم نفي ، ثم اعتقل مرة ثانية في عهد طيباريوس وأبعد عن العاصمة في اواخر السنة ٥٧٨ . وكانت وفاته في السنة ٥٨٦ او ٥٨٧ .

وأرّخ يوحنا الافسي للكنيسة في ثلاثة مجلدات . تناول بالمجلدين الاول والثاني حوادث التاريخ منذ عهد قيصر حتى السنة ٥٧١ . وجعل في المجلد الثالث اخبار الكنيسة والعالم من السنة ٥٧١ حتى السنة ٥٨٥ . وله ايضاً سير النساك الشرقيين ، وهو يشتمل على ثمان وخمسين ترجمة . « وفيه فوائد عن السيرة النسكية ، والعادات الرهبانية ، وسير الديرارات في ذلك

العصر^١. « واهمية هذه المؤلفات هي انها تحفظ لنا بالدرجة الاولى شيئاً من ثقافة القائلين بالطبيعة الواحدة واتجاهاتهم القومية ، وتلقي ضوءاً على آخر مراحل النزاع بين النصرانية والوثنية^٢.

أخبار القديسين : وأهم من عني بأخبار الرهبان والنسك والقديسين يوحنا كليماكوس الذي اعتزل في طور سينا ووضع كتابه الشهير السلم الروحية^٣ في ثلاثين فصلاً. وقد استعار التسمية من الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين : « ورأى يعقوب حلماً وإذا سلم منصوبة على الارض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . » وحاول يوحنا كليماكوس ، في كتابه هذا ، ان يبين مراحل التقدم في الحياة الروحية للوصول الى الكمال . فراج كتابه هذا بين جمهرة رهبان الروم وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والايطالية والاسبانية والفرنسية والسلافية . وفي نسخه المخطوطة تصاوير جميلة للحياة الدينية والرهبانية^٤.

واما كيرلس البيساني الذي قضى آخر دور من حياته في دير مار سابا في فلسطين فقد رغب في تدوين سير القديسين في كتاب ضخم ولكنه توفي قبل ان ينجز عمله . امتاز كيرلس بتفهمه الحياة الرهبانية وبضبطه وتدقيقه وبساطة أسلوبه . فهو والحالة هذه من افضل المراجع لتاريخ الثقافة عند الروم^٥.

ومن اشهر المؤرخين في اخبار القديسين يوحنا موسخوس الفلسطيني .

١ الوثؤ المنتور للبطريك اغناطيوس برصوم ، ص ٢٦٤ - ٢٦٨ .

Dyakonov, John of Ephesus, 359. ٢

Scala Paradisi. ٣

Dalton, O. M., East Christian Art. 316. ٤

Schwartz, Ed, Kyrillos von Skythopolis, Leipzig, 1939. ٥

وهو من الاعيان الذين وصلت حياتهم بين القرنين السادس والسابع ،
وضع المروج الروحية بعد ما زار اديرة فلسطين وسينا ومصر وسورية
وآسية الصغرى وتجول في جزر المتوسط وايجه ، قدسنى له ان يدون اشياء
كثيرة عن الرهبان والاديرة في عصره . ومصنفه هذا مفيد لتاريخ
الحضارة .

الشعراء : وأشهرهم رومانوس المرتل وقد سبقت الاشارة اليه .
وهو افضل من نظم في عهد يوستينيانوس . وقد وقف شاعريته على
الابتهالات الدينية . ومن شعراء هذا العصر بولس الصامت الذي خص
كنيسة الحكمة الالهية بقصيدتين وصف بهما هذه التحفة النفيسة فخدم
تاريخ الفن خدمة كبيرة وأحرز تقدير معاصريه وبينهم اغاثيوس المؤرخ ٢ .
وامم القسطنطينية في هذا العصر نفسه الشاعر كوريبوس الافريقي ولبث
فيها ينشد باللاتينية اماديج يوحنا القائد الذي اخمد ثورة البربر في افريقية .
وبرغم ركافة نظمه فان شعره يتضمن بعض الفوائد الجغرافية والتاريخية
الضرورية لتاريخ افريقية الشمالية في القرن السادس . ونظم كوريبوس
ايضاً شعراً في يوستينوس الثاني وتسببه العرش فأفاد به المؤرخ اكثر كثيراً
بما افاد الادب . ومن قرض الشعر في هذا القرن ذيوستوروس القبطي .
ولد في صعيد مصر في قرية صغيرة وتعلم علوم زمانه ثم درس الحقوق
وتعاطى الادب ، ولكنه لم يكن مجيداً في نظمه . وما بقي من ابياته على وريقات
البردي لا يزيد الادب الهليني فخراً . يضاف الى هذا انه لم يحسن قواعد
اللغة فجاءت ابياته ركيكة ضعيفة . واهتمام المؤرخين بأثاره يعود الى ما

Pratum Spirituale.

١

Friedlander, P., Johannes von Gaza und Paulus Silentiarus, Berlin, 1912.

٢

تركه من وثائق شرعية واخبار اجتماعية لا الى تفوقه في الفكر او الشعرا .
الفن : ومؤرخو الفن يعتبرون عصر يوستينيانوس العصر الذهبي الاول
في تاريخ الفن عند الروم . ويعدون كنيسة الحكمة الالهية آية من آيات
فن البناء في العالم باسره . وفضل الكتب التي صفت في هذا الموضوع هي
تقارير الاستاذ هويتور عن اعماله الترميمية التي بدأت في السنة ١٩٣٣ ،
يضاف اليها كتاب الاستاذ سويقت آجيا صوفيا^٢ . واعجب ما في هذه
الكنيسة قبتها العظيمة . فانها تشمخ ضمن محيط قدره واحد وثلاثون متراً
على علو خمسين متراً فوق سطح الارض . وهو عمل لا يزال يعتبر حتى
ساعتنا هذه من معجزات فن البناء . وشكل الكنيسة مربع مستطيل
عظيم يقسمه صفان من الاعمدة الى ثلاثة ابهاء . والارض والاعمدة والاقسام
السفلى من الجدران جميعها من رخام ملون . وما تبقى من الجدران
والسقف جميعه مغشى بالفيسفساء المذهبة . ويطل النور على المصلين من
اربعين نافذة عند اسفل القبة الكبرى فتعكسه الفيسفساء المذهبة الملونة
اشعةً متنوعة رائعة . اما الفناء امام هذا المعبد فانه كان فيما مضى واسعاً
كبيراً تتناسب مساحته وحجم الكنيسة وراءه . وكانت تحيط به من
جهاته الاربعة اروقة ذات أعمدة متقنة الصنع . وتقوم في وسطه نافورة
مزخرفة جذابة .

وهدم يوستينيانوس كنيسة الرسل التي كان قد شيدها إما قسطنطين
الكبير او قسطنديوس . واعاد يوستينيانوس بنايها بشكل صليب مربع

١ Bell, H., Byz. Servile State, Journal of Eg. Arch. IV, (1917), 104-105 ;
Greek Papyri in the Brit. Mus., Journal of Eg. Arch., V, III-IV.
Swift, E. H., Hagia Sophia, New - york, 1940.

الاجنحة . وعهد العمل الى انثيموس التراتي واسيدور الاصغر . وبقيت هذه الكنيسة البديعة مدفناً لباطرة الروم حتى القرن الحادي عشر . ولما استولى الاتراك على القسطنطينية امروا بهدمها لينشئوا في موضعها جامع السلطان محمد الفاتح . وباستطاعتنا ان نستعيد صورة شكلها قياساً الى كنيسة القديس مرقس في البندقية او كنيسة القديس يوحنا في افسس او كنيسة سان فرون في بريغوا في فرنسة ، فان هذه الكنائس جميعاً قد شيدت على طراز كنيسة الرسل في القسطنطينية^٢ .

وربما تعذر علينا اليوم ان نتلذذ تلذذاً تاماً بوجود الاتقان والبداعة في الفسيفساء على جدران كنيسة الحكمة الالهية لان الاتراك قد حولوها عند الفتح الى جامع وطمسوا هذه الآثار بطلاء من الطين وغيره ولان اعمال التنظيف والترميم التي امر ائتاتورك باجرائها في هذه الكنيسة لم تتم بعد ، ولكن بامكاننا ان نلمس لطائف هذا الفن وروعته على جدران كنيسة القديس الشهيد فيتال في رايننة . ورايننة هذه كانت في القرن الخامس بعد الميلاد ملجأ لباطرة الغرب ثم اصبحت في اوائل القرن السادس عاصمة القوط الشرقيين . ولما تغلب يوستينانوس على هؤلاء وفرض سلطته على ايطالية ، اصبحت رايننة مركز حكم الروم في ايطالية ومقر الاكسرخوس فيها وذلك طوال قرنين منذ منتصف السادس حتى منتصف الثامن . وآثار رايننة الفنية تعود الى عهد غالية بلاسيدية بنت ثيودوسيوس الكبير والى عهد ثيودوريجوس ويوستينانوس . وشمل يوستينانوس رايننة بعنايته فأكمل بناء كنيستين فيها ورصعهما بالفسيفساء . ولا تزال هذه الفسيفساء محفوظة

Saint Front de Périgueux.

Heisenberg, A., Die Apostelkirche in Constantinopel, Leipzig, 1908.

بأكملها في كنيسة القديس فيتال حتى يومنا هذا . واشهر ما فيها صورة
الامبراطور على جدار الخنية وراء المذبح يحيط بها اسقف رابينة ورجال
الحاشية ، وصورة ثيودورة ووصيفاتها .

الباب السادس

تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود المملك وانظمته

الفصل الرابع عشر

هرقل والفرس والصقالبة والآفار

(٦١٠ - ٦٣٤)

سقوط فوقاس وقيام هورقل : وطغي فوقاس وجاوز الحد في الظلم والقسوة . قتل قسطنطينة ارملة موريقوس وبناتها الثلاث . ونقض العهد الذي قطعه لنوسيس القائد وأحرقه حياً . فكان ان كثرت المؤامرات ضده ولكنه استطاع ان يقضي عليها جميعها وان يعذب المتآمرين ويذبحهم . وتوغل الفرس في آسية الصغرى في قبدوقية وغلاطية حتى وصلوا الى ابواب خلكيدونية وأحرقوا القرى والمزارع على الشاطئ الآسيوي قبالة العاصمة . واكتسح الصقالبة إيليرية وتراقية . ولم يبق جزء من اجزاء الامبراطورية لم يلحق به اذى الا افريقية . وكان يحكمها آنثذ اكسرخوس مسن

صالح يدعى هرقل . أحبه الشعب في افريقية حباً جماً . فلم يجسر فوقاس ان يمسه بسوء . فاتصلت احزاب العاصمة بهذا الاكسرخوس اكثر من مرة وحرّضته على القيام بواجب لا يستطيع القيام به غيره . فاستجاب وأعد اسطولاً وجيشاً . واتصل بكبار الملاكين في مصر وحرّضهم على الثورة فلبوه وشاركهم الشعب في ثورتهم ، فمنعوا تصدير الحبوب الى العاصمة فانشر فيها الجوع . وجبه هرقل فوقاس بما لم يكن مهيناً له^١ . ثم دعا هرقل ولده الذي سماه هرقل ايضاً وأمره على الاسطول وأنفذ ابن اخيه نيقيطاس على رأس فرقة كبيرة من الفرسان الى مصر وما وراءها .

ووصل هرقل الابن باسطوله الى الدردنيل . والتجأ اليه زعماء المعارضة . وظهر اسطول هرقل على اسطول فوقاس . وتمردت عناصر هامة في جيش فوقاس . ففتحت المدينة ابوابها لهرقل . واعتقل فوقاس في قصره موظف^٢ كان الامبراطور قد اساء اليه اساءةً بالغة . وأحضر فوقاس بين يدي هرقل صاغراً . فقال له هرقل : « أهكذا حكمت الامبراطورية ؟ » فأجاب فوقاس : « وهل تحكّمها انت خيراً مما حكمتها ؟ » فركله هرقل بقدمه وقطّعه البحارة ارباً ارباً^٣ . واعتذر هرقل وأراد ان يتولى العرش بريسقوس ، ولكن الشيوخ ابوا ان يتولاه احد غير الذي انقذهم . فنادوا بهرقل فسيلفساً في اليوم نفسه وتقدموا به من البطريرك سرجيوس فتوجّه هذا الى كنيسة الحكمة الالهية . وتزوج هرقل من افذوكية في اليوم نفسه ايضاً فنودي بها فسيليسة . وبعد ثلاثة ايام أحرقت شمال فوقاس في الهيبودروم ومعه علم الزرق^٣ .

١ بشهادة ثيوفانس . *Levchenko, M. V., Byzance, 119-120.*

٢ اومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٠٢ .

٣ *Baynes, N. H., Successors of Justinian, Cam. Med. Hist., II, 288.*

أسرة هورقل : وقد جاء في تاريخ الامبراطور هرقل لسيديوس المؤرخ الارمني الذي شهد ذلك العصر ان هرقل متحدر من اصل ارمني وانه يمت بصلة الى الاسرة الارمنية الملكية اسرة الاراشكة^١ . ويؤيد هذا القول اليوم عدد من الباحثين وفي طليعتهم الاستاذ غريغوار^٢ . ويشك

هرقل

٦١٠ - ٦٤١

قسطنطين الثاني

٦٤١

قسطنطين الثالث (قسطنس)

٦٤١ - ٦٦٨

قسطنطين الرابع (الأحي)

٦٦٨ - ٦٨٥

يوستينانوس الثاني (الاشرم)

٦٨٥ - ٦٩٥ و ٧٠٥ - ٧١١

هرقليون

٦٤١

من لا علاقة له بالاسرة :

لاوندوس ٦٩٥ - ٦٩٨

طيباريوس ٦٩٧ - ٧٠٥

فيليبكوس ٧١١ - ٧١٣

انسطاسيوس ٧١٣ - ٧١٦

ثيودوسيوس ٧١٦ - ٧١٧

Sebeos, *The Hist. of Emp. Heraclius*, French Trans.108.

١

Grégoire, H., *An Arm. Dyn. on the Byz. Throne*, *Armenian Quart. I*, ٢ (1946), 4-21.

فيه عدد مقابل من رجال البحث فلا يرون في ادلة زملائهم ما يضمن السلامة لما استنتجوه^١.

الحرب الفارسية : (٦١٠ - ٦٢٨) وكانت الامبراطورية في حالة من الفوضى والاضطراب تدعو الى القلق الشديد . فكتب هرقل الى ابرويز يعلمه بالقصاص الذي انزله بفوقاس ويؤكد له ان اعادة السلم بين الدولتين اصبح ميسوراً . ولكن ابرويز لم يجب . وكانت جيوشه قد قطعت الفرات واحتلت قرقيسية عند مصب الحابور وكلينيكم الى شماليها . فأنفذ هرقل بريسقوس القائد الى قيصرية قبذوقية ليطرده الفرس منها . فطردهم بعد حصار دام سنة كاملة . ولكنهم خرجوا منها مفتحين لهم طريقاً بالقوة وانزلوا بالروم خسارة كبيرة . ثم اتجهوا شطر ارمينية لتمضية فصل الشتاء . واستطاعوا ان ينتصروا على الروم في سورية فأخذوا حصن عنوة في السنة ٦١١ . فما أطلت السنة ٦١٢ حتى أسافر هرقل من القسطنطينية الى آسية الصغرى ليدرس الموقف مع بريسقوس عن كئيب . فتباطأ القائد في استقبال الفسيلفس متذرعاً بالمرض . وفي النهاية أفهم هرقل انه لن يرضى عن تدخله في امور الجيش . فسكت هرقل على هذه الوقاحة لانه لم يكن بإمكانه أن يندب ان يقاوم قوة بريسقوس بقوة مماثلة . وفي خريف السنة ٦١٢ أمّ العاصمة نيقيطاس ليقاوض الفسيلفس في شؤون مصر . وقدمها بريسقوس ايضاً ليشتري في استقبال هذا الضيف الملكي . وكان قد ولد لهرقل ولد ذكر فأعلم الفسيلفس بريسقوس بوجوب بقاءه في العاصمة لحضور حفلة عماد الطفل في الخامس من كانون الاول . فصعد بريسقوس بالأمر ، ولم يبرح العاصمة . وانتهاز الفسيلفس هذه السانحة فأتهم القائد بالحيانة العظمى وأمر بالقاء القبض عليه وايداعه احد الاديرة . ثم أطل على جنود

العاصمة فيصوه قائداً اعلى . ثم جعل نيقيطاس قائداً على الحرس واخرج فيليبيقوس من الدير الذي كان قد التجأ اليه وسلمه القيادة . واشرك اخاه ثيودوروس فيها ايضاً .

ورأى هرقل ان يواجه الفرس في الجبهتين في آن واحد ، فانفذ فيليبيقوس بجيش الى ارمينية وقام هو واخوه ثيودوروس الى سورية الشمالية ليصدّا ابرويز عن احتلال سواحل لبنان وفلسطين ومصر . وكان ابرويز قد لمس ضعف الروم لمس اليد فأحب ان يستغل الموقف فالتقى الجيشان واشتبكا حول اسوار انطاكية في السنة ٦١٣ ، فدحر الروم وتراجعوا الى مداخل قيليقية فغلبوا فيها ايضاً ، واحتل الفرس طرسوس وقيليقية باكملها . ومثل هذا وقع لفيلبيقوس في ارمينية . وفي السنة ٦١٤ تابع الفرس زحفهم الى الجنوب بقيادة شهربراز وزحفوا من قيصرية فلسطين الى اوروشليم وهي البلد المقدس عند اعدائهم . فحصرها عشرين يوماً ثم دخلوها عنوة . فقتلوا جموعاً غفيرة من النصارى سبعة وخمسين ألفاً واسروا خمسة وثلاثين ألفاً وأحرقوا الكنائس والقوا القبض على البطريك زخريا واستولوا على عود الصليب وارسلوه الى فارس . وكان شهربراز قد حالف اليهود على النصارى . فلما تم له ما أراد نفى من المدينة المقدسة جميع اليهود ثم اذن بترميم الكنائس . وهرع نيقيطاس الى المدينة المقدسة فلم ينقذ من آثارها سوى الحربة المقدسة والاسفنجة^١ . وفي السنة ٦١٥ حاول شاهين قائد الفرس ان يكمل احتلال آسية الصغرى ولكنه لم يفلح فتراجع . وفي ربيع السنة ٦١٩ عاد شهربراز الى الفتح فزحف على مصر واحتل بليسيوم ومفيس وبابل . ثم

Antiochus Strategus, Capture of Jerusalem by the Persians, Trans. by ١
N. Marr; Peeters, P., La Prise de Jérusalem par les Perses, Mel. Univ.
St. Joseph, IX.

عرج على الاسكندرية فحاصرها واستولى عليها .

وهكذا خسر هرقل ارمينية وما وراءها وهي أخصب البقاع بالرجال لتعبئة الجيش ، وخسر مصر وهي مركز تموين العاصمة ، وأضاع المدينة المقدسة وعود الصليب وهو ذخر النصارى . وكانت البلقان كما سنرى مسرحاً كبيراً لطغيان الآفار والصقالبة . فلم يبقَ والحالة هذه من جميع اقطار الامبراطورية قطر يمكن اللجوء اليه والاعتصام به سوى افريقية . فاراد هرقل ان يقلع اليها ليغزو منها مصر ويحلي الفرس عنها . وعلم الشعب في القسطنطينية بما نواه الفسيلفس فهبوا يردعون ، وألح عليه البطريك بوجود البقاء في القسطنطينية ، ولم يكف عنه حتى أقسم بانه لن يبرح العاصمة . وفي اثناء هذا كله - ولسنا ندري متى كان ذلك بالضبط - هاجم الفرس القسطنطينية باسطول بحري ، ولعلمهم قصدوا بذلك الى معاونة الآفار كما سيمر بنا . على انهم لم يصادفوا التوفيق . فان الاسطول الرومي قضى على قوتهم البحرية وبدد شملها ، فغرق في بحر مرمر اربعة آلاف فارسي مع مراكبهم . وتنبهت الكنيسة فأمدت الفسيلفس بجميع ما لديها من الذهب والفضة ، شرط ان يعاد اليها ما يقابله بعد الحرب .

وكان هرقل قد استشفع الى العذراء في السنة ٦٠٩ عندما بدأ يستعد للحملة على القسطنطينية . فعاد اليها مستشفعاً في شتاء السنة ٦٢١ . واعتزل للرياضة الروحية تأهباً للقيام بواجب مقدس : واجب الدفاع عن الدولة والكنيسة والدين . وفي الرابع من نيسان من السنة ٦٢٢ تقدم من المائدة المقدسة متناولاً القربان الطاهر . وفي الخامس من الشهر نفسه دعا اليه كلاً من البطريك سرجيوس والحاكم بونوس والشيوخ وكبار الموظفين والوجهاء والاعيان . والتفت الى البطريك وقال : « اني اعهد الى الله والى والدته واليك بهذه المدينة وبابني من بعدي . » وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الالهية والابتهاال والتوسل تسلم ايقونة السيد المخلص . ثم أقلع

بجنوده الى خليج نيقوميذية . وسار الى غلاطية وقبوقية لاكل التعبئة
والتموين والتنظيم . ومن هنا القول ان هرقل اول الصليبيين .
وأراد هرقل ان يقصي الفرس عن مراكزهم في قلب آسية الصغرى ،
فقام بحركة التفاف واسعة النطاق ، واتجه بجيشه شرقاً مهدداً مواصلات
العدو وطرق تموينه . وحاول شهربراز ان يصرف هرقل عن خطته فغزا
قيليقية . ولكن هرقل لم يعره انتباهاً . فاضطر القائد الفارسي ان ينقلب
الى الشرق ليحول بين هرقل وهدفه . وتواقع الحصان في أرمينية في السنة
٦٢٢ فدارت الدائرة على الفرس وسجل هرقل نصراً مبيناً . وانسحب
الفرس من قبوقية والبونط . وعاد هرقل الى التسطنطينية لينظر في أمر
الآفار . وفي ربيع السنة ٦٢٣ استأنف الهجوم في الشرق فقطع ارمينية
واحتل دوخان ونشقان ، ثم توغل في اذربيجان واتجه نحو تبريز كنزاحة
ليفاجيء ابرويز في قصره فيها . ففرّ ابرويز من المدينة . ودخلها الروم
فأحرقوا معبدها الكبير وتعقبوا الفرس الهاربين وهم ينهبون ويدمرون .
ثم رجع هرقل خوفاً من حركة التفافية خشي ان يقوم بها شهربراز او
شاهين او الاثنان معاً^١ .

وبانتصاراته هذه تسنى لهرقل ان يستمدّ من شعوب القوقاس المسيحية
ما عبأ به الصفوف . وكرّ كرة اخرى الى الميدان في السنتين ٦٢٤ و ٦٢٥
فضرب شهربراز عند بحيرة وان ، ثم ضربه في قليقية عند نهر ساروس .
فاضطر القائد الفارسي ان يتراجع الى الشرق ، وعدل هرقل الى البونط

؛ وجاء في الكامل لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، وفي غيره : « ووصل خبر عودة
ملك الروم الى شهربراز ، فأراد ان يستدرك ما فرط منه ، فعارض الروم فقتل منهم
قتلاً ذريعاً ، وكتب الى كسرى وانفذ من رؤوسهم شيئاً كثيراً . وفي هذه الحادثة انزل
الله تعالى : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيفعلون » . يعني بادنى
الارض اذرعات ، وكانت الروم قد هزمت بها في بعض حروبها . »

لتمضية فصل الشتاء . ثم نوى ان يتحرك من البونط بجيش عظيم في السنة
٦٢٦ ليستأنف انتصاره على الفرس ، ولكن تقدم الآفار في البلقان
وحصارهم القسطنطينية اضطراره ان يؤجل قصده هذا حتى السنة ٦٢٧ .
وفي صيف السنة ٦٢٧ قام الخزر حلفاء هرقل بحصار تفليس ، وهب
هو الى محاربة ابرويز ، فعبر نهر الآراس عند اتشميزان ، ثم دخل منطقة
ارارات فاذربيجان ، وانحدر بعد ذلك الى وادي الزاب . وفي الثاني
عشر من كانون الاول ابرويز عند أطلال نينوى فأوقع به هزيمة
شنعاء . ثم عبر الزاب متجهاً شطر طيسفون عاصمة الفرس ، فاحتل المقر
المالوكي في دستجرد وانتزع منه ثلاث مئة لواء رومي كان الفرس قد
استحوذوا عليها في انتصارات سابقة ، واطلق سراح الوف من الاسرى .
ولما كان جيش شهربراز لا يزال كاملاً سالمًا ، وكانت خطوط الدفاع عن
طيسفون قوية منيعة ، أثر هرقل التربص لعدوه في تبريز . فقطع جبال
الزاغروس في ابان الشتاء وبلغ الى تبريز سالمًا في الحادي عشر من آذار
سنة ٦٢٨ .

وكان شيرويه ابن ابرويز قد تمرد على والده وتسلم العرش في الثامن
والعشرين من شباط من السنة ٦٢٨ ، فكتب الى هرقل يطلب الصلح .
فصاحه الفسيلفس على شروط اهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق
الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس . وقبل شيرويه هذه الشروط . فاتصل
هرقل بشهربراز لتنفيذها ، وكان هذا القائد لا يزال مستوليًا على شطر
وافر من املاك الروم في آسية . وبعد مفاوضات طويلة اجتمع هرقل
وشهربراز في ارابيسوس في آسية الصغرى في حزيران من السنة ٦٢٩ .
وعرف هرقل كيف يحدث شهربراز بما كان يراود نفس القائد الفارسي .
وكان شهربراز يطمع بعرش الفرس . فعلله هرقل بالامل ، فأسرع القائد
الفارسي الى تنفيذ المعاهدة ، وأجلى جيوشه عما كان يحتله من اراضي الروم .

وفي اذار السنة ٦٣٠ تسلّم هرقل عود الصليب في منبج في سورية الشمالية ، فانتقل به الى المدينة المقدسة وأحله محله في الثالث والعشرين من الشهر نفسه^١. وكان هرقل قد امتنع هو وأسلافه في المنصب الامبراطوري عن اتخاذ لقب فيلسف برغم ان رعاياهم كانوا يطلقون هذا اللقب عليهم رداً على ما كان يتلقب به ملوك الفرس . فلما انتصر هرقل على الفرس ذلك النصر الباهر غير لقبه الرسمي من اوتوقراتور الى فيلسف^٢.

الآفار والصقالبة : وفي السنة ٦١٧ عبر الدانوب جمع غفير من الصقالبة ناقلين معهم عيالهم وامتعهم ، فانتشروا في ايليرية وابيروس وئسالية وآخية وتراقية ، وفي جزر بحر ايجيه وشواطئ آسية ، وعاثوا في البلاد فساداً . وطوّقوا نيسالونيكية وحصروها شهراً كاملاً . ولم تكدر تنجلي المحنة وينقضي عامان حتى كرت الصقالبة كرة اخرى جارّين وراءهم الآفار ، وما زالوا حتى بلغوا الى ضواحي القسطنطينية ، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا . ولم يتراجعوا الا بعد ان زاد لهم هرقل الاتاوة .

وقضت الحرب الفارسية بتغيب الامبراطور عن العاصمة ثلاث سنوات متتالية . فعاد الآفار الى سابق سيرتهم ، وارادوا هذه المرة اقتحام العاصمة نفسها في السنة ٦٢٦ . وتقدم الفرس في الحرب حتى خلقيدونية ، فنكث خاقان الآفار بعهد السابق ، واندفع بجموعه الى اسوار القسطنطينية . وكان الامبراطور قد أقام ابنه نائباً عنه في الحكم ، وأقام البطريرك سرجيوس وصياً عليه . فهبّ البطريرك بفصاحته وشجاعته يثير الهمم ، ويشدد العزائم ، فيطوف العاصمة بالشعائر الدينية ، ويعلو بنفسه الاسوار

Theophanes, Chronographia. ed. de Boor ; Sebeos, Emp. Heraclius;

Minorski, V., Roman and Byz. Campaigns in the Atropatene.

Bury, J. B., Selected Essays, 109.

ومعه ايقونة المحلص وايقونة العذراء . فأصبح على تعبير احد المعاصرين :
« خوذة العاصمة ودرعها وسيفها » . ويقول معاصر آخر : « ان البطريك
ما فتىء يواجه قوات الظلمة والفساد بايقونتي المحلص والعذراء شفيعة العاصمة
حتى أدب في قلوبهم الرعب والخوف . فكانوا كلما عرض البطريك من
الأسوار ايقونة الشفيعة أعرضوا هم عن النظر اليها . » وجمع الفرس اسطولاً
وحاولوا الوصول الى الشاطئ الاوروي بجرأ ، ولكنهم أخفقوا لان
مراكب الروم بددت شملهم عند القرن الذهبي « فصبغت المياه بدمهم
وغطت البحر بجثثهم » . وانتقض خاقان الآفار بمجموعه على الاسوار
لآخر مرة في العاشر من تموز فارتد خائباً وهو يقول : « اني رأيت
امرأة متوشحة باثن الاثواب تطوف الاسوار من اولها الى آخرها ! »
وهكذا نجت العاصمة من هذا الخطر المداهم ، فعزا سكانها انتصارهم على
الآفار والفرس في آن واحد ، الى السيدة العذراء حامية المدينة . ونظم
البطريك سرجيوس تسيبيخته الشهيرة الاكافيستون التي لا تزال نردددها ونزغها
باللحن الرابع حتى يومنا هذا مساء كل جمعة من الاسبوع الخمسة الاولى
من الصوم الكبير :

اني انا مدينتك يا والدة الاله .

ارفع لك رايات الغلبة ايتها القائدة المحامية .

واقدم لك الشكر لنجاتي من الشدائد .

ولما كنت ذات العزة التي لا تحارب ،

فاعتقيني من انواع الشدائد ،

حتى أصرخ اليك قائلاً :

السلام عليك يا عروسة لا عروس لها^١. وكان هرقل يرى ان الخطر الفارسي اشد كثيراً من خطر هؤلاء البرابرة فأهمّل الدفاع عن الغرب وخسر كل ما كان قد احرزه يوستينيانوس في اسبانية . وطمع الاكسرخوس إلفثاريوس بعرش ايطالية في السنة ٦١٩ ودخل رومة واعلن نفسه امبراطوراً عليها . وكانت قبائل الصقالبة طوال الحرب الفارسية تتسرب الى البلقان فاحتلت جميع مناطق البلقان الشمالية الغربية ، وثبتت اقدمها في بانونية وميسية ودلماتية . وبين الصقالبة الذين دخلوا البلقان في هذه الآونة واحتلوا ايليرية الصرب والكروات^٢ . وقد أبقت هذه الموجات الطامية رواسب كبيرة من الصقالبة في مقدونية وبلاد اليونان نفسها . واذا صدقنا اسيدور اسقف سيبلّة فكون موجة الصقالبة هذه قد غمرت بلاد اليونان بامرها^٣ . وبقيت احوال البلقان الشمالي والغربي مضطربة ، وظل الصقالبة الضيوف في هرج ومرج طوال عهد هرقل . ولم تتمكن حكومة الروم من فرض سلطتها . وهيبتها عليهم حتى اواخر القرن السابع .

القول بالمشيئة الواحدة : وكان من الطبيعي جداً ان يؤدي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد ابناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً ان يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والواقع انه لما عاد الروم الى هذه الاقطار وجدوا ان جميع بطاركتها هم من اتباع الطبيعة الواحدة . فعادوا الى معالجة هذا الانشقاق

Krumbacher, *Gesch. der Byz. Litt.*, 671-673 . ١

Bury, J. B., *op. cit.*, II, 275 ff ; Jirecek, C., *Gesch der Serben*, (1911 ٢ and 1918)

Isidori, *Hispalensis Episcopi, Patrologia Latina*, LXXXIII, 1056 . ٣

في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خصوصاً لأن الاخطار كانت لا تزال تحيط بالامبراطورية وتهدد كيائها .

وكان طبيعياً ايضاً ان يشعر البطريرك سرجيوس صديق هرقل الامين بالضعف الذي نجم عن هذا الاختلاف في العقيدة . ذلك بان البطريرك كان يمارس الحكم ويطلع على خفايا الامور في اثناء تغيب هرقل عن القسطنطينية في الحرب الفارسية . ويرى بعض الباحثين ان سرجيوس بدأ منذ السنة ٦١٦ يعرض على بعض الاساقفة القول بطبيعتين في السيد مع فعل واحد ، وان هرقل رأى في هذا القول مخرجاً من الازمة اللاهوتية المستحكمة ، ووسيلة لتوحيد الصفوف . فلما كانت السنة ٦٢٢ فاوض هرقل جملة من الاساقفة في قبرص وارمينية . ثم في السنة ٦٢٣ فاوض كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد ونصح له ان يكتب الى سرجيوس في هذا الموضوع . فقبل كيروس وكتب الى سرجيوس ، فأجابه هذا بانه قد وجد بين رسائل احد اسلافه ميناس رسالة وجهها الى فيجيليوس بابا رومة اشار فيها الى فعل واحد ومشئنة واحدة . وأضاف انه لا يعرف احداً من الآباء يؤيد القول بالمشئنتين . وهكذا قال كيروس بالمشئنة الواحدة . وسرّ به هرقل وازداد شجاعة على المضي في هذه التسوية . ففاوض في السنة ٦٢٩ اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وكان هذا ممن يقول بالطبيعة الواحدة ، فقبل . ثم التأم في السنة ٦٣٠ مجمع ثيودوسيوبوليس فقبل كاثولييكوس الارمن اسز واساقفته اعتناق القول الجديد . وثبتت هرقل اثناسيوس على الكرسي الانطاكي ، وجعل كيروس بطريركاً ووالياً على مصر . وأصبح أمله بالاتحاد وطيداً بعد ان قبل اربعة بطاركة بالحل الجديد . وعندئذ كتب سرجيوس بطريرك القسطنطينية الى اونوريوس بابا رومة مبيناً ما تمّ من توحيد الكلمة راجياً منه ابداء الرأي . فجاء جواب البابا مبهماً غامضاً ولكنه لم يكن سلبياً . فانه اشار الى عبارة بولس الرسول

في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس في الفصل الثاني عن « صلب ربّ
المجد » كما اقتبس من كلام يوحنا الحبيب في الفصل الثالث من انجيله أنه
« ليس احد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي
هو في السماء » ، مبيّناً انه يجوز القول ان الله قد تألم . وفي الوقت
نفسه استدرك اونوريوس ان ليس من رأيه ان يصار الى الكلام في الفعل
الواحد والفعلين بعد ان تمّ هذا الاتحاد في الكنيسة^١.

وفي السنة ٦٣٤ تبوأ العرش البطريركي في المدينة المقدسة راهب شديد
الشكيمة قوي القلب ، صفرونيوس الشهير . وكان قد سبق له ان أمّ
القسطنطينية وهو لا يزال راهباً ، واحتج على القول بالمشيئة الواحدة .
فلما أصبح بطريكاً عقد مجعاً محلياً في المدينة المقدسة وحرّم التعليم
بالمشيئة الواحدة ، وكتب الى اخوانه البطارقة الآخرين كتابة صارمة ضد التعليم
الجديد . فاضطرب البابا اونوريوس وكتب الى صفرونيوس وغيره كتابة
بمعنى رسالته المشار اليها آنفاً . فلم ينتج عنها اي اتفاق لغموضها وقلة
صراحتها . ولم يوفق كيروس كل التوفيق في مصر . فان الساويريين وافقوه
على القول بالمشيئة الواحدة ، ولكن اليوليانيين والشيعة الاخرى اعترضوا .
فضايقهم كيروس بما أعطي من صلاحيات مدنية وسجنهم وعذبهم وقتل
منهم فريقاً . ففرّ رؤساؤهم الى البراري ليعودوا الى مصر مع العرب
الفاتحين . وتوفي صفرونيوس في السنة ٦٣٧ ، سنة دخول العرب الى المدينة
المقدسة . فأصدر الامبراطور دستور ايمان جديد سنة ٦٣٨ عرف
بالاكتيسيس Ecthesis وحتّم فيه القول بالمشيئة الواحدة . وعقد سرجيوس
مجعاً في اواخر هذه السنة نفسها وصدق على الاكتيسيس . ثم ادركته الوفاة

Duchesne, L., Hist. Anc. de l'Eglise, 407 ; Zananiri, G., Hist. de l'Eglise Byz., 144-145.

Zananiri, G., op. cit., 147.

فخلفه بيروثس ووافق على ما كان قد أقره سلفه . وفي هذه السنة نفسها توفي البابا اونوريوس فخلفه سوپرينوس (٦٣٨ - ٦٤٠) ومات دون ان يجرّم القول بالمشيئة الواحدة^١ . اما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ - ٦٤٢) فإنه حرّم المشيئة الواحدة . وفي السنة ٦٣٩ تم للعرب فتح الشام فدخلوا انطاكية فصعبت الصلة وأوشكت تنقطع بين هذا المركز الديني والقسطنطينية . وفي السنة ٦٤١ توفي هرقل والحالة على ما وصفنا .

وهنا يحسن التذكير بموقف الكنيستين الرئيسيتين من القول بالمشيئة الواحدة . فهذا القول بحسب موقف الكنيستين مردود لأنه يناقض كمال اللاهوت والناسوت في السيد المسيح . فالطبيعة لا يمكن ان تكون كاملة وهي ناقصة الارادة والفعل . والاعتقاد بالطبيعتين يلزمه الاعتقاد بالمشيئتين والفعلين باتحاد وبلا انفصال . والمسيح لم يُرد ولم يفعل شيئاً من حيث هو انسان فقط بل من حيث هو اله وانسان معاً بلا اختلاط ولا انقسام^٢ .

Zananiri. G., op. cit. 147.

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، هامش .

الفصل الخامس عشر

هرقل والعرب

(٦٣٠-٦٤١)

النبى العربي والروم : ولما اشتدت الحرب بين الفرس والروم وبلغت انبائها الى العرب كان النبى والمسلمون منحازين بعاطفتهم الى الروم لانهم كانوا في نظرهم اهل كتاب مثلهم . فاما كفار العرب فكانوا يميلون بعاطفتهم الى الفرس لانهم مثلهم أميون . ولا ادل على ذلك من ان ابا بكر الصديق ، وهو طليعة المسلمين ، قد راهن أبيّ ابن خلف وهو من وجوه الكفار على مئة بعير ان الروم سينتصرون .

وكان الرسول قد استطاع ان يجمع حول رسالته عدداً من اهم قبائل العرب . وكان قد استقرّ في يثرب واتخذها قاعدة عمله . ولكنه كان يسعى سعياً حثيثاً لفتح مكة قاعدة العرب الدينية . وكان اليهود قد ناصبوه العداة واطهروا له الشرّ وقاتلوه فانهمزوا وخرجوا من يثرب شمالاً الى حدود الروم ، وبعضهم وصل الى اذرعاع (درعة) في حوران . وكانوا يتصلون بالمشرّكين العرب فيحرضونهم على المسلمين . فعاد النبى الى قتال اليهود فضرهم ضربة شديدة في خيبر . ولما طلبوا الصلح فيها بعث الى اهل فدك ليخيّروهم بين ان يُسلموا او يسلموا اموالهم فصالحوه على نصف اموالهم من غير قتال . وتجهّز الرسول للعودة الى المدينة عن طريق

وادي القرى . فتجهز يهودها لقتال المسلمين وقتلهم . ولكنهم اضطروا للصلح ففعلوا . وقبل يهود تيماء دفع الجزية بدون حرب . اما يهود واحات الجرباء ومقنا واذرح فأتهم كانوا ابعده الى الشمال . وكان النبي لا يزال يستعد لفتح مكة وفرض سلطته عليها . فرأى فيما يظهر ان لا بد من جولة ثانية في الشمال يُرهب بها اليهود هناك ويؤمن مؤخرته قبل الزحف على مكة مطمح انظاره . ويؤخذ من بعض النصوص ان النبي أرسل بعد صلح الحديبية خمسة عشر رجلاً الى ذات الطلح على حدود الشام يدعون الى الاسلام في منطقة هؤلاء اليهود الشماليين ، فكان جزاؤهم القتل ولم ينج منهم الا رئيسهم .

وجاء في بعض المراجع العربية أيضاً ان الرسول أوفد بعد الحديبية الى هرقل وكسرى والنجاشي ، والى المقوقس ، والى الحارث الغساني ، والى الحارث الحميري ، رسلاً ورسائل يدعوهم بها الى الاسلام . وانه صنع لنفسه خاتماً من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » وختم به رسائله ، وانه كتب في رسالته الى هرقل ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله اجرک مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاريسين . » وتذكر هذه المراجع نفسها ان النبي دفع برسالته هذه الى دحية ابن خليفة الكلبي ، وان دحية هذا سافر الى هرقل ، فالتقاه في حمص في طريقه الى المدينة المقدسة ، وان هرقل لم يغضب ولم تثر ثأرته ، وانه ردّ على الرسالة ردّاً حسناً . وجاء في هذه المصادر العربية ايضاً : « ان الحارث الغساني بعث الى هرقل يخبره ان رسولاً جاءه من محمد بكتاب يدعو فيه الى الاسلام ، وان الحارث

استاذن سيده بان يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة ، وان هرقل أجاب الحارث بان يوافيه الى المدينة المقدسة . » ومما جاء في المصادر العربية ايضاً ان شرحبيل ابن عمرو الفسائي قتل الحارث ابن عمير الازدي رسول النبي الى صاحب بصرى في حوران ، وان النبي أنفذ حملة الى حدود الروم ليقص من جروء على قتل رسوله .

ومما تشتمل عليه المصادر العربية ايضاً ان المقوقس حاكم مصر بعث الى النبي في الرد على رسالته يقول : انه يعتقد ان نبياً سيظهر ، ولكنه سيظهر في الشام . وتضيف هذه المصادر ان المقوقس بعث الى النبي جاريتين وبغلة وحماراً وكمية من المال وبعض خيرات مصر ، وان النبي قبل هذه الهدية وتزوج من احدى الجاريتين ماريما فولدت له ابراهيم ، وانه اهدى شيرين الجارية الثانية الى شاعره حسان ابن ثابت ، وانه اسمى البغلة الفريدة في بياضها دلدل ، والحمار عُفيراً او يعفوراً .

ويختلف علماء الفرنجة من رجال الاختصاص في تاريخ الروم والعرب في أمر هذه الرسائل . ففريق يراها صحيحة وآخر يشك في صحتها . وفي طليعة الفريق الاول بتار صاحب كتاب فتح مصر ، وبيوري صاحب التأليف العديدة في تاريخ الروم^١ . وبين الفريق الآخر كايثاني وديل^٢ . والحجة الرئيسة لمن يعترض على صحة هذه الرسائل ان ابن اسحق اقدم من كتب في السيرة لا يذكرها^٣ . ولكن لا يخفى ان سكوت المصادر لا يتخذ حجة الا بشروط معينة ابناها في كتابنا المصطلح^٤ . والبحث في صحة

Butler, M., Arab Conquest of Egypt, 139 ff ; Bury, J. B., Const. of Later Roman Empire, II, 261 .

Caetani, L., Annali d'ell Islam, I, 731-734 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 174.

Becker, K., Cam. Med. Hist., II, 337.

٤ مصطلح التاريخ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

هذه الرسائل يستوجب الرجوع الى القرآن نفسه لتري اذا كان المراد به رسالة للعالمين او رسالة خاصة بالعرب . وهو في نظرنا رسالة للعالمين دونما ريب . والنبي الذي حمل هذه الرسالة بادىء ذي بدء الى افراد قلائل من اقربائه ارادها في النهاية قوة تسيطر على العالم اجمع^١ .

اما قول غريمه وكيتاني في ان القرآن أريد رسالة للعرب دون سواهم فانه قول ضعيف لا يركن اليه^٢ .

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل التي صدرت عن النبي الى هرقل وغيره ، فان المراجع الاولية العربية واليونانية تجمع على ان النبي قد أنفذ في السنة ٦٢٩ حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل الى حدود الروم الى قرية المشارف ، وان المسلمين وصلوا اليها ثم انحازوا عنها الى قرية مؤته ليتحصنوا بها ، وان معركة حامية دارت رحاها في مؤته وأسفرت عن مقتل عدد كبير من المسلمين ، بينهم قائد الحملة زيد ابن حارثة ربيب النبي ، وجعفر ابن ابي طالب ، وان خالد ابن الوليد « دافع بالقوم وحاشى ثم انحاز وتجزى حتى انصرف بالناس^٣ . »

واياً كانت الخاتمة التي لقيتها هذه الحملة فأن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى . فبينما رأى الروم فيها غارة كنتلك التي اعتاد البدو ان يشنوها للسلب والنهب كانت حملة ربيب النبي من نوع جديد ولم يقدر الروم اهميتها . فهي غارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة ، وغدا انهمها

١ اطلب تفصيل هذا في بحث شائق للمستشرق المستعرب غولديزير :

Goldziher, I., Die Religion des Islam - Die Religionen des Orients, III, 106.

Grimme, H., Mohammed, I, 123 ; Caetani, L., Studi di Storia Orientale, ٢ III, 236, 257.

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٦١٠ ، وما يليها . ابن هشام (الطبعة الاوروبية) ، ص ٧٩١ وما يليها . الطبقات لابن سعد ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

Theophanes, Chronographia, 333-335

وقتل قائدها باعثاً جعل المسلمين يتطلعون باعينٍ واسعة الى الشام . كذلك اضحى تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم قوة دفعت الاداة الحربية الاسلامية في انطلاقها السريع تطوي تلك البلاد .

« ولما أُصيب جعفر ذهب محمد الى منزله ودخل على زوجه اسماء بنت عميس ، وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيتها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لها : اثيني ببني جعفر . فلما اتته بهم تشمهم وذرفت عيناه الدمع . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فرّبت على كتفها وبكى .^٢ »

فلما كان العام التالي ، أي السنة ٦٣٠ ، قام الرسول بنفسه الى حدود الروم في ظروف قاسية حرجة « في زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وأحبّت الظلال^٣ .» فوصل بجمعه الى تبوك . ولم تشتبك رجاله مع اي قوة رومية . ولكنه صالح اهل جرباء واذرح ومقنا . وصالح يوحنا ابن رؤبة صاحب ايلة في خليج العقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحته بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسياراتهم في البرّ والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهل الشام واهل اليمن واهل البحر . فمن احدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه . وانه طيّبٌ لمحمد اخذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا ماءً يردونه ولا طريقاً يردونه من برّ او بحر .» ودفع يوحنا مقابل هذا ثلاث مئة دينار جزية في كل عام . وصالح النبي اكيدر ابن عبد الملك ملك دومة . وكان نصرانياً ايضاً - وذلك على جزية يدفعها كل عام^٤ . واكتفى النبي بهذا وعاد الى المدينة

١ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٣٧ .

٢ حياة محمد للدكتور حسين هيكل ، ص ٣٧٨ .

٣ الطبري ج ، ١ ، ص ١٦٩٣ .

٤ فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ . راجع ايضاً السيرة لابن هشام ، ص ٩٠٢ وما يليها .

بعد ان اقام في تبوك اسبوعين من الزمن .

الروم والنبي العربي : ولم يفقه الروم فيما يظهر كنه الرسالة العربية .
فأن ما تبقى من آثار جدلهم الديني يظهر انهم اعتبروا الاسلام خروجاً
آخر عن الكنيسة الام من نوع خروج الذين قالوا بالطبيعة الواحدة
والمشيئة الواحدة والآريوسيين وغيرهم . وظل شيء من هذا عالقاً باذهان
بعض المفكرين الاوروبيين طوال العصور الوسطى . ومن هنا قول دنتي
ان محمداً خرج على النصرانية وبذر الشقاق فيها . ونهج مؤرخو الروم
نهجاً مماثلاً فلم يكثرثوا لظهور النبي العربي ولم يكتبوا شيئاً في الاسلام
من ناحيته السياسية . وظنوا بادىء ذي بدء ان هذه القوات العربية
ليست سوى عصابات صغيرة تبغي السلب والنهب كسائر عصابات البدو
آنئذٍ .^٢

ابو بكر الصديق والروم : وبقيت ذكرى هزيمة مؤته تستفز
المسلمين فتوجه انظارهم شطر الشام . فلما كانت السنة ٦٣٢ أعاد النبي
جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، وأمر عليه اسامة ابن ربيعة زيد ابن حارثة
الذي سقط في ميدان مؤته . على ان الوفاة عاجلت النبي في الثامن من
حزيران من السنة نفسها قبل ان يتحرك الجيش . وتولى الخلافة بعده
ابو بكر . وحدث ارتداد في القبائل العربية . ونصح الناصحون
للخليفة الا يفرّق عنه جماعة المسلمين ولكن الخليفة قال : « والذي نفس
ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما
امر به رسول الله^٣ . » وغزا اسامة بينة بين عسقلان وياقة وسلم وغنم

Dante, *Inferno*, XXVIII, 31-36.

١

Guterbock, K., *Der Islam im Lichte der Byz. Polemik*, 6, 7, 11, 67-68.

٢

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٨٤٨ - ١٨٤٩ .

وعاد في اربعين يوماً^١. ونهض في هذه السنة نفسها خالد ابن سعيد الى بلاد الروم واوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق فانهزم وعاد الى المدينة .

وبعد انتهاء حرب الردة أعد ابو بكر جيوشاً اربعة وسيورها على الشام وعقد الويتها لابي عبيدة ابن الجراح ولعمرو ابن العاص وليزيد ابن ابي سفيان ولشرحبيل ابن حسنة . وأمر ابا عبيدة ان يتجه نحو حمص وامر عمرأ ان يقوم الى فلسطين وأمر يزيد ان يصل الى دمشق وأمر شرحبيل ان يأتي الاردن^٢. فانتصر يزيد ابن ابي سفيان في اوائل السنة ٦٣٤ على سرجيوس بطريق فلسطين في وادي عربة المنخفض العظيم جنوبي البحر الميت . وكان حامل اللواء الاسلامي معاوية مؤسس الدولة الاموية فيما بعد . وارقد الروم على غزة فاقتتل الطرفان مرة ثانية في دائن في الرابع من شباط من السنة نفسها واندحر الروم مرة اخرى . اما الجيوش الثلاثة الاخرى فقد اوقع بها الروم ووقفوا تيار زحفها .

ويرى المستشرق المستعرب كارل بكنر ان نجاح ابي بكر بحروب الردة في قلب الجزيرة العربية قد اكسبه مهابة وعظمة في نفوس عشائر بكر ابن وائل الضاربة عند حدود العراق الغازية في اطرافه وان هذه المهابة جعلت تلك العشائر تصادق من وراءها من العشائر والقبائل الاخرى التي كانت قد اعتنقت الاسلام . ويزيد بكنر ان المثنى ابن حارثة كبير بني شيبان الوائلي الذي اشتهر بانتصاره على الفرس في موقعة ذي قار (٦٠٤ او ٦٠٦) هو الذي استدعى خالداً ابن الوليد وجماعته الى حدود العراق لمحاربة الفرس . ومن الناحية الثانية يرى بكنر ان ابا بكر ومن

١ الطبري ، ج ١ ، ص ١٨٥١ .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٠٨٤ - ٢٠٩٠ .

حواله اضطروا اضطراباً ان يُلَهَّوْا من اسلم من القبائل العربية بغزو العراق كي لا تعود هذه القبائل الى غزو بعضها كما جرت عاداتها من قبل فتنتهك بذلك حرمة الاسلام ، والمسلم اخو المسلم . ويرى أيضاً ان خروج العرب المسلمين الى العراق سبق خروجهم الى الشام .

« وشجا جموع المسلمين في الشام واشجوا » . فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد ان يؤمّر على العراق المثنى وان يسير الى الشام . فهب خالد على رأس جماعته وكانت حروب الردة والعراق قد صهرت جنوده واورثتهم مناعة وقوة . بدأ بالزحف من الحيرة الى صندوداء فلقية اعرابها فظفر بهم ، ثم لقيه جمع بالمصيخ والحصيد عليهم ربيعة ابن بجير التغلي فهزمهم . ثم سار من قراقر الى سوّى فاغار على اهل سوّى واكتسح اموالهم وقتل حرقرص ابن النعمان البهراني . ثم اتى أرك فصالحوه . واتي تدمر فتحصنوا ثم صالحوه . ثم اتى القرينين فقاتلهم فظفر بهم . واتي حواريين فقاتلهم فهزمهم . واتي قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاة . واتي مرج راهط من مضارب الغساسنة قرب عذراء وعلى بعد عشرين كيلومتراً من دمشق فاغار على غسان في يوم فصحهم وقتل وسبى ووجه بعض رجاله الى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العمال الى خالد . ونزل على قناة بصرى وعليها ابو عبيدة وشرحبيط ويزيد ، فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صاحت على الجزية في اذار من السنة ٦٣٤ .

وكان عمرو ابن العاص قد سلك طريق أيلة (العقبة) فأغار على جنوبي فلسطين حتى غزة وقيصرية ، فقطع المواصلات بين المدينة المقدسة وبين

Becker, K., *Expansion of Saracens*, *Cam. Med. Hist.*, II, 337-338. ١

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٠٨ - ٢١٠٩ و ٢١٢٥ .

الساحل . فجيّس هرقل جيشاً كبيراً في نقطة وقعت الى جنوبي دمشق وعقد لواءً هذا الجيش الى اخيه القبتلار ثيودوروس^١ . وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصمه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة . وتقدم ثيودوروس ببطءٍ واتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة ، فربط في اجنادين بين القدس وغزة . وخشي خالد سوء العاقبة على اخوانه في الجنوب ، وكان مترفعاً نبيلاً ، فلم يحفل بامكانات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرقي الاردن ، وجمع الجموع في وادي عربة ، ثم دفع بها الى فلسطين لمجابهة ثيودوروس . وفي الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ نشبت معركة حامية بين الروم والعرب المسلمين في اجنادين . وكتب النصر للعرب ، فجلا الروم عن ارياف فلسطين كلها ولم يبق لهم فيها سوى مدنها المحصنة^٢ . ويستدل من العظة التي القاها صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة يوم عيد الميلاد من هذه السنة ان العرب غشوا فلسطين كلها بعد اجنادين وان الفوضى عمّت الارياف باسرها وانهم تقدموا شمالاً حتى حدود حمص^٣ .

عمر الكبير والروم : وتوفي ابو بكر بعد اجنادين وتولى الخلافة عمر ابن الخطاب . وكانت قبائل اليمن وما يليها من الجنوب قد بدأت تسمع بانتصارات خالد وغيره فهبت تلي النداء بمجموعها رجالاً ونساء واطفالاً . فرأى الخليفة الكبير بثاقب بصره ان لا بد من التنظيم . فوحد

١ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ . ولعل الاشارة هنا الى اللقب الرومي Curopalates ومعناه قائد قوات القصر جميعها . وظل هذا اللقب مستعملاً عند الروم طوال اربعة قرون من السادس حتى العاشر .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٢٥ - ٢١٢٦ : « ليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ١٣ هـ . »

Becker, K., op. cit., 341-342

الجيش ووحّد القيادة وعقد لواءها الى خالد ابن الوليد . وجمع هرقل
البقية الباقية من جنوده في دمشق وامتدعى اخاه ثيودوروس الى
القسطنطينية وأمّر على الجيش في سورية القائد بانس . ورأى هذا القائد
ان يصمد في وجه العرب في فحل التي كانت تسيطر آنئذٍ على مجاز
الاردن في جنوب بحيرة طبريا وتحمي الطريق المؤدية الى دمشق . وهدم
بانس سدود المياه ليعرقل سبل الفاتحين . ولكن هؤلاء استولوا على فحل
بالقوة في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ وتابعوا السير الى
دمشق . وفي الخامس والعشرين من شباط سجلوا نصراً آخر على جيش
الروم في مرج الصفر على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق الى جنوبيها .
وفي ظرف اسبوعين من الزمن ظهروا امام اسوار دمشق وضربوا الحصار
عليها وشدوده . فتضايق السكان فتأمروا على الجند المدافع فاتصلوا بالعرب .
فكتب اليهم خالد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها
اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن
شيئاً من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا
يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية^١ . »

وفتح الباب الشرقي في آب او ايلول من السنة ٦٣٥ ودخل العرب
المسلمون الى دمشق واستولوا عليها وجعلوا الجزية ديناراً وجريباً وهو
مكيال من الخنطة على الرجل الواحد . « ثم تساقط بعد ذلك حمص
وبعلبك وحماه وسواها من المدن كتساقط اوراق الخريف^٢ » ، وذلك في

١ البلاذري ، ص ١٢١ .

٢ تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

اواخر السنة ٦٣٥ . وخرج اهل شيزر يكفرون ومعهم المقلسون
فاذعنوا .

وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجيش
قوة كبيرة يتمكن بها من صد العرب ، وانقاذ سورية الجنوبية وفلسطين
والعربية . وبرغم خسارته الكبيرة في الرجال ابان الحرب الفارسية ، وبرغم
قلة المال في الخزينة ، فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم
والارمن والعرب حوالي خمسين الفاً . وأمر عليهم ثيودوروس تريشوريوس
وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى سورية . وكان خالد آتئذ في حمص
يتفقد الجبهة . فلما علم بقدوم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق
وسائر المدن المجاورة ، وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين الفاً ،
وانتقى وادي اليرموق ، احد روافد الاردن الشرقية ، فصد فيه . وقام
الروم من حمص عبر البقاع الى جلين واتخذوها قاعدة لهم . وتناوش
الفريقان وتناول بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردحاً من الزمن . وفيما
خالد ينتظر وصول المدد ، كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد
وقلة الانضباط . فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات ، فنادى
الجند ببانس فيلسافاً وامتنع حلفاء الروم من العرب عن القتال وانسحبوا
من الميدان . فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في مصلحة العرب
المسلمين . واغتم خالد هذه الفرصة السانحة ، فقام بحركة التفاف حول الروم
من الشرق فقطع خط اتصالهم بدمشق . ثم احتل الجسر فوق وادي
الرقاد فحرمهم امكان التراجع غرباً . وفي الثاني والعشرين من آب سنة
٦٣٦ انقضَّ عليهم بفرسانه الجريين فقتل من قتل وشرّد من شرّد .

وبذلك انقطع كل امكان اللوم بان يصمدوا في سورية . وفي خريف هذه السنة نفسها عاد العرب الى دمشق فدخلوها آمينين . وكان الخليفة أعلم الناس بخالد يقدر مواهبه ويعرف مواضع ضعفه . وكانت الحرب قد تطورت تطوراً كبيراً في مصلحة العرب الفاتحين ولكن ادارة البلدان المفتوحة كانت لا تزال ضعيفة تفتقر الى التنظيم . وكانت ثمة مشاكل ادارية وسياسية . ولم يكن خالد رجل ادارة وسياسة . فرأى عمران لابد من وجود وال اعلى يمثل الخليفة في الشام ويدير سياستها بحكمة ولباقة . فاتفق لهذا المنصب ابا عبيدة وأرسله الى الشام حاكماً مفوضاً . ووصل ابو عبيدة قبيل موقعة اليرموق ولكنه ابقى القيادة بيد خالد لانه كان اعلم منه بتفاصيل الحرب واقدر عليها . فلما انتهت المعركة تسلم ابو عبيدة مقاليد الامور فوزع السلطات العسكرية بحكمة ودراية واحتفظ بخالد ملحقاً به . واتجه شمالاً ولم يلقَ مقاومة تذكر قبل قنسرين (خلقيس) ، فدخل بعلبك وحمص وحلب وانطاكية بسهولة .

عودة الروم الى الميدان : وقضى هرقل سنة مستجمماً بعيداً عن ميدان القتال . وكانت الجزيرة بين العراق والشام لا تزال خاضعة للروم . فراسلت قبائلها العربية النصرانية هرقل تطلب منه العون على مهاجمة العرب المسلمين . فراسلها بدوره وحضها على التجمع ريثما تتلقى مدداً يأتيها بجزراً من مصر . واقبل هرقل يعد الجيوش مرة اخرى . وجدد الامل بنوع خاص لان معظم ثغور الشام على البحر كانت لا تزال خاضعة له وطريق البحر لا يزال مفتوحاً امامه . وفي السنة ٦٣٨ اجرت جيوش الروم من الاسكندرية بقيادة قسطنطين ابن هرقل . وقلت الحملة مرساها في اللاذقية

او السويدية وزحفت على انطاكية فاستولت عليها وانضمت الى القبائل العربية النصرانية في الجزيرة^١. وألفى ابو عبيدة نفسه محصوراً في حمص على حين يسير اعداؤه لمحاربه برأً ومجرأً. فكتب الى الخليفة في الحجاز يستنجده كما عقد مؤتمراً عسكرياً للتشاور في الوضع الحربي. فاستقر الرأي على التزام التريث والدفاع. ولكن خالداً قال بالمبادرة الى مهاجمة العدو. وأمر الخليفة في الوقت نفسه التقعاق احد قادة المسلمين في العراق ان يتوجه باسرع ما يمكن لامداد ابي عبيدة. وجمع الخليفة النجدات من الجزيرة العربية وسار بنفسه على رأسها متجهاً نحو الشام. وكانت خطة المسلمين فيما يظهر ترمي الى اخراج القبائل العربية النصرانية في الجزيرة من دائرة الدفاع البيزنطي وبذلك يتيسر للعرب المسلمين ان يلاقوا الجيش البيزنطي وحده معزولاً، فانطلق سهيل ابن علي وعبدالله ابن عتبان للقيام بحركة التفاف حول اراضي الجزيرة بين العراق والشام ومهاجمة قبائلها. وكان لتعجيل المسلمين في ارسال النجدات وسرعة حركاتهم اثر في القاء الرعب في نفوس القبائل في الجزيرة. فتخلت هذه القبائل عن الروم وقفلت راجعة الى مضاربهها مؤثرة السلامة^٢. وبادر العرب المسلمون بالهجوم على الروم. فأظهر هؤلاء بأساً كان كفيلاً بصد المسلمين العرب لو ظلت القبائل النصرانية على تعضيدهم ومساعدتهم. ولكن مقاومة الروم انهارت وانسحبوا مجراً الى الاسكندرية والقسطنطينية^٣.

عرب الشام والعرب الفاتحون : وتحفظ لنا المراجع العربية اسماء

Caussin de Parceval, Essai sur l'Hist. des Arabes, III, 512.

١ الكامل لابن الاثير، ج ٢، ص ٢٢٤.

٢ مأخوذ بتصرف عن كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور احمد

المدوي، ص ٤٢ - ٤٤.

بعض القبائل العربية التي كانت ضاربة في بادية الشام وفي الارياف عند فجر الاسلام. وليس في هذه المصادر ما ينبيء بتأييد هذه القبائل لآخوانهم العرب الفاتحين^١. وقبائل البادية لم تدعن لخالد ابن الوليد الا مكروهة. والغساسنة اعتدوا على رسول الرسول. وغسان وقضاعة وقفوا الى جانب الروم في اليرموق. وهرقل « نزل انطاكية ومعه من المستعربة حثم وجذام وبلقين وبلي وعاملة »، وبعض هذه القبائل « مضى مع هرقل الى بلاد الروم بعد ان استتب الامر للمسلمين في الشام^٢. »

نصارى الشام والعرب: ويرى عدد من المستشرقين المستعربين ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم ان اختلاف النصارى حول الطبيعة الواحدة والمشيدة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في العقيدة قد حمل قسماً كبيراً من نصارى الشام على الترحيب بالعرب الفاتحين. ويغيب عن بال هؤلاء ان هذه القبائل العربية التي وقفت الى جانب هرقل في وجه العرب الفاتحين كانت درع من قال بالطبيعة الواحدة وان هرقل كان قد ثبتت في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريركاً قال بالطبيعة الواحدة هو اثناسيوس المشار اليه في الفصل السابق وان بابارومة اونوريوس وجميع البطاركة ما عدا صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة كانوا قد وافقوا هرقل على القول بالمشيدة الواحدة او سكتوا عن ذلك. فلا يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة ان نتقبل قول افتيخيوس ان ابناء حمص رأوا في هرقل امبراطوراً « مارونياً » عدواً للدين القويم لانه قال بالمشيدة الواحدة^٣. ولا ان نتبنى قول البلاذري بان نصارى الشام آثروا عدل

١ حركة الفتح الاسلامي للدكتور شكري فيصل ، ص ٢٦ - ٢٩ .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ .

Corpus Script. Christ. Orientalum, Scriptorum Arabici, II, 5, I, 4; ٣

Patrologia Graeca, CIX, 1088.

المسلمين العرب على استبداد الروم واهانتهم^١ لان الشهادتين بحاجة الى الجرح والتعديل . فالشاهد الاول دوّن في القرن العاشر ، والثاني في القرن التاسع ، والحوادث المروية جرت في القرن السابع . وكذلك فان القولين صدرا في وقت كان النصارى فيه بحاجة الى الملاطفة والمداهنة والتملق . ونرى ايضاً ان المستشرق المستعرب ده غويه يَصِلُ فيعدل عن الحق عندما يرى في حروب الفتح محاولة لتحرير عرب الشام من ظلم الروم واضطهادهم^٢.

لماذا خسر الروم : ونحن نرى ان حروب الفتح في الشام كانت في نظر الروم وعرب الشام حروباً دينية سياسية قبل كل شيء ، وان نصارى الشام من الروم والعرب والسريان وقفوا الى جانب الروم قدر المستطاع ، وان الروم لم يتمكنوا من صد الهجوم العربي الاسلامي لان الحرب الفارسية كانت قد استنفدت قواهم في المال وفي الرجال . ومن هنا اهمال الحصون ، وابطال الجراية التي كانت توزع على قبائل الحدود ، ومن هنا ايضاً قلة الانضباط وكثرة التمرد والفوضى .

عمو وفتح مصو : وجاءت حركة هرقل الاخيرة في انطاكية وشمالى سورية حافزاً قوياً حمل قادة العرب المسلمين على اعادة النظر في الموقف الحربي . فعقد الخليفة مؤتمراً في الجابية درس فيه الموقف مع قادة جيوشه ، وكانت مصر هي القاعدة التي انسحب اليها الارطوبون Areteon . « وكان الارطوبون ادهى الروم وابعدهم غدرآ . » ولعله رأى ان التجمع في منطقة آمنة

Liber Expugnationum Regionum, ed. De Goeje, 137 ; Barthold, Transac- ١
tions of the Oriental College, I, (1925), 468.

De Goeje, Mémoire sur la Conquête de la Syrie, I. ٢

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 208-209. ٣

يشنُّ منها هجوماً جديداً على العرب المسلمين اجدى من البقاء في الشام .
ولذا تراجع عن فلسطين وذهب الى مصر . وكانت مصر ايضاً القاعدة
التي انطلقت منها حملة قسطنطين ابن هرقل على انطاكية . وكان البحر
لا يزال في ايدي الروم يمدون منه قيصرية فلسطين بالموث والذخائر
والرجال . وكانت قيصرية لا تزال صامدة في وجه عمرو ابن العاص .
فهي لم تسقط في ايدي العرب المسلمين قبل السنة ٦٤٠ . وكانت مصر
تُطل على الحجاز ، على مكة والمدينة . وقد ينطلق الروم منها الى الحجاز
مباشرة فيصيبون الحركة الاسلامية في منابعها الرئيسة . وكانت مصر
ايضاً لا تزال اهرآء القسطنطينية ومركز تموينها . وجاء في كتاب فتح
مصر لابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص كتب الى عمر يقول : « إن
فتحتها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم ، وهي اكثر الارض اموالاً . »
ولا بد من ان يكون قد شارك عمرو في رأيه هذا رجال الثروة والمال
في مكة . فطبيعي ان يكون هؤلاء قد لمسوا عظمة التجارة بين الشرق
والغرب ، تلك التجارة التي كانت تمر عبر مصر ولبنان وسورية ، وبعضها
كان يمر بين ايدي الاثرياء المكيين قادمًا من الجنوب ليلبغ الى ساحل
مصر وفلسطين . وليس من المستبعد ان يكون عمرو ابن العاص ، وعثمان
ابن عفان ، والمغيرة ابن شعبة ، وغيرهم من تجار مكة قد زاروا مصر
قبل الاسلام ، وشاهدوا بأمر العين اتساع الحركة التجارية فيها كما جاء
في اخبار ابن عبد الحكم واخبار السيوطي^٣ . ويرى المستشرق المستعرب
Wiet ان مدينة ققط في الصعيد كانت قد اصبحت نصف عربية

De Goeje, Mémoire, op. cit., 167 .

١

٢ ص ٤٩ - ٥١ .

٣ حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٩٢ و ٩٩ .

قبل الاسلام^١.

وهكذا فان الدوافع التي حملت الخليفة عمر في مؤتمر الجابية ان يمنح عمراً سلطة فتح مصر كانت دوافع جوهرية . ولم يكن هذا الخليفة الكبير مغامراً . فانه عرف بحبه للتأني ، وحرصه على ان لا يعرض قواته للخطر . ولهذا يجب اعادة النظر في الكتاب الذي قيل انه ارسله الى عمرو ، وعمرو في طريقه الى مصر ، يأمره فيه بالعودة ان لم يكن قد وصل الى مصر او بالسير قدماً في وجهته ان كان قد دخل الارض المصرية عند تسلمه الكتاب . فهذا قول لا تشجع الحوادث على قبوله ولا يتفق وما عرف من كياسة عمر الخليفة الكبير^٢ .

وسار عمرو ابن العاص من قيصرية فلسطين الى مصر في كانون الاول من السنة ٦٣٩ على رأس بضعة آلاف مقاتل . فلقى مقاومة في الفرما Pelusium شرقيّ بور سعيد اوقفته شهراً كاملاً . ثم تغلب عليها في اوائل السنة ٦٤٠ ، وتقدم منها الى بلبليس فأتمّ دينين Tendounya . فتحصن الروم في حصن بابليون على رأس الدلتا . وعسكر العرب في عين الشمس Heliopolis . واشتدت مقاومة الروم برئاسة البطريك كيروس (المقوقس) وقيادة ثيودوروس اخي الفسيلفس . واستنجد عمرو الخليفة فأمدّه ببضعة آلاف رجل بقيادة الزبير ابن العوام . وبرغم تضاعف القوة فان العرب المسلمين لم يقدروا على مهاجمة الحصن لانه كان منيعاً ، ولانهم كانوا في فقر الى ادوات الحصار . فاكتفوا بسد المنافذ على الحصن . وطال الحصار بضعة

١ الموسوعة الاسلامية ، المقال « قبط » .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٤٧ - ٤٨ .

راجع ايضاً حركة الفتح الاسلامي ، للدكتور شكري فيصل ، ص ٨٥ - ٨٦ ،

ومصر في فجر الاسلام ، للسيدة اسماعيل كاشف ، ص ٨ - ١٠ .

اشهر ، وكانت مفاوضات بين كيروس وعمرو . وسافر كيروس الى القسطنطينية ليعرض نتيجة هذه المفاوضات على الفيلسوف . فاتمه هذا بالحياة ونفاه . وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ ، فانبعثت اختلافات داخلية قديمة حالت دون ارسال المدد الى حصن بابيلون ، فدخله العرب في السادس من نيسان من هذه السنة نفسها .

وبسقوط حصن بابيلون مفتاح مصر السفلى والعليا انتشر العرب في ريف مصر السفلى . وتجمعت حاميات الروم بالاسكندرية . فسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها . وكانت حصونها منيعة تحميها غياض وبحيرات . وكان البحر لا يزال بيد الروم فكان يأتيها منه المدد ، فطال امر حصارها . وخلف هرقل ابنه قسطنطين الثالث ، وكان لا يزال حدثاً وشاركته والدته مرتينة في الحكم . وكثرت القلاقل في عاصمة الروم ، واستفحل امر اللومباردين في ايطاليا . فأعدت مرتينة البطريرك كيروس الى الاسكندرية ليفاوض العرب في الصلح . فلما بلغها سار ترواً الى بابيلون وفاوض عمرو ابن العاص ، فانتهى الامر بينهما الى صلح الاسكندرية في الثامن من تشرين الثاني سنة ٦٤١ . وبرز شروط هذا الصلح الجزية لمن بقي في مصر ، والامن لمن رحل عنها ، والهدنة احد عشر شهراً ليتسنى للجيش ولغيره من المدنيين الرحيل ٢ .

موقف الاقباط من العرب الفاتحين : ويختلف المؤرخون المحدثون

Nikiou, Jean, Chronique, 557.

١ البلاذري ، ص ٢١٣ - ٢١٥ . وابن عبد الحكم ، ص ٥٦ وما يليها . والاسحق حنا النقيوسي اقرب الرواة للحوادث ، فانه من اعيان القرن السابع للميلاد .

٢ حوية النقيوسي ، ص ٥٧٥ .

في هذا . فبتلر صاحب كتاب فتح العرب لمصر يرى ان الاسلام لم يدخل مصر من غير حرب وان القبط لم يرحبوا بالفتح العربي . وينبوي للرد عليه نفر من المؤرخين نذكر منهم الدكتور شكري فيصل الاستاذ في الجامعة السورية . فهو يرى ان المتقدمين من مؤرخي الاسلام يذكرون في مواقف كثيرة ان الاقباط كانوا عوناً للمسلمين في فتوحهم وان من يتبع هذه النصوص الاولية يخرج بفكرة ان ميول القبط لم تكن على الاقل معادية للحركة الاسلامية وان الاضطهاد الذي حل بالاقباط في السنوات العشر التي قضاها المقوقس (البطريك كيروس) على رأس الادارة المدنية والدينية في مصر قد دفع الأقباط ان يستشرفوا في حركة الفتح العربي نوعاً من الانقاذ^٢ . وقد فات حضرة الزميل المؤرخ انه لما وصل كيروس الى الاسكندرية وتبوأ العرش البطريكي فيها كتب اعترافاً بإيمانه بالمشيئة الواحدة ودعا من قال بالطبيعة الواحدة من الاقباط في مصر للموافقة عليه فقبله الساويريون فوراً فلاينهم البطريك ، ورفضه اليوليانيون فضيقت عليهم^٣ . وفاته ايضاً ان شهادة الاسقف يوحنا النقيوسي اقرب في الزمن الى الحوادث المروية من شهادات المراجع الاسلامية العربية^٤ . وقد تكون الحقيقة التاريخية المنشودة وسطاً بين القولين ، اي ان معظم الاقباط وقفوا الى جانب النصرانية والروم وان بعضهم اي اليوليانيين رحبوا

Butler, A. J., Arab Conquest of Eg.

وقد نقله الى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد بعنوان فتح العرب لمصر ،

القاهرة ١٩٣٣ .

٢ حركة الفتح الاسلامي ، ص ١٠٣ - ١٠٨ .

٣ جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

٤ حركة الفتح الاسلامي ايضاً ، ص ١٠٩ ، هامش .

بالعرب المسلمين . هذا وقواعد المصطلح تقضي بالابتعاد عن التعميم في امور
تشمل الالوف ومئات الالوف من الناس' .

الفصل السادس عشر

خلفاء هرقل

(٦٤١ - ٧١٧)

مرتينة : وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آن واحد كل من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون على ان يحكما باشراف الفيلسفة مرتينة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون . ولكن الشعب لم يرض ان تتولى اموره امرأة فأضطرت مرتينة ان تتحجب شكلاً وان تدير دفة الحكم بالتعاون مع البطريرك بيروثوس . وتوفي قسطنطين الثاني في اواخر ايار من السنة ٦٤١ مسموماً ، فاتهمت مرتينة بقتل ابن ضررتها لكي يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم . وتمرد الجند في آسية الصغرى بزعامة احد اخصاء قسطنطين في تشرين الاول من السنة نفسها وزحفوا على خلقيدونية واكرهوا مرتينة على اشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم . واستقال البطريرك بيروثوس . ونشبت ثورة في العاصمة في مطلع السنة ٦٤٢ لا تزال اسبابها مجهولة ، فقطع لسان مرتينة وجُدع انف هرقلون ونُقيا الى رودوس ، وتولى الحكم قسطنطين الثالث وهو بعد في الحادية عشرة من عمره .

قسطنطين الثالث : (٦٤١ - ٦٦٨) ويدعى قسطنس الثاني ايضاً . وقد عمل على استرداد مصر والشام . وانفذ في اواخر السنة ٦٤٥ حملة على مصر بقيادة مانويل . فجاءت مفاجأة للعرب المسلمين . وسقطت الاسكندرية في يد الروم واتخذها مانويل قاعدة للتوغل في وادي النيل . وتغلغل في الدلتا وكاد يكتسح الموقف . ولكن الخليفة عثمان ابن عفان أعاد عمرو ابن العاص الى قيادة الجيش العربي الاسلامي في مصر . فانزل عمرو بخصمه مانويل هزيمة شنعاء عند نيقوس . فتقهقر مانويل الى الاسكندرية واعتصم بها . وتبعه عمرو ابن العاص لحصارها وتمكن من الدخول اليها بخيانة احد حراسها فافتتحها في اوائل السنة ٦٤٦ . وجاء في المواعظ للمقرئزي ان عمراً اقسم ان هو استولى عليها ان يهدم اسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان^١ . وكان قسطنطين الثالث قد أنفذ في الوقت نفسه حملة ثانية لمهاجمة الشام . فمئيت بدورها بالفشل . وكان الذي صدّها معاوية^٢ . ورأى عثمان ابن عفان وحكومته ان لا بد بعد هذا من انشاء اسطول لرد هجمات الروم في البحر . وكانت احواض الروم في الاسكندرية وعكة قد وقعت سالمة في يد العرب الفاتحين . فأنشأ عثمان فيها اول اسطول عربي . ولعله استعان باخشاب لبنان ولاسيا حرج بيروت وبيجارة الساحل اللبناني وساحل مصر^٣ . واستهل نشاطه البحري بهجوم على قبرص في السنة ٦٤٩ وباحتلال جزيرة ارواد في السنة ٦٥٠ . ويرى الزميل الدكتور ابراهيم احمد العدوي بحق ان احتلال العرب لقبص لم

١ ج ١ ، ص ١٦٧ . راجع ايضاً ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحت اخبار السنة ٢٥ .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٥٢ - ٥٣ .

Bury, J. B., op. cit., II, 288.

Becker, K., Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 352-353

يكن دائماً وانما توالى الاخذ والرد على هذه الجزيرة بينهم وبين الروم^١.
وجهز قسطنطين الثالث عمارة بحرية كبيرة وقادها بنفسه في السنة ٦٥٥
للقضاء على استعدادات العرب البحرية . فكانت موقعة بحرية كبيرة عند
فونكس قرب شاطيء ليقية في آسية الصغرى دعاها العرب معركة ذات
الصواري لكثرة السفن ذوات الصواري فيها ، وقد وفق فيها العرب الى نصر
حاسم^٢. ثم كانت الفتنة التي قتل فيها عثمان سنة ٦٥٦ ، ونشبت حرب اهلية في
صقوف العرب المسلمين ، فقُدّر لرمال الصحراء الافريقية ولجبال طوروس
ان تقف سنوات حدّاً فاصلاً بين العرب والروم .

وانتهز قسطنطين الثالث هذه الفترة من الهدوء في الخارج لاعادة النظر
في ادارة الدولة ، فادخل بعض التعديلات التي سينظر فيها في فصل لاحق .
وفي هذه الفترة ايضاً عالج مشكلة المشيئة الواحدة . وكان جده هرقل ،
كما تقدم معنا ، قد بدأ منذ السنة ٦٢٢ يفاوض في امر المشيئة الواحدة .
وكان قد اجمع على القول بها منذ السنة ٦٢٩ جميع البطارقة وبينهم البابا
اونوريوس . وكان هرقل قد أصدر في السنة ٦٣٨ دستور ايمان رسمي
عرف بالاكنيسيس أوجب به قبول المشيئة الواحدة . وكان البطريرك
بيروس قد استعفى على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد الفسيسة مرتينة
ريبيته وهاجر الى افريقية . وكان قد قام بينه وبين مكسيموس جدال
حول المشيئة الواحدة انتهى باقتناع بيروس سنة ٦٤٥ ورجوعه عن هذه
البدعة .

وكان بيروس قد كتب الى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية
يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكنيسيس عن ابواب

١ الكامل لابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

٢ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٠ و١٩١ .

الكنائس . وكان بيروس ومكسيموس قد رحلا معاً الى رومة فايدهما البابا ثيودوروس الاول (٦٤٢ - ٦٤٩) . فألقى قسطنطين الثالث الاكثيسيس واصدر التيبوس Typon محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئين . ثم كان ان تبوأ عرش كنيسة رومة في السنة ٦٤٩ البابا مرتينوس الاول (٦٤٩ - ٦٥٥) فعقد مجعاً حرّم فيه الاكثيسيس والتيبوس ، وطلب الى الفسيلفس ان يعزل البطريرك بولس الثاني ويقيم غيره ارثوذكسياً . فاستعظم قسطنطين الثالث هذا الطلب وقبض على البابا وقيده بالسلاسل هو ومكسيموس وحكم عليهما بالعصيان . وتوفي البابا في المنفى بعد شدايد قاسية . وحاول قسطنطين الثالث ان يكره مكسيموس على القول بالتيبوس فلم يفعل . فغضب عليه وأمر بجلده ثم بقطع لسانه ويمينه ، فمات في السنة ٦٦٢ . اما بيروس فانه بعد ان رفض بدعته عاد الى القول بها . ثم رجع الى القسطنطينية فنصب بطريركاً للمرة الثانية بعد وفاة بولس الثاني ، ولكنه ما لبث ان توفي بعد خمسة اشهر سنة ٦٥٢ .

وأساء قسطنطين الثالث الظن باخيه ثيودوسوس فألبسه ثوب الرهينة ثم قتله . فثار به ضميره وأصبح اخوه يتراءى له حاملاً كأساً من دمه ويقول له : « يا اخي اشرب » . فكره الاقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزح عنها . وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا ويتاليانوس بالحفاوة والاكرام . واغتاز الشعب في القسطنطينية لسفره وتغيبه ولم يرض ان يتبعه في السفر زوجته واولاده . ثم بعد ست سنوات ضربه خادم حمامه في سرقوسة بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

قسطنطين الرابع : (٦٦٨ - ٦٨٥) وفي اثناء غياب قسطنطين الثالث في ايطالية وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو

بعُدُ فتى . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض اليها فاخذ
بالتأر وعاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالالحى Pogonatus .

ولما كانت الغاية التي من اجلها صدر الاينتيكون « كتاب الاتحاد »
في عهد زينون (٤٧٤ - ٤٩١) وتبعته الفصول الثلاثة في عهد يوستينيانوس
(٥٢٧ - ٥٦٥) ، ثم صدر الاكثيسيس في عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) ،
والتيبوس في عهد قسطنطين الثالث (٦٤١ - ٦٦٨) - لما كانت الغاية من
هذه النشرات كلها قد زالت بدخول الولايات السورية والمصرية والارمنية
في حكم العرب المسلمين ، ولم يبقَ ثمة موجب سياسي للتساهل في أمر
العقيدة ، فان قسطنطين الرابع اخذ يسعى لاستمالة اساطين الكنيسة الأم
الكاثوليكية الارثوذكسية . فمنح بادىء ذي بدء بابا رومة سلطة على
متروبوليت رايننة . وعزل في السنة ٦٧٨ البطريرك ثيودوروس عن عرش
كنيسة القسطنطينية وأقام جاورجيوس بطريكاً محله . وأعلن عزمه على
عقد مجمع للملافة الانشقاق . وكتب الى بابا رومة والى سائر الاساقفة
يدعوهم اليه . فلما تلقى البابا اغاثون كتاب الفيلسفس عقد جمعاً محلياً سنة
٦٧٩ أيد فيه قرار البابا مرتينوس وانتخب القسين ثيودوروس وجاورجيوس
والشماس يوحنا نواباً عنه وارسلهم الى القسطنطينية حاملين الوثائق اللازمة .
المجمع المسكوني السادس : وفي السنة ٦٨٠ عقد في القسطنطينية
المجمع المسكوني السادس ، وكان موضع انعقاده قاعة البلاط المقدس ،
وهي القاعة التي تدعى اطرولتوس Troilus ، اي قاعة القبة . واشترك في
اعمال المجمع ١٧٠ اسقفاً في طليعتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ،
والمتروبوليت اسطفانوس رئيس اساقفة هرقلية ، والمتروبوليت يوحنا رئيس
اساقفة آثينة ، وثلاثتهم من علماء عصرهم المشاهير . وجلس الفيلسفس في
صدر المجمع يحيط به مجلس قضاة الدولة ، والى يمينه البطريرك القسطنطيني
جاورجيوس ، فالبطريرك الانطاكي مكاربيوس ، فنائب بطريرك الاسكندرية .

والى يساره نواب بابا رومة فنائب بطريك المدينة المقدسة ، ووضع الانجيل المقدس في الوسط . وقام نواب البابا فقالوا : « اننا بحسب المرسوم الصادر عن دولتكم التي اقامها الله الى بابانا الجزيل القداسة قد جئنا من قبل البابا ومعنا منه معروض ومعروض آخر مجمعي من الاساقفة الخاضعين له . وقد سلمنا المعروضين الى دولتكم ذات المقام السامي . » ثم شكوا المهرطقة ومخترعها والبطاركة سرجيوس ويروس وبطرس وكيروس وغيرهم وقالوا : « نناشد رجال كنيسة القسطنطينية الجزيلة القداسة ونسألهم متى واين وجد هذا التعليم الجديد ؟ » فأجابهم مكاريوس بطريك انطاكية نصير القول بالمشيئة الواحدة : « انه موجود في جامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية . » فطلب الفيلسوف البيثنة فأحضرت اعمال الجامع وقرئت في الجلسات الخمس التالية . فوجدت رسالة مزورة عن لسان البطريرك ميناس الى البابا فيجيليوس استند اليها مكاريوس . فقاومه نواب رومة ، فثبت فسادها وفساد عبارات كثيرة نسبت الى الآباء مبتورةً محرّفة . وفي الجلسة السابعة تقدم الرومانيون ببيناتهم . وفي الثامنة اعترف بصحة هذه البنات جاورجيوس بطريك القسطنطينية . ثم طلب الى مكاريوس البطريرك الانطاكي واساقفته ان يوافقوا . فوافق الاساقفة ولكن مكاريوس اعترف بمشئتين وانكر الفعلين « مفضلاً الموت مقطّعاً او غريقاً على الموافقة . » فقطع من درجته في الجلسة التاسعة ونفي . وفي الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس ويروس وبطرس وبولس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطريك الاسكندرية وعلى اونوريوس بابا رومة . وفي السابعة عشرة صدق على اعمال الجامع المسكونية السابقة . وفي الثامنة عشرة في ١٦ ايلول سنة ٦٨١ تليت شهادة اقراها المجمع : « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحد وبمشئتين وطبيعتين وفعلين طبيعيين بلا

انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط'.»

قسطنطين والعرب : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة العربية الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبيعياً ان يدركوا مبلغ الخسارة التي حلت بالبنانيين والسوريين والمصريين من جراء ما سبب لهم الفتح العربي من انقطاع عن اسواقهم في آسية الصغرى والبلقان واليونان وايطالية وفرنسة واسبانية والمانية وبريطانية . وهكذا لم يروا بدأ من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة^٢ . وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقين ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنته . وقد اغتم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدرس الى جبال الساحل السوري اللبناني بضعة آلاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والارياض فيهددون سيادة العرب في الشام ويعيشون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة^٣ .

ولكن قسطنطين الثالث اغتيل سنة ٦٦٨ في سرقوسة . وفي سرقوسة هذه أعلن مزيزيوس Mizizios رغبته في العرش وثار سابوريوس Saborios القائد في ارمينية . واعتلى اريكة الملك في القسطنطينية فتى يافع . وتمرد

١ Mansi, *Amplissima Collectio Conciliorum*, XI, 629-640 ; Brooks, E. W., *Successors of Heraclius*, *Cam. Med. Hist.*, 400-405.

جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٢ .

٢ Lewis, A. R., *Naval Power and Trade in the Mediterranean*, 54-55.

٣ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ . Theophanes, *Chronographia*, 347 .

الجند مطالبين بحق هرقل وطياربوس شقيقتي قسطنطين الرابع في الملك . واستنجد سابوريوس بالعرب . فرأى معاوية والحالة هذه ان الفرصة سانحة لضرب الروم ضربة قاضية يستولي بها على القسطنطينية نفسها . وكان قد احتاط لامر المردة فاستقدم عدداً كبيراً من الفرس واسكنهم مدن الساحل اللبناني - عكة وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس - واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق . وكان معاوية قد عني ايضاً بترميم الحصون الساحلية مع ما فيها أسوار الاسكندرية . واذا به يقوم بمناورة عسكرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه . فيغزو صقلية في السنة ٦٦٩ وينفذ عقبة في السنة ٦٧٠ الى حدود ولاية افريقية . ولكنه في الوقت نفسه عمد الى سبر غور الدفاع البيزنطي في قبوقية في السنة ٦٦٩ . فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية . وكان بطل هذه الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثناها ودفن خارج اسوار عاصمة الروم . اما قائد الحملة فكان فضلة ابن عبيد الانصاري يؤيده يزيد ابن معاوية .

ومن طريف الاخبار التي اقتصرت بهذه الحملة ما نقل عن بنت ملك الروم وبنت جبلة ابن اليمم الغساني . فقد روي ان بنت ملك الروم كانت اذا رجعت كفة قومها تقيم الزينة على قصرها في العاصمة . وكانت بنت جبلة تقيم الزينة على قصرها اذا رجعت كفة العرب . وهذا ما رغب يزيد ابن ابي سفيان في فتح المدينة للحصول على بنت جبلة .

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة عربية اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية تحاصر عاصمة الروم من البحر وتحاول انزال الجنود اليها . فصدتها مراكب الروم . وفي الحريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة

١ الاعلاق النفيسة لابن وستة ، ص ٣٢٧ . والبلاذري ايضاً .

Theophanes, op. cit., 532-533.

كيزييكوس لتمضي فصل الشتاء وتنتلقى المؤن والذخائر من الساحل السوري اللبناني . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية . فعادوا يصرفون الشتاء في كيزييكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة . واستعمل الروم في هذا الحصار الذي دام اربع سنوات (٦٧٣ - ٦٧٧) سلاحاً جديداً اعده مهندس لبناني كان قد فرّ من بلده بعلبك عند دخول العرب المسلمين اليها ، وهو كالينيكوس الشبير . واخترع كالينيكوس هذا الذي نشر الذعر في صفوف العرب المسلمين كان عبارة عن حرايق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وغيرها من المواد السريعة الاشتعال اذا صبّت على جيش أحرقت وان سقطت في الماء لم تنطفئ . وقد دعاها الروم آنئذٍ النار البحرية ، ثم سميت فيما بعد النار الاغريقية^١ . واستخدم الروم جنودهم واصدقائهم في جبال طوروس والامانوس ولبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام نفسها تعرقل اعمال التموين وتهدد العاصمة العربية نفسها^٢ . وجاءت السنة ٦٧٧ فاذا بالعرب يعودون الى الحصار . فانطلقت لصدّهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب العرب . فاضطر ما بقي من العمارة العربية للعودة الى قواعده في الشام . وهبّت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر ، وطارد البيزنطيون البقية الباقية فغنموا معظمها^٣ . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه

Zenghlis, C., *Le Feu Grégeois, Byzantion*, 1932, 265-288 ; Schlumberger, G., *Un Empereur Byzantin*, 53 ff.

Theophanes, *Chron.*, 356 ; Lammens, H., *Moawia*, 18-20. ٢

Canard, M., *Expéditions des Arabes Contre Constantinople, Journal Asiatique*, (1925-26), 77-80.

الدكتور ابراهيم احمد العلوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ - ٥٨ .

عليه ثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين
عبداً وخمسين جواداً عربياً عن كل سنة فقبل^١. « فأصبح اسم قسطنطين
الرابع محط احترام القبائل البربرية الضاربة في الاراضي المحيطة بدولة
الروم ، وارسلت هذه القبائل تخطب ودّه . ورأت الدول الاخرى في غرب
اوروبه ان رومة الجديدة لم تقل في عظمتها واهميتها عن رومة القديمة
الحالدة^٢. »

وغامر عقبة ابن نافع في هذه الآونة في افريقية الشمالية فبلغ طنجة
« وجوّل لا يعرض له احد ولا يقاتله^٣. » ، وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ
الماء صدره وقال : « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت
في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد احدٌ من دونك^٤. » . وكان قد
اهمل امر المدن المحصنة على ساحل البحر ، فتناول رجالها المدد من الروم
بعد ان حطّم الاسطول العربي . وتفاهموا وكُسّيلة احد زعماء البربر ،
وعرضوا لعقبة في مكان يقال له تهوذة في الجزائر في السنة ٦٨٣ فقتلوا عقبة
ومن كان معه^٥. واستغلّ كُسّيلة نصره ودخل القيروان فأقام بها الى ان
قوي امر عبد الملك ابن مروان^٦.

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ وتولى الخلافة بعده ابنه معاوية الثاني.
ورأى هذا انه ليس باهلٍ للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة .
فعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية

Theophanes, Chron., 356.

- ١
- ٢ الدكتور ابراهيم المدوي : المرجع نفسه ، ص ٥٨ - ٥٩ .
- ٣ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .
- ٤ المالكي ، رياض النفوس ، ص ٢٥ .
- ٥ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٨ .
- ٦ ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٩١ .

الاول . وتبوأ العرش مروان ابن الحكم والاعداء له بالمرصاد . وكان رجلاً طاعناً في السن . وكان قسطنطين الرابع قد استغل مشاكل يزيد فأكرهه على الخروج من قبرص . وجاءت مشاكل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن جرمانية (مرعش) (٦٨٣) . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مائلاً سنوياً اكثر مما كان العرب يدفعون من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥ .

يوستينيانوس الثاني : (٦٨٥ - ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع بداء الزحار في اول ايلول من السنة ٦٨٥ . وتولى العرش بعده ابنه يوستينيانوس الاشرم^٢ ، وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان كأبيه وجده ذكياً شجاعاً نشيطاً . وكان طموحاً مشعباً بحب العظمة والمجد ، فأراد ان يحتدي مثال سميح يوستينيانوس الكبير . ولكنه كسائر افراد أسرته كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان . فتطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف الى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء .

ونقض يوستينيانوس هذا معاهدة السنة ٦٨٥ مع العرب وارسل جيوشه لقتالهم . وكان عبد الملك لا يزال مرتبكاً مشغولاً في تثبيت دعائم خلافته ضد منافسين اقوياء ، فاسترى الصلح مع الروم في السنة ٦٨٩ وقبل ان يدفع ليوستينيانوس الثاني مائلاً سنوياً اعظم مما دفعه معاوية : ثلاث مئة وخمسة وستين الفاً من قطع الذهب ، وثلاث مئة وستين عبداً ، وثلاث مئة وستين جواداً كريماً . وقبل بان يقسم ولايات إيبيرية وارمينية وقبرص بينه وبين يوستينيانوس بالسوية .

Brooks, E. W., op. cit., 405-406.

Rhinotmetus.

وعلم عبد الملك فيما يظهر ان خصمه كان ضعيف البصيرة ففأجبهه بخذل المردة والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والامانوس . فقبل يوستينيانوس وحطّم بيده « هذا السور النحاسي الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه العرب المسلمين » . وبعث قائداً من جيشه الى امير المردة يوحنا متظاهراً بطلب النجدة منه ضد العرب . فجاء القائد الى قب الياس حيث مسكن الامير . فلقني ترحاباً وتكريماً ، وجلس يحدث الامير عن غزو العرب . ثم اشار الى جنده وكانوا على علم بمقصده فوثبوا على الامير فقتلوه وقتلوا بكثيرين من بطانته . ثم اعتذر الى الامير سمعان ابن اخت الامير يوحنا معيداً الكلام على رغبة الفسيلفس في ان يتلقى نجدة المردة ، وطقق يزين لهم ان يصحبوه الى القسطنطينية . فأجابوه الى ما طلب ، وتجمهر اثنا عشر الفا منهم يتزعمهم الامير سمعان ، وساروا الى الفسيلفس فوزعهم حرساً في ارمينية وتراقية وقزيقوس ٢ .

وجاء في تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريك اسطفان الدويهي ، ان يوستينيانوس الثاني لم يكتفِ بما فعل ، بل جيش على المردة جيشاً جرّاراً بقيادة موريق وموريقيان بعث به في السنة ٦٩٤ الى لبنان فقتلوا رهبان دير مار مارون على العاصي وحلّوا في الكورة بين اميون والناووس ، وتدقق الجبليون عليهم من اعالي الجبال فقاتلوه حتى قتلوا اكثرهم ٣ . ولعل هذه الحوادث وقعت في اثناء السنة ٦٨٩ عندما قام يوستينيانوس بيفذ شروط معاهدته مع عبد الملك لا في السنة ٦٩٤ كما تقدم . ففي السنة ٦٩٤ كان يوستينيانوس في حروب جديدة مع عبد الملك دارت

Theophanes, Chron., 363, 364.

Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches, 257.

٣ تاريخ الطائفة المارونية ، للبطريك اسطفان الدويهي ، (بيروت ، ١٨٩٠) ،

رحاها في آسية الصغرى وأسفرت عن اندحار كبير امام جيوش الامويين^١.
وجال يوستينانوس في السنة ٦٨٩ جولة حربية ضد القبائل البلغارية ،
وأردفها في السنة ٦٩٠ بحملة موفقة ضد الصقالبة في البلقان . وجمع عدداً
كبيراً من هؤلاء وجعل منهم فرقة كبيرة وانزلهم في منطقة الدردنيل
ليرابطوا فيها فيدفعوا العرب عنها في حرب مقبلة . وكان العرب قد
جعلوا من هذه المنطقة ، في اثناء هجومهم الاخير على القسطنطينية ، نقطة
ارتكاز لهم قبل عبورهم المياه لحصار عاصمة الروم .

حرب القراطيس والدنانير : وكان عبد الملك ابن مروان قد بدأ
ينظم امور الدولة الاموية . وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تستورد
الورق من مصر . وكانت قد جرت عادة الاقباط على كتابة اسم المسيح
وعبارة التثليث في اعلى الطوامير . ورأى عبد الملك ابن مروان ان هذه
العبارة لا تتفق ومظهر الدولة الاسلامية ، فاستبدل اسم المسيح وعبارة
التثليث بالعبارة : « قل هو الله احد » . وكتب في صدور كتبه الى
الروم : قل هو الله احد ، وذكر النبي مع التاريخ . فكتب اليه يوستينانوس :
انكم قد احدثتم كذا كذا فاتركوه والا اتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم
ما تكرهون . وكانت العملة السائدة في البلدان الاسلامية لا تزال دنانير رومية
ودراهم فارسية . فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه تهديد الفسيلس
من اثر سيء في نفوس المسلمين . فأشار خالد ابن يزيد على عبد الملك
بالتمسك بما احدثه في القراطيس وقال : « يا أمير المؤمنين حرّم دنانيرهم
فلا يُتعامَل بها ، واضرب للناس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة بما كرهوا
في الطوامير^٢ . » وسكّ عبد الملك دنانيره الاولى في السنة ٦٩٢ وأرسل

١ والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان احداً من المؤرخين لم يوفق
بعد الى ضبط اخبار الروم والعرب وتعيين تواريخها في هذه الفترة .

٢ كتاب الفتوح للبلاذري ، ص ٢٤٩ . والكامل لابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٣ .

المبلغ السنوي المفروض عليه للفيلسوف من هذه الدنانير الجديدة . فغضب يوستينانوس لخلو هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولجملها عبارات لم تخلُ من التحدي : « ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . فرفض الفيلسوف قبول هذه الدنانير وتحرك بجيوشه الى الحدود العربية الاسلامية . واصطدم الجيشان في السنة ٦٩٣ بين سبسطية وسيواس Sebastopolis . واستعاض العرب المسلمون عن الاعلام بنسخة من المعاهدة بينهم وبين الروم رفعوها عالياً . وقاد يوستينانوس جيشه بنفسه وكاد ينتصر في الجولة الاولى . ولكن العرب اتصلوا بعناصر الصقالبة من جيش الروم وأغروهم بالوعود فخانوا الروم وانضموا الى العرب . فدارت رحى الحرب على الروم وخسروا ارمينية . وفي السنة ٦٩٤ عاد محمد ابن مروان فغزا ، فبلغ انبولى ومرعش وملاطية . ودخل عثمان ابن الوصيد الى ارمينية فهزم الروم فيها واثخن فيهم بالقتل والاسر . وعاد العرب الى الصوائف في الحرب . وما انفكوا يبعثون بالصائفة كتبيةً بعد اخرى حتى غنموا مالاً كثيراً . واقتصَّ يوستينانوس ممن بقي من الصقالبة في آسية الصغرى ، فأصبح موضع كراهيتهم . وحبا عبد الملك من التجأ اليه منهم بالمساكن في نغور الشام وقبرص ، فنجحوا وأثروا اثراءً غريباً ، وغدا بنو جنسهم في آسية الصغرى اداة لخدمة العرب المسلمين في اي نضال حربي ينشب بين هؤلاء وبين الروم . « واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء الصقالبة اذ كانوا على علم بدروب آسية الصغرى ومسالكها ، فقاموا بوظيفة الادلاء للجيوش الاسلامية . ولذا تابعت الجيوش الاموية انتصاراتها واغاراتها على مدن آسية الصغرى دون ان تلقى جهداً كبيراً ٢٠ . »

١ Cedrenus, G., *Historiarum Compendium*, I, 772; Zonaras, XIV, 229-231; Theophanes, *Chron.*, 365-367 .

٢ الامويون والبيزنطيون ، للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ١٨٠ .

المجمع البنيكتي « الخامس السادس » : (٢٦٢) وقال كاتب البيذليون في مقدمة كلامه على هذا المجمع : « ان ابرز الرؤساء في المجمع البنيكتي Penthektos اي الخامس والسادس كانوا بولس القسطنطيني وباسيليوس اسقف غورتيني في كريت واسقف راينه - وهما نائبا البابا الروماني - وبطرس الاسكندري وانسطاس الاوروسليمي وجاورجيوس الانطاكي . وقد التأم هذا المجمع بأمر ملوكي لا ليفحص هرطقة خاصة ولا ليحدد ايماناً حتى يكون مجعاً خاصاً قائماً بنفسه ، بل ليكتب قوانين ضرورية تتعلق بجالة الكنيسة واصلاحها^٢ . واشترك في اعمال المجمع ٢٢٧ او ٢٤٠ اسقفاً . وسنّ المجمع مئة قانون تتعلق بنظام الكنيسة داخلاً وخارجاً وبالحياة المسيحية ، ولا تزال هذه القوانين مرعية الاجراء الى يومنا هذا . منها ما يبحث في علاقات الشمامسة بالقساوسة وفي زواج هؤلاء واولئك ، ومنها ما يعين السن التي يجب ان يبلغها الاكليريكي قبل سيامته ، ومنها ما يحرم الدين بالربا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب الكنائسية ، ومنها ما يتعلق بالكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم بها ، ومنها ما يبحث في الرهبانية والاديار ، وفي الجمعيات السرية وعتق الرقيق ، وفي أمر اليهود ، ومنها ما يحرم التصاوير البديئة والسحر والكهانة .

وأشهر هذه القوانين القانون السادس والثلاثون الذي نص على ما يلي :
 « اننا نجد ما اشترعه الآباء القديسون المئة والخمسون الذين اجتمعوا في هذه المدينة المحروسة من الله وما اشترعه الآباء الست مئة والثلاثون الذين

١ وفي الآداب الغربية *Quinisextum* .

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٤٩ ، هامش .

اجتمعوا في خلقيدونية... فنوسم ان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم اسوة بتقدم كرسي رومة القديمة، وان يُعظم مثله في الامور الكنائسية ليكونه ثانياً بعده. وان يحسب بعدها كرسي الاسكندرية المدينة العظيمة، ويحسب بعده كرسي انطاكية، وبعد هذا كرسي مدينة الاورشليميين.»
وعُرضت اعمال هذا المجمع على البابا سرجيوس (٦٨٧ - ٧٠١) ليوقعها بعد الفيلسوف فأبى محتجاً ببعض محتوياتها كتحریم الصوم ايام السبت والاذن للكهنه بالزواج. فأراد يوستينانوس ان يكرهه على ذلك ولكن جيشه في ايطالية وقف الى جانب البابا.

خلع يوستينانوس: واستنزفت حروب يوستينانوس كل ما في الخزينة. وبرغم هذا فإن الفيلسوف الذي كان يجذو جذو سميه يوستينانوس الكبير اراد ان يقوم هو ايضاً بانشاءات تحلده اسمه، فاضطر وزيره ثيودوتوس واسطفانوس الحصي ان يجمعوا الاموال عن طريق الاغتصاب. ومما يروى عن ثيودوتوس انه كان يعلّق الذين يمتنعون من دفع الضرائب بالحبال فوق دخان النار. وبينما كان وزيره يجرّان عليه كراهية الطبقات الشعبية كان هو يجر على نفسه كراهية رجال الكنيسة والجيش. ففي السنة ٦٩٤ طلب ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقم في مكانها بناية له. فكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها. فأجابه البطريرك: «أما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول.» فأجبره الفيلسوف ان يصلي للهدم بالقوة. فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً: «المجد لله الطويل الأناة كل حين وكل اوانٍ والى دهر الداهرين.»

وبعد الذي اصاب به يوستينانوس من مس في الحرب العربية بدأ يقتل ضباطه ويحبسهم ويستأصل شأفة جنوده المهزومين حتى اصبح العمل في القيادة العليا لجيشه يشبه في خطره التعيين لمنصب القائد الاعلى في اثناء ارهاب روبسيار ابان الثورة الافرنسية^١.

وفي السنة التالية (٦٩٥) عين يوستينانوس لاونديوس قائداً اعلى . فخشي لاونديوس سوء العاقبة وأعتقد ان ايامه اصبحت معدودة . فنصح له راهب اسمه بولس ان يضرب ضربة جريئة لان الشعب والجيش يسرون وراءه . فهاجم لاونديوس السجن وحرر عدداً كبيراً من السجناء السياسيين فانضمت اليه العامة ، فنادى بهم : « النصرى في كنيسة الحكمة » ، واذاع في البلد ان حياة البطريك في خطر . فاجتمع الشعب في باحة الكنيسة العظمى . وجاءهم البطريك فبارك عملهم قائلاً : « هذا هو اليوم الذي صنعه الله . » وسار لاونديوس الى القصر وقبض على يوستينانوس ووزيره . فجدع انف الفسيفس وسلم الوزيرين الى الجماهير . فطافوا بهما وحرقوهما . ثم نفى لاونديوس الفسيفس الاشرم الى الخرسون في القرم . ونادى الزرق بلاونديوس فسيفساً وتوجه البطريك^٢ .

الفوضى : (٦٩٥ - ٧١٧) وانهزم العرب المسلمون في نهودة كما ان اشرنا وانسحبوا من ولاية افريقية . وكان ما كان من امر الانقسامات الداخلية بينهم ونشوب الثورات على الامويين في الحجاز وفي العراق وغيرها ، فاستطاع الروم ان يستعيدوا ما كان لهم من نفوذ وسلطة في افريقية . وجهز عبد الملك ابن مروان في السنة ٦٨٨ جيشاً كبيراً أمر عليه زهير ابن قيس وبعثه لاسترداد افريقية وذلك رغم انشغاله بثورة

١ واللفظ في معظمه لدكتور مصطفى طه بدر في كتابه الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٨ .

٢ Brooks, E. W., op. cit., Cam. Med. Hist., II, 408-410.

عبدالله ابر الزبير . وكتب النصر لزهير فقهر كسيلة في مس . ثم توغل في البلاد يخضع قبائل البربر الموالية للروم . وترك الروم المسلمين يطيلون خطوط تموينهم . ثم انزلوا قوة كبيرة في برقة لتعمل في مؤخرة زهير او لتفاجئه وهو في طريق العودة الى مصر . ونشبت موقعة في برقة (٦٨٩) خرب فيها زهير صريعاً وانهمز العرب المسلمون . وفي السنة ٦٩٥ أعد الخليفة الاموي جيشاً آخر وأمر عليه حسان ابن النعمان . فسار حسان الى القيروان وقام منها الى قرطاجة اعظم مدن الروم وامنعها . ووقع بهم هزيمة شنعاء . واستولى على قرطاجة في صيف السنة ٦٩٧ . فانسحب منها الروم الى صقلية . ثم عادوا الى قرطاجة في خريف السنة نفسها بقيادة البطريق يوحنا فدخلوها عنوة . واعاد العرب الكرة عليها في صيف السنة ٦٩٨ مستعينين هذه المرة بقوة بحرية كبيرة فدخلوها آمنين . ونجا القسم الأكبر من جيش افريقية . وأبجر الضباط الى القسطنطينية . ودبروا في اثناء رحلتهم مؤامرة لخلع لاونديوس . واشركوا معهم في هذه المؤامرة طيباريوس عبسيمروس درونغايريوس الاسطول اي نائب القائد . ولدى انضمامه اليهم باسطول بحر ايجيه نادوا به فيسلفساً . فاستولى على العاصمة متخذاً اسماً له طيباريوس الثالث ، وجدع انف لاونديوس وحبسه في احد الاديرة (٦٩٨ - ٧٠٥) . ووفق طيباريوس في حروبه ضد العرب واسترد مناطق الحدود التي كان قد فقدها يوستينانوس ولاونديوس وغزا

Becker, K., *Exp. of Saracens, Cam. Med. Hist.*, II, 369-370. ١

وافضل ما صنف بالعربية في فتح المغرب كتاب الاستاذ حسين مؤنس « فتح العرب للمغرب » (١٩٤٧) ، وفصول الدكتور ابراهيم احمد العدوي في كتابه « الامويون والبيزنطيون » .

Tiberius Apsinarus-drungarius. ٢

سورية الشمالية. « ولكن الاهالي والجيش كانوا قد اصبحوا لا يخضعون لسيطرة احد وكان الفيلس لا يستطيع ان يعتمد على احد وباتت ادنى هزة كافية لقلب عرشه المتداعي » .

وفراً يوستينانوس الثاني من منفاه . ورسا مركبه في مياه البلغار . وكان تربيل ملك البلغار يبحث عن حجة يتذرع بها لغزو الروم ، فلما استنصره يوستينانوس زحف تربيل بجيشه على القسطنطينية . وكان سكان العاصمة آسفين لزوال حكم هرقل وخلفائه . فعاد يوستينانوس الى العرش الذي خلعه عنه (٧٠٥) . « وكان قد عوّل الآّ يفعل شيئاً الا ان يثار لانفه المبتور » . فأرسل في طلب لاونديوس وطيباريوس وشدهما بالحبال جنباً الى جنب ووضعهما على الارض امام عرشه في الملعب وجلس واتخذ جسميهما موطناً لقدميه . ثم قطع رأسيهما . واعدم عدداً من كبار الضباط ورجال البلاط وسمل عيني البطريرك ووضع كثيرين من وجهاء القسطنطينية في اكياس ثم اغرقهم في البوسفور .

وفي السنة ٧١١ ثار عليه فيليبيكوس البرداني فدخل العاصمة بينما كان يوستينانوس في سينوب . ثم قتل يوستينانوس وقتل ابنه طيباريوس من زوجته ثيودورة الحزرية . وبذلك انتهى امر الهرقلين بعد ما حكموا مئة سنة وسنة . ولكن فيليبيكوس هذا لم يكن سوى رجل هو و لذة . ففضى وقته (٧١١ - ٧١٣) منصرفاً الى المتع . ولما كان من اصحاب المشيئة الواحدة فقد عزل البطريرك كيروس الى دير واقام يوحنا السادس بطريركاً محله . ثم عقد مجمعاً محلياً في السنة ٧١٢ اجبر فيه الفيلس والبطريرك الجديد اساقفته ان يحرقوا اعمال المجمع السادس .

حتى اذا كانت السنة ٧١٣ اتفق قائدان من قادة الجيش فعزلا

فيليبكوس . وأقام الشعب رئيس كتاب القصر ارتاموس فيلسافاً بامم
انسطاسيوس الثاني ، فضبط زمام الملك وعزل البطريك يوحنا السادس
وأقام جرمانوس بطريكاً عوضه . وعقد الفيلسفس والبطريك الجديد
مجمعاً محلياً أيد قرارات المجمع السادس (٧١٥) . ولكن في السنة ٧١٦
تمردّ الجند وعلنوا خلعه ، ونادوا بثيودوسيوس الثالث فيلسافاً . فاستعفى
انسطاسيوس وأقام راهباً في دير .

حصار القسطنطينية : (٧١٧ - ٧١٨) وكان البلغار يون والمسلمون
في اثناء هذا كله يفتزون ولايات الحدود كل من صوبه . وكانت غاراتهم
ترداد حدةً وتوغلاً . فسقطت تيانة في يد العرب المسلمين في السنة ٧١٠
وأماسية في السنة ٧١٢ وانطاكية البسيديّة في السنة ٧١٣ . وتوغل
العرب في السنة ٧١٦ في فريجية وحاصروا عمورية . وباتوا لا ينتظرون الا
النصر . ولكن الروم كانوا قد انجّبوا لاون الاسوري رجل الساعة الذي
تبوأ العرش برضى ثيودوسيوس الثالث وموافقة البطريك ومجلس الشيوخ
ورجال البلاط .

وكان قد تولى الخلافة في دمشق سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) ،
وكان سليمان يحسب انه هو المقصود بالحديث القائل ان خليفة يحمل اسم
نبي سيفتح القسطنطينية . فأعد اسطولاً كبيراً وجيشاً عظيماً وأسند القيادة
في البر لاختيه مسلمة ، وفي البحر لوزيره سليمان . فقام مسلمة من طرسوس
الى الدردنيل والتقى في ابيدوس بسليمان وعمارته . وكان لاوون قد حشد
كل ما لديه في العاصمة للدفاع . فقطع الجيش العربي الدردنيل وزحف
على القسطنطينية وحاصرها براً . وقامت العمارة العربية بالعمل نفسه من

١ اطلب التفاصيل في كتاب الدكتور ابراهيم احمد العدوي « الامويون والبيزنطيون »

ص ١٨١ - ١٨٢ .

البحر . وحاول سليمان ان يسد طريق البحر الشمالية فانبرت لصدده بوارج الروم فأنزلت براكبه ضرراً كبيراً . وبقي منفذ القسطنطينية الشمالي مفتوحاً للمدد من البحر الاسود . واعتمد مسلمة على تجويع المدينة اكثر من اعتماده على مهاجمتها جبهياً . ولكن لاوون كان قد حسب لهذا المحذور حسابه فأمر كل أسرة بان تحتزن مؤونة سنتين . أما مسلمة فانه لم يحسب الحساب لشتاء قارس يدهمه ، فجاء شتاء السنة ٧١٧ - ٧١٨ بثلج دام ثلاثة اشهر . فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزحار . وبين من لقوا حتفهم الوزير سليمان . وفي ربيع السنة ٧١٨ وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطئ البوسفور الآسيوي ورسا الاسطول في مياهه . فتسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فأحرقته . ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة . ثم فاجأه البلغاريون من الورا فقتلوا من رجاله عشرين ألفاً . فتراجع عن عاصمة الروم بعد ان فقد معظم جيشه . وتعرض الباقي من عمارته لعاصفة في بحر ايجه فلم يعد الى شواطئ الشام سوى خمس سفن فقط .

Canard, M., *Expéditions Arabes, Journal Asiatique, 1929, 102-80* ;

Theophanes, *Chron.*, 395-399.

الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٤٦ .

الفصل السابع عشر

تطور وتغيير

الارض والسكان : وكان من جراء حروب القرن السابع ان تقلص ظل الروم عن قسم من ارمينية وعن الجزيرة والشام ومصر وافريقية . وفقد الروم معظم البلدان التي فتحها يوستينانوس في الغرب وتراجعوا عن خط الدانوب الى الجبال بين ميسية وتراقية . فنقصت امبراطوريتهم نصفها .

وكان الآفار والصقالبة قد بدأوا منذ اواخر القرن السادس يعبرون الدانوب فيعيشون فساداً في إيليرية وتراقية . فلما حلت الفوضى في عهد فوقاس ونشبت حروب هرقل الطاحنة في آسية تعددت هجمات هؤلاء البرابرة واصبحت الى هجرة شاملة اقرب منها الى غزو . واضطر الروم ان يذعنوا للواقع في بعض الاحيان فيعترفوا لبعض هذه القبائل كالكرواتيين والسرب بكيان خاص في داخل حدودهم . ولئن وفقوا في بعض الاحيان الى رد القبائل الزاحفة عبر الدانوب فإنهم لم يستطيعوا المحافظة على هذا الحد دائماً ، فكانت تعود القبائل فتسلل جماعات في الحفة وبالتدريج فتستقر داخل الحدود حيث تسمح لهما بذلك الظروف . ومن هؤلاء الصقالبة .

ويستدل من بعض المراجع الاولية ان قبائل الكروات والصرب
 عبروا الدانوب في الربع الاول من القرن السابع ، واحتلوا بالقوة جميع
 ايليرية حتى شاطيء الادرياتيڪ ، وان هرقل اعترف بوجودهم في هذه
 الاراضي لقاء معونة يقدمونها له ضد الآفار شرط ان يتقبلوا النصرانية^١ .
 وفرّ سكان البلاد امام تلك القبائل . فالتجأ ابناء سالونة الى حصن
 ديوقليتيانوس واسسوا مدينة اسبالاتو . ونزح ابناء ابيدورة فأقاموا في منطقة
 راغوزة . وفرّ غيرهم الى كاتارو والى جزر الشاطيء الى برازا ولاسينة وغيرهما^٢ .
 وهكذا لم يشرف القرن السادس على اواخره حتى كانت جماعات من
 الصقالبة قد استقرت في ميسية السفلى بين الدانوب وجبال الهاموس . وفي
 عهد فوقاس وهرقل سارت جماعات اخرى من الصقالبة في موكب الآفار
 فنزلت بنسائها واطفالها وجميع ما ملكت ايمانها في مقدونية وتراقية وغشيت
 الأرياف بكاملها^٣ . ومما جاء في اعمال القديس ديمتريوس ان الصقالبة في
 السنوات ٦١٧ - ٦١٩ ركبوا البحر في قوارب نقرت في جذوع الشجر
 ففتكوا بسكان ثسالية وآخية واييروسة وبعض آسية . وانتشروا في
 جميع جزر الارخيليل . وجاء ايضاً انهم في السنة ٦٢٣ بلغوا الى جزيرة
 اقريطش فقتلوا وسبوا وان الذعر شمل الجبناء والشجعان على حد سواء .
 فأيقن الجميع ان ليس امامهم الا الموت او عذاب الاسر^٤ .
 وبقيت هذه القبائل طوال القرن السابع تغزو في البر والبحر ولا يقر

Constantius Porphyrogentius, Administrando Imperio, 143-144, 150, ١
 159, 162.

Sisc, Gesch. der Kroaten ; Jirecek, Gesch. der Serben ; Niderle, Mannel ٢
 de l'Antiquité Slave.

Patrologia Graeca, Vol. 116, p. 1325.

Ed. Tougard, 119-135.

لها قرار . وسعت حكومة العاصمة بما لديها من وسائل لاخضاع هذه القبائل ولكن دون جدوى . وفي السنة ٦٥٧ جرّد قسطنطين الثالث حملة عسكرية عليهم فهزمهم واشتق لنفسه طريقاً الى نيسالونيكية وارغمهم ان يخلدوا الى السكينة . ولكنهم عادوا الى سابق نزعاتهم فحاصروا هذه المدينة نفسها ما بين السنة ٦٧٧ والسنة ٦٨٠ . فقاد يوستينانوس الثاني في السنة ٦٨٩ حملة اخرى عليهم واخضعهم ونقل منهم ثلاثين الفاً الى شاطيء الدردنيل الآسيوي^١ .

وفي اواخر القرن السابع تدفق البلغار عبر الدانوب واستوطنوا . والبلغار من الشعوب الطورانية ابناء عم الهون والاتراك . وكانوا من قبل يعبرون الدانوب غزاة مغيرين ولكنهم لا يلبثون ان ينقلبوا الى ما ورائه . وكان هرقل قد استعان بهم بين السنة ٦٣٥ والسنة ٦٤١ ضد الآفار منعماً على زعيمهم بلقب بطريق مقدماً له الهدايا . الا ان الحزب في السنة ٦٧٩ اضطروا هؤلاء البلغار ان يجلوا عن اراضيهم في ما وراء الدانوب . فتدققوا عبر هذا النهر بقيادة خاقانهم أسبروخ واحتلوا ما تلخم النهر من الاراضي حتى جبال البلقان . ثم أكره قسطنطين الرابع ان يعترف بالواقع وان يسترضيهم بمالٍ محدد يدفعه كل سنة . فنشأت دولة بلغارية فتية تمكنت من الاندماج برعاياها الصقالية . فتقبلت لغتهم وتقاليدهم ووحدت كلمتهم . فأصبحت خطراً كامناً على دولة الروم^٢ .

الادارة : وأدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في القرن السابع الى تغيير اساسي في اساليب ادارة الولايات . وكانت القاعدة الاساسية المتبعة في تنظيم ادارة الولايات منذ عهد قسطنطين الكبير توجب الفصل بين

Diehl et Marçais, Monde Oriental, 212-218.

١

Runciman, S., The First Bulgarian Empire, London, 1930.

٢

السلطين العسكرية والمدنية في ولايات الدولة وذلك خوفاً من تمرّد الولاة او قادة الجيش على السلطة المركزية . لكن هذه القاعدة انقلبت عند نهاية القرن السابع رأساً على عقب اذ لجأ الاباطرة الى دمج السلطين في يد قائد عسكري في كل ولاية . فحوّلت الولايات الى ثيمات او بنود كما اسمها العرب^١ .

وكان يوستينيانوس الكبير قد لجأ الى مثل هذه الحطة في ادارة ولايتي قرطاجة ورايبنة وذلك لتكرّر هجمات اللومباردين في ايطاليا والمور في افريقية . فأنشأ وظيفة الاكسرخوس وجعله قائداً عسكرياً وحاكماً مديناً في آنٍ واحد . الا ان العلامة الالماني الدكتور ارنست اشتاين يرى ان هرقل درس عن كتب نظام الحكم عند اعدائه الالاء الاكسرة فأخذ عنهم دمج السلطين العسكرية والادارية في يد قائد عسكري يقوم على رأس جيشه في منطقة معينة ، فكان ان انشأ نظام الثيمات^٢ . ويرى غيره من رجال الاختصاص ان هذا النظام الجديد لم يعمم دفعة واحدة بل نشأ بالتدريج في ارمينية اولاً ثم في سائر آسية الصغرى فاوروبا^٣ . والواقع الذي لا سبيل فيه الى جدال هو ان آسية الصغرى عند نهاية القرن السابع كانت قد قسمت الى اربع ثيمات او بنود : (١) ثيمة

١ والبند لفظ فارسي معرب معناه العلم الكبير . وقال المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف : ارض الروم واسعة في الطول والعرض مقسومة من قديم الزمن على اربعة عشر قسماً اعمال مفردة تسمى البنود كما يقال اجناد الشام ، ص ١٥٠ . وعن عني بهذه الناحية من كتاب العرب ابن خردادبه المتوفى سنة ٩١٢ ميلادية في كتابه المسالك والممالك الذي طبع في ليدن سنة ١٨٨٩ ، وقدماء في كتابه الحراج ، وهو من اعيان النصف الاول من القرن العاشر .

٢ Stein, E., *Byzantinisch-Neugriechische Jahrbucher*, I, (1920), 84-85
٣ Kulakovsky, J., *Byzantium*, III, 287-431 ; Bréhier, L., *Journal des Savants*, XV, 412-505.

ارمينية في شمالي شرقي آسية الصغرى ، (٢) ثيمة اناطوليكة^١ ، (٣) ثيمة الابسيق (اوبسيكيون) عند بحر مرمر ، (٤) ثيمة القبريوت وكانت هذه تضم شاطئ آسية الصغرى الجنوبي والجزر المجاورة له وذلك للصمود في وجه الاسطول العربي . وكان قد نشأ ايضاً نظام مماثل في اوروبة فظهرت ثيمة تراقية لدرء خطر الصقالبة وثيمة هيلاس للغرض نفسه في بلاد اليونان وثيمة في صقلية للدفاع ضد العرب^٢ .

والاساس في نظام الثيمة كان فيما يظهر اقامة جيش دائم في منطقة معينة يسهر على الدفاع عنها . ويُقطعُ ضباطه وجنوده اراضي معينة في المنطقة نفسها يستثمرونها . وتتمتج هذه العناصر العسكرية بسكان المنطقة فتبث فيهم روح الشجاعة والجرأة وتدريبهم على حمل السلاح والقتال^٣ . وثمة ما يدل على ان هرقل لم يهمل التشريع . فهناك قوانين اربعة سنها في الفترة بين السنة ٦١٢ والسنة ٦٢٩ عني فيها ببعض مشاكل الاكليروس . وتوجد كذلك بقايا شرائع سنها هذا الفيلسوف للحد من تزوير النقود والاختام والوثائق الرسمية . وقد كان لهذه الشرائع فيما يظهر اثر في ما شرعه الالمان في الغرب والعرب في الشرق في هذا الموضوع نفسه .

الدولة تصبح هليينية : وكانت الدولة منذ تأسيسها قد اصطبغت بطابع شرقي في مفهومها للسلطة والحكم وفي نظامها الرتي وتسلسل

١ من اللفظ اليوناني اناطولي ، ومعناه الشرق ، ومنه اللفظ العربي التركي : الاناضول .

٢ *Constantinus Porphyrogenitus, De Themalibus, Crop. Script. Hist. Byzant. ed. Bekker, 1840.*

٣ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 223.*

٤ *Lopez. R., Byzantine Law in the Seventh Cent. and its Reception by Germans and Arabs, Byzantion, XVI, (1944), 445-461.*

الصلاحيات وفي التشريفات وتعظيم الامبراطور وما الى ذلك . وجاء القرن الخامس فتفككت عرى الدولة في الغرب ولم يبقَ منها صامداً سوى ولاياتها الشرقية . وبرغم نجاح يوستينيانوس في ايطالية وافريقية واسبانية ، فان الربط الذي اعاد احكامه بين الشرق والغرب لم يثبت طويلاً . وجاء القرن السابع فانفصلت اسبانية وأصبحت افريقية مهددة ، واضطربت ايطالية وسلخ العرب مصر والشام والجزيرة . واحتلَّ الصقالبة والبلغار جزءاً كبيراً من البلقان . فأصبح العنصر اليوناني هو العنصر السائد في الدولة ، وأصبحت آسية الصغرى قلب الدولة ومركز الثقل فيها . فتهلنت الدولة وبقيت يونانية حتى آخر عهدها .

اللاتينية تتوارى فتزول : وكانت اللغة اللاتينية لا تزال في عهد يوستينيانوس الكبير لغة الدولة الرسمية ولغة التشريع والادارتين المدنية والعسكرية . وحتى اوائل القرن السابع كان الامبراطور لا يزال ينادى بالقبه اللاتينية القديمة « التقي السعيد الدائم العظيم » . غير ان انتصار هرقل على الفرس جعله يزيد على القابه بصورة رسمية اللقب اليوناني « الفيلسوس » . وكان هذا اللقب شائعاً من قبل ولكن بصفة رسمية^٢ . وكانت اللاتينية لغة الاسر الحاكمة . بقيت وكذلك حتى انقطاع اسرة يوستينيانوس . فأما الاسر التي عقبها فانها كانت اسوية كأسرة طيباريوس وموريقيوس وهرقل . ولذا رأينا البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) يتذمر لأنعدام وجود الترجمة الاكفاء الذين يجيدون اللاتينية في العاصمة البيزنطية^٣ . ولنا في التشريع شاهد آخر على صحة ما نقول . فأن يوستينيانوس الكبير

Pius, Felix, Perpetuus, Augustus.

Lingenthal, Z., Jus Graeco-Romanorum, III, 46.

Grégorii, Epist., VII, 27.

الذي تكلم اللاتينية واشترع بها وجد نفسه مضطراً ان يأذن باستعمال اللغة اليونانية في بعض القوانين التي أصدرها وان يفض النظر عن ظهور بعض الشروح باليونانية . حتى اذا اقبل القرن السابع أصبح التشريع كله باللغة اليونانية فقط .

ونفس التطور نفسه في لغة الادارة . فان يوحنا ليدوس الذي عاصر يوستينيانوس يفيد ان ترقية في سلك الوظائف المدنية يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى المامه باللاتينية هذه اللغة النادرة^٢ .

وتطورت اسماء الوظائف فأصبح معظمها في القرن السابع يونانياً ، وما بقي منها لاتينياً لحتى به التحوير فاتخذ شكلاً يونانياً . وحتى عهد هرقل كانت اللاتينية لغة الجيش الوحيدة . وكان معظم كبار الضباط يتكلمون اللاتينية وهم من ابناء الولايات الاوروبية ويحملون اسماء لاتينية^٣ . واما في ايام هرقل فان رجال الجيش أصبح معظمهم آسيويين من ارمينية وسائر الولايات الآسيوية واصبحت لغة الجيش اليونانية . واذا كان الروم قد لبثوا يرددون بعض العبارات اللاتينية حتى القرن العاشر فانهم قليلاً ما كانوا يفقهون شيئاً مما يلفظون^٤ .

تزايد نفوذ الكنيسة : وتم اندحار الوثنية في القرن السادس واكتمل انتصار النصرانية . ولكن النصارى كانوا لا يزالون منقسمين شطرين رئيسين : ارثوذكسين كاثوليكين ، ومونوفيسيين . وكان هم الاباطرة الاكبر ان يوفقوا الى ايجاد حل يجمع الشمل ويوحد الكلمة . فجاءت

Novelles, 7,1.

١

Johannes Lydus, De Magistr., III, 68.

٢

Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 172-173 ; Aussaresses, L'Armée byz., ٣ 82-83 .

Bury, J. B., op. cit., II, 176 .

٤

حروب الفتح العربي فسلخت عن جسم الدولة كل من قال بالطبيعة الواحدة فأصبحت الدولة البيزنطية ارتوذ كسية كاثوليكية موحدة . وأصبح الفيلسوف حراً طلقاً يقول بعقيدة يجمع عليها رعاياه ، وينتحل نحلة دينية لا يختلف فيها من رعاياه اثنان ، فيقسم عند تقبله التاج من يد بطريك العاصمة : « انه سيكون ابن الكنيسة البار وخادمها الامين » ، وانه سيرعاها بعنايته ويدافع عنها جهده ، ويحترم امتيازاتها وتقاليدها ، فيحرم كل ما تحرمه ، ويؤيد كل ما أقرته مجامعها .

وتزايد نفوذ الكنيسة في الاوساط الشعبية ، فبهرت عظمة طقوسها العقول ، وحرك وعظها الافئدة والصدور ، وتعلق الشعب برهبانها وعقد على صلواتهم وتضرعاتهم الآمال بالسعادة والنجاح . فأقبل الناس على الترهب زرافات زرافات ، ورأوا في ارتداء الثوب افضل السبل الى خلاص النفس . وتعددت الاديرة فحوت منها العاصمة وحدها عدداً عظيماً^٢ .

وبسقوط الاسكندرية وانطاكية واوروشليم في يد العرب أصبح بطريك القسطنطينية زعيم الكنيسة الاوحد في الشرق . وكان بطريك القسطنطينية قد أصبح بطريكاً مسكونياً منذ السنة ٥٨٢ بقرار من مجمع محلي عقد في القسطنطينية للنظر في خصومة نشبت بين غريغوريوس بطريك انطاكية واستيروريوس والي الشرق . وقد نشأ عن هذا القرار جدل عنيف بين حامل هذا اللقب يوحنا الصوام وغريغوريوس الذيالوغوس بابا رومة^٣ . وبطبيعة الحال أيد الفيلسوف بطريك عاصمته فبذرت بذور الشقاق والانفصال بين فرعي الكنيسة الام . وقضت ظروف سبقت اليها

Codinus, Officiis, ed. Bonn, 86-87 .

١

Marin, E., Les Moines des Constantinople, (Paris, 1896) .

٢

٣ ومن القابه ، ايضاً ، الاول والكبير . راجع تفاصيل هذا الجدل ، وتاريخ هذا اللقب ، في تاريخ الانشقاق ، لجراسيموس متروبوليت بيروت ، ج ١ ، ص ٣١٢ - ٣٣٠ .

الاشارة بان يهاجم ضباط الجيش الامبراطوري القصر الباباوي سنة ٦٣٩
 وان ينهبوا كنوزه . وفصل قسطنطين الثالث في السنة ٦٥٩ كنيسة راينبة
 عن كنيسة رومة . وفي السنة ٦٥٣ اوقف اكسرخوس راينبة البابا مرتينوس
 وارسله الى القسطنطينية ، فتركت هذه الاعمال كلها اثراً سيئاً في نفوس ابناء
 رومة وغيرهم . وبما زاد في التباعد بين الفرعين الرئيسين للكنيسة الأم أن
 اللغة اليونانية في رومة قلّ تداولها وتفهمها بقدر ما قلّ تداول اللاتينية
 وتفهمها في القسطنطينية^١ . وبرغم الاتفاق الذي ساد جو الجمع المسكوني
 السادس المنعقد في السنة ٦٨٠ فان شيئاً كثيراً من الحذر وقلة الثقة بقي
 كامناً في الصدور . ثم جاء الجمع البثيكتي في السنة ٦٩٢ فأكد مرة
 ثانية بان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم « اسوة » بتقدم كرسي رومة
 القديمة^٢ . فلم يكن ذلك مما ارتاحت اليه النفوس في رومة الارتياح كله .
 وأدى تعاضل امر الرهبانية في الدولة الى زيادة كبيرة في عدد الرهبان
 وبالتالي الى نقص في دخل الخزينة ، لأن القانون أعفى الرهبان من دفع
 الضرائب ، كما منع جبايتها عن الاوقاف الدينية . وتوافرت ثروة الرهبانيات
 فقوي نفوذها ، وأصبحت عنصراً سياسياً هاماً يتدخل في أحيان فيعرقل
 سير السياسة ويعتقد مشاكلها . ومن جراء الانسياق غير الواعي في موجة
 من التعبد الشديد ، ساد النفوس ضرب من القدرية الغاشمة أفضت بدورها
 الى فقدان النشاط والعزم والحزم وروح المبادرة ، ولاسيما ازاء الحوادث
 الكبرى^٣ .

Gregorii Magni Epistolae, VII, 29; XI, 74.

١

٢ القانون السادس والثلاثون .

Paparrigopoulos, K., Civilisation Hellenique, 184 ; Diehl et Marçais.

٣

Monde Oriental, 228-231.

الفصل الثامن عشر

الآداب والعلوم والفن في القرن السابع

وهو اشد القرون عمقاً في تاريخ الفكر البيزنطي . ولعل السبب في ذلك هول الاخطار التي احدثت بالدولة وتتابع الحروب الطاحنة التي استنفدت جهودها فشغلت ابناءها عن العمل في حقل الفكر والفن .

وافضل ما تبقى من آثار هذا القرن في التاريخ والادب شعر جاورجيوس البسيدي شماس كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية . عاصر هذا الشماس هرقل ونظم في حروبه الفارسية وفي حصار القسطنطينية سنة ٦٢٦ قصائد خاصة بقيت موضع اعجاب الروم زمناً طويلاً . ورجال الاختصاص يجمعون اليوم على ان جرجس البسيدي افضل من نظم عند الروم في المواضيع الزمنية غير الدينية^١ .

وقد عاصر هرقل مؤرخ آخر هو يوحنا الانطاكي فكتب تاريخاً عاماً منذ آدم حتى آخر ايام فوقاس (٦١٠) . ويرى فريق ان ما ينسب اليه هو في الحقيقة نتاج قلم يوحنا ملالاس الانطاكي . على انه قول ضعيف لان ملالاس كتب بوصفه انطاكياً ينظر الى تاريخ العالم من نافذة انطاكية دون سواها . اما يوحنا الذي نحن بصددده فإنه ينظر الى الحوادث العالمية

Krumbacher, K., *Gesch. der Byz. Litt.*, 709.

بوصفه رجلاً عالمياً لا انطاكياً فقط ، وهو اشد حذقاً في تناول مراجعته وتقديرها من يوحنا ملاس . وفي عصر هرقل ايضاً نشأ الكابريكي مجهول فدّون خرونيقون الفصح Chronicon Paschale وذكر حوادث العالم ايضاً منذ آدم حتى السنة ٦٢٩ . ولهذا الخرونيقون اهميته لان صاحبه يذكر فيه مراجع زملائه المؤرخين ويدّون بعض ما شاهد أو عاصر من الاحداث والاشياء .

والجدل العنيف الذي نشب في القرن السابع حول المشيئة الواحدة نشط التأليف في هذا القرن . على ان ما صُتّف في تأييد القول بالمشيئة الواحدة قد اهل ففقد بعد انتصار القول بالمشيئتين . ولا سبيل الى تعرف من كتب في المشيئة الواحدة الا بطريق من كتبوا يردّون على هذا القول . وأشهر اصحاب الرد على القول بالمشيئة الواحدة مكسيموس المعترف . وهو قسطنطيني الموطن ، شريف النسب ، فيلسوف ولاهوتي مرموق . كان في اول امره كاتب سر لهرقل الفسيلفس . فلما قال الفسيلفس بالمشيئة الواحدة خرج مكسيموس من البلاط الملكي واعتزل في دير في خريسوبولي (اسكي دار) ، ثم صار رئيساً لهذا الدير . ومن هنا التعبير العربي Maxime l'Abbé . وقد دافع عن القول بالمشيئتين والفعالين ، وكتب الكتب متأثراً بمؤلفات اثناسيوس الكبير ، وغريغوريوس النزيانزي وغيرهما . وكان عهد قسطنطين الثالث فأمره ان يكف عن الخطابة والكتابة فأبى . فأمر الفسيلفس بقطع لسانه ويده اليمنى . ثم نفاه الى لازقة ، فتوفي في المنفى في السنة ٦٦٢ ، وأعلن في القديسين . ولا يزال الارثوذكسيون ، حتى يومنا هذا ، يرتلون : « لمتدحنّ حق الامتداح مكسيموس العظيم ، عاشق الثالوث ، الذي حكم بصراحة للايمان الالهي بان يمجّد المسيح بطبيعتين ومشيئتين وفعالين . ولنهتفنّ قائلين : السلام عليك يا كاروز الايمان . » ويرى بعض رجال الاختصاص ان مكسيموس المعترف جمع في

رسائله ومؤلفاته بين التصوف النظري الذي وضعه ذيونيسيوس الآريوباغوسي وبين مشاكل الرهبانية العملية ، فاستحق بذلك ان يدعى مؤسس التصوف البيزنطي^١.

واتصلت آراء مكسيموس بالغرب فتأثر بها عدد من رجال اللاهوت . وفي طليعة هؤلاء يوحنا الاريجيني Johannes Scotus Eriugena من اعيان القرن التاسع . وكان يوحنا هذا قد عشق مؤلفات ذيونيسيوس الآريوباغوسي فاعترف انه لولا مصنفات مكسيموس « الفيلسوف الالهى الكلى الحكمة » لما تمكن من فهم ذيونيسيوس^٢.

وعني صفرونيوس بطريك المدينة المقدسة الذي عانى متاعب حصارها من قبل العرب باخبار القديسين ، فكتب مطولاً في سيرة القديسين المصريين كيروس ويوحنا ، فأتحفنا بفذلكات مفيدة من جغرافية واجتماعية . وبما ينسب اليه انه هذب صلاة الشكر المسائي : الافشين « يا نوراً بهياً » . ومن اعيان هذا القرن أيضاً لاونديوس اسقف نيبوليس في قبرص . ألف في سير القديسين ولاسيا سيرة يوحنا الرحوم بطريك الاسكندرية فأفادنا لانه اهتم في كتابته لناحيتي الاقتصاد والاجتماع . ويختلف لاونديوس عن معظم من ألف في أخبار القديسين انه كتب متأثراً باللهجة اليونانية الدارجة في عصره ، اذ جعل هدفه ارشاد العامة قبل الخاصة^٣.

ومن اشهر في هذا القرن ايضاً اندراوس الدمشقي الذي نشأ في دمشق وترعرع فيها ، فعكف منذ حداثة على العلم . ثم تقبل النذر في فلسطين ، فصار كاتب ثيودوروس بطريك المدينة المقدسة . واشترك في

Epifanovich, S., *The Blessed Maximus Confessor and Byz. Theology*, ١

137; Krumbacher, K., *Gesch. der Byz. Litt.*, 63, 141 .

Brilliantov, A., *Influence of Eastern Theology upon Western*, 50-52 . ٢

Gelzer, H., *Leontios von Neapolis*, 91 . ٣

اعمال المجمع المسكوني السادس الذي انعقد في عهد قسطنطين الالحى سنة ٦٨٠ ، ثم صار شامساً للكنيسة العظمى ، فرئيساً لاساقفة اقریطش . وتوفي بين السنة ٧٢٠ والسنة ٧٢٣ . أما أشهر آثاره فاناشيده الدينية المعروفة بالقانون الكبير . ولعله اول قانون من نوعه ، يشتمل على أهم حوادث الكتاب المقدس . ويتلى هذا القانون في الاسبوعين الاول والاخير من الصوم الكبير .

وكان طبيعياً جداً ان تحول الحروب الطويلة التي نشبت في هذا القرن دون العناية بانشاء المباني الفخمة ، ولكن القليل الباقي من آثار البناء التي ترجع الى هذا القرن يدل بوضوح على ان الاسس الفنية التي وضعت في عهد يوستينانوس الكبير كانت ما تزال متبعة في عهد هرقل وخلفائه . وتدلل هذه الآثار نفسها على ان مدى تأثير الفن البيزنطي كان قد تعدى حدود الامبراطورية . فكتدرائية ايتشميازان الارمنية التي رمت بين السنة ٦١١ والسنة ٦٢٨ تنطق بأثر الفن البيزنطي في ارمنية ، وكذلك كنيسة قلعة عانة (٦٢٢) وبعض تصاوير كنيسة القديسة مريم القديمة في رومة .

ويرى العلامة الفنان سارل ديل ان قبة الصخرة التي أنشأها الخليفة الاموي عبد الملك ابن مروان في بيت المقدس بين السنة ٦٨٧ والسنة ٦٩٠ بعد الميلاد هي من حيث فنها نموذج مكمل للفن البيزنطي في القرن السابع . فشكلها المثلثن الزوايا وقبتها ولاسيما تليس جدرانها بالرخام وتزينها بالفسيفساء المذهبة ، جميع ذلك ينطق بأثر الفن البيزنطي . ويرى هذا العلامة الرأي نفسه فيما يتعلّق بالمسجد الاموي في دمشق فيذكر ان الوليد ، عندما أراد ان يحول كنيسة مار يوحنا المعمدان الى جامع ، استعان بزميله فيلسف الروم فأرسل له الصناع لهذه الغاية وان الكنيسة هذه اصبحت بعد تحويلها تشبه من الجهة الفنية بسيليقية

بيزنطية ذات قبة وان الفسيفساء التي وشحت الجدران هي فسيفساء
بيزنطية ايضاً .

*Diehl, Ch., Manuel d'Art Byzantin, I, 344-345 ; Saladin, Manuel d'Art
Musulman, 55-71, 80-87 ; Kondakof, Voyage, Syria, III.*

الباب السابع انتعاش وتوطيد واستقرار

•

الفصل التاسع عشر

الاسرة الاسورية او السورية

(٧١٧ - ٨٠٢)

اصلها : وفي السنة ٧١٧ اعتلت عرش الروم أسرة ظلّ المؤرخون يعتبرونها إسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولكن في السنة ١٨٩٦ كتب العالم الالماني شينك في مجلة الابحاث البيزنطية مقالاً قيماً في مؤسس هذه الاسرة لاوون الثالث ، فجعله سورياً لا إسورياً^١. ثم جاء بعده من ايده^٢ ، ومن عارضه^٣. والسبب في هذا الاختلاف في الرأي هو ان ثيوفانس المرجع الرئيس في سيرة لاوون قال عنه انه من ابناء

Schenk, K., *Kaiser Leones, III, Byz. Zeit.*, V, 296 ff.

١

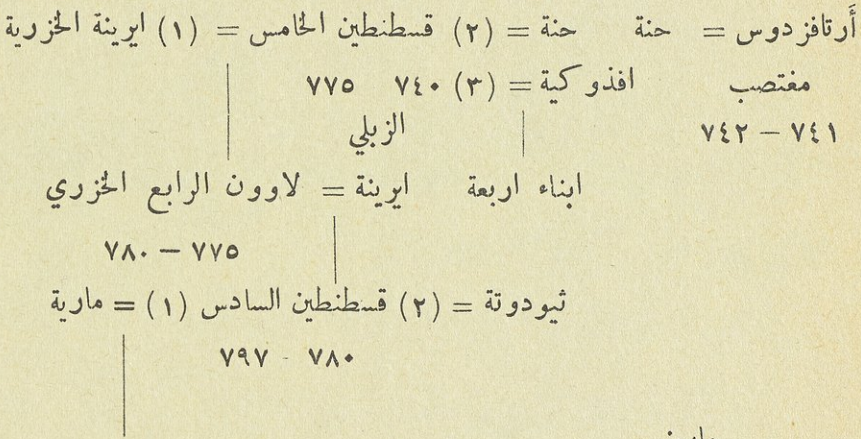
Iorga, N., *Origines de l'Iconoclasme, Bulletin Acad. Roumaine, XI*, ٢ (1924), 147.

Kulakovsky, J. A., *Hist., of Byzantium, III*, 319.

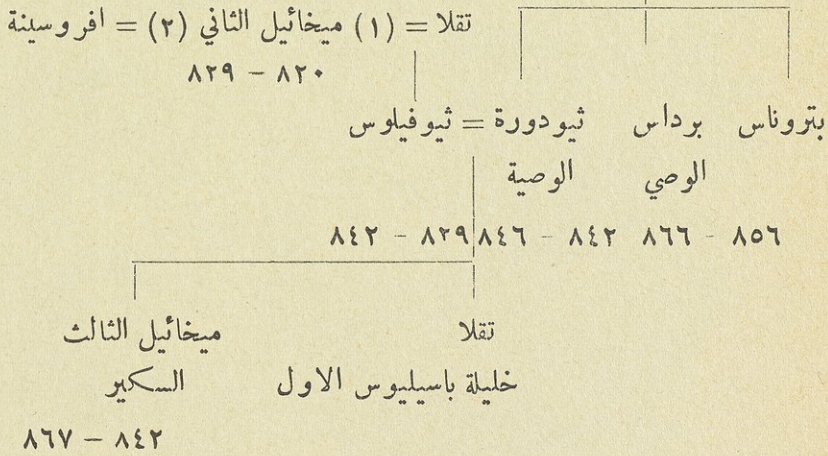
٣

لاون الثالث

٧١٧ - ٧٤٠



مارينوس



جرمانيكية (مرعش) ومن اصل إسوري^١ وان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته ان لاوون كان من ابناء جرمانيكية وانه كان سوري المولد^٢. والواقع ان اسطفانوس الاصغر يؤيد القول بالاصل السوري ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب العيون والحداثق الذي صنف فيما يظهر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر. فهذا المؤرخ المجهول يجعل لاوون سورياً يجيد العربية كاليونانية^٣.

وشجرة النسب الواردة في الصفحة السابقة تشمل الاسرتين الاسورية والعمورية. ويتضح منها ان لاوون الثالث ، المؤسس المنظم المصلح كما سيمرّ بنا ، توفي في السنة ٧٤١ وان ابنه قسطنطين الخامس الذي تزوج من ابنة خاقان الخزر جلس بعده على العرش فساس البلاد اربعاً وثلاثين سنة اثبت في اثنائها انه خير خلف لوالده المؤسس . وجاء بعده ابنه لاوون الرابع « الخزري » نسبة الى والدته ، وتزوج من آثينية اسمها ايرينة. ولكن كان مريضاً بداء السل فمات صغيراً بعد ان حكم مدة وجيزة (٧٧٥ - ٧٨٠) . وكان ابنه وخلفه قسطنطين السادس لا يزال في العاشرة فاصبحت ايرينة الوصية الوحيدة على العرش واقترن اسمها باسم ابنها القاصر في جميع شؤون الدولة . وكانت ايرينة هذه ذكية محبوبة من الجماهير . الا انها كانت شديدة الطموح . فما ان تولت منصب الوصاية حتى افعمها جاه المنصب استبداداً وطمعاً يشوبه الغرور . ومع ذلك نالت عطف الجماهير وتأييد رجال الدين لانها اوقفت حرب الايقونات . وقد ملأت جميع المناصب الهامة برجال من بطانتها.

Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 391.

Chronographia Tripertita, ed. Boor, 251.

٣ ج ٣ ، ص ٢٥ .

وطالت مدة حكمها عشر سنوات وهي مستأثرة بالسلطة لا يشاركها فيها احد . واستولى عليها الغرور وعظمت ثقها بنفسها فبقيت على استئثارها بالسلطة حتى بعد ان بلغ سن الرشد . فثار عليها لما بلغ الثانية والعشرين من عمره وتسلم ازمة الاحكام بالقوة . فبقيت ايرينة امماً شاذة لا ترضى عن استئثار ابنها بالسلطة وظلّت تحلم باستعادة نفوذها ، حتى كانت السنة ٧٩٧ فتمكن المتآمرون الذين كانوا يعملون لحسابها من القبض على ابنها قسطنطين السادس فسلوا عينيه وجلسوه في احد الاديرة . وبذلك انتهى حكم هذه الاسرة الاسورية او السورية . اما قسطنطين فانه عاش سنوات عدة راهباً اعمى . وراقب عن بعد خمسة اباطرة تعاقبوا على العرش من بعده . واول هؤلاء امه ايرينة التي جلست على العرش خمس سنوات متتالية . والظريف الطريف عنها انها كانت تلقب فيلسفاً لا فيلسفة لان الروم في عهدها كانوا يرون ان حق الاستراع من خصائص الرجال لا النساء . ولم تسقط ايرينة قبل السنة ٨٠٢ عندما سيطر وزير ماليتها الكبير نفقور على بعض الحصيان ورجال البلاط . فقبض عليها بهدوء وجلسها في احد الاديرة . ولم يحرك احد ساكناً من اجلها . واعتلى نفقور العرش بهدوء ٢ .

الحرب العربية : وكتب على لاوون الثالث ان يصدّ العرب وان يمنع مسلمة من الاستيلاء على القسطنطينية كما سبق ان اشرنا . وكانت محاولة مسلمة تلك هي الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين فلم يتسن لهم بعدها الدخول الى اوروبة الشرقية ولم يحاولوا الحرب بمجد ونشاط بعد هذه الصدمة التوبة . ولعل السبب في هذا كان ظهور الخزر في اقصى

Lingenthal, K. E. Z., *Jus Graeco-Romanum*, III, 55; Zepos, P., *Jus Graeco-Romanum* I, 45.

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الشمال وتعاونهم مع الروم وانقضاهم على أذربيجان ، وقد حالف لاوون الثالث هؤلاء الخزر . وفي السنة ٧٣٢ أزوج ابنه قسطنطين الخامس ابنة خاقان الخزر ايرينة^١ . ولعل السبب في هذا ايضاً ان الذين تربعوا على عرش الامويين في هذه المدة كانوا اشخاصاً ضعفاء الهمة والعزيمة ، سقطوا صرعى للغواني والشراب ، وعبيداً للملذات والشهوات . وقد يكون السبب ايضاً ما وقع من التصادم بين القيسيين واليمنيين ، وما حصل من سخط مسلمي فارس على الامويين لانهم لم يساووا بين المسلم غير العربي والمسلم العربي^٢ .

بيد ان غزوات العرب الامويين لم تنته عند الفشل الذي حل بهم حول اسوار القسطنطينية في السنة ٧١٨ ، فقد اغاروا في السنة ٧٢٥ على قبدوقية واستولوا فيها على قيصرية وهددوا نيقية . وفي السنة ٧٣٧ عادوا الى الحرب وبلغوا تيانة في جنوبي قبدوقية ، فضربوا عليها الحصار في السنة ٧٣٩ . ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في يوم اكروينون^٣ (افيوم قره حصار) ، فاضطروا ان يجلوا عن غربي آسية الصغرى ، وان يتراجعوا شرقاً فجنوباً . وفي هذا اليوم على الارجح قتل عبدالله البطل الذي تميز في حرب مسلمة فأصبح فيما بعد السيد غازي الذي اعتبره الاتراك بطلاً من ابطالهم ، فأنشأوا له قبراً بالقرب من اسكي شهر (دوريلايوم) وتكية فمسجداً للطريقة البكتاشية^٤ .

واستغل قسطنطين الخامس الغليان الداخلي في الدولة الاموية فانقض^٥ في السنة ٧٤٥ على حدودها الشمالية واستعاد مرعش ودولوك ، وأجل

^١ Lombard, Alfred, Constantin V, 31 .

^٢ الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٦٣ - ٦٥ .

^٣ Akroinou .

^٤ Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 238.

نصارى الحدود الى تراقية . وفي السنة ٧٤٦ جهّز اسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية ومخرباً به الى قبرص ، فقتل على اسطول عربي كان في مياهها واحتل الجزيرة . وفي السنة ٧٥١ جرّد حملة على حدود العرب في ارمينية فاستولى على ارضروم وملاطية . ثم اتجه نحو الفرات فاحتل حصن قلوذية وبلغ شمشات^١ .

وكانت جبال طوروس بسلسلتها هي الحد الفاصل بين الدولتين . وكان خط الدفاع البيزنطي ينقسم قسمين رئيسيين ، احدهما يمتد من ملاطية الى عين زربة ، وهو مخصص لصد الغارات من شمالي العراق ، والآخر يمتد مقابلاً الشام لصد الحملات المتباعدة منها . وعني الروم عناية فائقة بهذين الحطين الطبيعيين ولاسيما الممرين عبرهما : الممر الذي ينتهي عند ابواب قيليقية بين ادنة وسائر الاناضول الشمالي ، وممر كوردخاي بين مرعش والبستان^٢ . وكان على قمة شديدة الارتفاع عند اقصى الممر الاول في جهة الشمال حصن حصين يتحكم بسهول قبدوقية الجنوبية ويسمى قلعة اللؤلؤة ، وقد أصبح في هذا العهد الذي نحن بصده مضرب الامثال في المناعة . وكان هذا الممر يضيق جداً في جنوبيه فيصبح عرضه عند ابواب قيليقية بضعة امتار . وكانت تحيط به صخور شاهقة في ارتفاع عمودي ، وتشرف عليه قلعة الصقالبه ، بحيث تستطيع حاميتها وقف جيش كبير العدد . أما ممر كوردخاي فكانت اهم قلاعها قلعة زبطرة^٣ ، وقلعة ملاطية لوقوعها عند ملتقى الطرق الرئيسة المؤدية من سبسطية وسيواس وقيصرية الى ارمينية وشمالي العراق . واطلق العرب على الممر الاول اسم درب السلامة ، وعلى

Lombard, A., op. cit., 35-36; Laurent, J., *l'Arménie entre Byzance et l'Islam*, 184, 208.

Arabissos.

Zapetra.

٢

٣

الممر الثاني اسم درب الحدث . وقد اقام الروم ، عبر آسية الصغرى ، من قلعة اللؤلؤة الى القسطنطينية ، سلسلة من المنارات لارسال الانباء باشعال النار . فكانت النار التي توقد على برج حصن اللؤلؤة يراها الحراس المقيمون في برج جبل ارغايوس المطل على بحيرة تانة ومنه يراها الحراس في برج اغيلوس ، ثم ينتقل خبرها الى معسكر دوراليوم الكبير ، فبرج ماماس ، فبرج موكيلوس ، فبرج خليج بيثينية ، فبرج القديس اوكنتيوس ، فالتصر الكبير . وفي عهد الامبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢) ادخل لاوون الرياضي تحسيناً على هذه الطريقة . فانه أعد ساعتين تسييران في زمن واحد احدهما جعلها في القصر الكبير في القسطنطينية ، والاخرى في قلعة اللؤلؤة . ورتب لاوون ان تتفق السلطانان : السلطة المقيمة في القصر ، والسلطة المقيمة في القلعة ، على اثني عشرة حادثة يرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثني عشرة . وتكتب كل حادثة امام الرقم المخصص بها على واجهة الساعة . فاذا حدث ان أحس محافظ قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً ان العدو على اهبة عبور الحدود انتظر الى الساعة السادسة ليتبين حركات العدو ثم اشعل النار . وعندما تنقل تلك الاشارة عبر المحطات الى القصر الامبراطوري ينظر الحراس الى الساعة فيعلمون متى اشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ويقفون بذلك على معنى هذه الاشارة ، اي ان العدو اخذ يحرك ركابه للهجوم . واذا اشعلت النار في الساعة السابعة علموا ان الحرب وقعت بين الطرفين . واذا اشعلت في الساعة الثامنة دلت على ان العدو قد اعمل الحرائق وهكذا .

Bury, J. B., op. cit., II, 244-245.

ونقله للعربية بمعظمه من لفظ الدكتور احمد العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ،

ص ٧٠ - ٧٥ .

وعني العرب بمثل ما عني به الروم . فأسس هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩) اقليم عواصم بالإضافة الى اقليم الثغور . فشمّل اقليم العواصم حلب ومنبج وانطاكية الى الساحل . وجعل عليه ابنه المعتصم . واطليم العواصم هذا كان سلسلة من الحصون الداخلية تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وكان اقليم الثغور في عهده ينقسم قسمين : الثغور الجزرية لحماية العراق ، ومن حصونها زبطرة ومنصور والحديث ، والثغور الشامية ومن حصونها المصيصة وادنة وطرسوس^١ .

وليس في المراجع العربية او غيرها ما يدل على ان الخلفاء العباسيين قد هدفوا الى ما هدف اليه اسلافهم الامويون من حيث القضاء على دولة الروم والسيطرة على حوض البحر المتوسط . فالصوائف والشواتي في عهدهم لم تكن سوى غارات للاستيلاء على معاقل جبال طوروس او للنهب والسلب الشائعين في ذلك العصر . فغزو الربيع كان يبدأ من منتصف ايار بعد ان تكون الخيول العربية قد سميت ، ويستمر شهراً من الزمن تجدد فيه هذه الخيول غذاءً وفيراً في مراعي الروم . ثم تخلد الى السكينة شهراً ، وتستأنف بعده غارات تستغرق ستين يوماً . اما غزو الشتاء فكان يقع عادة في النصف الاول من آذار^٢ .

وفي السنة ٧٨٣ ثار الصقالبة على ايرينة فاضطرت ان تسحب بعض قواتها من آسية الصغرى لاختماد هذه الثورة في مقدونية وبلاد اليونان . فانتهز العرب الفرصة وتوغلوا في آسية الصغرى فكسروا الروم في درنون

١ البلاذري ، ص ١٧٦ . والمدوي ، ص ٧١ - ٧٢ .

Le Strange, G., East. Caliphate, 128.

٢ قدامة ابن جعفر ، الخراج ، ٢٥٩ . راجع ايضاً الملحق الثاني من كتاب الدكتور

ابراهيم احمد المدوي ، ص ١٨١ - ١٨٥ .

ووصلت طلائعهم الى ضفة البوسفور . فصاحت ايرينة على ان تدفع مالا سنوياً قدره سبعون او تسعون الف دينار . وفي السنة ٧٨٤ استولى العرب على ثيباسة في قبدوقية^١ . وكان الفريقان يراقبان السواحل فأسر الروم في السنة ٧٩٠ بضع سفن عربية وهي في طريقها من مصر الى الشام . واغار الاسطول العربي على قبرص في هذه السنة نفسها وانزل قواته في الجزيرة وهزم اسطول الروم في مياه اضالية وأسر اميره ولكن خسارة العرب كانت فيما يظهر عظيمة^٢ . وفي السنة ٧٩٨ توغل العرب في آسية الصغرى مرة اخرى فاكتسحوا قبدوقية وغلطية فاضطرت ايرينة ان تدفع الى هارون الرشيد المال السنوي نفسه الذي كانت قد دفعته الى المهدي^٣ .

البلغار والصقالبة : وعاون البلغار لاوون الثالث على العرب اثناء حصارهم القسطنطينية . وظلّت العلاقات ودية بين الروم والبلغار ثلاثين سنة . اما قسطنطين الخامس (٧٤٠ - ٧٧٥) فإنه نقل الى البلقان عدداً كبيراً من الارمن والسوريين المسيحيين وانشأ سلسلة من الحصون عند حدود البلغار ثم شنّها حرباً على هؤلاء ليقتضي على دولتهم ولكنه لم يفلح ، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين لقب ذابح البلغار ؛ *Bulgaroctonus* . وعند نهاية القرن الثامن اتخذ البلغار خطة الهجوم فأكروها قسطنطين السادس ووالدته ايرينة على ان يؤدوا لهم مالا معلوماً كل سنة .

وفي المراجع ما يدل على ان الصقالبة كانوا قد انتشروا في طول

Honigmann, E., Ostgrenze des Byz. Reiches, 47.

Brooks, E. W., Relations between Emp. and Egypt, Byz. Zeit., (1913), ٢ 385; Weil, Gesch. der Chalifen, II, 157.

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 239.

Lombard, A., Etudes, Constantin V, 59.

اليونان وعرضها عند منتصف القرن الثامن وانهم ظلوا يتدفعون عليها حتى اصبحوا اصحاب الكلمة فيها وفي قسم كبير من البلقان . وقد سبقت الاشارة الى الحملة التي انفذتها ايرينة نفسها لمحاربة هؤلاء الصقالبة في السنة ٧٨٣ .

الاكلوغة : وعني لاوون الثالث بالتشريع ، فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عصر يوستينانوس الكبير قد اصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . رأى الناس في بعض الولايات الشرقية لا يزالون يؤثرون العرف حتى على بعض شرائع يوستينانوس ، كما رأى بعد تقلص الامبراطورية من جراء الفتح العربي وتغلب الصقالبة والبلغار على جزء كبير من البلقان ان اليونانية قد اصبحت هي اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان ، وبالتالي لابد من تشريع باليونانية خلاف تشريع يوستينانوس الموضوع باللاتينية . فصمم لاوون على العمل في هذا الحقل فانتقى في السنة ٧٢٦ ، لا ٧٣٩ ، كما يرى البعض^٢ ، لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر في قوانين يوستينانوس واصطفاء المفيد منها وتحسينه ووضعها باليونانية . وأطلق لاوون على مجموعته هذه اسم الاكلوغة *Ecloga* ومعناه المنتخبات . ومما جاء في مقدمة الاكلوغة هذه ان قوانين الاباطرة قد اصبحت صعبة المنال إما لتفرقها في الكتب الكثيرة او لصعوبتها على الفهم او لقلة تداولها في الاوساط خارج العاصمة « المحروسة من الله » . ومما جاء في هذه المقدمة ايضاً انه يجب على القضاة ان يتجردوا من العاطفة وان يحكموا بالعقل والعدل ، والأيتقروا الفقراء والمساكين والا يتركوا الاقوياء المجرمين طلقاء الايدي وان يمتنعوا من قبول الهدايا . وكذلك نصت هذه

Vasiliev, A. A., op. cit., 240.

Ginnis, D., Das Promulgationsjahr der Isaurischen Ecloga, Byz. Zeit., ٢ (1924), 356-357.

المقدمة على وجوب دفع مرتبات القضاة من الخزينة « الصالحة » كي لا تم نبوءة عاموس « لانهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين فتسلط علينا غضب الرب بتجاوز وصاياه . »

وتتضمن الاكلوغة في اقسامها الثانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال الشخصية . ولا تبحث في الجزاء الا قليلاً . وهي تختلف عما استرعه يوستينانوس اختلافاً بيئياً في بعض الاحيان . فهي تأخذ بالعرف احياناً وباجتهادات القضاة السابقين احياناً اخرى . ويتساوى امامها الغني والفقير ، الامر الذي لا نلقاه دائماً في مجموعة يوستينانوس . والاكلوغة مسيحية اكثر من الدجستا تحلّ فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل الاستشهادات بالشرع الروماني القديم^٢ . ولكن مع هذا كتبه لا يرى رجال الاختصاص في الاكلوغة ما رآه المورخ اليوناني باباريغوبولو الذي صنف في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فإنه رأى في الاكلوغة أسساً لم يتوصل اليها القانون في الغرب الا بعد الف سنة^٣ .

• **قانون المزارعين :** وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود في الارجح الى عهد الاسوريين ايضاً . واشهر هذه القوانين قانون المزارعين . وهو في رأي الثقات من اشترع لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس . اما تاريخ صدور هذا القانون فقد كان في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الاكلوغة (٧٢٦) او بعيد ذلك^٤ . ويرى العالم الروسي بنشكوف ان هذا القانون مستمد من العرف الذي ساد الاوساط الريفية والذي لم

١ Zepos, J., *Jus Graeco-Romanum*, II, 14, 16-17; Freshfield, E., *A Manuel of the Roman Law*, Ecloga, 68-70 .

٢ Bury, J. B., *Constitution of Later Rom. Emp.*, II, 414 .

٣ Paparrigopoulo, K., *Hist. Civ. Hellenique*, 205-209 .

٤ Lingenthal, Z., *Gesch. des Griechisch-romischen Rechts*, 250 .

تشمله الاكلوغة^١.

والداعي لاهتمام العلماء بهذا القانون خلُوه من الاشارة الى الكولوني والاقنان Serf واهتمامه بظواهر جديدة بين الفلاحين كالملكية الفردية الحرة والملكية الجماعية او المشاع وحرية الانتقال ومنع الخدمة الاجبارية. وقد نغالي اذا قلنا مع ثيودور اوسبنسكي ان هذه الظواهر الجديدة شملت الدولة باسرها وان الفلاح زمن الاسوريين دخل في عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة^٢. وقد نغالي ايضاً اذا قلنا مع شارل ديل وزميله جورج مارسه ان لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع ان يوقفا توارى الممتلكات الحرة الصغيرة وان يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة وان يضمنا للفلاح ظرفاً افضل^٣. ولا يجوز التماذي في القول مع بعض العلماء ان لاوون وابنه اضطرا ان يدخلوا على شرع الدولة عرفاً خاصاً صقلياً في اساسه لكي يستهوا العناصر الصقلية في الدولة ويوقفا ميل هؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم. ويرى المؤرخ الكسندر فسيلييف ان في مجموعات ثيودوسيوس ويوستينانوس وفي اخبار القديسين ما يدل على ان الملكية الحرة الصغيرة كانت لا تزال باقية حتى عهديهما وان الدولة الرومانية عرفت نظام المشاع في اوائل عهدها وان الملكية الحرة الصغيرة بقيت منتشرة في الدولة البيزنطية الى جانب الملكية الكبيرة وكولونيتها وفدادينها. ولعل الأقرب الى الحقيقة ان تؤخذ هذه الأمور جميعها بعين الاعتبار.

القانون البحري الرودوسي: ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية

Pancenko, B. A., *The Rural Code and Monastic Documents*, 86 .

Uspensky, *Th. I, Byz. Emp.*, I, 28 .

Diehl, Ch., et Marçais, G., *Mande Oriental*, 256, n. 23 .

Vasiliev, Alexander, A., *Byz. Emp.* 246-247 .

القديمة ملاحق تتضمن قانونين آخرين احدهما بحري والآخر عسكري .
ويخلو هذان القانونان من اية اشارة الى تاريخ صدورهما . أما بعض رجال
الاختصاص فقد رأوا في محتوياتهما ما يدل على انها من انتاج الاسرة الاسورية .
والقانون البحري الرودوسي قانون تجارة بحري يبحث بنوع خاص في
توزيع المسؤوليات عند تعرض السلع للخطر ، إما من جراء العواصف
البحرية او القرصنة . وهو يختلف عما جاء من نوعه في تشريع يوستينيانوس
فيقسم تبعة الحسارة بين صاحب المركب والتاجر والركاب . وتدل
محتويات هذا القانون على انه صدر في عصر كانت قد شاعت فيه قرصنة
العرب والصقالبة .

قانون الجند : اما قانون الجند فانه ماخوذ من قوانين يوستينيانوس
ومن الاكلوغة ، ومصادر اخرى . وهو في اساسه قانون عقوبات عسكري
يحدد الاحكام التي ينبغي للسلطة ان تجرئها على الجنود في حال رفض
الطاعة ، او التمرد ، او الفرار ، او الفسق ، او ما اشبه . والعقوبات
المفروضة صارمة جداً . فاذا صحت نسبة هذا القانون الى لاوون الثالث
فانه يظهر عندئذ شدة الانضباط الذي أوجبه هذا القائد العسكري^١ .

الثيمات او البنود : وليس لدينا من المراجع الاولية ما يثبتنا بما
فعل لاوون الثالث بنظام الثيمات . ولكن رجال الاختصاص يرون فرقاً
بين ما حفظته مراجع القرن السابع الرومية عن هذا النظام ، وبين ما
دوّنه ابن خردادبه في كتابه المسالك والممالك في القرن التاسع . وهم ينسبون
هذا الفرق الى لاوون وابنه قسطنطين^٢ . ويرى هؤلاء الاختصاصيون على
ضوء هذا الفرق ان لاوون جعل ثيمات آسية الصغرى ستاً بدلاً من اربع .

Lingen'hal, op. cit., 16-17; Byz. Zeit., III, 448-449.

١

*Brooks, E.W., Arabic Lists of Byz. Themes, Journal of Hellenic Studies, ٢
XXI, 67 ff.*

فاقطع من ثيمة الاناضول في الغرب ثيمة جديدة اسمها التراقية نسبة الى الجنود التراقين المقيمين فيها . كذلك يرون انه قد جعل القسم الشرقي من ثيمة الابستق مستقلة اسمها ثيمة البوكولاري نسبة الى جنودها البوكولاري الذين كانوا يعنون بالتموين . ولم يتجاوز عدد الثيمات في اوروبة في القرن الثامن اربعاً ، وهي : تراقية ومقدونية وهلاس وصقلية^١ . ولعل السبب في تقسيم الثيمات الاسيوية كان خوف لاوون من ان يجرؤ عليه القادة ، كما جرؤ هو على سيده ثيودوسيوس الثالث ، فصغر الثيمات لكي تنقص بذلك موارد القادة فيها وتتضاءل لديهم امكانيات الخروج على السلطة المركزية .

وبما لا ريب فيه ان لاوون عني في آخر عهده باسوار العاصمة ففرض ضريبة خاصة بها ، ورمم ما كان قد تساقط منها بفعل تكرار الزلازل . ولا تزال ابراج الاسوار الداخلية تحمل اسمه واسم ابنه قسطنطين الخامس حتى يومنا هذا^٢ .

حرب الايقونات : والايقونة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للإشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف الكنيسة نوعان : منها العادي ، ومنها العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مديتين منفصلتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وتنتهي بالمجمع المسكوفي السابع ، والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب هذه الحرب الداخلية الطاحنة لا تزال غير واضحة ولا ثابتة ، لان ما نعلمه عنها مأخوذ في معظمه من اقوال احد الحصين . فلقد ضاعت مصنفات

Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 6.

١

Millingen, A., Byzantine Constantinople, 98-99.

٢

الذين حاربوا الايقونات . وما بقي منها جاء في معرض الردود التي كتبها
الخصوم . فهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لما ينقصه من العدالة . وما
يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات المجمعين
الذين حرّموا اكرام الايقونات ، فمقررات مجمع السنة ٧٥٣ قد وردت في
اعمال المجمع المسكوني السابع وهو المجمع الذي حرّمها . وكذلك قرارات
مجمع السنة ٨١٥ فأنها وردت في تضاعيف احدى رسائل البطريرك
نيقوفوروس .

والباحثون في اسباب هذه الحرب الداخلية يختلفون في الرأي ، فبعضهم
يرى اسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية . فالمؤرخ اليوناني المعاصر باباريغوبولو
يرى في كتابه تاريخ الحضارة الهلينية ان حرب الايقونات كانت في
اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من
اسرته أراد ان يجرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس وان العناصر
المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد ايدوا
هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر
الجاهلة من النساء والرهبان واهل الاوساط العادية بكل قديم . ويرى
المؤرخ الفرنسي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس ان حرب الايقونات
كانت حركة اصلاحية دينية ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية ،
وانها جاءت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات اخرى للاصلاح
سياسية اجتماعية ولكنها مستقلة لها تاريخها الخاص^٢ . ويقول العالم الفرنسي
لويس براهيه ان محاربة الايقونات في تاريخ الروم ذات وجهين ، فثمة
مشادة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح الرمز الى

Paparrigopoulos, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188-191.

١

Lombard, A , Constantin V, 105, 124-128.

٢

ما فوق الطبيعة بالرسم والتصوير واذا كان يجوز ان يُتمَّثلَ القديسون والعدراء والسيد بالتصوير^١. ويرى المؤرخ الروسي اوسبنسكي ان السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبان وتزايد نفوذهم. فالمشادة كانت زمنية سياسية في مستهل امرها فجعلها الرهبان دينية ليوغروا صدور المؤمنين ويخصوم على مقاومة سياسة الحكومة^٢.

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ساعته. ففي بدء القرن الرابع حرّم جمع ألفيرة Elvira المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس^٣. ورأى يوسيبوس اسقف قيصرية فلسطين ومؤرخ الكنيسة ان اكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من عادات « الامم ». وفي هذا القرن الرابع نفسه ظهر ايفانيوس القبرصي ايضاً فمزق ستاراً في الكنيسة لانه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين^٤. وفي القرن الخامس اعترض اسقف سوري على الايقونات قبل سيامته. وفي القرن السادس ضجت انطاكية مستنكرةً اكرام الايقونات. وفي هذا القرن ايضاً حرّم اسقف مرسلية (مسالية) اقامة الايقونات في الكنائس. فكتب اليه غريغوريوس العظيم بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر، الا أنه ذكره في الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون، وذكره

Bréhier, L., *La Querelle des Images*, 3-4. ١

Uspensky, Th. I., *Byz. Emp.* II, 22-53, 89-109, 157-174. ٢

Mansi, J. D., *Sacrorum Conciliorum Nova*, (*Consilium Liberitanum*, ٣ Par. XXXVI.)

Historia Ecclesiastica, VII, 18, 4. ٤

Patrologia Graeca, XLIII, 390; For authenticity, see, Serruys, D., ٥
Acad. Inscriptions et Belles Lettres, (1904), 361-363.

بضرورة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . وعاد فكتب اليه ثانية في ان عبادة الصور شيء والتعلم بها شيء آخر^١ . ويجب الا يغيب عن البال ان اليهود في الشرق والغرب معاً لم يرضوا قط عن شيء من هذا ، وان القرآن علبهم بان الانصاب رجس من عمل الشيطان (سورة المائدة) وان الخليفة الاموي يزيد الثاني أمر في السنة ٧٢٣ بتحطيم الايقونات في كنائس النصارى^٢ وان الاسوريين وخلفاءهم العموريين كانوا شرقيين آسيويين وانهم كانوا رجال سياسة وحرب قبل كل شيء ، وان المذهب البولسي كان قد شاع في آسية الصغرى ولاسيا في ولاية فريجية وان انصاره كانوا قد اصبحوا قوة مخيفة^٣ . وكذلك يجب الانسى ازدياد عدد الرهبان وتزايد ثروتهم ونفوذهم ، فأنتهم بلغوا مئة الف راهب في هذه الفترة وقد تزايدوا بصورة خاصة في العاصمة نفسها ، كما يجب ان نذكر ان هؤلاء جميعاً لم يكونوا من اهل الزهد والتقوى ، وان بعضهم لم يتمسك الا هرباً من احكام القضاة ورجال الامن^٤ .

وقضى لاوون الثالث السنوات العشر الاولى من حكمه في توطيد دعائم ملكه وفي اخماد نار الثورة التي اشعلها الفسيلفس انسطاسيوس الثاني (٧١٣ - ٧١٦) وقائد صقلية ، كما جهد في اعادة اليسر والطمأنينة الى الولايات التي كانت قد اصبحت مسرحاً للحروب وميداناً للاوبئة . وكانت العاصمة نفسها قد فقدت عدداً كبيراً من سكانها نتيجة هذه العوامل ولاسيا

^١ *Epistolae*, IX, 105 ; XI, 13, ed. Migne ; *Patrologia Latina*, LXXVII, 105.

^٢ *Becker*, Ch., *Islamstudien*, I, 446.

^٣ *Lebedev*, A. P., *Ecumenical Councils of the Sixth, Seventh, and Eighth Centuries*, 142.

^٤ *Kondakov*, N. P., *Iconography*, II, 3 ; *Andreev*. I. D., *Germanus and Tarasius Patriarchs of Const.*, 79 ; *Vasiliev*. A. A., *Byz. Emp.* 256-257.

الطاعون الذي غشيها في السنة ٧١٨ فتدارك لاوون هذا الشرّ بان نقل السكان
اليها من الولايات الشرقية ولاسيا الولايات المتاخمة للعرب . كذلك اعاد
النظر في تنظيم جيشه وأصلح القوانين كما سبقت لنا الاشارة^١ .

وقضى لاوون في السنة ٧٢٢ بتعميد اليهود . وفي السنة ٧٢٣ سمع بما
أمر به يزيد الثاني من تحطيم الايقونات في بلاده واستمع لما دار بين
بطريك القسطنطينية جرمانوس والاسقفين قسطنطين وتوما الاناضوليين حول
رفع الايقونات من الكنائس ، فبدأ يبيث الدعاية السلمية في اوساط العاصمة
لاجل ترك الايقونات والاقلاع عن تكريمها .

وفي السنة ٧٢٥ او ٧٢٦ جمع لاوون الثالث مجلس الدولة الاعلى
ودعا اليه البطريك جرمانوس وباحثه في موضوع الايقونات ووجوب
رفعها من الكنائس وحظر تكريمها . فاحتج البطريك وذكر الفيلسوف
بعهوده للكنيسة تلك التي أقسم أن يرعها عند تسلمه التاج . ولما لم تنفع
الذكرى وضع الامفوريون عن عائقه واستعفى . وأصدر القيصر أمره
بمحظر تكريم الايقونات . وبدأ تنفيذ الامر بانزال تمثال السيد الذي كان
يعلو باب القصر . فاندلعت في الحال ثورة اشتركت فيها النساء اشتراكاً
فعالياً . ومزقت الجماهير الموظف الذي نفذ ارادة الفيلسوف . فرد لاوون
على ذلك بالعنف فسقط عدد من القتلى . وهبت ثورة في اليونان وجزر
الارخبيل فاحمدها الجيش بالقوة . وفي السنة ٧٣٠ أصدر لاوون أمراً
اشدّ من الاول فقاومه جرمانوس واحتج عليه . فاهانه لاوون وعزله
ونصب في مكانه انسطاسيوس . وكتب البابا غريغوريوس الثاني كتابه
مرّة الى لاوون ولكنه لم يأبه بها . واقتدى البابا غريغوريوس الثالث بسلفه

فنهى الفيلسوف عن برناجه . فلم يعر رسالته اهتماماً . فعقد البابا غريغوريوس الثالث مجمعاً محلياً في السنة ٧٣٢ ، وحرّم مكافحي الايقونات . فأنفذ الفيلسوف قوة مجرية ضد البابا ومن قال قوله في ايطالية فغرقت السفن في الطريق فأرسل عمارة غيرها ورفع سلطة البابا عن ابرشيات صقلية وكلاوية وكريت وإيليرية والحقها برئاسة بطريك المسكونة . فقطع البابا كل علاقة له كنائسية ومدنية بلاوون . هذا وليس في المراجع الاولى شيء هام عن حرب الايقونات في السنوات العشر الاخيرة من حكم لاوون . وهنا لا بد من الاشارة الى رسالتي يوحنا الدمشقي ضد معظمي الايقونات ، فقد كتبت هاتان رسالتان في عهد لاوون . اما الرسالة الثالثة في المعنى نفسه فلا يمكن تحديدها تاريخياً بالضبط .

وتوفي لاوون والبابا غريغوريوس الثالث في السنة ٧٤١ . فتسلم قسطنطين الخامس ازمة الحكم في القسطنطينية وهو الذي اطلق عليه لقب الزبلي Copronymus لانه افرز في جرن العهاد حين المعمودية . ويروى ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يحب رائحة زبل الخيل . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرتافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنه ونفى الثلاثة معاً . ثم شرع في اضهاد الكنيسة فسخر بالاحتفالات الدينية وبكل قديس . ومنع الاعياد والاصوام وخرّب الاديرة وجعلها ثكنات للجنود . وكتب اليه البطارقة والبابا يناشدونه ويدعونه ولكنه لم يصغ اليهم . وعقد مجمعاً في السنة ٧٥٤ فأوجب اخراج الايقونات من الكنائس

Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 404; Leclercq, «Constantin», Dict. d'Arch. Chrét., III, 248; Diehl, Ch., Leo III and Is. Dyn. Cam. Med. Hist., IV.

والبيوت وقطع كل اسقف او كاهن او شماس يقتنيها وقضى على كل راهب او علماني يقول بالايقونات ان يحاكم امام المحاكم المدنية بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الآباء . ثم حرم جرمانوس « عابد الحشب » كما حرم منصوراً اي يوحنا الدمشقي « صديق الاسلام وعدو الدولة ومحرف الاسفار المقدسة » . ودعا لقسطنطين الجديد ولزوجته التقية الارثوذكية بطول العمر^١ .

وتقوى قسطنطين الخامس بقرارات هذا الجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصب غيظه وبلاءه على الرهبان . فكم عين قلع ، وكم يد واذن قطع ، فضلاً عن قتلهم . واكره طائفة منهم على الزواج اكرهاً . واستعرض مرة فئة منهم في ميدان الهيبودروم موجباً على كل منهم ان يمك بيد امرأة في اثناء العرض . ويقول ثيوفانس ان حاكماً من حكام آسية الصغرى جمع رهبان ولايته وراهباتها في افسس فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالاً ومن لم يطع قتلهم عيناه ويقضى الى قبرص . فهناك قسطنطين قائلاً له : لقد وجدت في شخصك رجلاً يجب ما أحب وينفذ جميع رغباتي^٢ . وصادر قسطنطين املاك الاديرة وضماها الى املاك الدولة . وهكذا فر عدد كبير من الرهبان الى ايطالية وجنوبي روسية وشاطيء لبنان وفلسطين . ويقدر الاستاذ اندريف الروسي عدد الذين فروا الى ايطالية بخمسين الفاً^٣ . واشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصغر^٤ . ومن هنا ، على الأرجح ، كان

Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII, 323, 327, 346, 354, 355; ١

Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Bilderstreites, 7-29.

Theophanes, Chron. ed. Boor, 445, 446. ٢

Andreev, I., Germanus and Tarasius, 78. ٣

Patrologia Graeca, Cols. 1070-1186. ٤

رأي الأستاذ اوسبنسكي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرّفوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات monachomachia لان الواقع انها كانت حرباً ضد الرهبان^١ والذي يراه الأستاذ اندريف الروسي ان موقف الجمع من هذه الحركة كلها قد أدخل شيئاً من الطمأنينة الى قلوب الشعب فجعلهم مؤمنين بها بضمير صالح . وبذلك تمكن الفيلسوف من أن يجعل كل مؤمن يقسم بانه سيجتنب تكريم الايقونات^٢ .

وكان من جراء العنف الذي لجأ اليه لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضطهاد . فأفتى البابا زخريا (٧٤١ - ٧٥٢) في السنة ٧٥١ ، بخلع كليديريك ملك فرنسا وتنصيب بيينوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيينوس بجيش الى ايطالية يحارب اللومباردين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الخامس بولاياته هذه اجابه بيينوس انه وهبها لكرسي رومة عن حب لبطرس الرسول كما تغفر له خطاياه . ومن هنا من هذا التباعد بين الفيلسوف والبابا ومن هذا التقارب بين البابا وبيينوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة ، البذور التي ادت فيما بعد الى انقسامها شطرين شرقيه وغربية .

الجمع المسكوني السابع : وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع . وكان لاوون الحزري مثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لين الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين

Uspensky, Ch., N., Hist. of Byzantium, I, 228.

١

Andreev, I., Germanus and Tarasius, 96.

٢

السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امه ايرينة زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات . ولكنها رأت منذ بداية عهدها في الوصاية ان الجيش ما يزال معادياً للايقونات وان الصقالبة في غليان مستمر ، فأرجأت النظر في اعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريك بولس الرابع وغيره من كبار رجال الكنيسة قد اكرهوا اكرهاً على تقبل قرارات مجمع السنة ٧٥٤ فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع جمعاً مسكونياً وان يُرقتى الى الكرسي البطريكي طراسيوس كاتم اسرار الملكة . وكان طراسيوس عالماً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم .

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا ادرينانوس الاول (٧٧١ - ٧٩٥) والى البطاركة الثلاثة الشرقيين ابوليناريوس الاسكندري وثيودوريتوس الانطاكي والياس الاوروشليمي من اجل مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية . فأجاب ادرينانوس مادحاً مبتهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه بطريك المسكونة وطلب ان ترد له املاك بطرس الرسول والسلطة على الابريشيات التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني . وفي السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل ولكن الجند اندفعوا اليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج . وفي السنة ٧٨٧ التأم هذا المجمع في مدينة نيقية . وكان مؤلفاً من ٣٦٧ اباً وكان رئيسه طراسيوس . وناب عن البابا ادرينانوس القسان بطرس وبطرس وعن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا

الان الظروف السياسية كانت شديدة على هؤلاء .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثماني جلسات واستوع اثني عشر وعشرين قانوناً . وفي الجلسة الاولى خطب البطريرك طاراسيوس الرئيس خطبة وجيزة . ثم قرىء كتاب قسطنطين الفيلسوف ووالدته الوصية ايرينة : « اننا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عتينا في ارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم انتم كهنته الجزيل برؤكم الحافظين عهده بدبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجمع المستقيمة الرأي » . ومما جاء في هذه الرسالة ان طاراسيوس أغضب على قبول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطونية : « اني ارى وانظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح الهنا مقسومة الآن ومنشقة واننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الآن ومسيحيو الشرق المماثلون لنا في الايمان يقولون قولاً آخر ووافقتم مسيحيو الغرب . ونحن غرباء عنهم جميعهم . وكل يوم نحرم من المجمع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق » .

وبعد ذلك دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بغلطهم وقدموا ندامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم . وفي مقدمة هؤلاء باسيليوس اسقف انقيرة ، وقد قال في كتابه : « فأنا باسيليوس اسقف مدينة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة اعني ادريانوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطاراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة والكراسي الرسولية الجزيلة القداسة كراسي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الارثوذكسيين وقدمته اليكم انتم الذين نلتهم السلطان عن الاصل الرسولي » .

وفي الجلسة الثانية قرئت رسائل البابا ورسائل البطاركة . ومما جاء في

رسالة البابا ادرينوس التي وجهها الى « اخيه الحبيب طاراسيوس » : « وبما ان برّكم قريب من الاقدام السامية اقدم ملو كنا العظام الجزيل تقواهم المتوجين من الله تضرعوا اليهم عنا ان يأمرؤا باعادة الايقونات المقدسة الى مركزها القديم في مدينة العاصمة المحروسة وفي كل مكان . » وسأل النواب طاراسيوس : هل يوافق على رسالة ادرينوس ام لا ، فأجاب : انه يوافق عليها لكونها ارثوذكسية وانه هو نفسه قد فحص وبحث وتعلم من الآباء واعترف ويعترف وسيعترف ويؤيد صحة التحارير التي قرئت قابلاً الايقونات المصورة على اثر تسليم آبائنا الاقدمين . فقال عندئذ القس يوحنا احد نائبي البطاركة : « انه يليق بنا في الحاضر ان نزنم زبورياً : الرحمة والحق تلاقيا والعدل والسلام ثلاثاً . فأن الرحمة والحق تلاقيا اعني ادرينوس وطاراسيوس باتفاق رأيهما وتعليمهما . »

وفي الجلسة الثالثة قرئت رسالة طاراسيوس الى البطاركة واجوبتهم عنها . وفي الرابعة اعترف الآباء بوجوب تكريم الايقونات وقبلوها والغوا مجمع السنة ٧٥٤ لانه لم يكن مسكونياً . وفي السابعة كتب اعتراف الايمان وحدد فيه المجمع وجوب تقبيل الايقونات والسجود الاكرامي لها « احتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم كما اتهم الكنيسة اعداؤها ، لان العبادة انما تجب لله وحده دون غيره » .

رومة تستعيد حقها في انتخاب الامبراطور : وكان من جراء هذا الاضطهاد الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب ايضاً ومن جراء استمساك بطريك القسطنطينية بلقب « بطريك المسكونة » ان حاول بابا رومة لاوون الثالث إعادة الحق الى رومة العاصمة الاولى في انتخاب

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانتفاق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ - ٣٧٠ .

Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII.

الامبراطور . فإنه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرينة غير قانونية لانها امرأة
ولانه لم يسبق لرومة ان اعترفت بحق امرأة في الملك . واعتبر عرش
الامبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين السادس وسمل عينيه ،
فتوَّج كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيسة الكتدرائية
وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ ، واعتبره خلفاً للاوون الرابع وهرقل
ويومستيانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت الحكومة البيزنطية هذا
العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق
لخلع ايرينة وتسلم ازمة الحكم كما فعل غيره قبله من الاباطرة الذين
قاموا في الغرب فزحفوا ووحدوا^١ . ويرى البعض من رجال الاختصاص
ان كارلوس علم حق العلم ان الحكومة البيزنطية ستنتقي بعد ايرينة
فسيلفياً جديداً ففاوض ايرينة في الزواج ، وان ايرينة نظرت الى هذا
الاقتراح بعين الرضى ولكنها غلبت على امرها فخلعت في السنة ٨٠٢ .
ولذا فان برنامج كارلوس لم يتحقق^٢ . ولم يعترف الروم بلقب كارلوس
الجديد قبل السنة ٨١٢ ولكنهم في مقابل هذا اضافوا رسماً الى اللقب
الفيلسوس الكلمة « الروماني » . ولم يدم عهد هذه الامبراطورية الرومانية
في الغرب . فان خلفاء كارلوس الكبير كانوا صغاراً . وفي النصف الثاني
من القرن العاشر استعاض بابا رومة عن هذه الامبراطورية الرومانية
بامبراطورية رومانية « مقدسة »^٣ .

Bury, J. B., *Charles the Great and Irene, Hermanthema, VIII, (1893), ١*
17-37; Schramm, P., *Kaiser Rom und Renovatio, I, 12-13.*

Theophanes, *Chron.*, 475; Ostrogorsky, G., *Gesch. des Byz. Staates, 128.* ٢

Vasiliev, A. A., *Byz. Emp. 265-269.* ٣

الفصل العُشرون

خلفاء الاسوريين والاسرة العمورية

(٨٠٢ - ٨٦٧)

نيقيفوروس الاول وميخائيل الاول : (٨٠٢ - ٨٢٠) واستطاع نيقيفوروس Nicephorus او تقفور ان يستولي على الامبراطورية في يسر وسهولة كما سبق ان اشرنا . وكان سامي الاصل ان لم يكن عربياً . ولم يقتف آثار ايرينة في تنفيذ مقررات المجمع السابع ، ولكنه لم يضطهد من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وجاهد جهاداً طيباً في سبيل الحزينة ، فنقض الاعفاءات من الضرائب التي كانت قد منحتها ايرينة استرضاءً ، وأعاد النظر في سجل الاراضي ، وفي ضرائب الدخل ، وفرض ضرائب جديدة خص بها الاغنياء لتعبئة الجيش وتسليحه . فاكسب بذلك كره بعض الاوساط . ومن هنا على الأرجح تهجم عليه ثيوفانس المؤرخ^٢ . ومع انه اُحمد بسهولة ثورات عدّة ، أشعلها ضباط ساخطون ، فانه لم يكن موفقاً في حروبه الخارجية . فقد كتب منذ اوائل عهده الى هارون الرشيد يقول : « ان هذه المرأة (ايرينة) وضعتك موضع الرخ ووضعت

Brooks, E. W., *Byzantines and Arabs, Eng. Hist. Rev.*, (1900), 743 ff. ١

Bratianu, G., *Etudes Byz. d'Hist. Econ. et Soc.*, 196 ff. ٢

نفسها موضع الشاة ، فأدّ اليّ ما كانت المرأة تؤدّي اليك . فاجابه
 الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله هارون امير المؤمنين ،
 الى نقفور كلب الروم . اما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه
 لا ما تسمعه .^١ » وأغار هارون على آسية الصغرى . واحتل في السنة ٨٠٦
 تيانة (طواني) وانشأ فيها مسجداً وجعلها قاعدة لاعماله الحربية . وغزا
 رودس في السنة ٨٠٧ وفرض الغرامة ، فدفعها نيقيفوروس كما دفعتها
 ايرينة من قبله .^٢ ثم سُغل هارون بالثورات في اقاليمه الشرقية . وغزا
 نقفور البلغار في السنة ٨١١ لينتقم من مليكهم كرومّ الذي كان قد سطا
 على تراقية ، فحرز عليه نقفور انتصاراً باهراً ، ولكنه فوجيء بعد ذلك
 بهجوم ليلي اشتد فيه القتال . فسقط نقفور وجرح ابنه وولي عهده
 ستوراقيوس . على ان الروم لم يقفوا حتى بلغوا ادرنة وتركوا جثة
 الفسيلس في ميدان القتال . فقطع البلغاريون رأس نقفور واتخذوا جمجمته
 كأساً .^٣

نيقيفوروس

٨٠٢ - ٨١١

بروكوية = ميخائيل الاول

٨١١ - ٨١٣

ستوراقيوس

٨١١

- ١ الفلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٩٢ . الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية
 البيزنطية ، ص ٧٩ . Bury, J. B., *Hist. of Eastern Rom. Emp.*, 249-250.
 ٢ Theophanes, *Chron.*, ed. Boor, 482-483
 ٣ *Ibidum*, 489-491.

وكان نيقيفوروس قد اشرك ابنه الوحيد ستوراقيوس في الحكم منذ السنة ٨٠٣ وزوجه من نسيبة لايرينة بعد ان فازت في مسابقة على الجمال ، ولكن جرح ستوراقيوس كان قاتلاً فتولى العرش بعده صهره ميخائيل الاول وهو من اسرة نبيلة عريقة في الشرف . وكان ميخائيل هذا لطيف المعشر معجباً بالرهبان ، فأبعد عن الوظائف جميع أعداء الايقونات ، فأثار غضبهم ودفع بهم وبمن قال قولهم الى التآمر . وبما زاد في الطين بلة ان البطريرك نيقيفوروس اعلنها حرباً على المهاجرين الشرقيين . وكان هؤلاء قد نقلوا من الولايات النائية المتاخمة لحدود العرب الى العاصمة وتواقية ليحلوا محل الذين سقطوا في الحروب او ماتوا من جراء الطاعون . وهؤلاء الشرقيون كانوا لا يزالون يدينون بمذاهب لم تقرها المجامع المسكونية . وعلى الرغم من وساطة البعض ورجائهم الى البطريرك ان يعامل هؤلاء بالحسنى ويتودد اليهم لعلهم يعودون الى حضن الكنيسة ، فان البطريرك تمادى في القسوة فعادت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل^١ .

وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشئة . وكان خاقان البلغار كروم لا يزال يسطو على الارياض والمدن حتى وصلت طلائع فرسانه الى اسوار ادرينوبل . فضج السكان . وطالب المهاجرون الشرقيون بالعودة الى اوطانهم في آسية . ورأى الوجهاء والاعيان أن لا مفر من الحرب لصد هذا العدوان . فأعد ميخائيل جيشاً كبيراً وزحف الى الجبهة في ايار من السنة ٨١٣ . فالتقى في الثاني والعشرين من حزيران جيوش البلغار عند ادرينوبل فدارت الدائرة على الروم وانهمز ميخائيل ، فنادى الجند بلاوون الارمني ، احد كبار القادة فيهم ، فسيلفساً . وفي العاشر من تموز دخل

Theophanes, Chron., 495 ; Theodore Studion, P. G., 1481-1485, Ep. II, 155.

لاوون العاصمة فاستقبله الشيوخ . وتنازل ميخائيل وترهب واعتزل في دير من اديرة الجزر^١.

لاوون الخامس : (٨١٣ - ٨٢٠) واول ما فعله هذا الفيلسوف الارمني انه أقسم بين الولاة للكنيسة وقطع وعداً بان يحافظ على عقائدها ومصالحها . ثم عني باسوار العاصمة للصمود في وجه البلغار الذين ما فتئوا يصدونها . وكان خاقانهم كرومّ يحاول ارهاب السكان بذبح الابرياء عند الاسوار . ولكن في ربيع السنة ٨١٤ بينا كان هذا الخاقان يعد هجوماً جديداً على العاصمة البيزنطية فاجأته المنية . وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان . فاضطر ابنه ان يصلح الروم ليتسنى له توطيد العرش ، فسالمهم ثلاثين سنة . وسلمت القسطنطينية من هجمات البلغار ثمانين سنة^٢.

وكان لاوون وصولياً في سياسته . وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبذ عهد الولاة للكنيسة . وكان مراوغاً مداوراً ، فبث بادىء ذي بدء في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حلّ بالدولة من ضعف وما احدث بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع السنة ٧٥٤ عقد مجلساً في القصر ضم بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالايقونات ومن حرّمها . ودعا البطريرك نيقيفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون وطلب الى المجتمعين ان يبحثوا في امر الايقونات . فأجابته ثيودوروس

Theophanes, Chron, 500-503 ; Bury, J. B., Hist. of East. Rom. Emp., 1 29-30 ; Schlumberger, G., Les Iles des Princes, 35-38.

Runcimann, S., First Bulgarian Empire, 72-75.

بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان الواجب على الفيلسوف ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يعتصب دورهم اغتصاباً وان للفيلسوف ان يعنى بما سوى ذلك^١. فأجاب لاوون بانه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد. وفي عيد الميلاد من هذه السنة استمع للقداس الالهى في كنيسة الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً الايقونات. ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ القى القبض على البطريرك نيقيفوروس ونفاه الى خريسوبوليس واقام في موضعه علمانياً يدعى ثيودوتوس. ثم عقد مجعاً محلياً في نيسان من السنة نفسها في كنيسة الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرّم تكريم الايقونات^٢. على ان لاوون الخامس كان اقل اسراعاً ممن سبقه الى محاربة الايقونات، مع أن مقاومة من كرّم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي قبل. فاكتفى لاوون بنفي الاساقفة والرهبان ومجسّمهم. نفى ثيودوروس مثلاً الى بيثينية ثم الى ازمير. وهذا المجاهد بقي قوياً شديداً، فكتب من سجنه في ازمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الرهبان كما انه استغاث ببابا رومة وببطاركة الشرق الثلاثة^٣.

واشرك لاوون ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس اسرة حاكمة. ولكن رفاقه في السلاح الذين عاونوه في الوصول الى الحكم وفي طليعتهم ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه. واكتشف لاوون هذه المؤامرة وقذف بميخائيل الى السجن ولكنه اجل عقابه حتى عيد الميلاد وترك شركاءه في المؤامرة احراراً. فعزم هؤلاء واصدقاؤهم على ان يضربوا

Vita Theodore, Patrologia Graeca, Vol. 99, 181-183

Theophanes, Chron., 1033-1036.

Vie de St. Georges d'Anastrie, 110-136.

ضربتهم قبل ان ينكشف امرهم . وقرروا ان يذبحوا لاوون في كنيسة الخاصة عند حضوره القداس لانه كان لا يقترب من القربان المقدس حاملاً السلاح . وهكذا حضر المتآمرون قداس الميلاد وهاجموا لاوون في اثناء صلاة التوبة . فاختطف هو الصليب المعدني الثقيل من المذبح وضرب به بعض الذين هاجموه . ولكنهم تكاثروا عليه وذبحوه على مقربة من المذبح واخرجوا ميخائيل من سجنه وتوجه فسيلفساً قبل ان تكسر قيوده الحديدية^١ .

الاميرة العمورية : (٨٢٠ - ٨٦٧) وكان ميخائيل الثاني هذا ريفياً غير مثقف . وقد اطلق عليه اسم العموري نسبة الى عمورية Amorium مسقط رأسه في ولاية فريجية . وكان يدعى الاثغ والتمتام . وكان قد قضى حياته في الجيش وترقى في سلكه حتى اصبح من كبار الضباط . وبقي جندياً عتيقاً بطباعه وعاداته . ولكنه كان قديراً ماهراً حكيماً . فخصّ عرشه بشطر وافر من وقته . وتزوج من افروسينة ابنة قسطنطين آخر ورثة الاسوريين . فقوى بذلك حقه في التاج . واشرك ابنه ثيوفيلوس في الحكم . ثم اصدر امراً منع فيه كل مشادة حول الايقونات ، واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك . واستقبل ثيودوروس الراهب الاستديوني في قصره واكد له حرية العبادة ، وقال لتقيفوريوس البطريك : ليس لي ان ابتدع في الايمان والعقيدة ولا ان اجادل في التقاليد الموروثة او ان انقضها^٢ . ولكنه قبل ان يتسنى له شيء من هذا

Anonyme (Scriptor Incertus), Vie de Léon l'Arménien, Pat. Graeca; ١

Legende Arabe, Byzantion, 1939, 383 sq.

Gelzer, H., Abriss der Byz. Kaisergeschichte, 967; Ternovsky, F. A., ٢

Graeco-Eastern Church, 487; Dobroklonsky, A., Theodore the Confessor, I, 849.

اضطر ان يجابه ثورة مخيفة دامت سنتين وفاقت في اتساعها اكثر ثورات عصرها .

ثورة توما الصقلي : (٨٢١ - ٨٢٣) وكان بين رفاق ميخائيل في السلاح ضابط كبير صقلي الاصل او ارمني التحق بخدمة احد البطارق في عهد ايرينة ، فاتصل سراً بزوجة البطريق وذاع هذا السر ، فهرب الى الشام وبقي فيها حتى عهد لاوون الخامس . فلما كان عهد نقفور عاد الى بلاد الروم واشترك في ثورة بردانيوس في السنة ٨٠٣ ، ثم عاد الى جوار الرشيد وبقي حتى عهد المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) . وهذا الضابط الكبير هو توما الصقلي بطل هذه الثورة التي نحن بصدددها .

ومما جاء في المراجع اليونانية انه في اثناء في ثورة بردانيوس (٨٠٣) على نقفور تنبأ احد الرهبان بفشل بردانيوس ورفاقه لاوون وميخائيل وتوما وبان الاولين يحملان التاج الامبراطوري ، وبان الثالث ينادى به امبراطوراً ولكنه يهلك بعد ذلك بقليل .

والواقع ان لاوون اصبح فيلسفياً ، وان ميخائيل استوى على العرش بعده ، وان توما طمحت نفسه الى الملك ، فبدأ يسعى له في ارمينية والبونط منذ اواخر عهد لاوون . فلما قتل لاوون في السنة ٨٢٠ استغل توما الظرف واتجهت نظاره شطر القسطنطينية وعرشها . وأيدت آسية الصغرى بمعظمها توما الصقلي لم يشدّ منها سوى ثيمتي ارمينية والابسيق . فادعى توما انه قسطنطين السادس ابن ايرينة ، فالتف حوله مكرموا الايقونات . ورأى المستضعفون من سكان آسية الصغرى في توما محرراً ، فدخلوا في حزبه املاً في تحسين مستقبلهم « فرفع الخادم يده في وجه سيده ، والجندي في وجه قائده ، والقائد في وجه اميره . » ويرى بعض

رجال الاختصاص ان الصقالبة في آسية الصغرى رأوا في توما محرراً قومياً فاندفعوا في سبيل نصرته اندفاعاً عظيماً . ولا ننسى ان الاباطرة كانوا قد نقلوا الى آسية الوفاً من الصقالبة .

وتقام توما والمأمون فأمداه هذا بجيش قوي . ثم استمال جباة الضرائب في آسية فتوافر لديه المال . وأمر المأمون ايوب بطريك الروم في انطاكية ان يرسم توما فيلسافاً ، لانه سمع ان الفيلسوف لا يقام من غير بطريك « فقرأ البطريرك عليه الادعية ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً باحجار ثمينة » والتحق بتوما ايضاً اسطول ايجه فلم يبق لدى ميخائيل الثاني سوى الاسطول الامبراطوري .

ونفض توما بجيوشه الى بر الاناضول . ولم يكن عند ميخائيل الثاني فكرة صحيحة عن قوة خصمه ، فدفع لملاقاته بجيش صغير . ونشبت معركة انتصر فيها توما وانهزم جيش الفيلسوف . فأدرك ميخائيل انه يواجه ثورة ليست كالمعتاد وان انصار الايقونات يؤيدون توما . ولهذا اسرع فاستدعى اليه زعماء القائلين بتكريم الايقونات وحاول اقرار السلام الديني بمؤتمر في القصر كما سبقت معنا الاشارة . ولكن ثيودور الراهب رفض الاجتاج مع الهرطقة . وقصد توما القسطنطينية متناسياً انه يترك وراءه انصاراً لخصمه ووصل الى المضائق وعبر البحر الى تراقية فتبعه عدد كبير من السكان وبينهم الصقالبة المقدونيون . وبلغ القسطنطينية في اواخر السنة ٨٢١ وبدأ حصارها براً وبحراً . وكان يتوقع ان تفتح العاصمة ابوابها بمجرد اقترابه منها ، ولكنها لم تفعل . وضعفت الحماسة له في اوساط حزب الايقونات لانه كان قد احاط نفسه بالمسلمين وجاء منهم بعدد كبير . ورفع ميخائيل علم الحرب على سطح كنيسة بلاخرنة ، وترأس ابنه ثيوفيلوس موكباً رافعاً

الصليب ورداء العذراء ودار حول الاسوار يسأل المعونة الالهية لانقاذ المدينة . واستمرت عمليات الحرب متساجلة واقتصر على اصطدامات يسيرة لان ميخائيل صرف نفسه عن الاشتباك بمعركة حاسمة لكثرة جنود توما . ثم اتفق ميخائيل وامورتاج خاقان البلغار فأصبح توما امام عدوين . وضج جيشه ساخطاً لان الحرب طالت دونما وصول الى نتيجة حاسمة . وانحاز قسم كبير من جيش توما الى الفسيلفس في احدى المعارك فارتد توما الى اركاذيوبوليس . فحصره ميخائيل فيها خمسة أشهر . فجاع اهل المدينة وقامت فيها مؤامرة فألقي القبض على توما وقيد وُسِّم الى ميخائيل في منتصف تشرين الاول من السنة ٨٢٣ فقتله١ . ولم يقوَ المأمون على امداد توما باكثر مما فعل لاستغلاله بثورة الخُرَّمية .

نزول العرب في اقريطش : (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار اهل قرطبة على الخليفة الحكم في السنة ٨١٤ فهزمهم الخليفة وأمر من بقي منهم حياً ان يغادر اسبانية في ثلاثة ايام . فجمع الثوار نساءهم واطفالهم وما استطاعوا حمله وأجبروا الى افريقية . وقصد قسم منهم بلغ عدده خمسة عشر ألفاً الى ارض مصر فنزلوا في ضواحي الاسكندرية في هذه السنة نفسها . ثم انتهزوا فرصة استغلال المصريين بثورة على العباسيين فاحتلوا الاسكندرية نفسها في السنة ٨١٦ . وفي السنة ٨٢٥ جاء القائد العباسي عبدالله ابن طاهر وطلب الى الاندلسيين مغادرة الاسكندرية ونصح لهم ان ينزلوا في اقليم من اقاليم الروم٢ .

وفي السنة ٨٢٦ اغار الاندلسيون الاسكندريون على جزيرة اقريطش

١ وافضل من صف في ثورة توما الاستاذ الكسندر فازيليف . راجع ترجمة مؤلفه :
الروم والعرب ، ص ٢٨ - ٤٨ ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادي شعيره والدكتور
فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، دار الفكر العربي .
٢ الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٦٣ - ١٨٠ .

غارة استطلاعية تمهيدية وآبوا بالغنائم والاسرى . وفي السنة ٨٢٧ او ٨٢٨ نزلوا فيها فلم يلقوا مقاومة تذكر . وانشأوا لهم حصناً واحاطوه بالحدق وجعلوه حاضرة لهم . فسميت قاعدتهم الحدق ولا يزال اسمها Candia . وحاول ميخائيل انتزاع اقریطش من يد هؤلاء العرب . فانفذ اليها حملة قوية في السنة ٨٢٨ وأردفها بجملة اخرى في السنة ٨٢٩ ولكن جهوده لم تثمر . وقدر للعرب الاندلسيين ان يبقوا فيها مدة قرن يغيرون منها على الجزر المجاورة وعلى مراكز التجار ، فيقتضون بذلك مضجع الروم وينزلون بتجارهم خسارة فادحة^١ .

ثورة يوفيموس الصقلي : (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار يوفيموس تورمارخوس صقلية في السنة ٨٢٦ على ميخائيل الثاني واعلن نفسه فيلسافاً . ولكنه خشي سوء العاقبة ، فراسل زيادة الله الاول الاغلي (٨١٧ - ٨٣٨) ، وفاوضه على ان يحكم يوفيموس صقلية بلقب امبراطور ويدفع للامير الاغلي مالاً سنوياً . فأنفذ زيادة الله سبعين سفينة وعشرة آلاف فارس الى صقلية بقيادة عبدالله اسد ابن الفرات . وكان نزولهم فيها في السنة ٨٢٧ بدءاً لاحتلال طويل الامد . ولم يوجه الروم جهوداً كبيرة للدفاع عن هذه الجزيرة نظراً لبعدها ولانشغالهم بناحية الشرق^٢ . ولم تكن انتصارات العرب فيها سريعة ولكنهم استولوا بالتدريج على الجزيرة كلها في عهد خلفاء ميخائيل .

ثيوفيلوس الاول : (٨٢٩ - ٨٤٢) وبرغم هذه الثورات المزعجة

١ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٥٢ - ٦١ . الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ - ٩٠ .

Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, 287-291 ; Brooks, E. W., *Arab Occupation of Crete, Eng. Hist. Rev.*, 1913, 431-443 .

Gabotto, F., *Eufemio il Movimento Separatista nella Italia Bizantina.* ٢

فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٦٢ - ٨٤ .

الخيفة فان ميخائيل توفي وفاة هادئة وتولى الحكم بعده ابنه ثيوفيلوس (حبيب الله) . وكان ثيوفيلوس هذا رجل حرب ، فقاد جيوشه بنفسه واحرز بعض الانتصارات ، وفي الوقت نفسه كان رجل ادارة وتديير مالي ، فترك في الخزينة عند وفاته ما يعادل مليون ليرة ذهبية . وعني بالبناء فشيّد قصرأ جديداً في القسطنطينية ضاهى به قصر المأمون وفاقه زخرفاً وجمالاً . واصبحت شجرته الذهبية حديث الشرق باسره ، كما ظلت اسوده الذهبية التي ترفع من اسفل العرش فتزار حديث الاجيال المقبلة . واهتم لمدارس الدولة التي كانت تخرج رجال الادارة والاساقفة فوكل امره الى لاوون الرياضي اشهر علماء عصره وارفعهم شأنأ ونجح بابقائه في بلاده على الرغم من ان خليفة بغداد كان يشوقه للانتقال اليه . ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان ثيوفيلوس حين اصبح ارملاً طلب الى الامبراطورة فروسينة ان تجمع في تشريفاتها اجمل بنات الاشراف في العاصمة وسار بين صفوفهن ليختار زوجة . وكان يحمل في يده تفاحة من الذهب تشبهاً بباريس بطل الاساطير اليونانية القديمة . فوقع نظره في اول الامر على الحسناء ايكاسية . وعندما اقترب منها قال لها : « ان معظم الشر من النساء » . فاجابت : « ومعظم الخير ايضاً » ، فافحمته . ويبدو ان هذا الرد لم يرض الفيلسوف لانه تابع طريقه واعطى التفاحة الذهبية لثيودورة التي كانت تنافسها في الجمال . وكان اختياره سريعاً لان ثيودورة كانت تكرم الايقونات فاستعملت نفوذها كله ضد آراء زوجها^٢ .

ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعض يرى فيه عدواً لدوداً للايقونات وأنصارها ، وبعض يراه معتدلاً في موقفه مقتصراً

Georges le Moine, III, 23 ; Symeon Magister, Chronique, 20.

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، امريب الدكتور مصطفى طه بدر، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

في اجراءاته على العاصمة وضواحيها. والواقع انه رغم تعلقه بالعدراء
والقديسين قد اتخذ له في هذه الامور مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم
الشهير يوحنا الكاتب. وجعل من صديقه هذا بطريركاً مسكونياً وكوى
كفي العازار الراهب المصور بالحديد الحامي، وجلد ثيوفانس واخاه
ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بايات من الشعر نظمها
هو نفسه.^٢

ثيوفيلوس والعرب: وظهرت طائفة الحرّمية في جبال فارس بين
اذريجان والديلم، وتولى رئاستها بابك وعاث في البلاد فساداً في عهد
المأمون، وهزم جيوش الخليفة العباسي المرة تلو الاخرى. وأباد جيشاً
بأكمله بعثه المأمون في السنة ٨٢٩ - ٨٣٠. وقد دامت ثورة بابك حتى
ايام المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢). فجرد المعتصم جيشاً كبيراً بقيادة الافشين
وغيره للقضاء على هذه الثورة. فأرسل بابك الى ثيوفيلوس يجرّضه على
الخليفة العباسي. فرأى ثيوفيلوس في ثورة بابك فرصة يقابل فيها العباسيين
بمثل ما فعلوا عندما ساعدوا توما في ثورته على والده ميخائيل. وهكذا
أعدّ ثيوفيلوس جيشاً كبيراً واتجه به الى اعالي الفرات وهو يأمل
الاتصال بالحرّمين. وبلغ الى زبطرة سنة ٨٣٧ واشعل فيها النار وسبى
نساءها واطفالها ثم دخل سميساط وملاطية^٣. وعاد بعد ذلك الى القسطنطينية
فاستقبل فيها استقبال الظافر وخرج للناس للقائه باكاليل من الزهر.
واقامت حفلة سباق ظهر فيها ثيوفيلوس بثياب زرقاء فوق عربة تجرها
خيول بيضاء. وألبس تاج النصر ونادى الشعب: احسنت السير ايها
السائق الاصيل!

^١ Bury, J. B., *East. Rom. Emp.*, III, 140-141.

^٢ Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 286.

^٣ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٢. المقوني، ج ٢، ص ٥٨٠.

ولكن المعتصم استطاع ان يقضي على ثورة بابك في اواخر السنة ٨٣٧ ففرغ للروم وأعد ثلاثة جيوش سّير احدها بقيادة الافشين عبر طوروس من درب الحدث ، وقاد هو الجيشين الآخرين وعبر بهما من ابواب قيليقية . وكانت انقرة نقطة التلاقي . فصمد ثيوفيلوس اولاً عند نهر الهاليس (او آلس كما يسميه العرب) ، ولكنه لما علم بزحف الافشين منفرداً قام لصدّه قبل ان يتسنى للافشين الانضمام الى الجيشين العربيين الآخرين . فالتقاء قرب دوزمانه وهي لا تبعد كثيراً عن ترخال . فدارت الدائرة على الروم وانهمزم ثيوفيلوس منكفئاً الى القسطنطينية . وتقدم العرب الى عمورية وحاصروها ثم دخلوها عنوة ونهبوا واحرقوا ، واسروا عدداً كبيراً من الجند والضباط والقادة ، وقتلوا ستة آلاف من الاسرى . وأمر الخليفة اثنين واربعين من كبار الضباط ان يُسلموا ليسلموا . فلما أبوا قتلوا عند ضفة دجلة^١ . ولعل المعتصم فكر في الزحف على القسطنطينية ولكنه اضطر للتراجع اذ وردت عليه انباء مؤامرة قامت لحله^٢ . وفي السنة ٨٣٩ ظهرت عمارة رومية في مياه السواحل الشامية . وفي السنة ٨٤٠ تقدم الروم فأخذوا مرعش واحتلوا بعض مناطق ملاطية . ورغب المعتصم في السلم ولكنه عاد فأعد عمارة كبيرة ليغزو بها القسطنطينية . الا ان المنية عاجلته في السنة ٨٤٢ ، وعصفت عاصفة هوجاء بالعمارة العربية فحطمتها^٣ . ووجه ثيوفيلوس وفوداً نحو الغرب : الى البندقية والى انكهايم عاصمة لويس التقي الورع ، والى عبد الرحمن الثاني الاموي الاندلسي ، يطلب المعونة . ولكن

Bury, J. B., *Mutasim's March Through Cappadocia*, *Journal of Hell. Studies*, 1909, 120-129; Vasiliev, A.A., *Martirs of Amorion*, *Transactions of Imp. Acad. of Sciences*, VIII, Ser. III.

٢ الطبري ، ٣ ، ١٢٣٦ .

Diehl et Marçais, *Monde Oriental*, 312-313 .

ثيوفيلوس على الرغم من الترحيب بهذه الوفود لم يلقَ اية معونة .
ميخائيل الثالث : (٨٤٢ - ٨٦٧) وتوفي ثيوفيلوس في السنة نفسها
التي توفي فيها المعتصم ، وخلف خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل
الثالث . واذ كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فان الملك
الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على الملك القاصر . وعاونها في الوصاية
مجلس تألف من كبار رجال الدولة . وكان ذروموس ثيوكتيستوس
Theoctistus عم ثيودورة ووزير المال أشهر هؤلاء وألمعهم .

وكانت ثيودورة من محبي الايقونات . ووافقتها على ذلك مجلس الوصاية .
فدعت الآباء الارثوذكسين الى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته
في اضطهاد من كرّم الايقونات . وطلبت الى البطريرك يوحنا الكاتب ان
يشترك في اعمال هذا المجمع فأبى ، فعزله مجلس الوصاية وأقام مثوذبوس
المعترف بطريركاً محله . وصدّق المجمع اعمال المجمع السابع . وفي اول
احد من الصوم الكبير من السنة ٨٤٣ نصبت الايقونات المكرمة في
كنيسة الحكمة الالهية واصبح هذا اليوم وما زال عيداً سنوياً لرفعها
وانتصار الرأي الارثوذكسي^١ . وأصدر البطاركة الثلاثة خريستيفوروس
الاسكندري واوب لانطاكي وباسيليوس الاوروشليمي بياناً مشتركاً
بوجوب حماية الايقونات وتكريمها .

وظلت ثيودورة ، بالتعاون مع عمها ثيوكتيستوس ، تدير دفة الحكم اربع
عشرة سنة (٨٤٢ - ٨٥٦) . وفي خلال هذه المدة طرأ تغيير على عضوية
مجلس الوصاية فأصبح اخو ثيودورة برداس عضواً في هذا المجلس . فنشبت
مشادة بينه وبين ثيوكتيستوس اهم اسبابها حب السلطة وشهوة الحكم .

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانثاق ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 287 .

فنشأ انقسام داخلي بين الأعضاء وادى الى استقالة عمانوئيل عم الفيلسوف
والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب وشاية رفعها
برداس الى الفيلسوف الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على الزواج من
ثيودورة او احدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بين
ثيودورة واخيها برداس حول السلطة ادت في السنة ٨٥٦ الى خروج
ثيودورة وبناتها من القصر . وأصبح برداس صاحب الصول والطول .
وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته افذوكية في بيت عمها برداس .
ولم تكن الحماة والكنة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت .
واظهر برداس عطفاً على كخته فاتهمته امرأته بكنته . فطرد امرأته من
البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة الأمباطورة . فتكدت ثيودورة
من هذا النفور وما رافقه من خبر قبيح . وفي هذه الاثناء كان قد
توفي البطريرك مثنوذوس في السنة ٨٤٨ وحل محله اغناطيوس بمساعدة
ثيودورة . وكان اغناطيوس هذا رجلاً ورعاً تقياً ولكنه كان فظاً قاسياً .
وكان خبر برداس وامرأته وكنته قد شاع في المدينة ، فوبخ البطريرك
برداس ونهاه عن المحرم ونصح له أن يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس .
وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث
ليتناول الأسرار الألهية . فأبى البطريرك مناولته وطرده خارج الكنيسة
امام الشعب كله . فأخذ برداس يرجو ويستعطف وشفع له القيصر ولكن
دون جدوى .

وكانت الكنيسة الارثوذكسية قد انقسمت على نفسها من حيث موقفها
من الدولة ، وظلت منقسمة حتى السنة ٩١٢ . فالأستوديون ومن أيديهم
من المتشددين في الدين وأوا ان لا مبرر لتدخل السلطة في شؤون الكنيسة .
أما الرهبان الاولمبيون وكبار الأساقفة فكانوا معتدلين في موقفهم من
السلطة وتدخلها ، ومن هنا نشئت متاعب مثنوذوس البطريرك . ومن

هنا كان انتقاء اغناطيوس . فان الامباطورة ثيودورة ظنت ان المعسكرين سيؤيدانه ، نظراً لطهارته وتشدده في الدين ، ونظراً لكونه ابن ميخائيل الثاني الفيلسوف السابق . ومن هنا ايضاً ضغط برداس على فوطيوس العاماني ليكون خلفاً للبطريك اغناطيوس .

وحنق برداس على البطريك اغناطيوس وطلق يسعى للانتقام منه . واتفق ان راهباً ادعى انه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق . فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن ، واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقلع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريك اغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاعتتم برداس الفرصة واتهم البطريك بالتآمر على الفيلسوف ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة المملكة . فصدق الفيلسوف ميخائيل الثالث كلام برداس وامر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في احد الاديرة . فسألهن اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبنة فأنكرن . فامتنع عن اجابة طلب الفيلسوف قائلاً ان القانون يقضي منهن الموافقة وهن لا يوافقن فاكرههن مخالف للقانون . فصدق ميخائيل ان البطريك عدو له . فأكره والدته واخوانه على الترهيب كما أمر اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه . فقدم اغناطيوس استعفاءه في الثالث والعشرين من تشرين الثاني وبقيت الكنيسة خمسة وعشرين يوماً بدون راع . وتشاور الاساقفة والفيلسوف وبرداس في أمر الخلف ، واجمعوا على انه يجب ان يكون رجل سلام يتوسط للوفاق بين الجهتين ، واشتروطوا ان يكون ايضاً ذا همة ونشاط ليدفع المهرطقات . فاتفقوا على فوطيوس كاتم اسرار المملكة وقتئذٍ ، وهو الذي اشهر

بالدراية والحكمة والفضيلة والتقوى والعفة الطوعية والعلم والفلسفة^١. ففرض فوطيوس ان يتولى المنصب ولم يرضَ ان يستعيز عن السكينة والراحة باتعاب السدة البطيركية . فأصر عليه الرؤساء والاعيان بوجوب القبول ، فلم يصغر لهم . فانحاز اليه عندئذٍ اكثر اتباع اغناطيوس المستقيل . وهدده برداس بالسجن فأذعن لمشيئته . وأخذ يعلو درجات الهكنوت في سرعة فائقة . فسيم في اليوم الاول متوحداً ، وفي اليوم الثاني اناغنوسطاً ، وفي اليوم الثالث ايودياكوناً ، وفي الرابع شماساً ، وفي الخامس قساً ، وفي السادس يوم عيد الميلاد اسقفاً وبطيريكاً . وكان المتقدم في شرطونيته غريغوريوس آزبستاس اسقف سرقوسة . فأدى تقدم غريغوريوس آزبستاس في الشرطونية الى نفور اغناطيوس المستقيل وخمسة اساقفة معه . واشتد الحُصام . ويُس اغناطيوس واتباعه من الوصول الى حل مرضٍ ، فكتبوا الى بابا رومة يشكون ظلمهم ، وكتبوا ايضاً الى بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم .

وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذرّ قرن الشقاق بين الارثوذكسين واصحاب الطبيعة الواحدة ، وهب البولسيون والمانيسيون يشاغبون^٢. وعرا الكنيسة اضطراب شديد من جراء هذه القلاقل . فرأى الفسيلفس ومجلسه الاعلى والبطيريك الجديد ان يجمعوا مجمعاً مسكونياً . وكتب فوطيوس « رسائل الجلوس » وارسلها الى البابا وسائر البطاركة . وبات ينتظر « رسائل السلام » في الرد عليها . فارسل البطاركة الشرقيون الثلاثة رسائل السلام . اما بابا رومة نيقولاوس الاول فانه لام الفسيلفس

Dvornik, F., Photian Schism, Cam., 1948, 432.

راجع ايضاً كلامنا عنه في الفصل التالي .

Runciman, S., Mediaeval Manichee Cam., 1947; Obolensky, D., Bogomils, Cam., 1948 .

على عزل اغناطيوس ، واحتج على ترشيح علماني ليخلفه ، وطالب باعادة رئاسته على الابريشيات التي كانت قد سلخت عن كرسي رومة في عهد لاوون الثالث ، وارسل اسقفين اثنين الى القسطنطينية ليحملا رسالته وينظرا في الموقف عن كذب . فلما وصلا ووفقا على مسألة فوطيوس واغناطيوس وجدا ان اغناطيوس كان قابلاً بشرطونية فوطيوس وان الجميع التمسوا فوطيوس واحرجوه ليقبل البطريركية . فاشتركا في الجمع المسكوني الثامن (الاول والثاني) الذي انعقد في القسطنطينية في السنة ٨٦١ ووافقا على ارتقاء فوطيوس وعلى سائر قرارات هذا الجمع واهمها الا يقوم بعد ذلك بطريك من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتمرس في الدرجات الكنائسية درجة درجة ، ويتم المدة القانونية فيها .

وارسل ميخائيل الثالث اعمال هذا الجمع (الاول الثاني) المسكوني الى البابا نيقولاوس الاول مع احد كتبه لاوون ومع سفيري البابا وزودهم بهدايا كنائسية ورسالة منه الى البابا . وكتب فوطيوس ايضاً رسالة ملأى باقوال اللطف الانجيلي^٢ . فلما تسلم نيقولاوس هذا البريد ووقف على مضمونه وعلى ما فعله نائباه في القسطنطينية ألقى عمل النائبين مدعياً انهما تجاوزا صلاحيتها ، وعقد جمعاً محلياً في السنة ٨٦٣ وحكم على فوطيوس وقطعه ، واعترف باغناطيوس بطريكاً قانونياً وهدد باللعنة والحرم كل من يتجاسر ان يخالف هذا القرار . وكتب بذلك الى الفيلسوف فأجابه الفيلسوف بكتاب مرّ جعل البابا يقول عنه ان كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان . وما زاد العلاقات تعقداً ان ميخائيل الثالث وفوطيوس البطريرك كانا قد نجحا بنشر الدين المسيحي في الاوساط البلغارية الحاكمة

Bréhier, L., *Byzance op. cit.* 119; *Regestes des Actes du Patriarcat Byzantin*, 466; *Manst, Amplissima*, XVI, 297-301 .

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ١ ، ص ٤٤٨ - ٤٦٨ .

فتدخل البابا في شؤون الكنيسة البلغارية الجديدة . فثار ثائر ميخائيل وفوطيوس وأعدّا منشوراً لقطعه واتهما الكنيسة الرومانية بالهرطقة والخروج على مقررات المجامع المسكونية وطلبوا عقد مجمع مسكوني للنظر في هذه الامور . ثم اغتيل ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ .

تنصر الصقالبة : (٨٦٤ - ٨٦٧) وحوالى السنة ٨٦٢ أوفد رستيسلاف

امير مورافية الكبرى رسلاً الى القسطنطينية يستجير بميخائيل الثالث على البلغار حلفاء خصمه لويس الالمانى . وأثمرت مساعي رستيسلاف حوالى السنة ٨٦٤ عندما هزم الروم جيشاً بلغارياً كان في طريقه الى الحدود المورافية للتعاون مع الالمان . ورأب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده . فطلب مبشرين ارتوذكسين يعلمون شعبه الدين القويم . فاختار البطريرك فوطيوس الاخوين قسطنطين ومثوذوس لهذه الغاية . وكان الامبراطور قد سبق له ان خبر قسطنطين قبل تبوئه العرش البطريركي حين اوفده الى الخزر في جنوبي روسية للقيام بمهمة سياسية ودينية . وكان قسطنطين من أشهر علماء عصره في الدين والفلسفة ، ويعرف لغة الصقالبة لانه نشأ في ثيسالونيكية وترعرع فيها في منطقة كثيرة الصقالبة . ورحل الاخوان الى مورافية في السنة ٨٦٤ فاشتقا من الاحرف اليونانية حروفاً صقلبية ، ونقلوا الانجيل الى اللغة الصقلبية وبشرا بها وصنفا في هذه اللغة بعض الكتب الضرورية للخدمة الدينية .

تنصر البلغار : (٨٦٤) واستقر البلغار كما سبق ان أشرنا في ميسية

وتراقية واختلطوا بالصقالبة وتعلموا لغتهم . وكانوا اقلية عسكرية حاكمة . فرأى بوغوريس Boris خاقانهم (٨٥٢ - ٨٨٩) ان مصلحته تقضي بتقبل الدين المسيحي وهو دين رعاياه الصقالبة ليتسنى له توطيد سلطته المركزية ازاء الزعامات المحلية الاقليمية عند الامراء البلغاريين . وبدأ البلغار يتعرفون الى النصرانية عن طريق رعاياهم الصقالبة وعلى يد الاسرى الروم .

وكان الاسرى البلغار يتعلمون الدين المسيحي في بلاد الروم . وكان من
 جملة هؤلاء شقيقة خاقان البلغار بوغوريس . فانها اقامت مدة طويلة اسيرة
 في بلاط الروم وتعلمت الدين المسيحي وتقبلت المعمودية . وعند مبادلة
 الاسرى عادت الى بلادها ومعها مثنوذوس اخو قسطنطين المشار اليه آنفاً ،
 فحاولت مع مثنوذوس استمالة بوغوريس الى الايمان فلم تستطع . وكان
 مثنوذوس هذا راهباً بارعاً في فن التصوير . وكان بوغوريس يرتاح الى الصور
 المتقنة . فرسم مثنوذوس صورة الدينونة ، ورسم فيها الديان جالساً وميزان
 العدل مرفوعاً والصديقون ينالون الاكاليل والاشرار يدخلون جهنم . فلما
 رأى بوغوريس الصورة تحشع وخاف ومال الى النصرانية . وفي السنة ٨٦٤
 وقع جوع شديد في بلاد البلغار واستعان لويس الالماني ببوغوريس على
 رستيسلاف . فهب بوغوريس يزحف بجموعه . فهجم عليه ميخائيل الثالث
 وخاله برداس . فسلم نفسه والبلاد وعاهد ان يعتمد ويكون مسيحياً .
 وجاء بوغوريس وعظاء مملكته الى القسطنطينية واعتمد على يد البطريرك
 فوطيوس وسمي ميخائيل في المعمودية باسم اسثينه ميخائيل الفسيلفس .
 وعين البطريرك فوطيوس رئيس اساقفة بلغارية وقسيسين ومعلمين . وبعد
 سنتين (٨٦٦) هجم لويس الالماني على بوغوريس وغلبه . فطلب البابا
 نيقولاوس الى لويس الالماني ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين روحيين
 من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . وكان ما كان من
 امر الاختلاف بين فوطيوس ونيقولاوس . فطعن القسيسون الباباويون
 بفوطيوس واعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قساوسة الروم
 وطردها هؤلاء من بلغارية . فأذاع فوطيوس منشوره ضد البابا في السنة
 ٨٦٧ كما سبق ان اشرنا .

ميخائيل الثالث والعرب : وأدى اندفاع ثيودورة في سبيل الدين القويم الى اضطهاد البولسيين في آسية الصغرى . وهم فرقة مسيحية انتسبت باسمها الى بولس السيساطي واختلفت في عقيدتها وطقوسها عن الكنيسة الام . فاستدعت الكنيسة رؤساءهم وختيوتهم بين الارثوذكسية والقتل . فلما رفضوا اخذت الحكومة البيزنطية تعمل على اخضاعهم بالقوة فقتلت منهم عدداً كبيراً . وفر الباقون الى حدود العرب الى تفرقة Tephricه ونواحيها . فأصبحوا اداة فعالة بيد العرب في حروبهم مع الروم . وتوفي المعتصم في السنة ٨٤٢ وتولى الخلافة بعده ابنه الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) فواجه ازمت داخلية خطيرة منها ثورة دمشق وثورة الاكراد وعصيان الخوارج . فلم يستطع المضي في محاربة الروم . وكان الروم لا يزالون في غمرة الفشل الذي اصابهم في صقلية . ولذا فأنا نقرأ عن وصول رسول رومي الى بلاط الواثق يفاوض في فداء الاسرى . وحصل الفداء على ضفاف اللامس في اواخر السنة ٨٤٥ . وارسلت ثيودورة في السنة التالية جنداً الى صقلية ولكن هزمهم ابو الاغلب العباس . ثم حاول الروم النزول في خليج منديلو بالقرب من بالرمو فلم يوفقوا . وتجاوز هجوم العرب صقلية الى ايطالية . فتقدموا الى مصب التير في السنة ٨٤٦ . وعادوا الى المصب نفسه في السنة ٨٤٩ . فهبت عاصفة قوية واغرقت اسطولهم . وأسر كثير منهم واقتيدوا الى رومة والزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان . وكان العرب الاندلسيون في اقريطش لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر ايجيه وشواطئه بالقرصنة فأمرت ثيودورة بالاغارة على ساحل مصر لتخريب ما فيه من صناعة بحرية كانت تزود عرب اقريطش بالسفن والعتاد واحياناً بالرجال . فقام اسطول رومي الى دمياط في

ربيع السنة ٨٥٣ وهاجم دمياط في الثاني والعشرين من ايار ، يوم عيد الاضحى . وكان الوالي العباسي على مصر عنبة ابن اسحق قد استدعى حامية دمياط للاستراك في عرض حربي في الفسطاط . فهرب سكان دمياط وهلك منهم خلق كثير . واستولى الروم على المؤن والذخيرة المعدة للشحن الى اقريطش واحرقوا السفن المكدسة في المخازن البحرية واقلعوا الى تنيس ثم الى اشتوم فأحرقوا ما كان بها من الآلات الحربية^١ .

ولم يطل عهد الواثق في الخلافة . فانه أصيب بداء الاستسقاء « فعولج بالاقعاد في تنور مسخن فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة فقعد فيه اكثر من اليوم الاول فحمي عليه فأخرج منه في محفة^٢ » ، فمات في الثانية والثلاثين من عمره . وبويع بعده اخوه المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (٨٤٧ - ٨٦١) فكان نيرون العرب . فان ما اقترفه من افانين الانتقام والجور لم يصل اليه خيال . وبلغ ما نشأ عن كباثره من النفور مبلغاً حمل ابنه المستنصر على قتله . ثم مات المستنصر المأً وندماً في السنة الاولى من خلافته (٨٦١) ، فأختار الحرس وجنود الاتراك خلفاً له المستعين بالله . فدامت خلافته ثلاث سنوات . ثم استبدلت به عصابة من الحرس المعتز بالله (٨٦٦) ، فانبرت عصابة اخرى وخلعت المعتز هذا في السنة ٨٦٩ فجلس على كرسي الخلافة المهدي (٨٦٩ - ٨٧٠) ففكر بالاصلاح فأدى ذلك الى قتله في قصره . فخلفه المعتمد فدام عهده اثنتين وعشرين سنة (٨٧٠ - ٨٩٢) بفضل اخلاص اخيه الموفق^٣ .

وفي آخر صيف السنة ٨٥٦ حين عاد علي ابن يحيى من صائفته التقليدية

١ المصدر نفسه ، ص ١٨٨ - ١٩٢ .

٢ الكامل لابن الاسير ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

٣ تاريخ العرب لسيدو ، تعريب عادل زعير ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

قام بتروناس اخو برداس خال الفسيلفس بغزو العرب فأحرز نصراً في ارض
سُميساط وتقدم حتى بلغ قريباً من آمد ثم اتجه الى الشمال الغربي نحو البولسيين
في تفرقة فأحرق قرى عدة وأسر عشرة آلاف . ولم يكدم ميخائيل
الثالث يستكمل فتوته حتى نهض لغزو العرب في السنة ٨٥٩ قاصداً سُميساط
ومعه برداس خاله فبلغ الفرات فنهب وأحرق وأسر . وحصل فداء في السنة
٨٦٠ . وقام نصر ابن الازهر الى القسطنطينية لهذه الغاية . وعليه السواد
وقلنسوة وسيف وخنجر فلم يرضَ بتروناس خال الفسيلفس ان يأذن
للسفير العربي بالدخول الى البلاط على هذه الهيئة واحتج بوجه خاص على
الثوب الاسود وحمل السيف . فغضب الرسول ورجع ، فادركوه وادخلوه
فقدم الى الامبراطور ما حمل من الهدايا الف نافجة مملوءة مسكاً وثياباً
من حرير وكمية من الزعفران النادر وحلياً اخرى مختلفة . وكان ميخائيل
يجلس في الاستقبال على عرشه يحيط به بطارقه الاشراف وبين يديه
التراجمه مسرور وغلالم للعباس ابن سعد الجوهري ومترجم عجوز اسمه
سرحان ولعله سرجيوس . فتقدم رسول الخليفة بالتحيات وجلس في المكان
الذي اعد له . ووضعت الهدايا امام الفسيلفس . فأخذها وأحسن معاملة
السفير . ومكث رسول الخليفة العباسي اربعة اشهر في عاصمة الروم . ثم
استؤنفت مفاوضات الفداء . واقسم كل طرف على الوفاء . ثم تمّ تنفيذه
عند اللامس Limes فأطلق الروم اكثر من الفى مسلم فيهم عشرون امرأة
وعشرة اطفال واطلق العرب اكثر من الفى اسير . اما الالف الباقية
فتركت لقاء ما وُعدَ به الفسيلفس من اقتداء البطريق المأسور في لؤلؤة .
وكان قوم من الروم قد دخلوا الاسلام وقوم من العرب قد تنصروا .
ومن رغب في النصرانية ترك عند الروم .

والغريب ان النضال بين الروم والعرب استؤنف في صيف هذه السنة نفسها . فسار ميخائيل الثالث بنفسه لغزو العرب ووصل الى موروبوتامن . فأندره وكيله في العاصمة قائد الاسطول الدرنگار نسيثاس اوريفاس بقدموم الروس . فاضطر الفسيلفس ان يسرع في العودة قبل ان يشرع في الحرب شروعاً جدياً . فوصل الى العاصمة وقد احاط بها الروس وقتلوا من حولها السكان ، فلم يستطع ان يعبر المضيق الا بعد مشقة^١ . وانتهز العرب حملة الروس وغياب الفسيلفس فبدلوا نشاطاً كبيراً . فشن امير ملاطية عمر ابن عبدالله غارةً على الروم فعاد بسبعة آلاف اسير . وأغار قرباص فأسر خمسة آلاف . وعاد علي ابن يحيى بخمسة آلاف ايضاً ومئتي فرس وثور وحمار . وأغار فضل ابن قارون بحراً بعشرين سفينة وأخذ انطاكية^٢ .

وفي صيف السنة ٨٦٣ في ايام المستعين قام عمر ابن عبدالله امير ملاطية بحملة موفقة بلغ بها قلب ارض الروم ، فخرّب ثيمة ارمينية ، وتقدم حتى بلغ البحر الاسود فأخذ اميسوس (سمسون) ، وساءه ان يوقف البحر سيوره فأمر بضرب البحر ! وعلم ميخائيل الثالث بهذا كله ، فجهّز جيشاً قوياً وجعل على رأسه بتروناس خاله . فزحف بتروناس فأدرك عمر ابن عبدالله عند بوزن Poson في بفلاغونية في الثالث من ايلول سنة ٨٦٣ فحصره ووقع به هزيمة تامة واحتزّ رأسه وارسله الى القسطنطينية وقتل عدداً كبيراً من جنوده واسر الباقين^٣ .

وسادت الفوضى في ايام المستعين بالله ، من مكة ، الى حمص ،

Vasiliev, A. A., Byz. Emp, 277-278 .

٢ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٤٩ .

٣ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٢١٨ - ٢٢٥ .

فالموصل ، فاصفهان . واستبد الحرس من جنود الاتراك وهددوا المستعين ،
فحاول الفرار من سامر^ا الى بغداد ، فقطع بذلك صلته بالترك . فاقاموا
مقامه المعتز . وتنازل المستعين عن حقه في الخلافة (١٦٦) واعتزل باقي
حياته في المدينة .

الفصل الحادي والعشرون

العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع

احياء الجامعة : وقد يكون برداس اخو ثيودورة وخال ميخائيل الثالث وصولياً في السياسة طامعاً في الحكم ولكنه كان دون ريب ذكياً مفكراً ، محباً للعلم والادب والفن ، حامياً لها مشجعاً عليها . واليه يعود الفضل والشرف في احياء الجامعة في القسطنطينية ، والعودة الى العلوم العالية ، النصرانية منها والوثنية . فانه استدعى الى القصر أعلم علماء زمانه وجمعهم في مدرسة عالية « الماغورة » وعهد برئاستها الى فخر ثيسالونيكية لاوون الرياضي الطيب الفيلسوف^١ . وكان بين اساتذتها فوطيوس البطريك وقسطنطين رسول الصقالبة وقد سبقت الاشارة اليهما . وكانا يدرسان اللغة والفلسفة . وعلّم غيرهما الهندسة والفلك . واشتد عطف برداس على الجامعة فتردد اليها واحتمك باساتذتها وطلابها ، وحضهم على السير في سبيل العلم والفكر .

ولم يرضَ بعض رجال الدين عن هذه العناية بالعلوم القديمة لانها صدرت عن الوثنيين فاتهموا لاوون بالسحر واذاعوا ضده المناشير واكدوا

*Fuchs, F., Die hohen Schulen von Konstantinopel im Mittelalter, ٨
Berlin, 1926.*

انه سيرافق سقراط وافلاطون وارسطو في جهنم . ولكن برداس مضى في عمله العلمي غير مبالٍ بهذا كله فنفتح في عاصمة الروم روحاً علمية مباركة مهدت السبيل لوثة القرن العاشر ، وخلصت ذكرى الاسرة العمورية في تاريخ الحضارة الى ما شاء الله .

نادي فوطيوس : وجعل فوطيوس (البطريرك فيما بعد) بيته نادياً ادبياً علمياً . ودعا اليه اصدقاءه الادباء والعلماء للمطالعة والبحث . وجمع اليه عدداً كبيراً من المؤلفات المسيحية والوثنية . ونزولاً عند طلب اصدقائه هؤلاء دون خلاصة ما كان يقرأ في النادي من المؤلفات فصنف بذلك كتابه البيبليوتيكة Bibliotheca او الميريوببلون Myriobiblon كما يدعى احياناً ومعناه « الوف الكتب » . فحفظ لنا بمجموعته هذه اشياء واشياء من مؤلفات فقدت فيما بعد . فنجد في مجموعته كلاماً مفيداً من اقوال رجال اللغة والخطباء والمؤرخين وعلماء الطبيعة والاطباء والآباء والجامع . وصنف فوطيوس كثيراً في اللاهوت واللغة وخلف مواعظ عديدة ورسائل كثيرة^١ .

دير الاستوديون : وعاد ثيودوروس الراهب من منفاه . فأقام في دير استوديون في العاصمة ورمه واصلحه . ثم هب لاصلاح الرهبنة فقدم الحياة المشتركة « الكينوييوس » Koinos bios على الاعتزال الفردي ووجب تهذيب الرهبان . ففرض القراءة والكتابة ، ونسخ المخطوطات ، ودرس الاسفار المقدسة ، ومؤلفات الآباء ، ونظم الترانيم وترتيلها . ونظم هو بالاشتراك مع اخيه يوسف رئيس اساقفة نيسالونيكية معظم كتاب التريوديون الحشوعي . وكتب في اصول الايمان كتابي الكتاكيزموس الكبير والصغير

Bury, J. B., East. Rom. Emp., III, 445-446 ; Jorga, N., Hist. de la Vie Bizantine, II, 106-107.

فلقيا رواجاً كبيراً . وله رسائل عديدة في الدفاع عن الايقونات وفي
الناموس والاجتماع . وتوفي في الحادي عشر من تشرين الثاني سنة ٨٢٦
وتلاميذه حوله يرتلون المزمور « طوبى للذين » . وتناول هو الاسرار واخذ
يرتل هذا المزمور ، فلما بلغ الى القول : « الى الدهر لا انسى حقوقك لانك
بها احيتني » ، أسلم الروح وله من العمر سبع وستون سنة^١ .

يوحنا الدمشقي : (٦٧٦ - ٧٦٠) « كوكب الكنيسة ومعلمها
ومقاوم الاعداء يوحنا الحكيم المتأله اللب . » ولد يوحنا من ابوين غنيين
تقيين في دمشق . وافتدى ابوه راهباً اسمه قوزما كان قد وقع
اسيراً في يد المسلمين في ايطالية . وكان قوزما الراهب على شطر وافر
من العلم فمضى بتعليم يوحنا وتثقيفه . وخلف يوحنا ابيه وجدته في ادارة
المال في عهد الامويين . وما فتى مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ -
٧٤٣) . ثم اعتزل الادارة وتقبل النذر في دير القديس سابا في فلسطين .
وتوفي فيه حوالي السنة ٧٦٠ . وكانت حرب الايقونات فأثرت في نفس
يوحنا . فاجتهد في امر الايقونات وكتب ورحل في سبيل ذلك حتى
القسطنطينية . فغرفه الآباء وقدروا مواهبه فأطلقوا عليه لقب خريسورواس
ومعناه دفاق الذهب . وخريسورواس عندهم نهر بردى بلد يوحنا^٢ .

وافضل الآثار التي خلفها هذا العالم الحكيم وكوكب الكنيسة ومعلمها
هو مؤلفه « ينبوع المعرفة » . وهو سفر جليل عرض به يوحنا العقيدة المسيحية
عرضاً منطقياً على طريقة ارسطو معتمداً في ذلك على مقررات المجامع

Gardner, A., *Theodore of Studion, Life and Times*, Lond., 1905 ; ١
Patrologia Graeca, Vol. 99, c. 233 .

Jugie, M , *Vie de St. Jean Damascène*, *Echos d'Orient*, 1924, 137-161. ٢

واقوال الآباء منذ المجمع المسكوني الاول حتى يومه . فوضع بيد محبي الايقونات سلاحاً قطعاً لم يكن لديهم من قبل . وأصبح مؤلفه فيما بعد مرجع الآباء الارثوذكسين والكاثوليكين في علم اللاهوت . وهو دونما ريب الينبوع الاكبر الذي استقى منه ونسج على منواله توما الاكوييني . عندما وضع في القرن الثالث عشر مؤلفه الشهير في اللاهوت *Summa Theologiae* . ونظم يوحنا التراتيل الروحية ولحنها ولاسيما ما يرتل منها يوم عيد الفصح . وجاءت هذه التراتيل اعمق واقوى من منظومات رومانوس البيروتي الذي سبقت الاشارة اليه^١ .

ومما ينسب الى القديس يوحنا الدمشقي قصة برلام الزاهد ويوصافات الامير الهندي التي راجت كثيراً في العصور الوسطى . وبرغم أن العالم الافرنسي زوتنبرغ قد نفى علاقتها بيوحنا الدمشقي^٢ ، وبرغم ان كثيراً من المؤرخين قد تقبلوا استنتاجاته فان بعض العلماء المحدثين لا يزالون يرغبون في اسنادها الى يوحنا نفسه^٣ . ومن المحتمل ان يكون راهب آخر من رهبان دير القديس سابا يحمل اسم يوحنا ايضاً هو الذي نقل هذه القصة^٤ .

ثيوفانس المعترف : (٧٤٨ - ٨١٨) ولد في القسطنطينية من والدين تقيين عريقين في الشرف . فوالده اسحق كان والياً على جزر الارخبيل ووالدته ثيودورة كانت ايضاً شريفة من شريفات القسطنطينية . وتوفي والده وهو لا يزال في الثالثة من عمره . فأشرفت والدته البارة على تربيته واستعانت باحد العلماء الاتقياء على تهذيبه وارشاده . ثم اكرمه

Bardenhewer, O., Gesch. der Allkirlichen Lit., V, 51-65. ١

Krumbacher, K., Gesch. der byz. Lit., 886-890. ٢

Woodward, C. R., Barlam and Joasaph, XII. ٣

٤ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٠٥ . الدكتور فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٣١٤

الفيلسوف على الزواج من ابنة لاوون احد كبار الموظفين في القصر . فأرشد عروسته الى الصلاة والتأملات الروحية وطلب اليها ان تعيش معها كشقيق لها لا كزوج فقبلت . وبعد وفاة الفيلسوف وحميه لاوون اطلق هو وزوجته عبيدهما ووزعا اكثر ما يملكان على الفقراء . وفي السنة ٧٨٠ تقبل كل منهما النذر وافترقا ليلتقيا في الحياة الابدية . وانعقد المجمع المسكوني السابع فدعي ثيوفانس للاشتراك في اعماله فلبى . ثم حاول لاوون الخامس اجتذابه اليه فما استطاع ، ورد عليه ثيوفانس موجباً تكريماً الايقونات . فاشتعل لاوون غيظاً وانفذ الى الدير السغرياني من القى القبض على الراهب البار وقيده بالسلاسل . ثم ادخله لاوون السجن وأمر بتعذيبه . وبعد سنتين نفاه الى جزيرة قفر . فتوفي فيها بعد وصوله اليها بثلاثة اسابيع . واول من عني بتدوين سيرة هذا الرجل البار هو ثيوذوروس الاستودي .

وأنتفع ما خلفه ثيوفانس خرونيقونه الشهير . بدأه من عهد الامبراطور ديوقليتيانوس ووقف به عند نهاية حكم الفيلسوف ميخائيل الاول (٢٨٤-٨١٣) . وخرونيقون ثيوفانس هذا مفيد جداً لانه يحفظ لنا بعض ما ورد في مصنفات فقدت من بعده ولانه أسهب فيما دون عن حرب الايقونات . وقد نقل انسطاسيوس قسيم مكتبة الفاتيكان هذا الخرونيقون الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن التاسع فزاد في فائدته اذ اعتمد عليه عدد كبير من مؤرخي العصور الوسطى في القرب^١ .

نيقيفوروس المعترف : (٧٥٨ - ٨٢٨) ولد في القسطنطينية وأبوه

١ مكسيموس بطريك انطاكية على الروم الكاثوليكين ، اخبار القديسين ، ج ٢ ، ص

٣٦٢ - ٣٦٨ .

Ostrogorsky, G., «Theophanes», Real-Encyclopadie, II, 2127-2132.

هو ثيودوروس كاتم اسرار الفيلسوف قسطنطين الزبلي (الخامس) وامه هي افذوكسية. احتل الاضطهاد الشديد في حرب الايقونات. وتوفي ثيودوروس في المنفى فعادت افذوكسية بولدها نيقيفوروس الى القسطنطينية وعينت بتربيته وتعليمه. وكان نيقيفوروس ذكياً جداً فبرع في «العلوم البشرية» وقد أظهر ما دلّ على حسن شمائله وخصاله فأحبه عظماء العاصمة. وأمرت ايرينة الوصية بتوقيته الى الوظيفة نفسها التي شغلها والده، وهكذا أصبح كاتماً لاسرار المملكة. وحينما رأته والدته افذوكسية انه لم يعد بحاجة الى مساعدتها أهملت كل شيء وانفردت في دير الراهبات. وسعى نيقيفوروس الى عقد المجمع المسكوني السابع سنة ٧٨٧ وحضره بشخصه من قبل الفيلسوف لكي يشرف على حفظ النظام والترتيب. ثم اعتزل العمل في البلاط واهمل كل شيء وانفرد في البوسفوروس بالقرب من القسطنطينية وعمرّ ديراً وضمّ اليه طائفة من الرهبان. وكان اذا اكمل واجباته الرهبانية انصرف الى العلوم التي برع فيها. وفرغ الكرسي البطريركي في العاصمة بوفاة طراسيوس في السنة ٨٠٦ فدعا الفيلسوف نيقيفوروس سميّه نيقيفوروس اليه وحثه على قبول الرتبة البطريركية ولكن نيقيفوروس اعتذر وتوسل الى الفيلسوف ان يعفيه لانه كان لا يزال علمانياً ولانه غير كفوءٍ لهذه المنزلة الجليلة ولكن الفيلسوف أصرّ على رأيه وما لبث حتى انتصر على ارادة سميّه. وتبوأ نيقيفوروس العرش البطريركي المسكوني في منتصف السنة ٨٠٦. ثم هب «ينقي حقل الرب من زوان الاراسيس والضلالات والغلطات والبدع، ولاسيما هرطقة محاربي الايقونات». واتجه بعد ذلك الى تهذيب الاكليروس ملازماً كلاً منهم بالسلوك في الحدود التي ترسمها له القوانين. وفي السنة ٨١٣ حينما استولى لاوون الارمني على تخت الملك عاد فضّيق على من قال باكرام الايقونات فسجن نيقيفوروس

ثم نفاه فتوفي في المنفى في السنة ١٨٢٨.

وألف نيقيفوروس كتباً في الرد على محاربي الايقونات. وأشهر آثاره في هذا الموضوع «دحض ما هذر فيه مأمون»، والاشارة هنا الى قسطنطين الخامس^٢. وكتب ايضاً في التاريخ، فأرّخ الفترة التي امتدت من ايام موريقيوس في السنة ٦٥٢ الى السنة ٧٦٩، فأجاد، وحفظ لنا اشياء واشياء عن السياسة وعن الكنيسة في تلك الحقبة. والتشابه بين تاريخه وبين خرونيقون ثيوفانس يعود الى ان الكاتبين كليهما اخذا في بعض الاحيان عن مرجع واحد^٣.

جورجس الراهب: وقد صنّف خرونيقوناً كالمعتاد، فابتدأ بالخلق وسقوط آدم، ووقف عند انتصار الايقونات في السنة ٨٤٢. ومصنفه هذا هام جداً، لانه المرجع الوحيد لتاريخ الروم بين السنة ٨١٣ والسنة ٨٤٢، ولانه يبين بوضوح مشاغل زملائه الرهبان، وما اهتموا به في الرهبانية، وفي حرب الايقونات، وفي انتشار الاسلام^٤. واعتمد المتأخرون من مؤرخي الروم هذا الخرونيقون في ترتيب الحوادث العالمية وتصنيفها، كما ان مؤرخي الروس الاولين رجعوا اليه وافادوا منه.

كاسية الشاعرة: ولما أهمل ثيوفيلوس الفيلسوف كاسية في عرض الجملات، كما سبق ان أشرنا، اتجهت انظارها نحو جمال النفس والروح. ثم عزفت عن الدنيا عزوفاً تاماً، فأسست ديوراً والتجأت اليه متعبدة. وعينت في اثناء عزلتها بالتراتيل الروحية، فنظمت فيها ما خلد ذكرها.

١ مكسيموس البطريرك، اخبار القديسين، ج ٣، ص ١٥٨ - ١٦٤.

٢ *Patrologia Graeca, Vol. C, 205 ff.*

٣ *Blake, R., Activité Littéraire de Nicephore, Ir Patriarche de Const., Byzantion, 1939, 1-15.*

٤ *Georgius Monachus, Chronikon, ed. de Boor.*

وقد كرّس المؤرخ الالماني كرومباخر شيئاً من وقته لدراسة شعرها ، فألفها امرأة فذة ، جمعت حساسية المرأة ، الى شدة تدين ، الى صراحة نادرة^١ .

الفكر اليوناني والاطوساط العربية الاسلامية : وأدرك العرب المسلمون تفوق الروم في الفكر والحضارة . فقد جاء في مقدمة ابن خلدون ان ابا جعفر المنصور بعث الى ملك الروم يطلب كتباً يونانية ، وان الملك اجابه الى طلبه ، فارسل اليه كتباً من بينها كتاب اقليدس^٢ . وترجم ابو يحيى ابن البطريق كتب جالينوس وابقراط . وفي عهد الرشيد نقل يحيى ابن ماسويه بعض الكتب الطبية الى العربية . ولكن هذا النقل بلغ اقصاه في عهد الخليفة المأمون . فانه كان من انصار المعتزلة الذين عززوا العقل وتهافتوا على الفكر وآثاره . وراسل المأمون زميله لاوون الارمني وطلب اليه ان يأذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية في الفلسفة والهندسة والطب . فأجابه لاوون الى ذلك . فأنت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان اعضاؤها الحجاج ابن قطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة . وعاد هؤلاء بكنوز ثمينة الى بغداد ، فأشرف قسطا ابن لوقا على ترجمتها^٣ . ولما ترامى الى المأمون نبأ لاوون الرياضي راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالعطاء . ولكن ثيوفيلوس الفيلسوف علم بهذه الدعوة في حينها فأبقى لاوون في القسطنطينية وعينه مدرّساً في احدى الكنائس . ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس ان يسمح بان يزوره لاوون مدة قصيرة ، « وذكر في رسالته انه يعد قبول هذا الطلب عملاً ودياً وانه

Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 716 ; Bury, J. B , East. Rom. Emp., 81-83 .

٢ المقدمة ، ص ٤٠١ .

٣ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٤٠ و ٣٩٩ .

يعرض لقاء ذلك الف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم . غير ان ثيوفيلوس رفض واعتبر علم لاوون واختراعاته سرّاً لا ينبغي ان يطلع عليه المسلمون^١. « وأحب الواثق بالله ان يستقضي اخبار اهل الكهف ، فأرسل احد العلماء المسلمين الى افسس لمشاهدة كهوفها ، وهي التي كانت تحفظ جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا في ايام ديوقليتيانوس . واذن ميخائيل الثالث بذلك واوفد مع العالم المسلم دليلاً يرشده^٢.

الجدل بين النصارى والمسلمين : ومن ظواهر الفكر في القرنين الثامن والتاسع التحاجّ الديني الذي حصل بين بعض العلماء الارثوذكسيين الكاثوليكين وبين بعض علماء المسلمين . وكان الداعي لهذا الجدل ان الحلفاء كانوا اذا تسنموا عرش الخلافة يوجهون الى الملوك المعاصرين كتباً يدعوهم فيها الى الدخول في الاسلام ، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب . ومن اسباب هذا الجدل ايضاً ان خطر التحول عن المسيحية تزايد بتقدم العرب في جميع نواحي حياتهم . فكان من الضروري ان تُنظّم مناعة في العقيدة للمسيحيين في الثغور ، وفي جميع الاقطار الشامية ، وفي مصر ايضاً . وكان سكان هذه الاقطار من الارثوذكسيين الكاثوليكين وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية في ارض الاسلام ، في زمن يوحنا الدمشقي ايام الامويين ، وفي زمن ابي قرة في اوائل العهد العباسي . فجماعت تآليف هؤلاء في الجدل باليونانية . ولكن ابا قرة في ميّاره بدأ استعمال العربية . وكتب بها ابو كاليبس بحيرة الحوار بين عبد المسيح الكندي وبين عبدالله الهاشمي .

١ الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .
Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 190; Bury, J. B., East. Rom. Emp., 436-438; Fuchs, F., Hohern Schulen, 18.

٢ الدكتور ابراهيم المدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ .

اما يوحنا الدمشقي فانه ناقش بعض الآيات القرآنية وانتقد وحي القرآن وعادات المسلمين في العبادات والاخلاق . ورفض ابو قره بعثة محمد رسولاً وجادل فكرة الخلق المستمر ونصيب الله في اعمال المخلوقات واعتبرها اقوالاً يجرّ إليها الدخول في الاسلام . ومما قاله ابو قره انه اذا قيل بخلق المسيح لزم ان يكون الله قد بقي زمناً دون كلمة وروح ، وبالتالي لزم ان يكون القرآن الذي هو كلمة الله مخلوقاً . وظهرت رسالة بحيرة الراهب في عهد المأمون . ثم كان هجوم اسلامي قويّ على اثر ما فعله ميخائيل الثالث اذ ارسل مقالتين احتج في احداها بمبدأ السببية . فرفض المسلمون فكرة وجود ابن الله مشارك له في الخلود وفي الصفات . وظهرت رسالة للجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو اهل الذمة . وعرض ابو القاسم ابن ابراهيم البلخي لفكرة النبوة . وألف ابو عيسى الوراق كتاباً ضخماً تقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة^١ .

الفن : ويرى بعض رجال الاختصاص ان محاري الايقونات قضوا بتعصبهم على روائع فنية فحرموا بذلك الفن والعلم فائدة التلذذ والانتفاع بهذه الروائع^٢ . ويرى غيرهم ان النزاع حول الايقونات وتحطيمها نفخ في الفن البيزنطي روحاً جديدة مستمدة من الفن الهليني القديم ومن الفن الفارسي كما يرون ان تحريم تصوير المسيح والعدراء والقديسين لم يشمل تصوير البشر العاديين ، فانطلقت يد الفنانين وغدت واقعية بتأثير المثل الهلينية الباقية . ومما يرى هؤلاء ايضاً ان الفن البيزنطي اتجه في هذه

١ ارمان آبل : تحتاج اهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ، وهو الملحق السادس لكتاب فازيليف في تاريخ الروم والعرب ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادي شعيره والدكتور فؤاد حسين علي ، ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

Dalton, O. M., Byz. Art and Arch., 14.

الحقبة ، نتيجةً لحرب الايقونات ، اتجاهاً زمنياً واضحاً مستلهماً الطبيعة والحياة اليومية العادية^١.

ومؤسف ان يكون معظم آثار هذه الفترة قد اندثر وسواء منه ما كان دينياً او زمنياً . وقد يكون بعض الفسيفساء في كنائس ثيسالونيكية (سلانيك) من آثار هذه الحقبة وقد لا يكون . وقل القول نفسه عن بعض التصاوير المحفورة في العاج وهي التي يقدر فريق من الباحثين انها ترقى الى عصر حرب الايقونات . وئة كتب دينية مزينة ببعض الصور قد تكون من آثار هذه الحقبة نفسها ، واشهرها مخطوطة الخلودوف المحفوظة في موسكو^٢.

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني والاخير

Diehl, Ch., Art Byzantin, I, 385-386.

Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 299.

محتويات الجزء الاول

صفحة
تمهيد : اهمية تاريخ الروم ، المراجع الاولية ، افضل المؤلفات الحديثة . ٨ - ١

الباب الاول المقدمة

- الفصل الاول : تقهر رومة الداخلي ، النظام الكولوني وتأخر الزراعة ، عداء مزمن
بين الاغنياء والفقراء ، تأخر الصناعة والتجارة ، انحطاط الجيش ،
الامبراطور ، ازمة القرن الثالث ، غزوات الشعوب الجرمانية ،
الافلاطونية الجديدة ٢٣ - ٩
- الفصل الثاني : ظهور النصرانية وانتشارها ، الرسل والتلاميذ ، اليهود ، انطاكية ،
بولس ، مرقس وتوما وغيرهما ، الدولة الرومانية والنصرانية ،
الاضطهاد ، النظام والتنظيم ، آثار المسيحيين الاولين ٤٢ - ٢٤
- الفصل الثالث : الدولة الساسانية ، تمهيد ، قيام الدولة الساسانية ، بهرام الثاني ، بهرام
الثالث ونرسی الاول ٥٠ - ٤٣

الباب الثاني اصل الدولة ومنشأها

الفصل الرابع : قسطنطين الكبير والقسطنطينية ، قسطنطين الاول الكبير ، اخباره

الاولى ، موقفه من النصرانية ، براءة ميلان ، مجمع نيقية ، القديسة هيلانة ، آريوس ثانيا ، القسطنطينية ، الادارة ، الجيش ، طبقات المجتمع ، الثقافة العامة ، تنصر قسطنطين ووفاته ٧٣ - ٥١

الفصل الخامس : قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد ، قسطنديوس ، شابور ذو الاكتاف ، الوثنية ، يوليانوس الجاحد ، سياسته الداخلية ، موقفه من النصرانية والوثنية ، في انطاكية ، الحرب الفارسية ٨٥ - ٧٤

الفصل السادس : ثيودوسيوس الكبير ، خلفاء يوليانوس ، ثيودوسيوس الكبير ، المجمع المسكوني الثاني ، العلاقات الرومانية الفارسية ، ضجة في انطاكية وبيروت ، توحيد الامبراطورية ، الوثنية تشرف على التلف ، الوفاة ١٠١ - ٨٦

الفصل السابع : ظهور الرهبانية وانتشارها ، اصحابها ، انطونيوس الكبير ، باخوميوس القديس ، باسيليوس الكبير ، مار مارون . ١٠٦ - ١٠٢

الباب الثالث

تدفق البرابرة وتفرق النصارى

الفصل الثامن : اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني ، اسرة ثيودوسيوس الكبير ، اركاديوس ، آلاريكوس ملك القوط ، قوط القسطنطينية ، ثورة القوط في فريجية ، سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط ، يوحنا الذهبي الفم ، ثيودوسيوس الثاني ، صداقة فارس ، تحوط واحتياط في الداخل ، الهون ، انشقاق في الكنيسة ، بطربرك القسطنطينية وبطربرك الاسكندرية ، المجمع المسكوني الثالث ، المجمع المسكوني الرابع ١٢٩ - ١٠٧

الباب الرابع

تمشرق الفكر والفن والدولة

الفصل التاسع : اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس ، مرقيانوس ، لاوون

الاول ، زينون ، الاينوتيكون ، انطاسيوس الاول ، الحرب
الفارسية ، المالية ، الطبيعة الواحدة ، ثورة فيتاليانوس . ١٣٠-١٣٩

الفصل العاشر : تشرق الفكر والفن والدولة ، الدولة تتحول الى دولة شرقية ،
الفكر والفن والثقافة ، الاسكندرية ، انطاكية ، قيسرية فلسطين ،
بيروت ، قبدوقية ، الرها ، الفن البيزنطي . . . ١٤٠-١٦٤

الباب الخامس

كرامة ومجد وعظمة

الفصل الحادي عشر : يوستينوس ويوستيانوس ، اصل هذه الاسرة ، يوستينوس
الاول ، يوستينوس وكالب الجبتي ، يوستيانوس وثيودورة ،
سياسة يوستيانوس الداخلية ، يوستيانوس والاقتصاد ،
يوستيانوس والقضاء ، يوستيانوس والكنيسة ، الفصول الثلاثة ،
المجمع المسكوني الخامس ، سياسة يوستيانوس الخارجية ،
الحرب الفارسية الاولى ، الحرب في افريقية وايطالية ،
الحرب الفارسية الثانية ، توتيلة ، الدانوب ، الفرات وسائر
الحدود الشرقية ، يوستيانوس في دوره الاخير . . ١٦٥-١٩٤

الفصل الثاني عشر : خلفاء يوستيانوس ، يوستينوس الثاني ، طيباريوس الثاني ،
موريقيوس ، سياسة خلفاء يوستيانوس ، الحرب الفارسية ،
خلفاء يوستيانوس والعرب ، الآفار والصقالبة ، ثورة السنة
٦٠٢ ، فوقاس ١٩٥-٢١٠

الفصل الثالث عشر : الفكر والفن في القرن السادس ، التاريخ والمؤرخون ،
الجغرافية والجغرافيون ، التاريخ بالحوليات ، اخبار
القديسين ، الشعراء ، الفن ٢١٠-٢١٩

الباب السادس

تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود الملك وانظمته

الفصل الرابع عشر : هرقل والفرس والصقالية والآفار ، سقوط فوقاس وقيام
هرقل ، اسرة هرقل ، الحرب الفارسية ، الآفار والصقالية ،
القول بالمشيئة بالوحدة ٢٢٠-٢٣٣

الفصل الخامس عشر : هرقل والعرب ، النبي العربي والروم ، الروم والنبي العربي ،
ابو بكر الصديق والروم ، عمر الكبير والروم ، عودة
الروم الى الميدان ، عرب الشام والعرب الفاتحون ، نصارى
الشام والعرب ، لماذا خسر الروم ، عمر وفتح مصر ، موقف
الاقباط من العرب الفاتحين ٢٣٤-٢٥٣

الفصل السادس عشر : خلفاء هرقل ، مرتينة ، قسطنطين الثالث ، قسطنطين الرابع ،
المجمع المسكوني السادس ، قسطنطين والعرب ، يوستينيانوس
الثاني ، حرب القراطيس والدنانير ، المجمع الخامس السادس ،
خلع يوستينيانوس ، الفوضى ، حصار القسطنطينية ٢٥٣-٢٤٧

الفصل السابع عشر : تطور وتغيير ، الارض والسكان ، الدولة تصبح هليانية ، اللاتينية
تتوارى فتزول ، تزايد نفوذ الكنيسة ٢٧٥-٢٨٣

الفصل الثامن عشر : الآداب والعلوم والفن في القرن السابع ، التاريخ والادب ،
المشيتتان والفعلان ، اخبار القديسين ، الفن ٢٨٤-٢٨٨

الباب السابع

انتعاش وتوطيد واستقرار

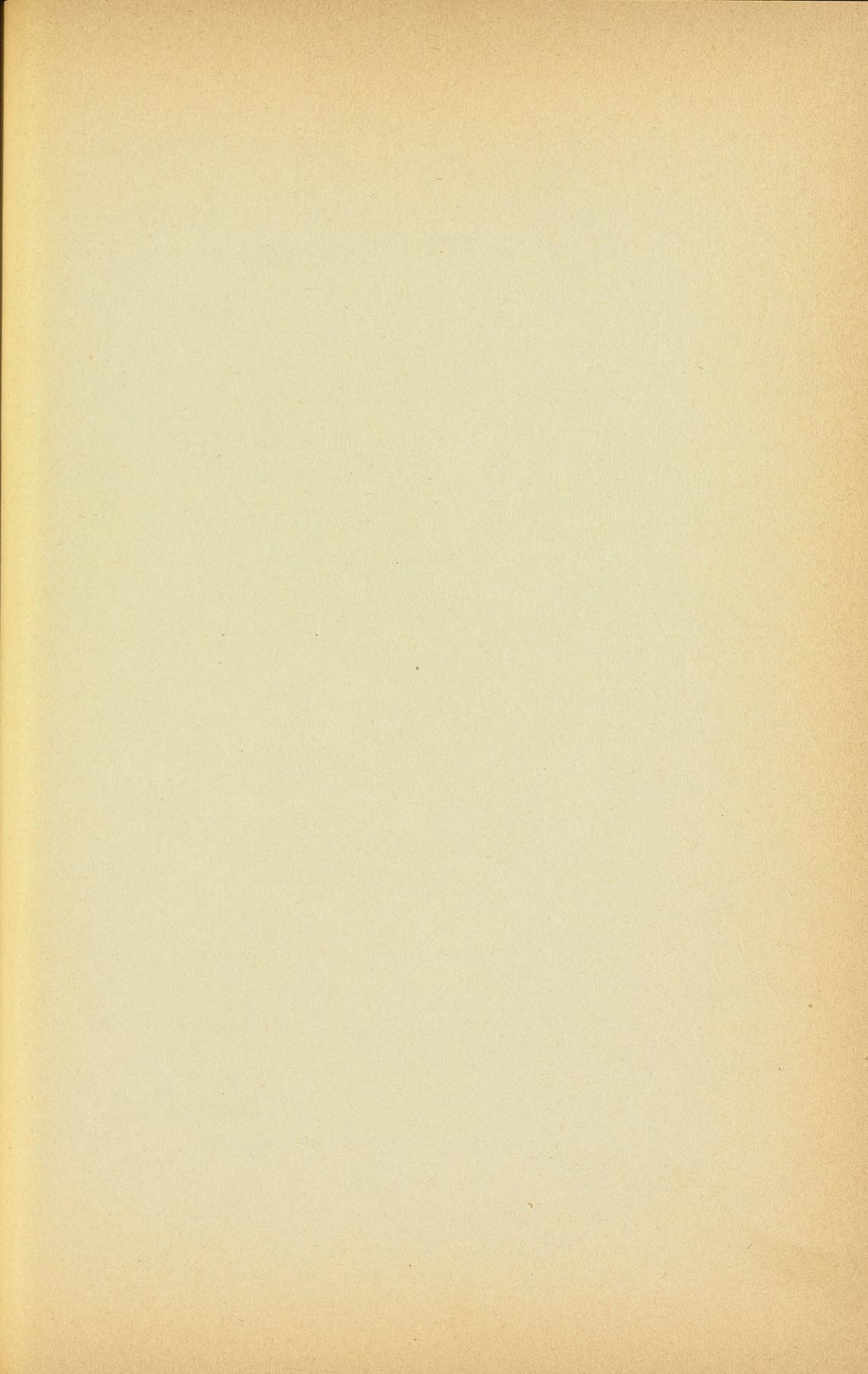
الفصل التاسع عشر : الاسرة الاسورية ، اصلها ، الحروب العريية ، البلغار
والصقالية ، الاكلوغة ، قانون المزارعين ، القانون البحري ،

صفحة

قانون الجند ، الثيات او البنود ، حرب الايقونات ، المجمع
المسكوني السابع ، رومة والامبراطور ٣١٣-٢٨٩

الفصل العشرون :
خلفاء الاسوريين والاسرة العمورية ، نيقيفوروس الاول
وميخائيل الاول ، لاوون الخامس ، الاسرة العمورية ،
ثورة توما الصقلي ، نزول العرب في افريطش ، ثورة
يوفيموس الصقلي ، ثيوفيلوس الاول ، ثيوفيلوس والعرب ،
ميخائيل الثالث ، تنصر الصقالية ، تنصر البلغار ، ميخائيل الثالث
والعرب ٣٣٨-٣١٤

الفصل الحادي والعشرون : العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع ، احياء
الجامعة ، نادي فوطيوس ، دير الاستوديون ، يوحنا
الدمشقي ، ثيوفانس المعترف ، نيقيفوروس المعترف ،
جرجس الراهب ، كاسية الشاعرة ، الفكر اليوناني
والاوساط العربية الاسلامية ، الجدل بين النصارى
والمسلمين ، الفن ٣٤٩-٣٣٩



*Copyright by Dar Al-Makchouf,
Beyrouth, 1955*

HISTORY
of
THE BYZANTINE EMPIRE

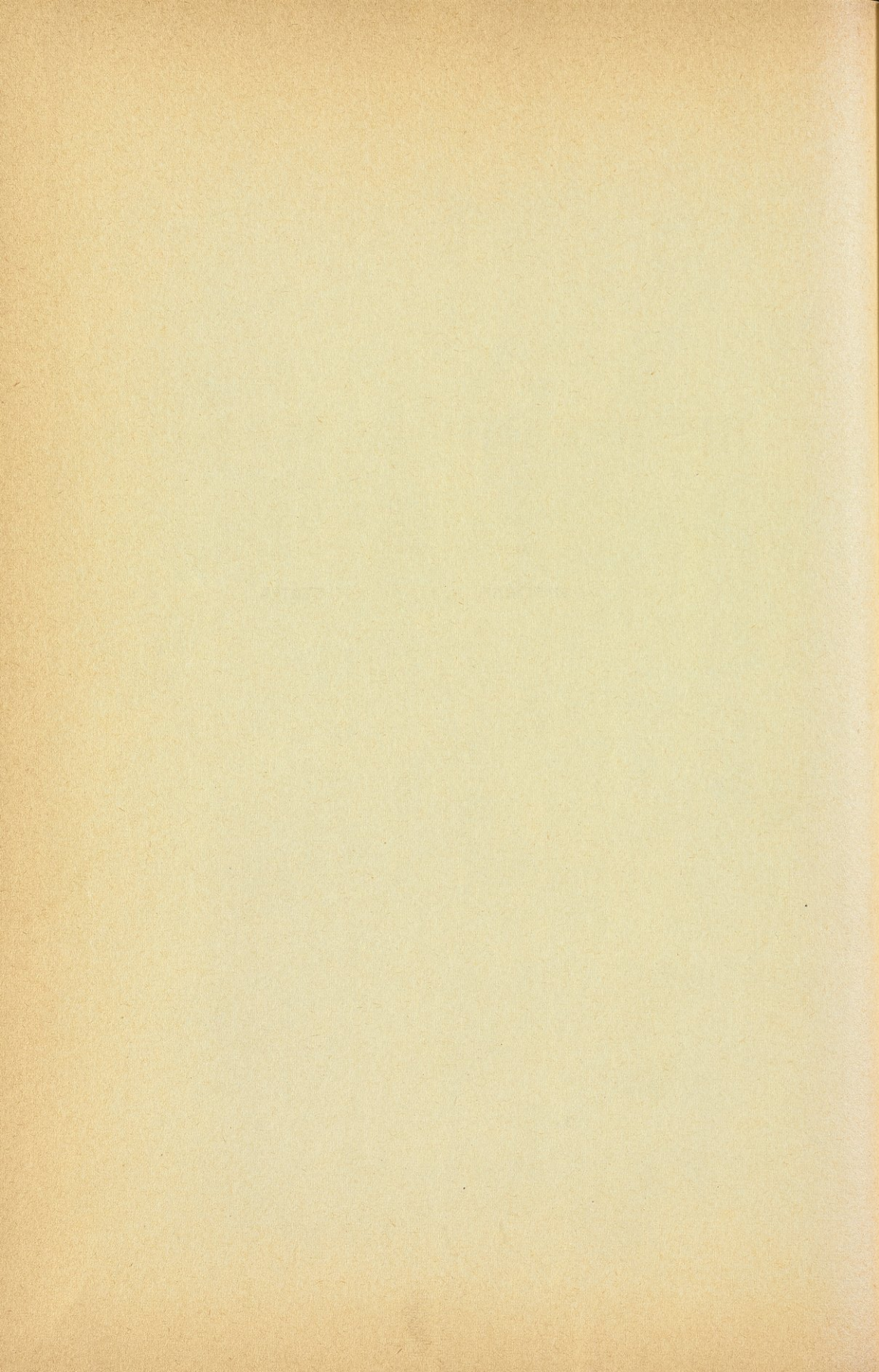
**WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES**

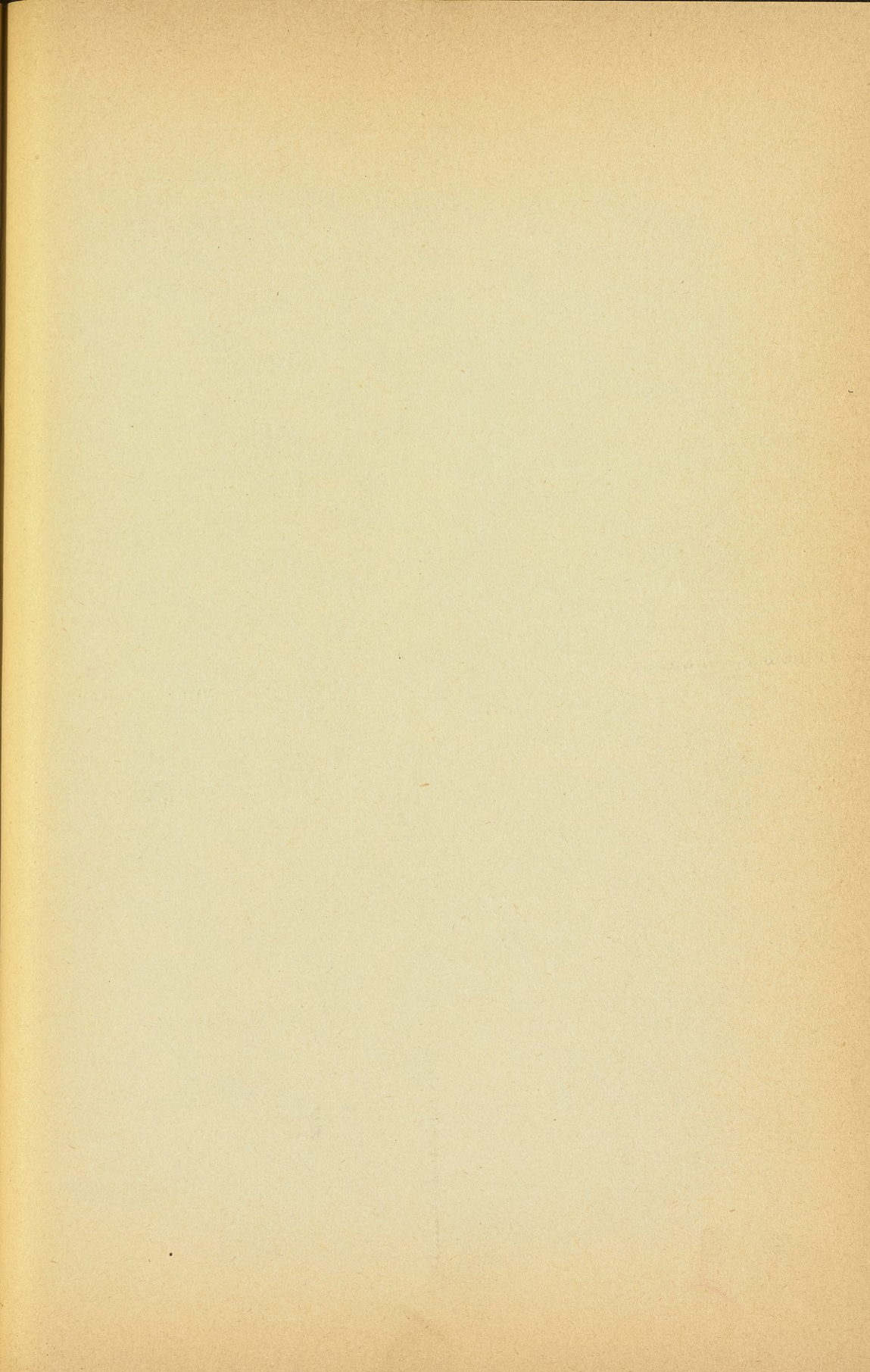
By

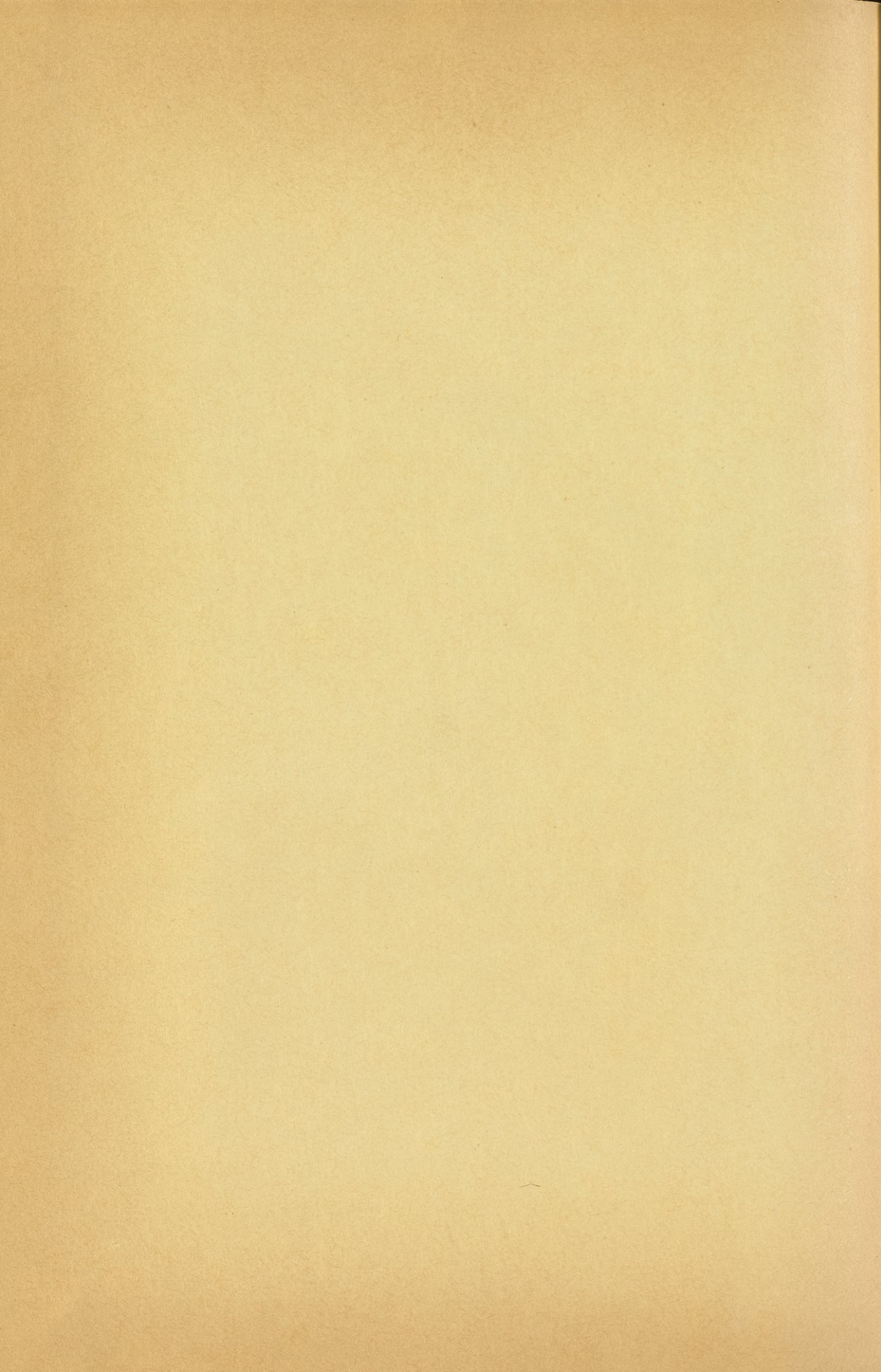
Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.

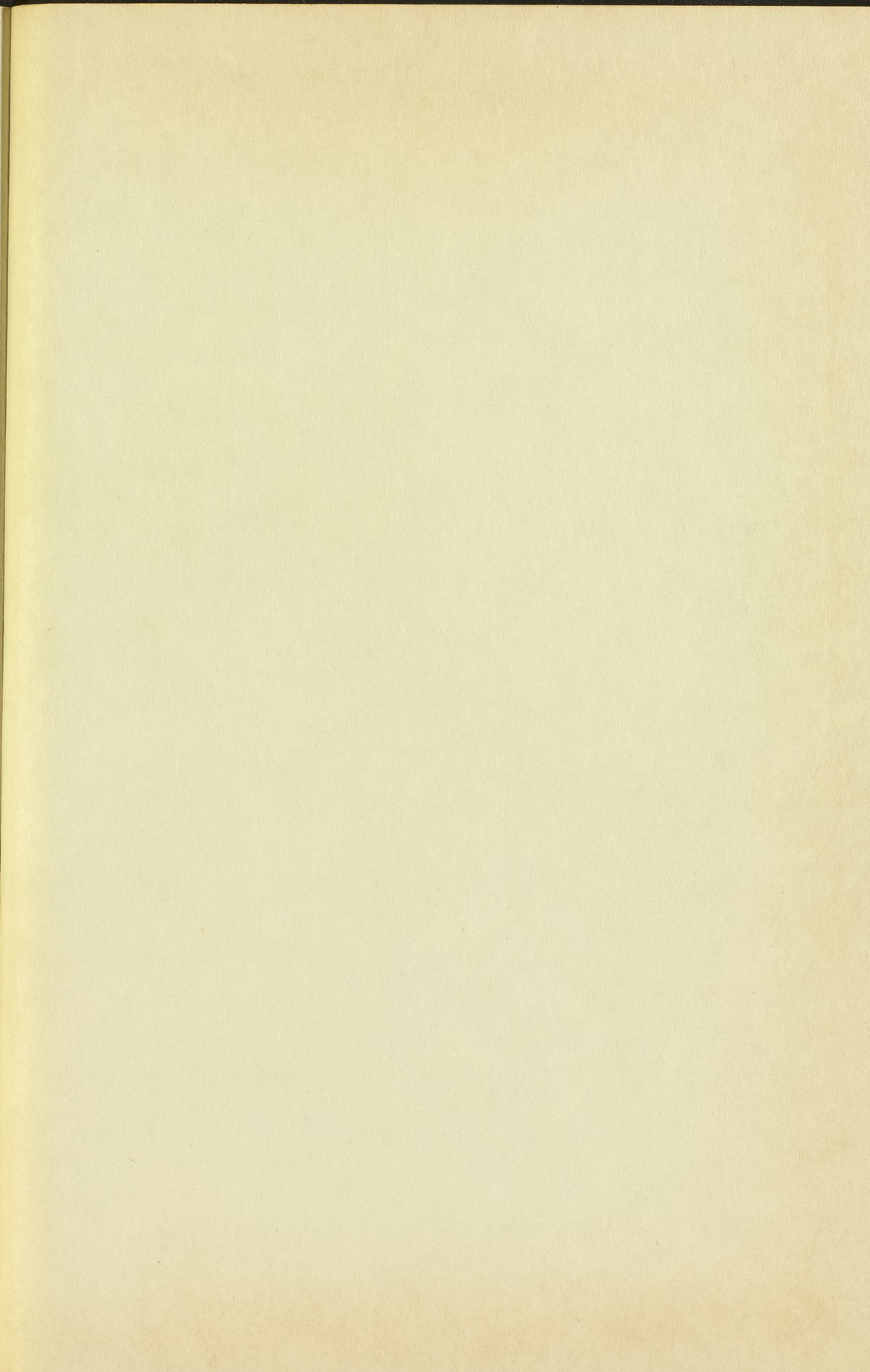
Dar Al-Makchouf

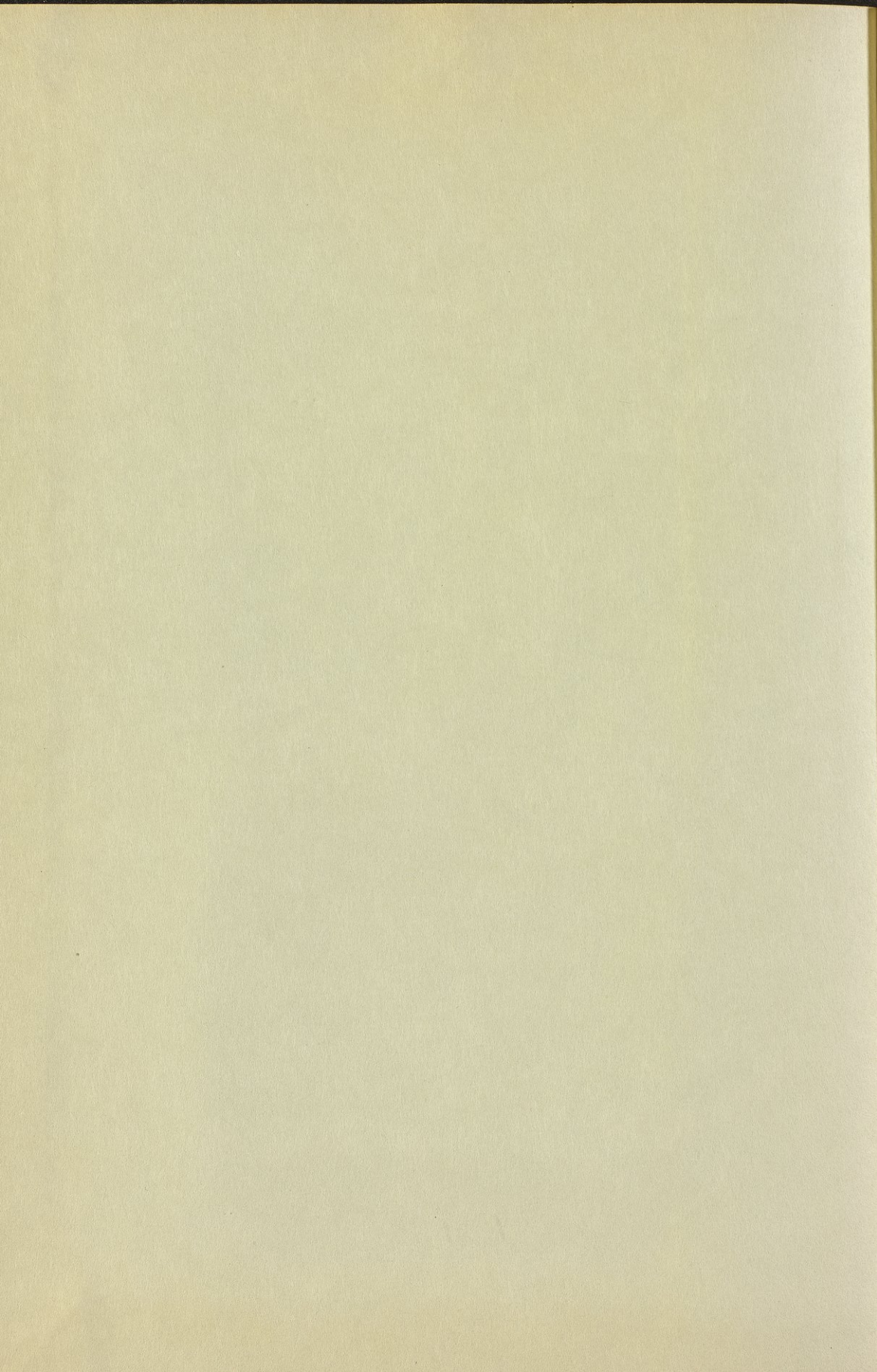
Beyrouth











COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036763160

949.5
R92
v.1

BOUND

SEP 17 1959

